الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثامن و العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 6

الجزء الثامن و العشرون‏

رسالة من صاحب تفسير «الميزان» تعريفا بتفسير الفرقان‏

من عشرات الرسائل التي وصلتنا تعريفا بتفسير الفرقان من مختلف رجالات العلم و عباقرة الفضل و التفكير و أصحاب التفسير في شتى أنحاء العالم رسالة صاحب «الميزان» الإمام الأعظم سماحة الحجة السيد محمد حسين الطباطبائي دام ظله الوارف على رؤوس المسلمين، و إليكم ترجمتها الحرفية:

فضيلة شيخنا الشيخ الدكتور محمد الصادقي المحترم دامت إفاضاته.

السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته، زرنا مجلدين من تفسيركم الشريف (الفرقان) مع كتابكم الكريم، فبعد فراق طويل بيننا بأعوام عدة، و انقطاع أخباركم عنا بزمن بعيد، يسرني أن وصلني نبأ صحتكم و توفيق سماحتكم، فحمدت ربي، و أرجو منه سبحانه أن يقرنكم دائما بالعافية و التوفيق، و أن يسدّد خطاكم، و يؤيدكم بألطافه و عناياته الخاصة.

إن تفسير «الفرقان» الشريف الذي زرته، إنه لكتاب يقرّ عيوننا، و هو سند عزنا و أصل من مفاخرنا- نحن المفسرين- إن شاء اللّه تعالى تكرس كافة طاقاتك و إمكانياتك و تبذل جميع مساعيك في مواصلة هذا الأسلوب الفريد من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 7

التفسير- أعني: تفسير القرآن بالقرآن- فلا تمل و لا تكسل و لا تفشل في هذا المشروع العظيم، خدمة للمعارف القرآنية، و كشفا للقناع عن ذخائر هذا الكتاب المكنون السماوي، و أرجو من اللّه عز اسمه لكم التوفيق و أن يؤيد سماحتكم في هذه السبيل، و السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته.

محمد حسين الطباطبائي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 8

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

.. أشكر اللّه تعالى على أن منّ عليّ بمتابعة هذا التفسير، رغم تنقلي من بلد الى بلد في هجرتي الى اللّه، حتى انتهيت الى بيت اللّه الذي وضع للناس ببكة مباركا و هدى للعالمين، فكملت هذا الجزء من «الفرقان» في أقدس مهبط لوحي القرآن مستنيرا من جوّ الوحي و التنزيل، دون أن يشغلني سائر المشاغل الهامة التي هي لزام المقام بأم القرى، و أرجو من اللّه تعالى أن يوفقني- كما عزمت- للمقام في بلد اللّه، مجاورا بيت اللّه، مجاهدا في سبيل اللّه، متوجها و موجها الى اللّه و هو حسبي و نعم الوكيل.

مكة المكرمة 20 جمادى الثانية 1397 ه. محمد الصادقي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 9

(سورة الرحمن- مكية أو مدنية- و آياتها ثمان و سبعون)

[سورة الرحمن (55): الآيات 1 الى 32]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4)

الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5) وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ (7) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9)

وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10) فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11) وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (14)

وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19)

بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ (22) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (23) وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25) كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26) وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (27) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 10

يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: «لكل شي‏ء عروس و عروس القرآن الرحمان»

«1» و انها حقا عروس القرآن، و ان كان القرآن عروسا كله، فانها عروس في رنينها و طنينها إذ تزف بموسيقى التعبير المنسق الموزون، كأنها شعر و ليس به! و عروس في حنانها و حنينها «2» إذ تشعرنا بالرحمة و العذاب و مواردهما، و عروس- جملة و تفصيلا- في ألفاظها بمعانيها.

و الرحمان هي السورة الوحيدة التي تتسمى بأشمل اسم من أسماء اللّه و يعتبر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 140 أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن علي (ع) قال سمعت النبي (ص) يقول: ...

(2) الحنان هو الرحمة و المودة، و الحنين شديد الطرب و البكاء، و كذلك الشوق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 11

بوحدته آية واحدة، ترمز الى رحمات رحمانيته و رحيميته في الاولى و الآخرة تستعرضها السورة، لمسات من الرحمتين، و إعلان عام في ساحة الكون ينطلق من الرحمان فيتجاوب به الكون كله، فالكون كله، و السورة كلها، معارض و مظاهر لآلاء الرحمان «فبأي آلاء ربكما تكذبان»؟.

الرَّحْمنُ‏:

.. انها اولى الأسماء و الصفات الإلهية بعد «اللّه» لا يسمى بها إلا اللّه إلا زورا و غرورا، فهي تشمل كافة الصفات و الأسماء الإلهية الفائضة على الخلق عامة، إذ هي أعم من الرحيم، فانها لبعض الخلق خاصة، فقد ذكرت الرحيم فيما ذكرت، قرينة برحمات خاصة، و لم تذكر الرحمان إلا عامة أو قرينة برحمات عامة، مما يؤكد تفسيرها في السنة و اللغة بالرحمة العامة، و فيما تذكر برحمة خاصة، لا تعني إلا شمولها لها، و كما تشمل سائر الرحمات لا اختصاصها بها، فهي على أية حال أشمل من الرحيم‏ «1». و من الرحمة العامة: الرحمانية، رحمة الخلق و هداية الخلق: «الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» و من الهداية ما ترجع إليهما من صالح ذاتي أو وصفي و عارضي، و قد تستعرض «الرحمن» قسما كبيرا من أقسام الرحمتين الرحمانية و الرحيمية، و من أعظمها:

«عَلَّمَ الْقُرْآنَ» تتقدم على خلق الإنسان و تعليمه البيان و خلق الأرض للأنام أم ماذا؟ رمزا الى أن القرآن هو الرحمة التي تعادل سائر الرحمات و تتقدمها، فكتب الوحي كلها تقدمات للقرآن، و خلق الكون كله بما فيه الإنس و الجان خلق لمن يتوجب عليه فهم القرآن، متذرعا كتاب التكوين آفاقيا و أنفسيا للوصول الى كتاب التدوين: القرآن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد ذكرت الرحمان 7، مرة و الرحيم 95 مرة، و

في أحاديثنا: الرحمن بجميع خلقه و الرحيم بالمؤمنين خاصة

، و كذلك في اللغة- و تجد تفصيل البحث عن الوصفين في بسملة الحمد- علنا نوفق للوصول إليها بتوفيق اللّه تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 12

و انها لنعمة كبرى و رحمة عظمى تتجلى فيها رحمة الرحمان لمن يمكنه تعلم القرآن من ملك او جن و انسان.

و ترى أن «علّم» من تعليم العلامة «1» حتى يكون القرآن مفعوله الوحيد:

أن جعل القرآن علامة لرسالة الرسول، و كرامة لمن يتعلم القرآن؟ أم من تعليم العلم، فمفعوله الأول مقدر هو كل من حمّل تعلّم القرآن، من حامل رسالته الأصيلة «2»، الى حملته الفروع، و الى عامة المرسل إليهم.

و من لطيف الأمر أن كلا التعليمين من أعظم الرحمات الإلهية، رحمة الإعجاز- القمة، و رحمة التعليم و التزكية- القمة، و الأوفق بأسلوب القرآن أن تعني «علم» كلتا القمتين.

و كما أن القرآن بين الكتب رحمة تشريعية قمة، كذلك خلق الإنسان بين الخلق رحمة تكوينية قمة:

خَلَقَ الْإِنْسانَ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ‏:

فالإنسان مخلوق في أحسن تقويم، مفضل على كثير من الخلق مهما ساواه آخرون: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (17: 70) فتخصيصه بالذكر هنا و عن الجان المشاركين إياه في تعليم القرآن، ليس إلا لأنه موجّه إليه اصالة، ثم إلى الجان كفرع من فروع الإنسان، لا لأنه فقط المكلف بذلك، أو هو المفضل على الخلق كله.

من ثم- و بعد تعليم القرآن و خلق الإنسان- يأتي دور تعليم البيان، و هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد يكون علم تفعيل علم فهو تعليم العلم، أو يكون من علم فهو تعليم العلم و العلامة.

(2)

تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا (ع) في الآية: اللّه علم محمدا القرآن،

أقول و هو من باب التفسير بأفضل المصاديق، و يناسب كذلك تعليم العلامة كما قلناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 13

الزاوية الثالثة في مثلث كيان الإنسان، بما يتطلبه من الفطرة و العقل و الفكرة، و لكي تكون مادة للبيان، و إلا فممّ و عما البيان؟! و ترى ما هو البيان؟ لكي يحتل من ميزات الإنسان قمتها! هل إنه إظهار ما في الضمير من الواقع و من الطلبات؟ فقد يشاركه الحيوان، كل مع ذوي نوعه و بحسبه، كما الإنسان مع سائر الإنسان! أو انه بيان باللسان، و بيان بالإشارة، و بيان بالقلم، و إلى سائر البيان: كافة الوسائل التي يتذرع بها ل «بيان كل ما يحتاج إليه الناس» «1» ما يحتاجه صاحب البيان أو غيره من إنسان، بيان الإفادة و الاستفادة، بيان الإحتجاج أو طلب الحجة على ما يرام، و ترى أن للحيوان هكذا بيان؟ مهما كان له إظهار لما يتطلبه بإشارة أو لسان! كلا و انه الإنسان الذي زود بكل بيان و تبيان، بأصولها و وسائلها و فصائلها و حصائلها، فكما القرآن فيه تبيان كل شي‏ء، كذلك الإنسان، فله أن يتبين من القرآن كل شي‏ء، ثم يبين على ضوئه كل شي‏ء، تجاوب كتابي التكوين و التدوين: الإنسان و القرآن! فإنسان القرآن هو مجمع الكتابين و مرج البحرين، فيا له من إنسان عالي الكيان! فقد منح من الوسائل بما لم يزود به سائر الحيوان، إضافة إلى أن ضميره يفوق سائر الضمائر! فبيانه- إذا- يفوق سائر البيان! و هكذا بيان عن هكذا ضمير هو الذي يميّزه عن سواه فيمتاز على سائر الحيوان.

ترى لو لم يكن للإنسان بيان أ كان إنسانا كما الآن؟ فدور البيان- إذا- دور أعظم كيان، به يتعلم و به يعلّم، به يحتج و به يحتج له أو عليه، به يتكامل و به يكمل، ثم وكل وسيلة من وسائل البيان، قلما و لسانا و سواه، يتطلب كتابا ضخما بدراسة فخمة، علّها توضّح طرفا من أطرافه‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا في تفسير «عَلَّمَهُ الْبَيانَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 14

ترى لو لا أن‏ «الرَّحْمنُ‏ .. عَلَّمَهُ الْبَيانَ» من أين كان له هذه النعمة القمة السابغة، السابقة سائر النعم، الحاوية كافة القيم؟

لنأخذ مثالا ساذجا من وسائل البيان: اللسان و ما معه من جهازات الصوت، عضلانيا و شعوريا: ينتقل شعور ضرورة أو رجحان الإفادة أو الاستفادة من القلب و زملائه إلى الجهازات الصوتية، فتطرد الرئة، ما تحتاجه الكلمة من الهواء المخزّنة فيها، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة و حبالها الصوتية العجيبة المحيرة للعقول، فيصوت الهواء في الحنجرة صوتا تشكله حسبما قرره الإنسان و كيفما قرر: سرعة و بطؤ ام ماذا؟ و مع الحنجرة اللسان و الشفتان و الفلك و الأسنان، يمر بها الصوت، فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة، و في اللسان خاصة يمرّ كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع خاص، يتم فيه ضغطه، ليصوت الحرف بجرس خاص .. و ذلك كله كلمة واحدة وراءها و معها جنود الأفكار و المشاعر و الضمائر و الإحساسات، عوالم غريبة و كلها من فضل الرحمن الذي‏ «عَلَّمَهُ الْبَيانَ»! الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ‏:

هذان السراجان- سراج النهار و سراج الليل- انهما كسائر الكون بحسبان:

يصاحبهما حسبان من الرحمان منذ كان لهما كيان و يكون: «فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً» (6: 96) ترى أن الحسبان هنا هو الحساب: فهما مخلوقان بحساب، و مجريان بحساب، و يعرف بهما الحساب:

«وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ» (10: 5) ام إنهما في جحيم العقاب كما يرسل الحسبان على من يستحق العذاب: «فَعَسى‏ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ» (18: 40) و كيف يعذبان؟ و هما كوكبان طائعان لأمر الرحمان! و بما ذا يعذبان؟ اللهم إلا في تأويل يتيم بجانب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 15

أسلوب القرآن‏ «1».

الجواب: ان الحسبان هو الحساب أيا كان، أفي إرسال العذاب على أهله، فحسبانه انه بقدر و حساب دون فوضى، أو في سراجي الليل و النهار، ففي خلقهما و جريهما، و لآخر المطاف في وقفتهما و رجعتهما عند قيامتهما، فإنهما في كل ذلك بحسبان و ميزان‏ «أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ»! ثم ترى ألم تكن في السماء شمس أكبر و أضوء من هذه، أو قمر أنور من هذا؟ فاختصا لذلك بالذكر من بين الشموس و الأقمار؟

أجل ان هناك شموسا و أقمارا أكبر منهما بكثير و أنور و أحرّ، و لكنهما أعرف نجمين و أهمهما بالنسبة لنا: سكنة الأرض- من حيث الفوائد الظاهرة.

فالشعرى اليمانية- كما سبقت- هي أثقل من شمسنا بعشرين ضعفا، و نورها خمسون ضعفا، و حجم السماك الرامح ثمانون ضعفا، و نوره ثمانية آلاف ضعف و سهيل أقوى من الشمس بألفين .. ام ماذا؟ و كما هناك أقمار و أقمار!.

فهذان الكوكبان- كسائر الكواكب و سائر الكون- إنهما بحسبان: في خلقهما و حجمهما و وزنهما و نورهما و حرارتهما و سيرهما و وقفتهما، في بعدهما عنا، و في الخسوف و الكسوف، و في كيانهما ككلّ كما هما.

فالذي يصلنا من حرارة الشمس ليس إلا جزء من مليوني جزء من حرارتها فلو زادت لاختنقت الأرض أو احترقت، أو لو نقصت لبردت أو تجمدت، و على التقديرين استحالت عليها الحياة أو صعبت .. و هكذا القمر و سائر النجوم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي في تفسيره عن الحسن بن خالد عن الإمام الرضا (ع) في الآية: قال: يعذبان قلت: الشمس و القمر يعذبان؟ قال: سألت عن شي‏ء فأتقنه، ان الشمس و القمر آيتان من آيات اللّه تجريان بأمره مطيعان له، ضوءهما من نور عرشه و حرهما من جهنم، فإذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما، و عاد إلى النار حرهما، فلا يكون شمس و لا قمر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 16

و الشموس و الأقمار و سائر الكون: «الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ» و الكون كله بحسبان‏ «أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ» .. «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟! وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ‏:

و كونهما يسجدان هو كذلك بحسبان، كما الكون كله يشاركهما في هذا السجود الحسبان: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ» (16: 49) سجود التسبيح بالشعور المرموز: «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) فليس التسبيح التكويني اللااختياري، و لا القولي و العملي الاختياري، إنهما ليسا مما لا نفقهه، اللهم إلا ما لا نفقهه من الشعوري المرموز!.

و ترى النجم هنا هل هو نجم السماء: الكوكب الطالع، و هو المقصود في سائر نجوم القرآن، أو من المقصود؟ كما و أن الشمس و القمر هنا تشيران إليه، إذا فما ألطفه نزولا من السماء الى الأرض، من طالع السماء الى طالع الأرض! و ما أجمله رباطا بينهما، يعني- فيما يعني معهما- ما بينهما من طالع و غارب، من زائد و عازب: ان السماء و ما ينجم فيها، و الأرض و ما ينجم عليها، انهما و ما بينهما يسجدان!.

أو أن النجم هنا ما نجم من النبات دون ثبات‏ «1»، و جاه الشجر النابت على ثبات، رمزا الى أن غير الثابتات من الكائنات و الثابتات، انها كلها للّه ساجدات، فمحراب الكون لا تخلو منه كائنة إلا ساجدة، ثم و من سجود النبات نجما و شجرا، ما يظهر عليها من آثار صنعة الصانع الحكيم، و المقدر العليم، بالتنقل من حال الاطلاع الى حال الإيناع، و من حال الإيراق الى حال الإثمار،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لسان العرب: قد خص بالنجم من النبات ما لا يقوم على ساق كما خص القائم على الساق منه بالشجر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 17

غير متمنعة على المعرّف، و لا ممتنعة على المدبر، ثم و ذلك كله- او من ذلك- ما هو عن شعور التسبيح: «وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ»! و في تقديم النجم على الشجر في السجود إشارة الى تقدمه عليه في ظاهر السجود، فيما النجم هو النبات المنبسط على الأرض، فكله رأس و كله سجود، مهما كان الشجر ساجدا بعروقه و سوقه الناعمة، فان أصل الساق قائم و ان كان قيامه أيضا سجودا فانه قيام بأمر الرحمان!.

فهل تعني هذه الآية، اليتيمة في نجمها، ما لا تعنيه آيات النجوم كلها «1»؟

و دون أية قرينة فيها! اللهم إلا قرينة الشجر؟ كلا! فعل الجمع أرفق، و بالتدليل على السجدة الشاملة أوفق، و قد تتحمله الآية دون تحميل، كما و تتحمله اللغة:

فالنجم يشمل كل ناجم و طالع، و طلوع كل شي‏ء بحسبه.

وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ‏:

ان رفع السماء يوحي بأنها كانت سماء من ذي قبل ثم رفعت، ترى انها كانت سماء خافضة فرفعت و السماء هي جهة العلو؟ فكيف كانت سماء إذا؟ ثم ترى الى أين رفعت؟ و على م؟ و بم؟.

السماء هذه- قبل رفعها- هي الدخان الغاز، حصيلة تفجرة المادة الام:

«ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ ..» (41: 12) و كان الغاز هذا في المادة الام ففتقها اللّه فانفتقت أرضا هي زبد الأرض الام: مادة الأرضين السبع، و انفتقت غازا هي السماء الام:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إذ ليس في القرآن آية يتحمل النجم فيها ما ينجم من النبات إلا هذه، و آيات النجوم اثني عشر آية.

(الفرقان- 2)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 18

«أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما ..» (21: 35) فالمادة الام هي المرتوقة، ثم السماء الام و أرضها هما المفتوقتان عن الام، ثم و للسماء رفعان، رفع الدخان الام، المتصاعد الى أعماق الفضاء بعد تفجرة المادة الاولى، و رفع الطبقات السبع، كل فوق بعض، و عل‏ «السَّماءَ رَفَعَها» تعنيهما، فلا تعني السماء جهة العلوّ فقط لكي تنافي خفضها قبل رفعها، و إنما الغاز التي هي مادة السماء، و الجهات و الفضاءات العلوية هي أمكنة السماوات، و قد رفعت إليها، و كما أن كل سماء مرفوعة على ما تحتها، كذلك السماوات مرفوعة على ما تحتها من كرات و منها الأرضون بما فيها أرضنا، ثم و هي كلها مرفوعة بعمد و لكن لا ترونها: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» (13: 2) «1».

فاللّه رفع السماء، هذا الفضاء السامق الهائل الذي لا تبدو له حدود، و علق عليها مليارات القناديل، السيارات منها و الثابتات، و لو لا التقدير و الميزان الموضوع في أقدارها و حركاتها لانفلتت فأفلتت الكائنات عن مسيراتها و مصيراتها، و لكن الرحمان:

وَضَعَ الْمِيزانَ‏: وضعا هو رفع لما له الميزان، ميزان أنزله الرحمان:

«اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ» (42: 17) ميزان علم القرآن و سائر الميزان: وضعه في التكوين و في التشريع، في السماء و الأرض، للآخرة و الاولى، ميزان الكيان و الرباط بسائر الكون، ميزان العقل و العدل الذي تستقيم به الأمور، و يعتدل عليه الجمهور: الانس و الجان، و كذلك سائر الميزان: ميزان الدليل: القرآن و نبي القرآن و خلفاءه المعصومون‏ «2» و العلماء الربانيون، و ميزان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة النازعات ص 86- 88، و سورة الأنبياء في آية الفتق، و سورة فصلت الآيات 9- 12.

(2)

في تفسير القمي عن الحسين بن خالد عن الامام الرضا (ع) في حديث: «الميزان أمير المؤمنين (ع) نصبه لخلقه- ألا تطغوا في الميزان: لا تعصوا الامام- و أقيموا الوزن بالقسط:

أقيموا الامام بالعدل، و لا تخسروا الميزان: لا تبخسوا الامام حقه و لا تظلموه ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 19

المدلول: العدل في كافة زوايا الكون و حواياه، فلو لا الميزان لم يبق لأي كائن كيان، و لا للأنس و الجان، فليدرس الإنسان:

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ. وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ‏:

«وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» (57: 25):

فلندرس من كتابي التكوين و التدوين درسا في طغوى الميزان: سلبا: «أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ» و إيجابا في تقواه: «وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ».

فتقوى الميزان هي الحساب العدل به و فيه، و طغواه هي الفوضى اللاحساب، و ليس ميزان البيع فقط، بل سائر القيم و الموازين في سائر جوانب الحياة بمتطلباتها و منها موازين المعاملات.

فهنا إقامة للوزن بالقسط العدل هي تقواه، و تخسير للميزان بالقسط اللاعدل، هو طغواه، بما لهما من درجات و دركات، فالحق في الأرض و في حياة البشر مربوط ببناء الكون، و مدروس عن ميزان الكون، فكما الفوضى في وزن سائر الكون تفضي الى القضاء على الكون، أو شلّ عجلته و دورانه، كذلك الفوضى في ميزان حياة الإنسان تشل دوران حياته كإنسان، و تخسره ما فضل به على سائر الحيوان و أضل سبيلا.

و ترى أن «الميزان» في هذا المثلث‏ «1» بمعنى؟ كلا! فالأول هو معيار الوزن تكوينا و تشريعا، و الثاني ما يمكن فيه الطغيان، من ميزان التشريع تهريفا و تحريفا، أو خلافا و عصيانا، فميزان التكوين لا يقبل الطغيان، اللهم إلا ما فيه خيار للإنسان، و الثالث هو الذي يقبل الإخسار من الميزان، وزنا و موزونا و معيارا، اللهم إلا في معيار المعاملات، حيث الإخسار لا يتجه إلى آلة الوزن،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 1- وضع الميزان 2- ألا تطغوا في الميزان 3- و لا تخسروا الميزان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 20

فقد يحدد كل ميزان بالحد الذي تحدده قرائنه: وزنا و معيارا و موزونا، جمعا و تفريقا، جملة و تفصيلا.

ثم الميزان- أي ميزان- في الأرض، لانسانها و جانها، انه مأخوذ من ميزان السماء، فحساباتها الجسمانية مأخوذة عن مدارات الشمس، و الروحانية منها تؤخذ عن شموس التشاريع السماوية «أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ»!.

وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ‏:

ترى أن الأنام هنا- و لا توجد في سواها- هي الإنسان كما قد يرام؟ و ليس وضع الأرض حاصرا فيهم، و الأرض هنا محصور للأنام‏ «1»! و قد خلق قبلهم الجان: «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ» (15: 27) فقد كانت الأرض لهم قبل أن تكون للإنسان! اللهم إلا أن يعنى به جنس الإنس بأنساله، و المخلوق بعد الجن هو النسل الأخير، إلا أنه لا يختص به خلق الأرض و له مشارك فيها و في التكليف سواء، حتى و لو خلق قبل الجن! اللهم إلا اختصاص التشريف ك «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (2: 29) و لكنها تختلف عن آية الأنام الحاصرة لهم وضع الأرض! اللهم إلا في تشريف مستغرق، يدمج سائر مشاركيه فيه، إلا أن «كما» في آية الآلاء تصريحة بشمول الأنام للإنس و الجان، فليس للجان ذكر مسبق على آيتها الاولى، إلا أن تعنيه الأنام قبلها، فلتشملها الأنام.

ثم و هل تشمل كل دابة، أو كل حي من طائر و سابح و دابب؟ قد يكون و كما تصدقه اللغة «2» و لكنما الفاكهة و النخل و الرمان لا تناسب إلا الانس و الجان،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تقديم المفعول (الأرض) يوحي بالحصر، بخلاف آية الانتفاع.

(2) كما عن ابن عباس انه الجن، و قال انه: الخلق، و لما سئل عن الدليل استشهد بهذا الشعر:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فان تسألينا مم نحن فاننا |  | عصافير من هذا الأنام المسخر |

و قال أيضا: كل شي‏ء يدب على الأرض، و قال: كل شي‏ء فيه الروح (الدر المنثور 6: 141).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 21

و كما الامتنان في وضع الأرض و سواها خصهما: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» فليكن الأنام هو الانس و الجان، فتعميمه لغيرهما غير فصيح، كما اختصاصه بالانس غير صحيح، و ما دامت تعمه و غيره لغويا و سواه فلتكن، و إلا فلما ذا لم يأت باسم الإنسان لو كان هو المخصوص كما في خلقه من صلصال كالفخار؟:

«خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ».

و يا لوضع الأرض لنا مهادا و قرارا، من نعمة سابغة لا ندركها، اللهم إلا حين يثير زلزال، أو يحير طوفان، أو يثور بركان، فقد نشعر و نفكر في مدى عظيم النعمة لوضع الأرض لنا قرارا، و جعل هذه المجنونة الفرار لنا ذلولا، فما هي إلا هباءة سائحة سابحة في بحار الأجواء الواسعة لو لا وضعها العادل في حركاتها و بركاتها لساخت بأهلها الى دركاتها: «و عدل حركتها بالراسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب الشم من صياخيد فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو أن تسنح بحملها ...».

فهي محمولة بعمد لا ترونها، في جادة فضائية، جادّة في سيرها، لو لا رحمة الرحمان لا نكفأ بنا الى الأعماق فلم يبق منا باق، فسبحان الذي جعل الأرض للأنام:

فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ. وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ‏:

الفاكهة ما تطيب به النفس و تستأنس من المأكول، و اختصت بما تثمره نبات الأرض، كما الفكاهة حديث ذوي الانس.

و اختصاص النخل بالذكر بين سائر الفاكهة، لأنها قوت على كونها فاكهة، و من أفضل القوت و أفضل الفاكهة، في حالتي اليبوسة و الطراوة، في حين أن سائر الفاكهة ليست قوتا إلا قليلا كالعنب و الجوز، كما و أن الحب- الشامل لسائر الحبوب- هي أفضل من النخل و من الفاكهة، فمثلث النعيم هذا يختلف في زواياها، من الأدنى الى الأرقى: فاكهة- نخل- حب، على أن للأولين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 22

فضلهما من حيث الفاكهة، فلا تفكّه في الحب إلا القوت، و من الصعب الاكتفاء بالقوت بلا فاكهة، كما من المحال المعاكسة: الاكتفاء بالفاكهة دون قوت، اللهم إلا في النخل التي تجمعها، لفترة غير بعيدة من الزمن.

و بعد هذه يأتي دور الريحان، النابتات ذوات الروائح الطيبة الريحانية، التي تصاحب القوت و الفاكهة، و قد تكون الفاكهة ريحانا، كما القوت قد تكون ريحانا.

و من فضل النخل أنها ذات الأكمام: جمع الكمّ- ضما و كسرا-: ما تغطي الثمرة، كما الكم ما يغطي اليدين، و الكمة ما يغطي الرأس، فالثمرة المكمومة: المحفوظة عن الفضاء و غباراتها و تأثيراتها، انها أبعد من الفساد، ثم و في أكمام النخل من ليفها و لحاها فوائد، حتى و في نواتها أكل للإنسان و سائر الحيوان.

كما و أن في عصف الحب: ورقه و تبنه، فيها فوائد جمة، أكلا و سواه.

فهذه و تلك طرف من نعم الرحمان على الإنس و الجان:

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

و ترى أية منة على الجان في أن خلق اللّه الإنسان و علمه البيان، مهما كانت المنة تشملهم في تعليم القرآن و سواه من النعيم المعدودة مسبقا؟.

الجواب: لو لا الإنسان و تعليمه البيان لما استطاع الجان أن يتعلموا القرآن فانه نزل على رسول الانس، و من ثم و بواسطته إلى رسل الجان فإليهم، فخلق الإنسان و تعليمه البيان و القرآن نعمة كبيرة على الجان: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»:

و هي آية عديمة النظير، تتكرر في هذه السورة فقط إحدى و ثلاثين مرة، في طيات ذكريات النعم التي منحها الإنس و الجان، تلقي على السورة كلها لونا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 23

من الشعرية المنثورة، رغم أن القرآن ليس شعرا، بل و لا نثرا فيما نعرف، إنه كلام اللّه خارجا عن الشعر و النثر في ألفاظه، كما هو خارج عما عرفه الإنسان في معانيه.

و الاستفهام في الآية بالنسبة للثقلين للتنديد و التخجيل، و بالنسبة لآلاء الرب للتجليل، فآلاء الرب و نعمه ظاهرة فيها ربوبيته، باهرة رحمته، إلا النعم التي نبدلها نحن نقما و كفرا: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ» (14: 28) «وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» (2: 211).

إن تكذيب النعمة دركات، كما و أن تصديقها درجات: جوانح و جوارح و أعمالا، و الدرك الأسفل من تكذيبها أن تشارك فيه الثلاث: قولا و قلبا و قالبا، و الدرج الأعلى من تصديقها مثلث التصديق، و بينهما في كل منهما متوسطات.

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ. وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

إن خلق الإنس و الجان هو النعمة القمة لهما، كأصل للقاعدة لسائر النعم التي تتواتر لهما، فما هو صلصال، و ما هو مارج من نار؟

الصلصال هو الطين اليابس المنتن الذي يتردد منه الصوت إذا وطئ: «إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (15: 28): طين أسود منتن‏ «إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ» (37: 11): شديد الثبوت، فطين الإنسان صلصال من حماء مسنون لازب: طين أسود نتن لازق كالفخار: الطين المطبوخ بالنار:

الخزف، و هذا هو مخمر الطين و خالصه، كما الإنسان هو خالص الكون الترابي، و هذا يرمي إلى صنع أول إنسان، فإن نسله ليسوا من هكذا طين: و الترتيب الخلقي أنه كان ترابا، ثم طينا، ثم حمأ مسنونا لازبا، ثم صلصالا كالفخار.

«وَ خَلَقَ الْجَانَّ» أصل الجان، دون الأنسال الذرية المخلوقة من إنساله:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 24

«أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ» (18: 50) .. خلقه‏ «مِنْ مارِجٍ»: قلق مازج‏ «مِنْ نارٍ» .. «وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ» (32: 7) فالمرج أصله الخلط و المزج، من مرج، و المرج هو القلق و الاضطراب من مرج:

«بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ» (50: 5)، و الهرج و المرج بمعنى، و مرجه هو المرج، سكنت ازدواجا للكلام، فالمارج من نار هو القلق منها «1»: اللهيب المنطلق عنها المازج، الخليط من نار: خليط من مختلف لهيبها بألوانها: أحمر و أصفر و أخضر «2» و علّه الى سائر ألوانها التي اكتشف العلم عن سبحة منها، أم ماذا! و خليط بسموم، لأنه مخلوق‏ «مِنْ نارِ السَّمُومِ»:

التي تلتهب من سمّ قوي، إذا فأصل الجن من مارج: قلق مازج، من نار السموم‏ «3»: السم الفاتك عند اشتعاله، و علّه مختلف السمّ أو قويه أم ماذا.

و ترى لو خلق الجان من النور بدلا عن النار، أو خلق الإنسان من تراب طيب بدلا عن الصلصال كالفخار، أما كان أحسن آلاء و أقل بلاء؟ فكيف يمتنّ اللّه على الإنسان و الجان في خلقهما مما خلقا؟!.

الجواب: أنه أعلم بما خلق و مما خلق، فلو لا النار لم يكن الجان جانا و إنما ملكا، و لو لا الصلصال الحمأ المسنون اللازب لم يكن الإنسان إنسانا و إنما كائنا آخر، فخلق كلّ كما هو الآن- بما يحملان من إعدادات و استعدادات-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الحديث عنه (ص): كيف أنتم إذا مرج الدين فظهرت الرغبة و اختلف الاخوان و حرق البيت العتيق،

و في آخر عنه (ص): كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم و أماناتهم.

(2) الدر المنثور 6: 141 عن مجاهد في‏ «مارِجٍ مِنْ نارٍ» قال: اللهب الأصفر و الأخضر الذي يعلوا النار إذا أوقدت، و عن سعيد بن جبير: الخضرة التي تقطع من النار السوداء الذي يكون بين النار و بين الدخان.

(3) إنما فسرنا المارج بالمعنيين، لأنه لو أريد أحدهما فحسب لجي‏ء بأحدهما فحسب: خليط أو قلق، فذكر المارج دليل على قصدهما معا، و لأنه عني منه القلق و هو لازم، فلا يعني من مزجه المتعدي، حتى يفسر بنار مزجت غيرها بشي‏ء، و إنما لازمه الذي هو الانمزاج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 25

محصور في المادتين ليس إلا، فمن عظيم آلاءه للإنسان أنه خلقه من طين نتن فجعله في أحسن تقويم، و للجان أنه خلقه من نار السموم، و جعله يتلو الإنسان في التقويم!. «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟.

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

فمن آلاء الرحمان ربوبيته الوحيدة للمشرقين و المغربين، فإن كثرتها فوضى تضاد: «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا» كما أن ثبات الشارقات و الغاربات دمار للكائنات.

ثم المشرقان و المغربان هنا تجمعان مشرق الشمس و القمر و مغربهما: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما» (26: 28) و مشرق الشمس و مغربها، مع مشرق سائر الشوارق و مغربها، و مشرق كلّ مع زميله: الجهة الفرعية شمالا و جنوبا، و مغرب كلّ كذلك، و أعلى المشارق و المغارب صيفا و أدناهما شتاء، في غاية ارتفاع الشمس و انخفاضها: «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ» (70: 40) «1» فآيات المشرق و المغرب تتجاوب، إفرادا و تثنية و جمعا، دون تنافر و تناحر.

ثم من آلاء الرب في مشرقي الصيف و الشتاء و مغربيهما أن الفصول الأربعة مترتبة عليهما، و تتبعه تقلب الهواء و تنوعها، و ما يليها من مطر و شجر و نبات.

كما و أن من الآلاء الأربع رباعية التدبير، و ما إليها من آلاء في المشرقين و المغربين نحن نجهلها، لو اختل شي‏ء منها لاختلت الحياة أو استحالت أو حولت مماتا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ» المعارج ج 29 ص 140.

و

في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل و فيه‏: و أما قوله‏ «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ» فان مشرق الشتاء على حده و مشرق الصيف على حده. أما تعرف ذلك من قرب الشمس و بعدها، و أما قوله: «بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ» فان لها ثلاثة و ستين برجا تطلع كل يوم من برج و تغيب في برج فلا تعود اليه إلا من قابل في ذلك اليوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 26

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ. بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

المرج هو القلق و هو الإرسال، و هو المزج‏ «1» و هنا الإرسال و المزج، فلو كان أحدهما المقصود لجي‏ء به، لا المرج الجامع لهما، مرج الإرسال التقاء دون مزج و تداخل، و مرج اللقاء دون تفاعل، اللهم إلا في غير بغي.

و من البحرين الممزوجين بحر الأرض و بحر السماء، إذ يمزج من أبخرة الأرض بمياه السماء و بخاراتها، كما يمزج من مياه السماء ببحار الأرض، و قد يروى عن علي عليه السلام‏ «2» كما و منهما بحر العذب و الملح الأرضيين، و قد يجمعهما: «وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً» (25: 53) حجر محجور عن بصر العين و بصيرة العلم و حتى الآن، حجر حاجز بينهما عن التباغي رغم التلاقي: «وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً» (27: 61).

و ترى ما هو هذا الحجر الحاجز البرزخ في البحرين الأرضيين؟ ليس لنا أن نهرف بما لا نعرف! إلا أن البرزخ توحي بأنه ليس من العذب الفرات و لا الملح الأجاج، و إنما برزخ بين الماءين، فهل هو ماء بعد؟ قد يكون! و لكنه محجور عن الرؤية، فليكن أخف من المياه التي نعرفها، مختلفة عنها تراكيبه، بجزئياته، فرقته و دقته بحيث لا يرى!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الإرسال من معانيها الثانوية كما يقال: مرج الدابة يمرجها إذا أرسلها ترعى في المرج:

المرعى.

و المزج هو معناها الأصيل و ليس هنا القلق، من المكسور العين، و هنا هي من المفتوح العين، إضافة الى كونه لازما و المرج هنا متعد.

(2)

قرب الاسناد للحميري عنه (ع) في آية المرج و اللؤلؤ و المرجان: من السماء و من ماء البحر،

و تتمة الحديث تأتي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 27

ثم الحاجز بين الأرضي و السماوي أن يبغيا هو تقدير الرحمان، المحجور عن الإنس و الجان! و أما الحاجز بين البحر الأرضي و الأنهار فليس محجورا لا عن البصائر و لا الأبصار، فإنه علو الأنهار على البحار و اختلاف أماكنها.

فقد مرج البحرين: أرسلهما طاميين، و أمارهما مائعين، فهما يلتقيان بمقاربة مقارفة المرج المزج، و ليست بالمزج، و إنما ضمّن المرج هنا معنى المزج لأنهما أرسلا رسلهما الرامي إلى مزجهما، الواقع بدوافعه تماما لو لا الحجر المحجور، و البرزخ الحاجز، الذي يمنعهما عن الانخراط، و يصد كلا منهما عن الانفراط، فلا يبغي أحدهما على الآخر فيقلبه إلى صفته، أو ينقصه عن حدته، لا الملح الأجاج على العذب الفرات، و لا العذب على الملح الأجاج، اللهم إلا في مرج المزج غير الباغي، كما يمزج ماء البحار بمياه الأنهار، بعد ما يصبح بخارا و أمطارا، و يمزج مياه العيون و الأنهار بمياه البحار إذ تصب فيها، و لكنه مرج و مزج بحساب و ميزان، إذ يأخذ كل قدر ما يعطي، دون بخس في المكيال و لا إخسار في الميزان، و هذا أيضا من الحاجز بينهما، كما الحاجز بين مياه البحر و الأنهار، إلا أنه حجر غير محجور.

و لو لا الحاجز بين البحرين: بين العذب و المالح في البحر، و بين البحار المالحة و الأنهار العذبة، و بين التفاعلات عبر التبدلات، لبحر الأرض و السماء، لولاه لتعطلت الحياة أو استحالت، فالملح الأجاج الذي يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ضرورة لتطهيرها بجوها و إفساحها المجال للحياة من حيوان البحر و سواه، و العذب المدخر في مخازن الأرض، و الساري في مساريها، و الكائن في البحار أيضا كعروق أو أنهار «1» ضرورة للشرب و الإنبات، كل على قدره.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، و كما تجعل دجلة البحر بحرين، كذلك هو و سائر البحر بحران، الأولان مالحان، و الآخران مالح هو المالحان، و عذب هو دجلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 28

و البحران- كما أشرنا- يعمان ماءي الأرض جمعاء، سواء مياه البحار بعضهما مع بعض أو ماءي بحر واحد، أو البحار و الأنهار في الأرض، أو ما يتبدل بخارا من البحار فإلى الأنهار، و من الأنهار تسيل إلى البحار، إلا أن الحجر المحجور لا يساعد بحري البحار و الأنهار أرضا، فإن الحاجز بينهما محسوس هو علو الأنهار و اختلاف أمكنتها عن أماكن البحار، و أما البحر الواحد المتواجد فيه الماءان دون مزج فلا حاجز بينهما ملموسا، و يتلوه الحاجز المانع عن تغلب أحدهما على الآخر في غير الواحد، كما في الأمطار من البخار، و الأنهار السائلة في البحار، فرغم المرج المزج لا تغلب للبعض على البعض.

و ترى كيف يعبر عن البحر الواحد الحاوي للماءين بالبحرين؟ لأن أهم شروط التعدد اختلاف المائين، و قد يكون بحران في مكانين و ماءهما من سنخ واحد، فأحرى أن يكون بحران و هناك ماءان و إن في مكان واحد.

ففي مرج البحرين، أي بحرين، و بأي مرج، إرسالا و مزجا، و في جعل برزخ بينهما، أي برزخ، ان فيها آلاء من الرحمان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

ترى أن اللؤلؤ و المرجان اللذين تجمعهما الحلية البحرية، هما يخرجان من العذب الفرات كما من الملح الأجاج؟ و المعروف خروج اللؤلؤ من المالح! تجيبك الآية نفسها: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا» و اخرى نظيرتها: «وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ..» (35: 12) و ما هي قيمة العرف الهارف غير العارف، بجنب الخلّاق العليم! و لقد عرف العلم أخيرا نكر ذلك العرف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 29

الخاطئ مصدقا القرآن في خروج اللؤلؤ و المرجان من البحرين: عذبا و مالحا «1» و كما يخرج من أحدهما: المالح، بسبب العذب: بحر السماء.

و هما، و لا سيما اللؤلؤ أفخر حلية تلبس، و هي من لباس الجنة: «يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً» (35: 33) و هي من أجمل الجمال إذ الغلمان المخلدون بها يشبّهون: «إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً» (76: 19).

و ترى ما هو أصل اللؤلؤ و المرجان و كيف يخرجان؟ انهما أعجب حيوانين بحريين و أجملهما! فاللؤلؤ حيوان صغير، يهبط إلى أعماق البحر، لتقيه من الأخطار، و هو داخل صدفة من المواد الجيرية، و يختلف عن سائر الكائنات الحية في تركيبه و طريقة معيشته، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد، عجيبة النسج، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء و الهواء و الغذاء الى جوفه، و تحول بين الرمال و الحصى و غيرها، و تحت الشبكة أفواه الحيوان، و لكل فم أربع شفاه، فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة حصى، أو حيوان ضار عنوة الى الصدفة، سارع الحيوان الى إفراز مادة لزجة يغطيها بها، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة! و على حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤ» «2».

«و لها صنوف عدة، فأجمل نوع منها ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة، و الحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما، و يوجد منها نحو ثلاثين نوعا .. و اللؤلؤ اللطيف الشكل، الجميل الماء هو ما يسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي، ذو قيمة تجارية هائلة، و أغلاه ما كان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الجواهر ج 24 ص 26 ينقل عن مجلة «السياسة الاسبوعية» المصرية 27 رمضان 1344 ه. 1 أبريل 1926 ما يلي: «يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحاربة التي تعيش في الماء العذب أو في الماء الملح، و كانت لآلئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين، و هي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أميركا و الصين و غيرها ..».

(2) نقلا عن كتاب «اللّه يتجلى في عصر العلم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 30

جميل الماء، كروي الشكل، و تختلف ألوانه من: أبيض و رمادي و وردي و أخضر و أصفر و أسود و أزرق» «1».

و من أروع ألوان تكون اللؤلؤ ما

يروى عن علي عليه السلام البحران هما: «من السماء و من ماء البحر، فإذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها في البحر فيقع فيها من ماء المطر فتخلق اللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة، و اللؤلؤة الكبيرة من القطرة الكبيرة»

«2» إذا «يَخْرُجُ مِنْهُمَا» تعم الخروج من كل واحد منهما كما في بحري الأرض، و الخروج من أحدهما بسبب الآخر كما من ماء البحر بسبب ماء السماء، ف «من» هنا تعم السببية و النشوية التبعيضية.

ثم اللؤلؤ لؤلؤان، ما يصنعه الرحمن دون صنع من الإنسان و ما يصنعه أو يولده الإنسان بفضل العلم الذي منحه اللّه‏ «3» فهذه أيضا من منن الرحمان أن أخرج له اللؤلؤ في مختلف الألوان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

«و المرجان يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار و ثلاثمائة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ينقله الطنطاوي عن مجلة السياسة الاسبوعية.

(2) قرب الاسناد للحميري عنه (ع) في الآية «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ».

(3) فاللؤلؤ المولد أن يدخل في كل من المحار هنة صغيرة كالتي تدخل في الخلقية، و لكنه بحاجة الى زمان طويل كالذي تقتضيه الخلقي، لذلك يدخلون في جوف المحار هنة كبيرة تتكون حولها اللؤلؤ سريعا على مقدار كبر حجمها.

«و اللؤلؤ الصناعي اكتشفه رجل فرنسي (165 م): جاكون، كان يغسل نوعا من السمك في ماء عذب فرأى في غالته لمعانا كلمعان اللؤلؤ حين يجف، فخطر له أن يطلي به خرزا من الزجاج بعد مزجه بشي‏ء من الشمع حتى يلصق بالزجاج، ففعل و صنع أول لولوة صناعية في التاريخ، فاشتهرت لآليه و أقبلت عليها الغواني في ذلك العصر، و مصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى (البينوس لوسيدوس) و في انكلترا يستخرجونه من قشر سمك (الرنكة) فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلا لطيفا حتى تنظف من الملح و القدر ثم تحك الحراشف التي على بطنها بقفا سكين فترسب المادة اللؤلؤة في الماء، و إذا أريد حفظها في الماء أضيف له شي‏ء من (الامونيا) حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعا ...» (تفسير الجواهر ج 24 ص 70- 72).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 31

متر، و هو حيوان صغير يبني مع الآلاف من رفاقه مساكن هي أشبه بأغصان الأشجار، ثم تتكامل حتى تكون منها جزائر، و إذا اجتمعت جزائر عاشت فيها المرجانات آمنة مطمئنة، و لو رأيت شجر المرجان لرأيته كظباء الصحراء، له فروع غبراء، أو برتقالية صفراء، أو قرنفلية حمراء أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج، و تعبث الريح بأغصانها، فكيف إذا تصبح صخرات مكونات للجزائر المرجانية؟ سبحان الخلاق العظيم!.

و جزيرة واحدة من تلك الجزائر المرجانية تبلغ فراسخ عدة، تتكسر على جوانبها الناصعة البيضاء، أمواج المحيط «1».

«إن حيوانة المرجانة تثبت نفسها بطرفها الأسفل بصخر أو عشب، و تفتح فمها التي في أعلى جسمها، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذاءها، فإذا لمست هذه الزوائد فريسة- و كثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء- أصيبت بالشلل حالا، و التصقت بها، فتنكمش الزوائد و تنحي نحو الفم، حيث تدخل الفريسة الى الداخل بقناة ضيقة تشبه مري‏ء الإنسان .. و يتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه، يتم بها إخصاب البويضات، حيث يتكون الجنين الذي يلجأ الى صخرة أو عشب يلتصق به و يكوّن حياة منفردة، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي.

و يتكاثر أيضا بطريقة اخرى هي التزرّر، و تبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها، و هكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها، و يبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا، ثم الجزر المرجانية- المسبق ذكرها- بتعاون المرجانات» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الجواهر 24 ص 26، نقلا عن بعض المصادر.

(2) في كتاب: اللّه يتجلى في عصر العلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 32

هكذا يخرج اللؤلؤ و المرجان من البحرين، و هما أفخر ما يتزين به الإنس و الجان: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! فلو لا الجان يشارك الإنسان في التزين باللؤلؤ و المرجان، لم يصح هكذا امتنان.

و من باب الجري و التأويل، قد يشمل البحران و اللؤلؤ و المرجان، بحري النبوة و الامامة، بحري عذب فرات، لا ملح و لا أجاج‏ «1» «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

الجوار: الجواري- جمع الجارية، تشمل الجاريات المنشآت في البحر كلها على مدار الزمن و تقدم الصنع، و هي للّه‏ «وَ لَهُ الْجَوارِ» رغم انها من منشآت الخلق! و لأن المنشئ لها من منشآت اللّه، و كذلك آلاتها و أدواتها و محركاتها الرياحية و البترولية و الكهربائية و سواها، فهل يتواجد شي‏ء في الكون ليس من منشآت الرحمن‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 142، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ. بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ» قال: علي و فاطمة «بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ» قال: النبي (ص) «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ» قال: الحسن و الحسين، و أخرجه أيضا عن انس بن مالك.

أقول: فقد اتصل بحر النبوة بفاطمة الصديقة بنت النبي (ص)، ببحر الامامة علي (ع)، بحران ملتئمان متلاقيان، بينهما برزخ الرسالة القدسية المحمدية، إذ اتصل بحر الامامة و النبوة روحانيا مسبقا، ان تربى علي في حجر النبي و في جو الوحي و التنزيل، ثم اكتمل الاتصال الروحاني بوصلة جسمانية في زواج علي بفاطمة، و النبي هو البرزخ بين البحرين إذ جمع الولاية و النبوة، و علي له الولاية دون النبوة و الوحي، و فاطمة هي بضعة النبوة، دون الرسالة و الامامة، و الخارج منهما: اللؤلؤ و المرجان: الحسنان هما مجمع الولاية روحانيا، و النبوة نسبيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 33

فجواري البحر من آيات الرحمان و رحماته: «وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى‏ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (42: 33) أو إن يشأ يغير البترول، أو أيا من المحروقات فيظللن رواكد على ظهره، أو يغير الماء، أو يثير الريح المجنونة، أو يخل بشي‏ء مما له دخل في جريانها، فيظللن في ضلال بأصحابها رواكد على ظهره.

فاللّه هو المسخر لنا الفلك: «وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ» (14: 32) «يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» (17: 66) «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ» (31: 31) فمن ذا الذي يحفظها في خضمّ البحر و ثبج الموج إلا الرحمان، و من ذا الذي يقرها على سطحه المتماوج، و يجريها بالرياح المتهايج إلا الرحمان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»: كهذه المنشآت للإنس و الجان، التي تحمل رحمات من الرحمان.

فلو لا أن هناك في البحر منشآت للجان كما للإنسان، أو أنهم يركبون منشآت الإنسان لم تكن هي من آلاء الرب لهما فكيف كان عليهم الامتنان؟! فالجان إذا شركاء الإنسان في منشآت البحر كالأعلام: الآثار المعلمة التي تدل الضلال من قريب أو بعيد، فكما النجوم هدى سماوية في ظلمات البر و البحر، كذلك هذه المنشآت فإنها كالأعلام: أعلام البحر و جباله، كجبال البر و أعلامه.

فقد كانت الجواري و لا تزال من أعظم النعم و أوفر المنن، التي يسرت أسباب الحياة، و هي من يسر الناقلات: البرية و الجوية، تكليفا، و من أكثرها حملا و تخفيفا عن أثقال الحياة.

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

«كُلُّ مَنْ عَلَيْها»: من ذوي العقول جنا و إنسا أمّن ذا؟ «من عليها» ترى (الفرقان- 3)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 34

أنهم من على الجوار المسبق ذكرها؟ و الفناء يعمهم و من لا يركب الجوار! اللهم إلا الأولوية بالفناء في خضم البحر المتلاطم، إلا أن كلهم لا يفنون عليه إلا قلة، فلا تعني الفناء هذه إلا عموم الفناء فلا تخص من على الجوار! أم من على الأرض‏ «1»؟ و لا يخص الفناء أهل الأرض، «كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» (28: 88) «وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68)! اللهم إلا لأنهم هم المخاطبون، و لا سيما معشر الجن و الإنس، إلا أن خطابات القرآن، غير المختص بالإنس و الجان، تشمل كافة من يصلحون للخطاب من عقلاء الأرض و السماء، أم كل من على الدنيا، الجامعة للأرض و جواريها و مجاريها الجامحة لزيناتها و شهواتها و رغباتها؟: «وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها» و من‏ «أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ‏ ... وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (10: 7) قد يكونون هم المعنيين أجمع، أو هم من المعنيين، فغيرهم من المتقين المتبنين الحياة على مرضاة اللّه، مطمئنين باللّه لا سواه، عائشين مع اللّه لا سواه، إنهم باقون مع اللّه لا يفنون، و قد توحي له‏ «وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ» لا «ربك» و لا «وجه اللّه» و لا «اللّه» فلا تعني البقاء بين الفانين هنا ذات اللّه فقط، و إنما الربانيون أيضا، المخصوصون بربوبيته و كرامته، و كما أضيف الرب الى أخصهم و أكرمهم «ربك»: فإنه الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أول العابدين، و آخر المرسلين.

فأهل اللّه العارفون باللّه، الباغون مرضاة اللّه، هؤلاء هم الباقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة و أمثالهم في القلوب موجودة، و أهل اللهو هم الفانون الهالكون، و هم أحياء يمشون و يأكلون كما تأكل الأنعام.

فليس وجه الرب وجها عضويا لذاته المقدسة، فلا أحد يقول به، و لا من المشبهة المجسمة، الذين يثبتون للّه سبحانه أبعاضا مؤلفة، و أعضاء مصرّفة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). القمي في تفسيره قال قال من على وجه الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 35

أن وجه اللّه هكذا يبقى، و سائره يبطل و يفنى، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

ثم الوجه الجسداني ليس ذا الجلال و لا الإكرام، لأنه ذليل فان كسائر الأعضاء، و مهان دان كسائر من عليها!.

و إنما «وجه ربك» جهة الربوبية و وجهتها، الظاهرة في المربوبين الربانيين، الباهرة في أولياء اللّه المكرمين، فإنها باقية ببقاء اللّه و هم عند اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ» (7: 206) فالذين هم عند اللّه، و ليسوا عند أنفسهم و رغباتهم، و إنما عند ربك، تحت ظله و في رعايته، إنهم باقون قدر ما هم عند ربك، و فانون قدر ما هم عند أنفسهم: «ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ» (16: 96) «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (42: 36) «وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» (73: 20).

فهنا آيتا الفناء و الهلاك تتجاوبان، أن الفناء لمن عليها: ضمير تأنيث تضمر الكائنات كل الكائنات إلا وجه ربك، و الهلاك يشمل كل شي‏ء إلا وجهه: «كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فلا باقي إلا وجه اللّه: ذاته بربوبيته: الكائنة من ذاته، و الكامنة في البعض من مخلوقاته، ربوبية رحيمية روحانية، الذين يتوجه بهم إلى اللّه، و تتواجد فيهم مرضات اللّه و تربياته، لا ذاته و صفاته! فهم- إذا-

«أنبياءه و حججه الذين بهم يتوجه إلى اللّه عز و جل و إلى دينه و معرفته»

«1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عيون أخبار الرضا (ع) في باب ما جاء عن الرضا (ع) يسأل عن الخبر الذي رووه‏:

ان ثواب لا إله إلا اللّه النظر الى وجه اللّه تعالى؟ فقال: من وصف اللّه عز و جل بوجه كالوجوه فقد كفر، و لكن وجه اللّه أنبياءه ... و قال اللّه عز و جل‏ «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ» و قال عز و جل: «كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فالنظر الى أنبياء اللّه تعالى و رسله و حججه (ع) في درجاتهم ثواب عظيم للمؤمنين يوم القيامة، و قد قال النبي (ص):

«من أبغض أهل بيتي و عترتي لم يرني و لم أره يوم القيامة»،

و في تفسير القمي عن علي بن الحسين (ع) «نحن الوجه الذي يؤتى اللّه منه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 36

و «إذا أفنى اللّه الأشياء، أفنى الصور و الهجاء، لا ينقطع و لا يزال من لم يزل عالما» «1»: باللّه، عائشا مع اللّه: «فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ» (39: 68) فهم ممن شاء اللّه بقاءهم، و لم يرض فناءهم لأنهم منه! ف «إنما يهلك من ليس منه».

فليس الفناء- إذا- مستقبلا: يوم القيامة، بل‏ «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ» في أي زمان أو مكان و بأي كيان، منذ الخلق حتى الفناء و يوم الإحياء مرة اخرى لأنهم ليسوا منه، «وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ»: ما يتوجه به إلى اللّه: ذوات قديسة ربانية، فهم باقون، لأنهم منه، و هم عند اللّه‏ «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ»!.

و في وجهه تعالى وجوه عدة، معروفة من قرائنها المقرونة بها: من الوجهة سمتا للاتجاه: «وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» (2: 272) و من وجه الربوبية كما هنا، و الوجه هو ما يواجه به الشي‏ء و يواجه به الشي‏ء، فإذا أصبح المتوجه إلى اللّه، يواجه معرفته و مرضاته بكيانه كله، أصبح كله وجها للّه، و واجهه اللّه بخاصة رحماته و مكرماته، وجها بوجه، فكما أنه أصبح وجها للّه، يكون اللّه له وجها يواجهه برحمته و حنانه.

و وجه الرب هذا، هو ذو الجلال، لأنه من ذي الجلال، و هو ذو الإكرام، فانه تعالى يكرم المتوجهين اليه، العائشين مرضاته، فبقاء وجه الرب من أعظم آلاءه، و فناء سائر الوجوه على بعض الوجوه كذلك من آلاءه، ان كان فناء الكون، أو فناء الكيان، بقصر أو باختيار، فلو لا الفناء الموت لم تعرف قيمة الحياة، و لازداد الطائشون طيشا، و لو لا الفناء في اللّه لم يكن بقاء باللّه، و لو لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل و فيه: و أما قوله: «كُلُّ شَيْ‏ءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فالمراد: كل شي‏ء هالك إلا دينه، لأن من المحال أن يهلك اللّه كل شي‏ء و يبقى الوجه، هو أجل و أعظم من ذلك، و إنما يهلك من ليس منه، ألا ترى أنه قال: «كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَ يَبْقى‏ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ» ففصل بين خلقه و وجهه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 37

فناء من عليها، المطمئنين بالحياة الدنيا، الراضين عنها، لم يكن لبقاء وجه اللّه من جلال و لا إكرام، مهما كان الفناء الأخير من بلاءه دون آلاءه، و لكنها من وجهة اخرى من آلاءه، لمن جانبها، فالفناء دركات و درجات، و البقاء باللّه درجات‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟!.

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

السؤال هو الحاجة التي تحرص النفس عليها، فالسؤال التماسها ممن يستجيبها، سواء أ كان بلسان الذات، فالممكنات كلها فقيرة الذات إلى اللّه، أم بلسان الصفات فكذلك الأمر، أم بلسان الحال، فكل تشهد أن كونها في مثلث الكيان دون سؤال، و دون إجابة، إنه من المحال، أم بلسان المقال، فقد يجاب إذا توفرت شروط الإجابة، و قد لا يجاب إذا لم تتوفر: «وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ» (14: 34) لا «كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ» فالأسئلة الحالية و الذاتية و الصفاتية مستجابة على أية حال، و لو لم يخطر للسائل ببال، كمن لا يعرفون اللّه، أو لا يوحدونه، أو الغافلون عنه، أو الذين قد يسألون ما يضرهم، و قد لا يسألون ما ينفعهم، فهو يعطيهم ما يصلحهم استجابة لمثلث السؤال بلا إدراك للسائل فيه و لا مقال، فهو وحده المجيب، و سائله لا يخيب، و ما سأل أحد غير اللّه، إلا حرم سؤله عند اللّه، و ماذا يملك من دون اللّه، حتى يسألونهم من دون اللّه؟! «يَسْئَلُهُ مَنْ» فما ذا يسألونه؟ و متى؟ و ما هو دليل الإجابة و ليست في الآية؟ و من هم السائلون؟.

إن السؤال لا يختص كائنا دون سواه، إن كان يشمل كافة الطلبات و الحاجات، و قد جي‏ء هنا ب «من» إما تدليلا على أن الكائن أيا كان لا يخلو عن شعور، كيف لا و: «إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 38

تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) أو أن «من» لتشريف الكائنات العاقلة- كالملائكة و الإنس و الجان- على سواها.

ثم و كل يسأل ما يحتاجه و يصلحه هو أو سواه أيضا، و إلا فلا إجابة.

و قد يسأل أهل السماوات- فيما يسألون- لأهل الأرض، من الجنة و الناس، و إلا لم يكن في سؤالهم آلاء للأنس و الجان، فلم يصح عليهما فيه الامتنان، و ممن نعرفهم في أهل السماوات، السائلين لأهل الأرض الملائكة: «وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ (42: 5) «.. لِلَّذِينَ آمَنُوا» (40: 70) و من بين السائلين من لا يسأله أمرا سواه، فالعارف لا يسأله إلا إياه ليزداد معرفة باللّه، فكل يسأل على حد شاكلته و معرفته مناه: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

و بما أن الأسئلة هذه منوطة بيوم الدنيا، فلا إجابة يوم الآخرة إلا بما قدمت كل نفس في الاولى، فهم يجازون هنا لك دون سؤال، و إنما حسب الأقوال فالأحوال فالأعمال، فالسؤال إذا تختص هنا: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»: شأن الإجابة و سواها من شؤن الربوبية للأولى دون الاخرى:

«من إحداث بديع لم يكن»

«1» فإنه بديع في شأنه خلقا و أفعالا على غير مثال و احتذاء أمثال، إنما يبدع بدعا: «بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (2: 117) دون حاجة إلى زمن، أو استعانة بمثال سابق.

ثم‏

«و من شأنه أن يغفر ذنبا و يفرج كربا و يرفع قوما و يضع آخرين و يجيب داعيا»

«2» أو أن يفعل ما يشاء عدلا أو فضلا، و لا يشغله شأن عن شأن: شأن الرحمة الرحمانية و الرحيمية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي عن أمير المؤمنين (ع) في خطبة له‏ «الحمد للّه الذي لا يموت و لا تنقضي عجائبه لأنه كل يوم في شأن من احداث بديع لم يكن.

(2) الدر المنثور 6: 146، أخرجه الحفاظ عن أبي الدرداء عن النبي (ص) في آية الشأن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 39

«يَسْئَلُهُ‏ .. كُلَّ يَوْمٍ ..» هل هو كل نهار؟ أم هو بليله؟ أم ماذا؟

إنه كل آن: كل وحدة زمنية عن كل وحدة حركية، لأصغر ذرة من مادة، علّها أقل بكثير من الوحدة الالكترونية 000، 50/ 1 ثانية في حسابنا، فكل يوم هنا هو كل وحدة زمنية لا تنقسم‏ «1».

و لا يعني السؤال و الإجابة في كل يوم، أن اللّه تعالى: المسؤول المجيب- هو أيضا بذاته في كل يوم، و إنما الزمان و المكان ظرف فعله، لا ذاته، فقد كان إذ لا «كان» و لا زمان و لا مكان، و سوف يبقى و يكون إذ يفني كل «كان» و كل زمان و مكان، و هو الآن كما سيكون و كما كان، خارجا عن الزمان و المكان، فلا يشمله زمان و لا مكان، كما لا يشغله شأن عن شأن.

ثم السؤال هذا في موقف الامتنان هو دليل الإجابة و إلا فلا امتنان.

و أخيرا للشأن هنا وجهتان: للأولى، كما يسأله فيها من في السماوات و من في الأرض كل يوم هو في شأن .. و للأخرى أو هو أشمل هو شأن الربوبية الشاملة كل شي‏ء، في أي زمان أو مكان، تجريدا للأخرى عن السؤال: «كلّ يوم، كما كان في الاولى، مع سؤال «كلّ يوم».

ف «كل يوم»: آن أو ما زاد او نقص، دهر أو سواه، «هو في شأن» غير ما كان في غيره، فلا تكرار في فعله، و لا عادة و لا تقليد، و لا مسايرة أو تسيير، و إنما اختيارا و إبداعا، فليس اللّه ليبقى دون شأن، لا تنقطع رحمته ما كان هنا لك مرحوم، فقد كان إذ لا كان، فكان شأنه إذ ذاك ما كان، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد تحدثنا عن معنى «يوم» في عدة مجالات، إنه الزمان أيا كان، و يتبع القرائن في تحديده، فشأن الخلق و التدبير يشمل أقل وحدة زمنية، لأنه من أمر اللّه‏ «وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» و من الأقرب أدنى حركة لأصغر مادة لم نعرفها حتى الآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 40

لا يخلو أي يوم- منذ الخلقة- من شأنه أيا كان.

فللّه تعالى، شأنه يوم الدنيا و يوم الدين، و لا يشغله شأن عن شأن، و لا يتبع أهواء خلقه في أي من شأنه (و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض) (23: 71) و إنما يحكم ما يشاء كما يشاء و يفعل ما يريد كما يريد: (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ) (21: 23).

ففي سماحهم لسؤاله تعالى آلاء، و لإجابته ما يصلح من سؤال آلاء، و لرجوع الرحمتين إلى الانس و الجان آلاء (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ).

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏ إنه تعالى ليس له هكذا شأن في اليوم العصيب، و الهول الرهيب، و إنما شأنه الفراغ للأنس و الجان، للمسائلة الحساب، و من ثم الثواب و العقاب.

و ترى إذا لم يفرغ للثقلين يعيى عن الحساب، أو يخطأ في الحساب، و لا يشغله شأن عن شأن؟

الجواب: أن فراغه للحساب حقيقة و مبالغة، حقيقة لأنه فرغ عن شأن النشأة الاولى لشأن الاخرى و ليس إلا الحساب و ما يخلفه، و مبالغة إذ يعني:

سنعيد لكم و نفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تفجيع فيه و لا اشتغال بغيره عنه، فالعامد لشي‏ء مع غيره ربما قصر فيه أو أخطأ، و الفارغ له لا يقصر و لا يخطأ، فقد دللنا هنا بذلك على المبالغة للمسائلة الحساب- دون عذوب عنه و لا نقصان أو نسيان- من الجهة التي نتعودها، ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ و أدلّ الكلام على معنى الإيعاد تقريبا للتصور عن صورة مذهلة مزلزلة للعذاب، تسحق كيان مصورها سحقا، و تمحقه محقا، كيف أن الذي لا يشغله شأن عن شأن، سيفرغ لكم أيها الثقلان؟! و الثقلان هما الانس و الجان من الثقل: الثقل، مما يوحي أنهما الأفضلان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 41

و إن في الأرض فقط «1»، أو العب‏ء فهما المثقلان الوازران فقط بين المكلفين‏ «2» و لذلك يفرغ لهما لا سواهما، فالثقل و الفراغ يوحيان أنهما اللذان يدور عليهما رحى التكليف، و الحساب الثواب و العقاب، و إن كان معهما غيرهما من المكلفين المحشورين، من أعلاهم غير المعروفين، و أدناهم فيمن نعرف من سائر الدواب:

(وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ‏ «3») (6: 38).

فحساب غير الثقلين ليس في فراغ، مهما كان لهم حساب، لتفاهة التكليف و خفته، أو خفة العصيان و قلته، و أما الثقلان فهما المثقلان تكليفا و وبالا، كما هما المثقلان ثوابا و كمالا، ثم الفراغ للحساب الجزاء من آلاء الرب للمؤمنين إذ ينتصر لهم يوم الدين من الظالمين، و يثابون هناك على ما عملوا يوم الدنيا، نعمتان لهم، و نقمتان لمن سواهم من الظالمين، فالفراغ للحساب لهم من الآلاء و للظالمين بلاء: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ).

[سورة الرحمن (55): الآيات 33 الى 78]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ (33) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (35) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (36) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (37)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ (41) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (42)

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (45) وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (46) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (47)

ذَواتا أَفْنانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (49) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (50) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (51) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (52)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلى‏ فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (54) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (55) فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (57)

كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (58) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (59) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ (60) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (61) وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (62)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (63) مُدْهامَّتانِ (64) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (65) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (66) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (67)

فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (68) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (69) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (70) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (71) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (72)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (73) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (74) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (75) مُتَّكِئِينَ عَلى‏ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (76) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (77)

تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (78)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و مما يشهد له ما تواتر

عن الرسول (ص) «إني تارك فيكم الثقلين»

: أي العظيمين‏

«كتاب اللّه و عترتي»

فليكن الانس و الجان أيضا ثقلين بين سائر الخليقة.

(2)

تفسير روح البيان ج 9 ص 30 قال الصادق (ع) .. لأنهما يثقلان بالذنوب.

(3) راجع ج 1 من الجزء 30 ص 143- 146 في حشر الحيوان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 44

«يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

المعشر هو الجماعة العظيمة و الكثرة الكاملة، فهل الخطاب به في محشر القيامة، إذ يحشرون كاملة أجمعين؟ «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ» (6: 128) «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ..» (6: 130) أو أن الخطاب يشمل المعشرين: يوم الدنيا و يوم الدين؟

قد يكون. حيث تتحمله الآية في مغزاها.

و هل الآية تبشير للأنس و الجان بملحمة غيبية هي إمكانية غزو الفضاء بسلطان علمي أو إقدار بتقدير الرحمان أم ماذا، فهي خاصة بيوم الدنيا؟.

فهي لا تمت لهما بصلة بما احتفت به من إنذار و تهويل بعذاب يوم الدين: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ‏ .. يُرْسَلُ عَلَيْكُما .. فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ ..» و أين هكذا تبشير من هذا الإنذار؟.

ثم النفوذ هنا «من»: خروجا عن أقطار السماوات و الأرض إلى غيرهما، لا «في»: دخولا في أقطارها غزوا لها، ثم النفوذ فرار من جهة الى اخرى كما ينفذ السهم، و ليس غزو السماء فرارا منها إلى الأرض، و لا من الأرض إلى نفسها، و إنما غزو السماء تزويد و تحكيم لقرار علمي سلطوي في الحياة الأرضية على السماء:

أن بإمكان ساكن الأرض و ما كنها غزو السماء.

فالآية لا تمت بصلة لما تهواه غزاة السماء و إنما هي آية الشورى: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (42: 29) إذ تعد بالجمع بين دواب الأرض و السماء، لا تلك التي توعد محاولي النفوذ بإرسال شواظ من نار! فهل هو بعد وعد لغزو الفضاء مع وعيد النار؟.

ثم و لما ذا محاولة النفوذ من تلكم الأقطار؟ أ فرارا من حساب الجبار و عذاب النار؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 45

«يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ» ثم و لا فرار عن النار إلا بسلطان الجبار على ضوء سلطان من التقوى، و دون حاجة للنفوذ من هذه الأقطار!.

أم خروجا من سلطان اللّه: ملكه و قدرته؟ فلو كان بعد الأرض و السماوات مكان لم يكن إلا بسلطان الرحمان: «لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ»: في ملك اللّه و قبضته، فما محاولة الخروج عن سلطان اللّه إلا محاولة جنونية مستحالة.

فسواء أ كانت محاولة النفوذ من الأقطار يوم الدنيا أم يوم الدين، «لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ»: فأين تطير هذه الحشرة الهزيلة الذليلة، و إلى أين، أ تحسبها تنجو من عذاب الرحمان، أو تخرج عن سلطانه؟ فلتنفذ من الأقطار كل الأقطار، فهل تفر من النار؟ «يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ» لا انتصار الفرار، و لا إخماد النار، و لا أي غلب على العزيز الجبار، فلما ذا الفرار؟! إن شواظ النار: لسانها اللهيب الخالص الأخضر، ترسل على الفارين و لو إلى أبعد الأقطار، و النحاس هنا المذاب السائل من الصفر، أو الدخان المتصاعد من النار، هما يرسلان عليكما، و لا اليكما، مما يوحي أن عذاب اللّه حاضر حاذر و لو خارج الأقطار، لا يتطلب معونة الإرسال الى الفار، و لو استطاع الفرار؟!.

فالسلطة الإلهية المطلقة هي من الآلاء، و تحقيق العذاب على المستحقين من الآلاء، و ملاحقة الفارين عن العذاب من الآلاء، عدلا أو فضلا من الرحمان:

«فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» فإن البلاء العدل على أهله من الآلاء الفضل على أهل اللّه.

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

انشقاق السماء هو اخترامها و افتراقها عن التئامها و صلابتها:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 46

«وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ» (69: 16) واهية و هي الدهان:

المهل- دردي الزيت إذ تمور مورا، و كما علّها كانت حين دخانها وردة كالدهان فهي ذات الرجع إلى ما كانت يوم قيامتها فترجع كما كانت‏ «وَرْدَةً كَالدِّهانِ».

وردة علّها احمرارة الحرب أو اصفرارة الخوف و الغضب، تسيل هي السماء كالدماء، بدلا عن أن تسيل منها الدماء، وردة الانشقاق في قيامة الإماتة تقدمة لقيامة الاحياء، و يا لهما من آلاء «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

«فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»:

فهنا سؤال منفي هو الاستعلام، و لما ذا يسأل علام الغيوب، أو يسأل عمّا له الموكلون بالعذاب؟ إذ «يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ» «لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» (28: 78) فإن وصمة الجريمة مثبتة على سيماهم، ثم و هناك سؤال مثبت: سؤال تقبيح و إيلام: «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» (37: 24) يسألون عما أجرموا، لا عما أجرم غيرهم: «قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (34: 25) إذا فلا نفي السؤال يخص جماعة أو طائفة دون آخرين، و لا إثباته‏ «1». كما لا جواب للمجرمين عذرا، و لا استجواب إلا حجة عليهم.

«يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ»: علامتهم- سيماهم في وجوههم و سائر أعضائهم و أحوالهم و أقوالهم، الوجوه الكالحة الباسرة بكل الوجوه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في المجمع عن الإمام الرضا (ع) انه قال في الآية: ان من اعتقد الحق ثم أذنب و لم يتب في الدنيا عذب عليه في البرزخ و يخرج يوم القيامة و ليس له ذنب يسأل عنه،

أقول انه في نفسه صحيح كواقع لا كتفسير للآية لأنها تعم الانس و الجن جميعا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 47

«وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ» (75: 23) و حتى إذا تكلفت بشاشة و نضارة، فسيما الوجوه المجرمة معروفة عند أهله، و حتى يوم الدنيا، فالمؤمن ينظر بنور اللّه فيعرف المجرم بسيماه رغم نضارة النعمة و غزارة النهمة، فكيف بيوم الطاعة، إذ الوجوه باسرة، و رجاسة السرائر في سيماهم ظاهرة، و عمال العذاب، الملائكة الموكلون به هناك، أنظر بنور اللّه من المؤمنين يوم الدنيا، فيا له من مشهد عنيف، و مع العنف الهوان، إذ تؤخذ بالنواصي: الجباه، و الاقدام، فيقذفون في النار، مع كل هوان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» إذ لا مغالطة في عرفان المجرمين، فلا مخالطة لهم بالمؤمنين.

و إنما تؤخذ بالنواصي و الاقدام حين ينتهي دور الشفاعة و الغفران، فإنهما قبل إبرام الحكم و ختام الأمر، يوم البرزخ، و يوم القيامة قبل الحساب، أو بينه و بين إبرام العذاب و كما يروى عن الرسول الأقدس (ص) «1».

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

«هذِهِ جَهَنَّمُ»: نار شديدة التأجج‏ «الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا» بكونها و كيانها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 145- أخرج عبد الرزاق في المصنف عن رجل من كندة قال‏ قلت لعائشة أ سمعت رسول اللّه (ص) يقول: انه يأتي عليه ساعة لا يملك لأحد شفاعة؟ قالت:

نعم، لقد سألته فقال: نعم، حين يوضع الصراط و حين تبيض وجوه و تسود وجوه و عند الجسر حتى يشحذ حتى يكون مثل شفرة السيف، و يسجر حتى يكون مثل الجمرة، فأما المؤمن فيجيزه و لا يضره، و أما المنافق فينطلق حتى إذا كان في وسطه خر في قدميه يهوي بيديه إلى قدميه، فهل رأيت من رجل يسعى حافيا فيؤخذ بشوكة حتى تكاد تنفذ قدميه، فإنه كذلك يهوي بيديه إلى قدميه فيضربه الزباني بخطاف في ناصيته فيطرح في جهنم يهوي فيها خمسين عاما، فقلت: أ يثقل؟ قال: يثقل خمس خلفات فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الاقدام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 48

و إحراقها لهم‏ «الْمُجْرِمُونَ» الذين أجرموا ثمار الحياة الانسانية قطفا لها قبل إيناعها أو قطعا لها عن آخرها «يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ» ماء «حَمِيمٍ»: حار «آنٍ»:

منتهى الحمّة و الحرارة، طواف الاضطرار و الاستغاثة: «وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ» (18: 29) و ليس المغاث به خيرا من المغاث منه، فلذلك يطوفون في هذا البين حائرين، و إذا كان ماءها في منتهى الحمام، فكيف بنارها؟ سبحان العزيز العلام! فطواف المجرمين بين مختلف العذاب من الآلاء: عدلا على مستحقيه، و فضلا للمؤمنين بل و للمجرمين أيضا يوم الدنيا إذ ينذرون به فينتفعون، مهما كان لهم عذابا يوم الدين: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» ثم و إليكم مواصفات الجنات التي هي آلاء بشرى لأهلها يوم الدنيا و واقعا يوم الدين:

وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

هاتان الجنتان هما في جنة العدن الخلود: «وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى‏. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى‏» (79: 40) و علهما فيها الجنة الجسدانية و الروحانية و هي اكبر: «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» (9: 72) «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» (3: 15) فكما ان خوف مقام الرب و تقواه مشتركان بين الروح و الجسم، فلتكن هكذا الجنتان، أو هما فيها بستانان‏ «2» بما معهما من جنة المعرفة و الرضوان، أو انهما جنة الانس و الجان. كل على حدة، و لكنه خلاف المعروف من آي القرآن: من اشتراكهما في الجنان دون تباعد و انحياز، و ان «من»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(2)

الدر المنثور 6: 147- أخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم انه سمع رسول اللّه (ص) قال: «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ» قال: بستانان عرض كل واحد منهما مسيرة مائة عام فيها أشجار و فرعهما ثابت و شجرهما ثابت و عرصتهما عظيمة و نعيمهما عظيم و خيرهما دائم و لذتهما قائمة و أنهارهما جارية و ريحهما طيب و بركتهما كثيرة و حياتهما طويلة و فاكهتهما كثيرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 49

يشمل كل واحد، لا كل اثنين أحدهما من الانس و الآخر من الجان، و من مقام الرب قيامه الربوبي بالقسط: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ» (3: 18) و قيامه بما نكسب: «أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى‏ كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ» (13: 33) و قيامه بكل متطلبات الحياة: «اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» (3: 2) قيامات قيمات: قسطا في الحكم و قسطا في استنساخ الأعمال، و قسطا في الجزاء، فليس خوف مقام الرب إلا من قسطه العدل- لا القسط الظلم- من قيامه بالشهادة و الحساب و العذاب، ثم و من مقام الرب قيام العبد في موقف الحساب: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» (83: 6) فلمن خاف مقام ربه، و مقامه عند ربه- جنتان: فلتحق لخائفه جنتان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

ثم و كما الخوف من مقام الرب درجات كذلك جنتاه درجات، و يعم درجات الخوف أن يتبنى حياته الخوف من مقام الرب، دون اللامبالاة، و من أفضل الخائفين‏

«من علم أن اللّه يراه و يسمع ما يقول و يقول و يعلم ما يعمله من خير و شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال‏

«1»» و من أدناهم من يقترف أحيانا بعض المعاصي ثم يتوب، فهو من أهل الجنتين الدانيتين‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) في الآية .. ثم قال‏: فذلك الذي خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى.

و في كتاب الجنة و النار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر الباقر (ع) في الآية: هو أن الرجل يهجم على شهوة من شهوات الدنيا و هي معصية فيذكر مقام ربه فيدعها من مخافته.

. (2)

الدر المنثور 6: 146- أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و ابن منيع و الحكيم في نوادر الأصول و النسائي و البزاز و أبو يعلى و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه عن أبي الدرداء ان النبي (ص) قرء هذه الآية فقلت: و ان زنى و ان سرق يا رسول اللّه (ص) فقال النبي (ص) الثانية و لمن خاف مقام ربه جنتان فقلت و ان زنى و ان سرق فقال الثالثة و لمن خاف مقام ربه جنتان، فقلت و ان زنى و ان سرق، قال (ص) نعم و ان رغم أنف ابن أبي الدرداء،

أقول: تصديق هذه الرواية لا تناسب إلا للجنتين الأخريين. لا الأوليين العاليتين، و لعل ذلك خطأ من الراوي ان النبي (ص) قرء آية العاليتين‏ «وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ» أو إنما يناسب‏ «وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 50

ذَواتا أَفْنانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏ جنتان ذواتا أفنان: أغصان مختلفة الألوان صغيرتان نديتان نضرتان، فلكل جنة أغصان، و لكلّ ألوان، كل على حسبه كما الجنتان، إن كانتا بستانين أو جنة جسدانية و جنة رضوان، أو كلّ لكل من الانس و الجان.

فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏ لكلّ عين جارية، فلجنة الرضوان عين المعرفة الفائضة لا مقطوعة و لا ممنوعة، و إنما دائبة فمتزائدة، و كما للجنة الثانية، فيا للعينين مع الأفنان من نضارة و لمعان: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏ فالزوجان هما الاثنان من كل نوع، أحدهما متشابه لما رزقوه في الدنيا، و الثاني غير متشابه: «وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ» (6: 141) كلّ متشابه لما رزقوه من قبل: «كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً» (2: 25) و غير متشابه هو الزوج الثاني، ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر، حتى و المتشابه منهما بينه و بين الذي في الدنيا، بون الجنة و الدنيا.

ثم و من فاكهة المعرفة أيضا زوجان، متشابه لما عرفوها في الدنيا، و غير متشابه لم يعرفوها فيها! مُتَّكِئِينَ عَلى‏ فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

و إذا كان بطائن هذه الفرش من إستبرق: حرير غليظ، فما ذا إذا تكون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 51

ظواهرها؟ إنها أحسن و أنضر من إستبرق، و لا أنضر لنا يوم الدنيا من إستبرق! «وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ»: أثمارهما المجتناة «دان» لا تكلّف إلا قطفا من دون تكليف إلا طوعا و عطفا.

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

قد توحي ضمير الجمع هنا دون التثنية المسبقة، بأن الجنتين هناك هما الجسدانية و الروحانية، و النساء قاصرات الطرف لسن في جنة الرضوان، و الجنة الاخرى لأهلها- ككل- جنات، و كما تتكرر فيما يلي‏ «فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ» لا «فِيهِما» فلا تثنية إلا فيما يناسب جنة الرضوان.

فجنا جنة المعرفة دان لأهلها، يجنونها من أشجارها، كجنا غيرها، و كذلك الأفنان، و عينان تجريان و من كل فاكهة زوجان.

فكما يتفكه الإنسان من فواكه يأكلها، كذلك- و اخرى- من فواكه تتفكه بها روحه، و كما يتنصر من الأفنان الأغصان، كذلك- و أحرى- من مختلف أفنان المعرفة و الرضوان، و كما يشرب أو يغمس في عين جارية بالأبدان، كذلك- و أحرى- من عين المعرفة الفائضة بفضل الرحمان في جنة الرضوان، «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

«فِيهِنَّ» الجنات الجسدانية- بنات‏ «قاصِراتُ الطَّرْفِ» من القصر الكمال، لا القصور النقص: فهن، مقصورة أطرافهن على أزواجهن: أطراف العيون و القلوب، فلا تهوي إحداهن إلا زوجها، و لا تنظر إلا إليه‏ «1»، فإنهن عفيفات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 147- أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي (ص) في الآية: لا ينظرن إلا إلى أزواجهن‏

و فيه 151 عن مجاهد في الآية قال: مقصورات قلوبهن و أبصارهن و أنفسهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ لا يرون غيرهن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 52

الشعور و النظرة، و قصور الطرف هذا ليس مقصورا عليهم منذ الزواج، و إنما منذ أنشأهن اللّه إنشاء إذ «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ»: لم يقتضهن قبلهم و يقترعهن بجماع أم سواه، مسا أم سواه و بأي من ألوان الاستمتاع أو سواه‏ «1» و من طمث العفاف النكاح- و أحرى منه- اللاعفاف السفاح.

«إِنْسٌ ... وَ لا جَانٌّ»: و النفي هذا يجوّز الإثبات: أن بإمكان الجن طمثهن كما الإنس، و كذلك إمكانية طمث كل ذكر من الجن و الإنس أنثى الآخر، ثم و نفي الطمث في معنى أوسع انهن لم يدخلن معركة الحياة الزوجية باتعابها و اشغابها و طوارئها، و لا أية اتعاب تنقص من جمالهن، فهن كما

يروى عن الرسول (ص) بعد ما تلا الآية: «لم يصبهن شمس و لا دخان، لم يعذبن في البلايا، و لم يكلمن في الرزايا، و لم تغيرهن الأحزان، ناعمات لا ييأسن، و خالدات فلا يمتن، و مقيمات فلا يظعنّ، لهن أخيار يعجز عن نعتهن الأوهام»

«2».

كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

هنا يضاف إلى جمال البكارة و قصر النظرة جمال اللون و النضارة: ياقوتية اللون و مرجانيته، فهن إذا في مثلث الجمال و الطراوة، الذي يجمع كمال الانوثة كله، و كل ذلك النعيم العميم جزاء الإحسان- و:

هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

و إنه لجزاء الفضل و ليس العدل، فإن الإحسان من هؤلاء المحسنين لم يك ليرجع إلى رب العالمين، و إنما إلى أنفسهم، و كما الإساءة ليست إلا عليهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الطمث لازما الحيض من يطمث مضموما و متعديا من يطمث مكسورا كما هنا: الاقتضاض و الاقتراع و المس، «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» تجمع جميع ما تحل من الاستمتاعات النسائية، أو و معداتها حتى الخطبة.

(2) الدر المنثور 6: 148- أخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم انه سمع رسول اللّه (ص) قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 53

«إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها» (17: 7) على أن الحسنة لنا من اللّه، فإنه الهادي للحسنى، مهما كان لنا حول في الإحسان،

«هل جزاء من أنعم اللّه عليه بالتوحيد و الإسلام إلا الجنة»

«1»؟ فليس يعني الإحسان إلا إيجاد الحسن و الإتيان به على ضوء شريعة اللّه، أو العقل المؤيد بها، لا كل تراه حسنا كما تهواه، فإنه قد يكون إساءة، أو لا إساءة و لا إحسانا! فيا علينا للرحمان من امتنان فيما أحسن إلينا من آلاء فاضلة، و نعماء فاحلة يسميها جزاء الإحسان! «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟

ثم آية الإحسان لا تختص المسلمين الصالحين بجزاءهم يوم الدين، فإنها تعمهم و الكافرين، كما تعم يوم الدنيا و يوم الدين، مهما كان من أفضله و أتمه للمؤمنين، ليوم الدين، و كما

يروى عن الرسول (ص): أنزل علي هذه الآية سجلة في سورة الرحمان في المسلم و الكافر سواء: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»

«2»:

سواء يوم الدنيا لا يوم الدين.

فقد

«جرت في الكافر و المؤمن و البر و الفاجر سواء، و من صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، و ليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء»

«3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 149- أخرجه ب «الإسلام» ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه عنه (ص) و ب (التوحيد) جماعة منهم ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي عن ابن عمر عنه (ص) و الترمذي و البغوي و الديلمي و ابن النجار عن انس عنه (ص) و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس عنه (ص).

كما و أخرجه الصدوق في التوحيد عن موسى بن جعفر عن آبائه عن علي (ع) انه سمع النبي (ص) يقول:

(2) الدر المنثور 6: 149- أخرجه ابن عدي و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان و الديلمي عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه (ص):

(3)

تفسير العياشي باسناده عن أبي عبد اللّه (ع) يقول‏: آية في كتاب اللّه مسجلة: هي‏ «هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ» جرت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 54

فكل من أحسن إليك- أيا كان دينه أو لا دين له- فعليك بالإحسان إليه و بأفضل مما أحسن، و إلا فالبادئ أفضل، إلا أن يفضل في جزاءه بإحسان يفوق ما فعل، و كما هي سنة اللّه، و إن كان لا يصله إحسان المحسنين، اللهم إلا إليهم، و قد تجري آية التحية في ردّها بأحسن منها أو مثلها هاهنا، فإن الإحسان من التحية أو هو أفضل التحية.

و نجد اللّه تعالى يعد المحسنين أجمع الجزاء الحسنى، إن في الدنيا و الاخرى، أم في إحداهما، للمؤمن في الاخرى، و للكافر- غير المستحق الاخرى- في الاولى ك (مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) (11: 16) فالدنيا دار جزاء للمحسنين لها، كما الآخرة دار الجزاء الأوفى لمن أحسن لها، و لا يظلمون فتيلا.

و آية الإحسان هذه، في صورة الاستفهام، تستخرّ الضمائر الحية، معتبرة وجوب جزاء الإحسان بالإحسان عقليا و إنسانيا، قبل كونه واجبا قرآنيا، و لا ينكره إلا من سامح عن عقله و ضميره، حتى و لا الحيوان‏ (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ).

هاتان هما الجنتان العاليتان بما فيهما و من فيهما، فهل هناك أعلى منهما، أو دونهما؟ أجل:

وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏:

و ترى إذا كانت الأخريان دون الأوليان فما هي المنة فيهما على الإنس و الجان؟

علّها في أن دونهما لمن هم دون من له الأوليان، و إلا فلا جنة لهم لو لا الأخريان، و هذا عدل في مراتب الجنات حسب الدرجات، كما و ان كل جنة هنا أو هناك أيضا درجات حسب القابليات، أ فليس ذلك القضاء العدل من آلاء الرحمان:

(فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 55

مُدْهامَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

فهناك الاوليان فيهما ذواتا أفنان، و هنا الأخريان فيهما مدهامتان:

خضراوان‏ «1» ضاربتان الى السواد، فأين أفنان: أغصان مختلفة الألوان، من:

خضراوتان؟.

فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

فهناك عينان تجريان، و هنا نضاختان: ناضبتان بالماء، و هذا دون الجريان.

فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

فهناك‏ «مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ» ثانيهما غير متشابه، و هنا «فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ» هي أولاهما المتشابه لما في الاولى، دون غير المتشابه.

فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

فهنا خيرات حسان، تقارف قاصرات الطرف في بعض الخيرات، و تفارقها في البعض و من المفارقات هنا:

حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

هنا مقصورات الطرف بقصر أزواجهن لهن و قصر الخيام، و هناك قاصرات الطرف من ذواتهن دون قصر الأزواج و لا قصر الخيام، فأين إذا مقصورات من قاصرات؟! فهذه من المفارقات و من ثم المقارفات:

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

و لأن الطمث- أيا كان- هو نقص الأنثى، فلا يناسب الإحسان و لا الحسان في الجنان، اللهم إلا هامشيا لمن يتذوقها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 149، أخرج الطبراني و ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال‏ سألت النبي عن قوله: مدهامتان، قال: خضراوان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 56

و ترى ان كان الحور المقصورات في الخيام غير مطموثة من قبل، فما هو دور النساء الإنسيات، هل هن محرومات عن زواج الجنة و لسن حورا، و كثير منهن مطموثات في الدنيا؟.

علّ الجواب أن الحور المقصورات هن من الخيرات الحسان لا كلهن، فمنهن أيضا النساء الإنسيات‏ «1» يجعلهن الرحمان عذارى أبكارا، أم و إذا بقين ثيبات فلسن بمرغوبات عنهن لأزواجهن، بل هن مرغوبات لهم طيبات، ثم و هن أفضل و أجمل من الحور المقصورات و كما

يروى عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ لما يسأل:

«أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة، قيل: و لم ذاك؟ قال: بصلاتهن و صيامهن و عبادتهن للّه، أ لبس اللّه وجوههن من النور و أجسادهن من الحرير»

«2».

و علّ قاصرات الطرف و المقصورات، اللاتي لم يطمثهن إنس قبلهم و لا جان تشملهن، و أحرى، ف «قبلهم» قد يخص الآخرة، و ان طمثن يوم الدنيا بهم أو بغيرهم، أو أنهم هم الذين طمثوهن في الدنيا فلم يطمثن قبلهم إنس و لا جان، أو ان طمثهن مطموس يوم الآخرة فأصبحن غير مطموثات.

مُتَّكِئِينَ عَلى‏ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏.

فهناك المتكآت فرش من إستبرق و جنا جنتيه دان، و هنا رفرف:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روضة الكافي باسناده الى الحلبي قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه عز و جل:

«فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ» قال: هن صوالح المؤمنات العارفات،

أقول و هذا من بيان أحد المصاديق البعيدة عن الأذهان بمناسبة «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ..»

(2)

الدر المنثور 6: 150- اخرج ابن جرير و الطبراني و ابن مردويه عن ام سلمة قالت‏:

قلت يا رسول اللّه (ص) (إلى أن قال «ص» بعد ما في المتن): «بيض الألوان، خضر الثياب، مجاهرهن الدر، و امشاطهن الياقوت، يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا و نحن الناعمات فلا نيأس أبدا، و نحن المقيمات فلا نظعن أبدا، و نحن الراضيات فلا نسخط أبدا طوبى لمن كان لنا»

و في الفقيه قال الصادق (ع): الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا و هن أجمل من الحور العين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 57

الأبسطة- خضر، علّها الإستبرق التي كانت بطائن الفرش هناك، أو فضول المجالس‏ «1».

و عبقري حسان: نادرة حسنة: زرابي أو طنافس أو ثيابا موشاة أو الديباج، أو أية حسان نادرة، فأين جنتان و جنتان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ‏.

أجمل ختام لسورة الرحمان، قد يكون الاسم المتبارك فيه أيضا هو الرحمان، الذي افتتحت به سورة الرحمان، خير بداية و خير ختام، و لأن الآلاء المستعرضة فيها و سواها، كلها من رحمة الرحمان، أ كانت رحمانية أم رحيمية فهو اسم ربوبي من أشمله الرحمان، و يا له من اسم متبارك الكيان في كل زمان و مكان، و يا لمسماه من جلال و إكرام، جلال في ذاته و صفاته، و إكرام برحمته و جلاله لمخلوقاته!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 152، أخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 58

(سورة الواقعة- مكية- و آياتها ست و تسعون)

[سورة الواقعة (56): الآيات 1 الى 56]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (2) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (3) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4)

وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (5) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (6) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (7) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (9)

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14)

عَلى‏ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (16) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ (19)

وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) وَ حُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (24)

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً (25) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (26) وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (27) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (28) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (29)

وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (30) وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ (31) وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ (33) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (34)

إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (35) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (36) عُرُباً أَتْراباً (37) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (38) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (39)

وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (40) وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (41) فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (42) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ (44)

إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46) وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ (49)

لَمَجْمُوعُونَ إِلى‏ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (51) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (52) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (53) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54)

فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (55) هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (56)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 60

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ. خافِضَةٌ رافِعَةٌ الواقعة هذه هي واقعة قيامة الإماتة و التدمير، التي تتلوها قيامة الإحياء و التعمير: «فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ. وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ» (69: 15): الحادثة التي هي لا محالة واقعة، لحدّ تسمت باسم الواقعة، إذ لا بداء عنها و لا رجوع، فإنها حتمي الوقوع لحد كأنها الآن واقعة، كما توحي له الفاعلة مرتين: مرة لأن الفاعل لا بد و هو شامل للحال، مهما شمل- أيضا- الاستقبال، و اخرى إن كانت تاءها للمبالغة، كما قد تؤيده تاء الكاذبة، قرن مبالغة الوقوع بمبالغة اللاوقوع.

و «إذا» الظرفية- هنا مضمّنة معنى الشرط، أنها رغم ما كانت لها كاذبة قبل وقوعها، ليس لوقعتها كاذبة ظرف وقوعها، إذ يجد الكاذبة نفسه و الكون كله، يجدها في واقع الواقعة، فأنى له أن يكون لها كاذبة؟! أو أن الجزاء محذوف يستوحى من «ليس .. خافضة رافعة». ثم ف «كاذبة» هي مبالغة «كاذب» كما «الواقعة» تبالغ في «الواقع»:

إن الذين كانوا يصرون مبالغين في تكذيبها يوم الدنيا، ليسوا ليكذبوا بها في الاخرى، فوقعتها- و هي وقوعها مرة دون مهل و لا تكرار- هي التي تزيل عنهم ذلك التكذيب الإصرار، فتحولهم إلى التصديق و الإقرار، حين لا يفيدهم تصديق و لا إقرار و لات حين فرار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 61

ثم‏ «خافِضَةٌ رافِعَةٌ» قد تكون وصفا ل «كاذِبَةٌ»: الذي يكذب بها خفضا لها عن دورها الموعود، في الحساب العدل و العقاب، و الفضل و الثواب، أو رفعا لها عن الكيان و الوجود: أن لا قيامة فلا حساب، فلا ثواب و لا عقاب!.

أو أنها خبر محذوف المبتدء: «هي خافضة رافعة»: خافضة أقواما ترفعوا يوم الدنيا دونما حق أو صلاحية فرفضتهم إلى النار و بئس القرار، و رافعة آخرين تنزلوا عما يحق لهم، فرفعتهم إلى الجنة «1»، و نعم القرار، و لأن الواقعة ظاهرة حق و حساب دون الدنيا الفوضى اللاحساب!.

أو أن الوصفين تشملان الواقعة و الكاذبة بالمعنيين، فقد تتحملها الجملة أدبيا و معنويا: فلا كاذبة للواقعة خفضا و لا رفعا، بل هي خافضة لمكذبيها رافعة لمصدقيها.

و قد يتخطى نفي الكاذبة لها يوم الواقعة، إلى ما قبلها، أن تكون‏ «لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ» وصفا للواقعة قبل وقوعها «2» كما تصفها ليوم وقوعها: أن ليس لوقعة الواقعة قبلها، من يبالغ في التكذيب بها يوم الدنيا، كما ليس لها كاذبة يومها، سواء، إذ لا سناد لمكذبيها يبالغون به في تكذيبها، إلا ظنونا و أوهاما لا تملك إلا التشكيك بها، لا التأكيد من عدم وقوعها، و هذا ما يبرر المبالغة في الكاذبة، إذ لا يكذب بها الواقع فيها، المتواجد عندها، فضلا عن أن يبالغ في تكذيبها، حتى يبرر نفي المبالغة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الخصال للصدوق عن الزهري قال: سمعت علي بن الحسين عليه السّلام يقول في الآية: خافضة خفضت و اللّه بأعداء اللّه في النار، رافعة رفعت و اللّه أولياء اللّه إلى الجنة.

و في الدر المنثور 6: 153 عن محمد بن كعب: تخفض رجالا كانوا في الدنيا مترفعين و ترفع رجالا كانوا في الدنيا منخفضين، و مثله عن السدي و قتادة.

(2) ذلك و إن كانت الجملة منكرة لا تأتي وصفا إلا لنكرة، فان الواقعة أيضا ليست معرفة حيث اللام فيها ليست تعريفا، و إنما هي موصول، كما يقال: الذي يقع، ترى الجملة هذه معرفة أم نكرة؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 62

فكما الواقعة يوم وقوعها تملك واقع البرهان الملموس على أنها واقعة، كذلك هي الآن، و طوال أيام الدنيا، تملك من البراهين، ما توضحها وضح النهار، و كأنها الآن واقعة، بما تمكّن من واقعها المستقبل من براهين، و ما تفرضها بعد إمكانيتها من براهين اخرى.

فلا يملك أحد من ناكريها يوم الدنيا أن يكذب بها خفضا عن شأنها، أو رفعا و نكرانا لكونها و كيانها، كما لا يملكون في الاخرى- ف:

«إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ»: قيامة الإماتة و الإحياء و المتأكدة «لَيْسَ» حينها «لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ» «1» من يبالغ في تكذيبها «خافِضَةٌ رافِعَةٌ» لا تكذيب الخفض من دورها، و لا رفعها إزالة لها، كما و «لَيْسَ» الواقعة «لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ» لا في الاخرى و لا الاولى «خافضة» لها أو «رافعة» ... بل هي- الواقعة «خافضة» لأقوام «رافعة» لآخرين.

فهي هي خافضة لمن ترفع دون حق، و رافعة لمن تخفض بباطل، دون أن يملك أحد خفضها هي أو رفعها، إذ الملك يومئذ للّه و له الحكم و اليه يرجعون، دون الدنيا الدنية التي أكثر ملاكها ظالمون، خافضون دون حق و رافعون، كما و أنها خافضة للسماء المرفوعة بأنجمها، و رافعة للأرض المخفوضة بجبالها، خفض الزلزال و رفعه: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ».

ففي يوم الواقعة تختل الموازين و القيم الأرضية الواهية، و تحتل مكانها القيم و الموازين الإلهية، بلا مؤاربة و لا مسايرة.

و ترى ماذا يحدث اثر حدث الواقعة، أو ماذا الذي يحدثها؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فاللام هنا للتوقيت، و على الوجه الثاني للتعدية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 63

إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا. وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا. فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا.

... نموذج من مواصفات الواقعة في الأرض و الجبال، فرجرجة الأرض و اضطرابها، و انبساس الجبال و هباءها، هذا و ذلك من مئات المئات من واقعات الواقعة التي تشمل الأرض و السماوات، فلا تبقي و لا تذر.

إن للأرض رجفات أربع و رجرجات: دائبة هي حركاتها المتداخلة المعدّلة، و موضعيته هي زلازلها قبل الواقعة، و مدمرة هي رجة الإماتة كما هنا، و معمرة هي رجة الإحياء بعدها، و رجة الإماتة هي الهائلة المخوفة، كما توحي لها «رجّا» تعني عظيما مهولا، محولا للأرض إلى غير الأرض: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ» «1».

و بسّ الجبال إرساءها و تسييرها- «فَكانَتْ هَباءً»: ذرات في الهواء «2»- و تفتيتها و بثّها فكانت‏ «مُنْبَثًّا» كالعهن المنفوش، أ فهذه الجبال الراسية تتحول هباء، بعد ما رست قواعدها في الأرض، و علت رؤوسها في الهواء؟ أجل و مع الأرض و الجبال السماء.

ترى ثم ماذا بعد قيامة التدمير؟ انها قيامة الإحياء و التعمير، و انقسام المكلفين الى أزواج ثلاث، حسب الأعمال و القابليات:

وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً: أقرانا تحشرون إلى الساهرة جنب بعض، و إنما تثلثكم سيرة مفارقات الأعمال و النيات، دون أن ينظر إلى صورة الأشكال أو مقارفات الأعمال و لمّا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير سورة الزلزال ج 3، ص 406- 407.

(2)

الدر المنثور 6: 16 أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علي بن أبي طالب (ع) قال‏: الهباء المنبث رهج الذرات، و الهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 64

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ. وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ‏.

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ: و هم الذين عاشوا يمين الحياة و يمنها، إيمانا باللّه، يمينا، في سبيل اللّه، فيمنا في مرضات اللّه: «وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ» (90: 18).

و الميمنة هي ناحية اليمين و اليمين ... يمنا و بركة في حياتهم كل الحياة، و يمينا في اتجاهات الحياة الى الدين، و يمينا يوم القيامة إذ يؤتون كتبهم بأيمانهم.

وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ» (90: 20) شؤما في الحياة حيث انحازوا الى شمالها، و لؤما في العقائد و الأعمال و التصرفات إذ جدّوا في إهمالها، فالمشأمة هي ناحية الشؤم و اللؤم قبال اليمين.

و السؤال في أصحاب الميمنة سؤال تبجيل و تجليل، كما أنها في أصحاب المشأمة سؤال تذليل و تهويل، و من ثم السابقون يؤتي بذكرهم دون سؤال، علّه لأنهم سبقوا السؤال و الجواب، و اجتازوا كل حساب، لأنهم مقربون! و هم ورثة الكتاب لأنهم مصطفون: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» (35: 32).

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ‏: هل هم السابقون زمانا؟

و ليس لسبق الزمن دور في القرب و الزلفى! ثم و هم ثلة من الأولين و قليل من الآخرين! أ ترى أن القلة الآخرة كالثلة الاولى سابقة زمنا؟ أم هم السابقون شرفا و إيمانا فلما ذا التكرار؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 65

ترى لأن الثاني خبر الأول؟ و من شأن الخبر التنكر: «سابقون» و أن يفيد، و ما هي افادة حمل الشي‏ء على نفسه، حملا ذاتيا أوليا لا يعنى إلا في المنطقيات دون المعرفيات! أو انه وصف له؟ فكذلك الأمر! فالوصف يزيد الموصوف معنا، لا أن يكرره دون معنى و لا جدوى! أو أنهما وصفان للزوج الثالث من‏ «أَزْواجاً ثَلاثَةً» فالأول يعني السبق في الاولى، و الثاني سبق الاخرى نتيجة الاولى جزاء الحسنى بالحسنى؟ فهذا ما يقتضيه أدب اللفظ و المعنى، فالسابقون بالخيرات: «وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ» (35: 32) إيمانا و عملا صالحا في الاولى، هم السابقون بالخيرات جزاء فضلا في الاخرى:

«أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ» (23: 61) فهم في صراع الحق و الباطل سراع الى الحق و سبّاق اليه دون مماطلة و مماهلة، و لا تلعثم و توان‏ «أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» إلى اللّه زلفى، أئمة الهدى، بدو امة التقى، فلهم العقبى الحسنى كما أحسنوا في الاولى.

فالسابقون سبقوا أصحاب الميمنة في كافة ميادين سباق التقوى حالا و مقالا و إيمانا، من حمل الرسالات الإلهية أصالة بالوحي، أو خلافة عن أصحاب الوحي، و من سنّ السنن الحسنة التي ظلت سبلا للخيرات لأهل الخيرات، و من أي سباق في أية صبغة إلهية «1» فأصبحوا هم المقربين لهم الأرواح العليا «2»،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالسباق الى اجابة دعوات المرسلين، كما في الدر المنثور 6: 154 أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في آية «السَّابِقُونَ» قال: يوشع بن نون سبق الى موسى، و مؤمن آل ياسين سبق الى عيسى، و علي بن أبي طالب سبق الى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم، و فيه عنه انها نزلت فيهم و كل رجل منهم سابق أمته و علي أفضلهم سبقا.

(2) في أمالي الشيخ المفيد عن أمير المؤمنين عليه السّلام في آية السابقين: «فأما ما ذكره من أمر السابقين فإنهم أنبياء مرسلون و غير مرسلين جعل فيهم خمسة أرواح: روح القدس و روح الايمان و روح القوة و روح الشهوة و روح البدن، فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين و غير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 66

و الدرجات الحسنى، و أفضل الزلفى في الاولى، و من ثم الاخرى، ازدواجية السباق «السابقون السابقون ...».

ثم «المقربون» هنا- لا «المتقربون» توحي بازدواجية مكانة القرب لهم من اللّه: انهم تقربوا اليه كما اسطاعوا، و من ثم أكمل اللّه تقربهم اليه أن قربهم فأصبحوا «مقربين»: قرّبوا لسبقهم سواهم، فسبقوهم في الجنة لقربهم!.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ‏ ترى من هم الأولون الثلة؟ ثم الآخرون القلة؟ أهم الأولون و الآخرون من هذه الامة؟ و الخطاب «كنتم» شامل كل الخليقة المكلفة، و لا دليل على الإختصاص بهذه الامة! و لا يربوا الأولون منهم على الآخرين عددا أو عددا، اللّهم في المعصومين الأربعة عشر، و السابقون يعمهم و كل سابق بالخيرات بإذن اللّه.

أو أن الثلة و هي الجماعة العظيمة هي ممن قبل الرسالة الأخيرة، من أنبياءهم و أئمتهم و ربانيهم، و لا ريب أنهم الكثرة الكثيرة، و القلة- و هي هنا بجنب ذلك الكثرة- إنها السابقون منذ الرسالة المحمدية الى يوم القيامة، من الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأخصين به: الأئمة الاثني عشر، و من أجلاء أصحابه و أصحابهم، ثم الربانيين القمة في هذه الامة الى يوم القيامة «1» فمهما كان أصحاب الميمنة منهم ثلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مرسلين، و بها عملوا الأشياء، و بروح الايمان عبدوا اللّه و لم يشركوا به شيئا، و بروح القوة جاهدوا عدوهم، و عالجوا معايشهم، و بروح الشهوة أصابوا لذيذ الطعام و نكحوا الحلال من شباب النساء، و بروح البدن دبوا و درجوا فيها ...

أقول هؤلاء هم الرعيل الأعلى من السابقين المقربين، و يتلوهم الدرجات التالين لهم، من الذين لم يوح إليهم، انما مثلوا رجالات الوحي في دورهم الرسالي ايمانا و أعمالا و دعوات.

(1).

و في روضة الواعظين قال أبو الحسن موسى عليه السّلام‏ إذا كان يوم القيامة نادى مناد:

أين حواري محمد بن عبد اللّه رسول اللّه (ص) الذين لم ينقضوا العهد و مضوا عليه؟ فيقوم سلمان و المقداد و أبو ذر، ثم ينادي: أين حواري علي بن أبي طالب عليه السّلام وصي محمد بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 67

كالأولين، فالمقربون منهم قلة دون الأولين، فأين عدد النبيين السابقين، و هم أئمة السابقين الأولين، و أين هم المعصومون في هذه الامة و هم أئمة السابقين الآخرين؟

و من ثم أوصياء كلّ و الأوفياء من أصحاب كلّ، السابقين الى الايمان برسالاتهم، أين هم بجنب الأوصياء الاثني عشر في هذه الامة، و الأوفياء السابقين القمة فيهم؟! مهما كان السابقون القلة أعظم درجة من السابقين الثلة و أتم عددا، و لكن هؤلاء أكثر عددا.

إذا فالسابقون السابقون، هم ثلة من الأولين و قلة من الآخرين، و لقد اصطلحت «الآخرون» لأهل الرسالة الأخيرة، كما ان رسولها رسول الساعة، و رسول آخر الزمن، و أمتها هي الامة الأخيرة، و انعطافا الى ساير آيات الأولين و الآخرين: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى‏ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ» (56: 49) كما و أن استعراض أحوال القيامة، الشاملة لأهل الجمع أجمع يشهد لهكذا تفسير، ذلك، و كما يشهد له أئمة السابقين الآخرين صلوات اللّه عليهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عبد اللّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي و محمد بن أبي بكر و ميثم بن يحي التمار مولى بني اسد و اويس القرني، قال: ثم ينادي المنادي: أين حواري الحسن ابن علي، ابن فاطمة بنت محمد بن عبد اللّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فيقوم سفيان بن ليلى الهمداني و حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: ثم ينادي: أين حواري الحسين بن علي؟ فيقوم من استشهد معه و لم يتخلف عليه، قال: ثم ينادي: أين حواري علي بن الحسين، فيقوم جبير بن مطعم و يحي بن ام الطويل و أبو خالد الكابلي و سعيد بن المسيب، ثم ينادي: أين حواري محمد ابن علي و حواري جعفر بن محمد عليهما السّلام، فيقوم عبد اللّه بن شريك العامري و زرارة بن أعين و بريد بن معاوية العجلي و محمد بن مسلم و أبو بصير ليث المرادي و عبد اللّه بن أبي يعفور و عامر بن عبد اللّه بن جذاعة و حجر بن زائدة و حمران بن أعين، ثم ينادي سائر الشيعة مع سائر الأئمة عليهم السّلام يوم القيامة فهؤلاء أول السابقين و أول المقربين و أول المتحورين من التابعين.

أقول: و المذكورون ليسوا هم الحاصرون، و إنما القمة منهم، أو أن هناك مهمة دعت الى اختصاصهم بالذكر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 68

أجمعين‏ «1».

هؤلاء السابقون المقربون، هم‏ «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ»: جنات فوق سائر الجنات، و أفضلها جنات المعرفة و الرضوان: في الاولى- و أحرى- في الاخرى، و هم في جناتهم:

عَلى‏ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ. مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ. يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ. وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ‏.

«مَوْضُونَةٍ» منسوجة نسج الدروع و عل نسيجها الذهب و الفضة: «مُتَّكِئِينَ عَلى‏ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ» (52: 20). مرمولة: مزينة بهما و بالجواهر «2» فهي موضونة توضن بقضبان الذهب و الفضة.

«مُتَّكِئِينَ عَلَيْها»: مطمئنين، حال كونهم‏ «مُتَقابِلِينَ» فجلسة التقابل بين المتحابين خير الجلسات و أحلاها «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ» غلمان حدثة وليدة «مُخَلَّدُونَ» لا في المقامة بالخدمة فحسب، و إنما مثلث الخلود: كونا، و كيانا:

خدمة و ولدنة.

و ترى من هؤلاء الولدان، أهم ممن أنشأهم اللّه في الجنة؟ أم هم- أو معهم- ولدان توفوا قبل أن يبلغوا الحلم، فلا هم يستحقون النار، و لا جنة الأبرار، فهم يخدمونهم دون تعب و لا شغب؟ قد يكون، و يوافقه العقل و النقل‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن أبي جعفر عليه السّلام‏ و نحن السابقون السابقون و نحن الآخرون‏

، و في روضة الواعظين عن الصادق عليه السّلام‏ ثلة من الأولين: ابن آدم المقتول و مؤمن آل فرعون و صاحب ياسين، و قليل من الآخرين: علي بن أبي طالب.

أقول، و هذا تفسير ببعض المصاديق منهما، مختلف فيه كعلي عليه السلام أو مشكوك الشمول كالثلاثة الاول.

(2) الدر المنثور 6: 155 عن ابن عباس قال: مرمولة بالذهب، و مثله عن مجاهد و سعيد ابن جبير و قتادة.

(3)

المجمع عن علي عليه السّلام‏ أنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها و لا سيئات فيعاقبوا عليها فانزلوا هذه المنزلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 69

ثم ترى أهم من ولد المقربين، و لكي لا يكونوا مهانين بما يخدمون؟ علهم هم: «وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ» (52: 24) إذ توحي اللام باختصاصهم بهم، أم انهم اختصوا بالمقربين دونما قرابة بينهم، و ليس في تطوافهم عليهم تطفيف عن شأنهم و إنما ترفيع و لا تخفيف، و لا سيما من كان منهم من ولد المشركين و كما يروى.

ثم و يكون طوافهم‏ «بِأَكْوابٍ»: أقداح، «أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا. قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً» (76: 15).

«وَ أَبارِيقَ»: آنية لها خراطيم و عرى، كلّ لما يناسبه من شراب‏ «وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ»: خمر هي مأخوذة من عين جارية متلمعة: «يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» (37: 47) «1».

«لا يُصَدَّعُونَ عَنْها»: صداع الرأس «و لا ينخرفون»: فراغ العقل.

وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَ حُورٌ عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ‏.

فاكهة حسب التخير: انتخابا لأحسنها تفكها، و لحم طير من أي نوع يشتهون، و بأية طبخة يريدون، أو انطباخة دون طبخ، فالفاكهة تختار لأنها عند الشبع، و اللحم يشتهى، فانه عند الجوع، فليس تعبير الاختيار و الاشتهاء، اشتهاء فوضى في التعبير، و إنما اختيار ببلاغة العليم الخبير.

«وَ حُورٌ عِينٌ»: جمع عيناء: واسعة العيون الجميلة، تحير الناظر إليها.

«كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ» المصون عن كل لمسة و نظرة، أو أية عارضة، لم تثقبه يد، و لم تخدشه عين، كذلك الحور العين إذ «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ» و يزيدهن لطفا انهن طائفات حول أزواجهن‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 227 ج 30 من التفسير: خمر الدنيا و الآخرة.

(2) لأن‏ «وَ حُورٌ عِينٌ» عطف على‏ «وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ» يطوف عليهم ولدان مخلدون و حور عين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 70

«جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ»: لا بما كانوا يعلمون أو يأملون، أو بما كانوا يعتقدون أو يؤمنون، و إنما عمل الإيمان الذي كانوا به يداومون.

هذا طرف من نعيم الجنة الجسدانية، فإليكم طرفا من الجنة النفسانية:

لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً. إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً فلما ذا اللغو هناك و هم غارقون في نعمة اللّه و معرفته، و لماذا التأثيم و لا إثم هناك و لا تأثيم، فإن بواعث اللغو، و هواجس اللهو، و وساوس النفس هناك منفية، لأنهم ظهروا على الحقائق كلها و ظهرت لهم، و كملت عقولهم و أحلامهم‏ «وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ» (47: 36) فلا أضغان تدفع الى تناحرات، و لا غلّ يدعو لتنافرات: «وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ» (15: 47) فدافع اللغو و التأثيم، جهل تحول الى العلم و المقربون كانوا عالمين، أو طيش استقر بالنعيم، و هم كانوا يملكون طيشهم، أو جهالة تحولت الى معرفة و هم كانوا عارفين، فلا لذة لهم أحلى من العبودية، و لا ذلة لهم أبلى من ترك العبودية، فحياتهم هناك حياة أمن و استقرار بإيمان، دون شغب و لا نصب، «لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً» فضلا عن أن يأتوا به‏ «إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً»:

قيل من رب العالمين: «سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» (36: 58) و قيل من الملائكة المقربين: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (13: 24) و قيل من سائر المقربين و سائر أهل النعيم: «تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ» (10: 10) فهي لهم سلام و دار السّلام: «لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (6: 127) «ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ» (15: 46) فليست لهم فيها إلا قيلات السّلام و حيات السّلام يرف عليهم فيها السّلام، فالجو كله سلام سلام، فانه دار السّلام، و صاحبها هو اللّه السّلام.

و من قيل السّلام السّلام، قيلات تحمل تزويدهم بمعرفة الرحمان و ذكره‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 71

بأسمائه الحسنى و صفاته العليا، و هل يأنس المقربون- و في جنة الرضوان- إلا بقيلات تقربهم زلفى الى الحنان المنان؟

و من قيله محاوراتهم فيما بينهم و سواهم من أهل الجنان، أنيسة حنونة أليفة ليس فيها إلا سلام سلام، فهم يسمعون سلام كما يسمعون سلام!.

و ترى ما هو وجه التكرار في «سلاما»؟ قد يكون رمزا الى مختلف السلام من اللّه و من أهل دار السلام، أو انه سلام لا يحمل ساما كما في سلام المنافقين و الذين في قلوبهم مرض، و إنما سلام يحمل سلاما بكل ما له من معنى صادق لائق، و قد يكونان هما المعنيّان.

ثم و من هنا نتبين أن «سلاما» خير تحية و إكرام، فلنستنّ بسنة أهل الجنة هنا فيسلم بعضنا على بعض.

وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ‏: هم أصحاب الميمنة المسبقين، يؤتون كتابهم بيمينهم و كما عاشوا يمين الكتاب و الدين، و ترى كيف سموا «أصحاب الميمنة» عند ذكر الأقسام، و «أصحاب اليمين» عند ذكر الإنعام؟

علّه لأن الميمنة هي سبب اليمين، فلولا ميمنة الدنيا و يمنها بيمينها، لم يؤتوا في الاخرى كتابهم بيمينهم، كما لو لا مشأمة المشئومين يوم الدنيا لم يؤتوا كتابهم بشمالهم أو وراء ظهورهم.

ثم و أصحاب اليمين لهم درجة بعد السابقين، ترى «ما أصحاب اليمين» في حالهم و حلهم و ترحالهم؟.

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ: شجر النبق‏

«يخضده اللّه من شوكه»

«1» فيستظل به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 156، أخرج الحاكم و صححه البيهقي في البعث عن أبي أمامة قال‏ كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقولون: ان اللّه ينفعنا بالأعراب و مسائلهم، أقبل أعرابي يوما فقال يا رسول اللّه! لقد ذكر اللّه في القرآن شجرة مؤذية و ما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما هي؟ قال: السدر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 72

أصحاب اليمين لكثرة غناءه في الإظلال، لسعة ورقة و تداخله، فكما اللّه يبدل سيئاتهم حسنات، يبدل سيئة السدر حسنة لكي ينتفعوا بما كان يشيكهم بشوكه، و ليتبرّدوا و ينتزهوا ببرده، أو و يأكلوا من فواكهه.

ان الحدائق في الجنان ظليلة\* فيها الكواعب سدرها مخضود وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ: شجر الموز «1»، المقصود منه الثمر للاستغلال و هو من أقوى الثمر و ألطفه، و المرغوب منه الورق للاستظلال، و من جماله نضد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فإن لها شوكا، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أليس يقول اللّه: في سدر مخضود، يخضده اللّه من شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة، انها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن اثنين و سبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر.

(1).

الدر المنثور 6: 157، أخرج عبد الرزاق و الفريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه في قوله‏ «و طلح منضود» قال: هو الموز، كما أخرج جماعة عن ابن عباس و أبي سعيد الخدري و الحسن و قتادة و مجاهد.

و روي عن علي و أبي عبد اللّه عليهما السلام‏ أنهما قرءا «و طلع منضود»

و هذا زور و افتراء عليهما عليهما السلام فانه خلاف القرآن المتواتر فليضرب عرض الحائط، و ما أسخفه رواية

تروى عن علي عليه السلام أخرجها ابن جرير و ابن الأنباري في المصاحف عن قيس بن عبادة قال‏ قرأت عن علي عليه السلام «و طلح منضود» فقال علي عليه السلام ما بال الطلح، أما تقرأ و طلع؟ ثم قال: و طلع نضيد، فقيل له يا أمير المؤمنين! أنحكها من المصاحف؟ فقال: لا يهاج القرآن اليوم‏ (الدر المنثور 6: 157).

أقول: ما هي دلالة طلع نضيد هناك على لزوم طلع- كذلك- في منضود هنا؟ و لو كان طلعا هنا فعلى إمام المسلمين أن يثبته طلعا و يمحيه طلحا، فأمثال هذه الروايات ليست إلا زورا من هؤلاء الذين يصرون على و صمة التحريف في القرآن، و هم يستندون فيه الى ما ينسبونه زورا الى الرسول و الأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

رغم المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ أنه قرأ «و طلح منضود» كما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏

و فسره علي (ع) بالموز، و تبعها الصحابة المذكورون مسبقا، و قد ذكر النبي (ص) في موضع آخر الموز من فواكه الجنة كما

في كتاب صنعة أهل الجنة و النار عن أبي جعفر قال قال رسول اللّه (ص): ... ان نخل الجنة ... و موزها و رمانها أمثال الدلى ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 73

الثمر و الورق، قرنا إلى قدم، ثم نضد أغراسه، فهو في مثلث النضد: بعضه على بعض، و هو فاكهة و إدام مع بعض! و ما ألطفه أكلا و هو حار الطبع، تحت سدر مخضود و هو بارد الطبع.

وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ: «وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا» (4: 57) فهو ظليل ممدود، منبسط لا يتقلّص، دائم لا تنسخه أو تتفرج به شمس أو سواها، بسقف و أشجار و خيام أم ماذا؟ مما يدل- مع سدر مخضور- على وجود الشمس في الجنة، هذه التي تكور ثم ترجع، أم سواها من شمس يستظل عنها أهل الجنة فيها «لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً» (76: 13).

وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ‏: مصبوب من عل دون انقطاع، أو جار في الأنهار نابعة دون أخاديد و أحفار.

وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ: كثيرة الطعوم و الألوان، و كثيرة الأنواع و الأعداد، و كثيرة المدة و المدى دون انقطاع و لا امتناع، لا تقطع لأنها من الرحمة الواسعة اللامحدودة، و لا تمنع، و لماذا تمنع؟ أ بخلا من المضيف؟ أم مرضا من الضيف؟ فلا بخل أبدا، و لا مرض هناك.

و من‏ «ظِلٍّ مَمْدُودٍ» و أحرى- ظل اللّه الممدود على أهل اللّه في دار كرامة اللّه: (أَ لَمْ تَرَ إِلى‏ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) (25: 45) و من‏ «ماءٍ مَسْكُوبٍ» اصول العلم الإلهي التي بها حياة أهل الجنة الروحانية، و من (فاكهة ..) فاكهة المعرفة و العلم، التي يتفكه بها أهلوها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

روى سعد بن عبد اللّه القمي باسناده عن نصر بن قابوس قال: سألت أبي عبد اللّه (ع) عن قول اللّه عز و جل‏ «وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ» قال: يا نصر! كأنه و اللّه ليس حيث يذهب الناس، إنما هو العلم و ما يخرج منه.

أقول: إنه من باب بيان أفضل المصاديق و أخفاها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 74

وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ. إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً. فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً. عُرُباً أَتْراباً. لِأَصْحابِ الْيَمِينِ‏.

(و فرش): جمع فرش- و فراش، فرشا للراحة اتكاء أو نوما عليه، و فراشا: حليلة ينام معها على الفرش (مرفوعة): عن الأرض، فرشا من حيث العلو معنويا و ماديا، و من حيث الأشكال و الأنواع، و مرفوعة عن الدناءات فراشا بمن فيها من حليلات: مرفوعات جلالا و جمالا و أحوالا. ف:

(إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً): أوليا بابتداع كالحور العين، أو ثانويا بعد ابتداء كالمؤمنات المنشآت في النشأة الاخرى، و كما

عن الرسول (ص): «ان من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز شمطا عمشا رمصا

«1»» «ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً» «2».

و ترى ما هي حاجة الأبكار من المؤمنات أو الحور المنشآت، أن ينشأن أبكارا كما الثيبات، فالأوليات كن أبكارا، و الاخريات حديثات الخلق المبدعات، لزامهن البكورة دون جعل حديث؟ علّ الوجه أن هذا الجعل هنا و هناك يجعل البكورة لهن لزاما، لا تزول بزواج:

(إن أهل الجنة إذا جامعوا النساء عدن أبكارا

«3») فللباكرات من الدنيا و الحور، تجعل بكورة الخلود، و للثيبات‏

«إن اللّه إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا»

«4» كأن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 158- أخرجه من عدة طرق عن انس قال قال رسول الله (ص).

(2)

الدر المنثور عن زيد الجعفي سمعت النبي (ص) يقول في قوله‏: إنا أنشأناهن إنشاء قال: الثيب و الأبكار اللاتي كن في الدنيا.

(3) الدر المنثور أخرج الطبراني عن أبي سعيد قال قال رسول الله (ص).

(4)

الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة ان النبي (ص) أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله (ص)! ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: إن الجنة لا يدخلها عجوز، فذهب يصلي ثم رجع فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة، فقال: إن ذلك كذلك- إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 75

«لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ» إذا فهن سواء في خلود البكورة بما أنشأهن اللّه فجعلهن أبكارا، و من ثم:

«عُرُباً أَتْراباً» .. «وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ» (38: 52) «وَ كَواعِبَ أَتْراباً» (78: 33) فما هي العرب و ما هي الأتراب؟

فالعرب جمع عروبة و هي المعربة بحالها و أقوالها عن عفافها و تعشقها لزوجها فهن المتعشقات لهم و المتغنجات، الجاذبات لهم و المنجذبات المتغزلات:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يعربن عند بعولتهن إذا خلوا |  | و إذا هم خرجوا فهن خفار |

فهن عرب بكافة مظاهر الزوجية و مآربها و معاربها، و بكافة مزاهر الجمال مع أزواجهن، و خفار مع سواهم، و من عرب مقالهن عربية كلامهن و لغتهن‏ «1» فإنها أجمل اللغات، و هي لغة أهل الجنة، فهن عرب في الأقوال و الأعمال و الأحوال! و الأتراب هن لدات منشآت مع بعض، متماثلات متوافيات السن و الجمال مع لداتهن، و مع أزواجهن، متكافئات معهم في شؤون الزوجية، عبر عنهن بالاتراب لمماثلتهن الترائب: ضلوع الصدر المتقارنات المتقاربات: «أَنْشَأْناهُنَّ»:

«عُرُباً أَتْراباً لِأَصْحابِ الْيَمِينِ» فهن أتراب لأصحاب اليمين كما هن أتراب مع بعض، و ترب العمر بين الزوجين و إن كان مرغوبا عنه في الدنيا، و لكنه مرغوب فيه في الاخرى، لبقاءهما على حالهما هناك، و تغيرهما عن أحوالهما هنا «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 159- أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه (ص) في قوله عربا: قال: كلامهن عربي،

و في كتاب صفة الجنة و النار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر (ع) في حديث‏ أوصاف أهل الجنة: صاروا .. و على لسان محمد العربية.

(2) ان مماثلة العمر بين القرناء من المرغوب فيه مبدئيا، كتقارب العقلية و الفكر كتقارب الجسم، و كونها مرغوبا عنها بين الزوجين إنما هو باعتبار المستقبل حيث يستقبلان الشيخوخة، و المرأة أسرع فيها، و الرجل بحاجة دائما إلى شابة تؤنسه، و أما إذا بقيا في عنفوان العمر فالمماثلة مرغوب فيها دون ريب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 76

لِأَصْحابِ الْيَمِينِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ‏.

و مهما كان السابقون الآخرون قلة و جاه ثلة الأولين، فأصحاب اليمين الآخرون ثلة كما الأولون ثلة، و أين ثلة من ثلة؟

و إذ لا تناسخ في الأخبار، و إلا كان أحدهما كذبا أو كلاهما، فلا يعقل أن تنسخ أية ثلة الآخرين من أصحاب اليمين، أية قلة الآخرين من السابقين، و كيف و الموضوع أيضا مختلف، فهنا أصحاب اليمين و هناك سابقون، فلتضرب أحاديث النسخ هنا عرض الحائط «1».

و الآخرون الثلة هنا هم من الامة الإسلامية كما الآخرون القلة هناك و كما يروى‏ «2» خلاف ما يروى ان «هما جميعا من هذه الامة» «3» فإذا كانوا جميعا منهم، فما هو دور الأوسطين من المسلمين، و ما هو دور سائر الأمم؟ أ فليس منهم أصحاب اليمين؟

و ترى أية ثلة اكثر عددا و أعظم عددا؟ آية الثلتين لا توحي بشي‏ء! فقد تكونان سواء، أو إحداهما أو فر من الآخر لحدّ لا تجعلها قلة «4»، و قد توحي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 155- أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: لما نزلت ثلة من الأولين و قليل من الآخرين ضرب أصحاب رسول اللّه (ص) و قالوا إذا لا يكون من امة محمد إلا قليل، فنزلت نصف النهار و ثلة من الأولين و ثلة من الآخرين، و تقابلون الناس- فنسخت الآية و قليل من الآخرين.

أقول: و لا يفسر القرآن هكذا إلا منسوخ عقله لا يميز بين السابقين القلة و أصحاب اليمين الثلة.

(2)

الدر المنثور: أخرج الطبراني عن ابن مسعود عن النبي (ص) في حديث طويل: اني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة فكبر القوم ثم تلا هذه الآية.

(3)

الدر المنثور 6: 159 عن أبي بكرة عنه (ص) في الآية «هما جميعا من هذه الامة».

(4)

الخصال للصدوق عن سليمان بن يزيد عن أبيه قال: قال رسول اللّه (ص) أهل الجنة مائة و عشرون صفا، هذه الامة منها ثمانون صفا.

أقول: الأربعون قبال الثمانين، لا ريب و انهم قلة، اللهم إلا إذا كانت صفوف المسلمين أقل عددا من صفوف غيرهم حتى يتقارب أصحاب اليمين الأولين و الآخرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 77

ثلة الآخرين: أصحاب اليمين، ان الامة الإسلامية ككلّ اكثر عددا من سائر الأمم، فأطول زمنا منهم، فدور الرسالات الواجدة برسلها بين الأمم، اكثر انتاجا من دور الفترة الرسالية، و إذا كان أصحاب اليمين من الرسالة الأخيرة ثلة كالأولين، من حيث العدد، فليكن الأولون قلة من حيث الزمن بجنبهم، أو ان اكثر الثلة في الدولة الأخيرة الإسلامية المهدوية، فلا تتطلب هذه الثلة زمنا أطول، فبالإمكان أن يكون زمن الأولين أطول من زمن الآخرين، لا ندري! وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ‏؟ و قد يكفي تعريفا بهم انهم أصحاب المشأمة الشمال، إذ يؤتون كتبهم بشمائلهم إمارة السقوط، كما يؤتى أصحاب اليمين بأيمانهم علامة النجاح، و ثم هنا الإجابة عن «أين مكانهم في القيامة»:

فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ. وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ‏:

«فِي سَمُومٍ» فالسمّ و السمّ كل ثقب ضيق كسم الخياط، فالسموم هو النار و الريح، الحاملتا السمّ، لطيفتا التأثير و مبالغتاه، تدخلان البواطن ثقبا و نقبا، فالهواء هناك ساخنة هباء تنفذ المسام بشواظ سامّة فتشوي الأجسام، فكيف إذا النار! ثم الماء هناك‏ «حَمِيمٍ» كالنار، لا يبرد و لا يروي و لا يغني من اللهب، لأنه نفسه لهب، و إذا كان المتسمم المحموم قد يخف عن سمّه و حمّه بظلّ، فلهؤلاء المناكيد «وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»: دخان لافح خانق: «لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» (77: 31) «لا بارِدٍ» يخفف عن وطأ السموم و الحميم‏ «وَ لا كَرِيمٍ» معتدل قد يعدل من شظا حمّته، أو يخففه عن قمته، و إنما يزيده تسمما و خنقا- و لماذا هذا العذاب الخناق:؟ ل:

إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ. وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ. وَ كانُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 78

يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ‏:

ثالوث الكفر باللّه و برسالات اللّه و بيوم اللّه.

فالمترف هو الذي أبطرته النعمة و أطغته و دللته، فأخذ من شهوته فيها مداها و انغمس فيها منتهاها، فليس هو كل ذي نعمة و لا كل طاغ دون نعمة، و سواء أ كانت نعمة المال التي أغفلته، أو نعمة القوة أو الجمال التي ألهته، أو أية نعمة من شأنها الإبطاء و الإطغاء، فجماع هذه النعم ظرف لجماع البطر و الطغيان، ثم و كل على حسبه.

فالفقير الذي لا يجد مالا و لا مجالا لتحقيق آمال من قوة أو جمال، إنه مهما كان كافرا لا يصل إلى قمة الكفر و الطغيان، اللهم إلا هامشا للطغاة المترفين، فهو أيضا من المترفين، إذ أترف في نعمة العقل الداعي إلى عبادة الرحمن، إلى نقمة الطغيان، و غرته هؤلاء بما يعدونه و يؤتونه من تافه الأنعام، فالترف له دركات، و كما الخروج عنه درجات، و المترفون بدركاتهم من أصحاب الشمال فهم في النار، و سواهم بدرجاتهم من السابقين أو أصحاب اليمين فهم في الجنة.

هذا، و لكن الترف الذي يجعل صاحبه طرفا للسابقين و أصحاب اليمين، هو ذروته لأصول الضلالة و الطغيان، و قد ينجو الهامش و لو بعد زمان و كما يلمح به القرآن:

«وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ» (34: 34) «وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى‏ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى‏ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ» (43: 23) هذا و كما انهم المعذبون الأصول، و السبب الرئيسي للعذاب‏ «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً» (17: 16) فأمر اللّه الموجّه إلى المترفين غير ما يوجه إلى غير المترفين، و لأنهم أولوا نعمة و قوة، فتكاليفهم أثقل، و عذاب التخلف عنها أعضل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 79

و مما يدفعهم إلى الترف إصرارهم على الخلف و النقض العظيم: «وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ» فالحنث هو الخلف و هو النقض و هو الميل عن الحق إلى الباطل، و القول غير الحق، و الذنب، فالحنث العظيم هو العظيم من كلّ، و لا أعظم من نكران وجود اللّه، و الشرك باللّه، و تكذيب رسالات اللّه، و نكران يوم اللّه.

ان حنث نكران القيامة هنا مفرد بالذكر، و لأن الأصل في نكران سواه إنكاره لا سواه، و لكي يخلصوا عن عب‏ء التكاليف الإلهية.

فنكران الالوهية الحقة حنث عظيم بكل معانيه الخمسة: فهو خلف للفطرة التي فطر اللّه الناس عليها، و نقض لميثاق الفطرة و حكم العقل، و ميل عن الحق الذي تتوفر له كافة البراهين، إلى الباطل الذي ترفضه كل البراهين، فهو قول بغير حق، و ذنب عظيم لا أعظم منه، و كما يتلوه متفرعا عليه حنث نكران الرسالات و نكران يوم القيام.

هؤلاء المترفون، كان حياتهم الترف، و الإصرار على الحنث العظيم، و منه نكران اليوم العظيم: وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ. قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى‏ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ‏.

تقوّل عن استبعاد و بكل إصرار و استبداد: (أَ إِذا مِتْنا) و صرنا ترابا، ثم مضى زمن بعيد عن الكينونة الترابية: (وَ كُنَّا تُراباً) فبعد هذه المدة و هذا التحول‏ (أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) كما كنا من قبل: تنكّر للبعث المؤكد المشار إليه باللام (ل) تأكيدا للنفي، مقابلة الإصرار بالإصرار! (أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ) الذين هم أبعد منا زمنا، فهم في أمر مريج من ثالوث الاستبعاد: بعدين زمنيين بعد بعد أصل البعث‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اقنومه الأول الموت و الثاني الكينونة الترابية الماضي عليها زمن يعبد لهم. و الثالث لمن هو أبعد منهم زمنا: آباؤهم الأولون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 80

فما هو الفارق بين الأولين و الآخرين بعد كون الكل ميتين، و استحقاقهم الحساب و الثواب أو العقاب على سواء، «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى‏ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»: وقت معين عند اللّه معلوم لدى اللّه، مهما كان مجهولا لدى غير اللّه، جمعا مؤكدا تؤكده البراهين‏ «1».

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ‏:

«إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» (44: 46) «أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ» (27: 68).

هذه مواصفات للزقوم، أنها أنحس شجرة في الجحيم صوره و سيرة و نبتا:

كما و أن جرس اللفظ يصور ملمس المعنى: حشنا شائكا في الحلوق، هائلا في العيون، كالمهل يغلي في البطون، و ما دامت هي من أصل الجحيم فهي آصل من الجحيم، و ما كان طلعها كأنه رؤس الشياطين، فهو تناسب أكلا لرءوس الشياطين.

و ترى إذا كانت هذه شجرة الزقوم فكيف يأكلها الضالون المكذبون؟ أليس الجوع أحلى من هذه الشائكة الفاتكة؟. لأن‏

«ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام و الشراب‏

«2»» و الجوع طاغ، و المحنة طاغية! و لا طعام لهم إلا هيه!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «ان» و «ل» و صيغة المفعول الدال على إثبات «مجموعون» تؤكد إثبات ما نفوه و تصديق ما رفضوه.

(2) تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 81

أ فصبرا على الجوع المنهك المهلك و لحد الموت؟ فلا موت هنا و لا فوت، أم لو قدر على الصبر فلا يطعم الزقوم؟ إنه طعامه شاء أم أبى! فليس طعام الإكرام حتى يختار، إنه طعام العقاب فلا بد منه و لو يحتار، و كذلك طعام الدوام في العذاب فليأكله بالإجبار، فالضالون المكذبون إذا بين واجبين أمام ذلك الطعام، ذاتي ضرورة الحاجة إلى الأكل، و مفروض ضرورة العقاب و البقاء إلى أجل مفروض.

و مما يوحي باضطرارهم الثانوي في أكله‏ (فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ) فالأولى منه يفرض ما يبقي الرمق لأملأ البطون.

ثم أن ثالوث: حرارة الجحيم، و شائكة الزقوم للحلوق و البطون، و ملأ البطون، لتدفع إلى الماء، فترى ماذا يشربون؟:

فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ‏: الماء البالغ الحرارة: (وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ) (47: 15) و بعد ما تقطعت و تفسخت بالزقوم، عذابا فوق العذاب، و ترى- إذا- يشربون منه قليلا؟ كلا:

فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ‏: الهيام داء يأخذ الإبل من العطش‏ «1»، فالهيم هي الإبل المراض المصابة بداء الاستسقاء و في الرمضاء، إذ لا تكاد ترتوي من الماء، فهم- إذا- بطونهم مليئة من الزقوم ثم من الحميم، عذابا دائبا لا يخف، و لا يخف عن العطش و الجوع، رغم ملي‏ء الطعام و ملي‏ء الشراب دونما انقطاع.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد يسمى كل من، أو ما يشرب الماء الكثير، هيما كتلال الرمول الساخنة من حر الشمس، فإنها أيضا هيم لا تروى من الماء، و كما

يروى عن الإمام الصادق (ع) قال‏: ثلاثة أنفاس في الشراب أفضل من نفس واحدة في الشرب، و يكره أن يشبه بالهيم- قيل و ما إليهم؟

قال: الرمل، و في نقل آخر عنه: هي الإبل،

و هو الموافق لأصل اللغة.

(الفرقان- 6)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 82

و مما يوحيه شرب الهيم، كراهة الشرب الكثير أو المتواصل، أو بنفس واحدة، فإن‏

(ذلك شرب الهيم‏ «1»).

هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ‏: و النزل ما يقدم للضيف إكراما له عند نزوله إلى المضيف، فالنزل للراحة و الاستقرار، و إذا كانت هي نزلهم التي لا راحة فيها و لا قرار، فكيف إذا عذابهم في حميم النار، نعوذ باللّه العزيز الجبار.

و من ثم ترى سردا لبعض البراهين على إمكانية المعاد و ضرورته.

[سورة الواقعة (56): الآيات 57 الى 96]

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ (57) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (58) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (61)

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى‏ فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (62) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (63) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66)

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ (70) أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71)

أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (72) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74) فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (75) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (78) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (79) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (80) أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (81)

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (82) فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86)

تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (91)

وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في تهذيب الأحكام بإسناده عن سليمان بن خالد قال‏. سألت أبا عبد اللّه (ع) عن الرجل يشرب بالنفس الواحد؟ قال: يكره ذلك و ذلك شرب الهيم- قال. و ما الهيم؟

قال. الإبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 84

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ‏ «خلقناكم» الخلق الأول كما تصدقون: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» (43: 9) «فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ» نا- لم لا تصدقوننا «1» في الخلق الثاني و إن كان مثله، بل و هو أهون عليه! «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) فذلك إبداع و هذا تكرار فهو أهون، لو قيس خلق بخلق، و لكن الكل لديه هين على سواء:

«قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» (19: 9) فلا تفاضل بين قدرته و لا تفاصل، و إنما يحتج علينا بما عرفناه و تعودناه من هين و أهون، ان إعادتنا في المعاد أهون من خلقنا الأول من نطفة و من تراب، و هو كذلك أهون من خلق المادة الأمّ لا من شي‏ء، فالإعادة أهون من أصل الخلق بمرحلتين‏ «فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ»؟

ثم الخلق الأول فضل غير موعود، و الثاني عدل موعود، عدل لحدّ كأنه غاية الخلق أجمع: «وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ» (45: 22) ثم و لو لم يكن غاية فهو عناية واجبة بحكم العقل و العدل، حتى و لو لم يعد به رب العدل، كيف و قد وعد و ردّد الوعد على السن رسله:

«كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ» (21: 104) «رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ» (3: 9).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لو لا بمعنى لم لا، في مقام الاعتساف و التنديد، مثل‏ «فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 85

فتصديق المعاد الحساب الجزاء واجب في اطر أربع: إمكانية: المماثلة، إمكانية: الأولوية، الضرورة ذاتيا عقلا و عدلا، و الضرورة الوعدية «فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ»؟! هذه هي سنة اللّه في خلق الإيمان الصادق باستعراض المواد الأولية للكون و إرجاعنا إليها في خلقها و تطويرها، و لكي نتخطى من التفكير فيها إلى ما يتوجب علينا تصديقه، و كما يخلق هذا الكون الغامض من مواده الأولية البسيطة ... دون أن يكلفنا الخوض في فلسفات معقدة بعيدة عن الأفكار، غريبة الأوطار، فإن شريعة اللّه لا تخص الفلاسفة العقليين و لا التجريبيين، بل هي شاملة للجنة و الناس أجمعين، كل يعرفها بقدره، و يستدل لها بقدره، كالماء و الهواء المستفيد منهما الناس في أطر على سواء، و في اخرى حسب المستطاع، و الماء هو الماء و الهواء هي الهواء.

يتحدث هنا في آيات ست عن من خلقهم؟ و كيف خلقهم؟ و كيف يميتهم ثم ينشئهم؟ و ما هو الرباط بين الموت و الحياة بدء و عودا، برهنّا هنا و هناك على إمكانية و ضرورة المعاد الحساب، مبتدء ببرهان قصير في لفظه، كثير في معناه و عمقه: «نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ» و من ثم إلى سائر التفاصيل و التعاليل:

أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ. أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ‏:

(أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ) منيا، ثم- بعد تطورات جنينية- إنسانا (أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ) إياه- منيا و إنسانا.

فمهما كنت أنت المعني، فلست أنت خالق المني، و أين خالق من ممني؟! فإن كنت تحسبك زورا و غرورا انك الممني خالق للمني؟ فمم خلقته؟ و متى! و كم عدد خلياته ذكرا و أنثى؟ و هل أمنيته لتخلق منه ذكرا أم أنثى أو خنثى أم ما ذا؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 86

فهل من مجيب، و لو من عباقرة الأخصائيين في علم الجنين؟ اللهم كلا! و لقد مضت عشرات القرون حتى كشفنا أخيرا عن النزر القليل الضئيل من كيان المنى، و كيف يمنى؟ و من أين يحمل؟ و ماذا يحمل؟ و ماذا يحمّل‏ «1»؟

فليس دورك أنت إلا أن تشتهي فتمني، و لا صاحبتك إلا أن تحمل المني، ثم تنقطعان عن كل صلة و عملية أو محاولة إلا أخذ الحائطة ألا تجهض، و من ثم فسائر الصنع و كلّه للخلاق العليم، و كما صنع المني مما صنع، و أنت لا تعلم منه كثيرا و لا قليلا، إلا زهيدا ضئيلا على ضوء العلم إن كنت من أهله (أ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون)؟: المني منيا ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما، ثم كسوه لحما، ثم إنشاءه خلقا آخر، أنتم أو نحن؟!

(بل أنت يا رب)

«2».

و قد يتحسب الناكرون ان سنة التكوين جرت على خلق الإنسان من مني، و لا توالد فلا مني يوم القيامة يمنى حتى يخلق مرة اخرى! و الجواب ان خالق الإنسان من مني يمنى، قادر أن يخلقه من حالة اخرى، و كما خلق الإنسان الأول و لا مني يمنى، فإذ تصدقون أنه الخالق في الصورتين بمني و دون مني، فما يمنعكم من تصديقه في خلقه مرة اخرى، فآية الخلق العام:

(نَحْنُ خَلَقْناكُمْ ...) للتدليل على إمكانية و لزوم المعاد، و آية (ما تُمْنُونَ ...) دليلا على عدم انحصار خلقه في كيفية خاصة، فإنه الخالق على أية حال: يخلقكم في آخر حال كما بدأكم أول مرة (كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ).

فهذه رؤية، و إلى رؤية اخرى:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع من سورة العلق ص 363- 364 الجزء الثلاثين.

(2)

الدر المنثور 6: 160- اخرج جماعة عن حجر المرادي قال‏: كنت عند علي (ع) سمعته و هو يصلي بالليل يقرء فمر بهذه الآية «أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ» قال: بلى أنت يا رب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 87

(أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ...) «1» رؤية اخرى في ما تمنون تجعلكم تصدقون بيوم الدين، فلقد تسلل المني من أجزاء البدن، التي هي كلها حية حياة الإنسان، و بانفصالها عنها تموت عن هذه الحياة، و باستقرارها في الرحم و تنقلاتها من حالة إلى اخرى ترجع إليها في صورة إنسان آخر حياة اخرى تماثل الاولى، فكما اللّه يحيي هنا و يميت ثم يحيي مرة اخرى، كذلك و أحرى في الحياة الاخرى:

(وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى‏ فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ)! و إذا كانت الحياة بتقديرها من اللّه، فهل الموت و هو انتهاء دور من الحياة ليس بتقدير اللّه؟ و لكي يكون مسبوقا لا يقدر على إعادتها:

نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ. وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى‏ فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ‏.

فهو السابق في الإحياء، ثم الإماتة، فكيف يكون مسبوقا عاجزا عن تحقيق ما قدره من آجال، دون تقدم لها و لا تأخر: (وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ) (8: 59) (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ...) (29: 4) (ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ) (15: 5).

ام كيف يكون مسبوقا على تبديل أمثالهم و إنشاءهم فيما لا يعلمون؟

إنه سابق هنا و هناك، و في كل تحقيق و تبديل و إنشاء كما يشاء! دون سبق عليه في سباق استباق الآجال، و لا سباق تناثر الأبدان بعد تحقق الآجال، و لا سباق ضلال الأجزاء و تناحرها، و لا سباق أصل الموت، فلا تتغلب الأسباب و تسبق مسبب الأسباب، دون تحقيق ما توجّب و وعده من تبديل الأمثال و الإنشاء الجديد، فليس الموت خارجا عن تقديره، أو انه بتقدير غيره، حتى يكون مسبوقا في حوادث الموت، فتفلت عنه أزمة الاحياء بعد الموت، بل هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفاء هنا و فيما بعده تفريع للأدلة الفرعية للمعاد على دليل الأصل «نحن خلقناكم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 88

سابق كافة الأسباب في الحياة و في الموت، فكذلك الإحياء بعد الموت، دون أن تسبقه الأسباب التي هي من أمره‏ (وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ، وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ).

(نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ‏ ... عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ) «1» تقدير صالح يخلفه الجزاء بعد الإنشاء، فالموت الفوت الذي لا نشأة بعده، انه موت الفوضى، لا يتأتى من الحكيم العليم، و إنما هو التقدير الناحي منحى الإنشاء في خلق جديد.

و ترى ماذا يعنى تبديل الأمثال؟ المبني عليه تقدير الموت؟ هل انه تبديل كل سلف بخلفه: (... إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) (70: 42): نبدلهم خيرا منهم يخلفهم؟ فليس تقدير الموت ينحو إلى هذا التبديل، و إنما هو تقدير الحياة و الموت مع بعض، على أنه تبديل بالأمثال لا تبديل الأمثال.

او انه تبديل كل منهم بمثله في النشأة الاخرى، تبديلا بنفسه في صورة و حالة أخرى، لا تبديلا ببديل غيره: (نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا) (86: 28): بدلنا أمثالهم تبديلا تجهلونه: (وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ) و إن كنتم تعلمون أصل الإنشاء درسا من النشأة الاولى: (وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى‏ فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ)؟

«أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى‏ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى‏ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ» (26: 81) «نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ‏ ... عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ ...»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «على أن نبدل» متعلق ب: قدرنا و مسبوقين، فتقدير الموت هو على الإنشاء الآتي، و ليس مسبوقا على الإنشاء الآتي ... قدرنا ... على أن نبدل، و ما نحن بمسبوقين على أن نبدل ...

و مما يبرر الإتيان ب «على» للمتعلق الأول «قدرنا» و إن كان في الثاني «مسبوقين» أيضا وجه في «على» هو التدليل على عدم المغلوبية، ف «على» إثباتا تدل على الغلبة، و نفيا تدل على عدم المغلوبية «ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ» على أمرنا «إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ» تأمل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 89

(وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ):

فإن تبديلكم أمثالكم غرض من تقدير الموت، و هو مقدور لنا ميسور.

فليس الهدف من تقدير الموت انقطاع الحياة و حصول الفوت، و لا أننا مسبوقون مغلوبون في التبديل و الإنشاء، بل المنشأ الاخرى، و المثل المبدل اليه، خير من النشأة الاولى صفاء فبقاء: (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) (70: 43): يوم تبديلهم خيرا منهم أبدانا، صفاء فبقاء، فشرا لهم عقابا و جزاء.

إن الخاطبين في آيات تبديل الأمثال ليسوا هم الحاضرين يوم نزول القرآن، بل الأولين و الآخرين المجموعين إلى يوم الدين، فهم أجمعون يبدّلون أمثالهم، التي هي خير منهم، كما و هم أجمعون ينشأون فيما لا يعلمون‏ «1» لا أن كل جماعة تبدّل مثلها أن يخلفها مثلها فإنه تبديل بالمثل، و ليس تبديل المثل‏ «2» بل و ليس تبديلا أيضا فإنه في أصل اللغة تغيير شي‏ء عن حاله، و إنما هو إبدال: جعل شي‏ء مكان آخر «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فضمير الجمع هنا و هناك يعني كل الجمع، لا ان الأول يعني المخاطبين «أمثالكم» و الثاني كل الجموع «و ننشئكم» إلا أن يعني بالجمع الثاني نفس الأول، و يوم الإنشاء الآخر يوم الجمع- لا جماعة خاصة.

(2) التبديل مما يتطلب مفعولين أحدهما مذكور هنا: أمثالهم، فالأول محذوف هو هم. و إذا كان المقصود جعل اخلاف لهم أمثال فالواجب لغويا أن يقول أن يبد لهم بأمثالهم، و آيات التبديل و الإبدال أقوى شاهد على ذلك: «عَسى‏ رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها» «عَسى‏ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ» «فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً» بخلاف آيات التبديل التي تنحو منحى تحويل الحال.

(3) لسان العرب للمنظوري ج 1 ص 176، كما و في الآية «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها» فهي هي و هي غيرها «فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» بخلاف آيات الإبدال كما مضت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 90

هنا تبرز حقيقة ناصعة من طيات هذه الآيات، أن المعاد في المعاد هو مثل الميت، لا عينه فإنه محال، و لا غيره، أو مع أجزاء غيره فإنه خلاف العدل، و هو هرج و مرج، فالبدن المعاد هو هو أصلا و جوهرا، و ليس هو هو وزنا و صورة، فإنه يخلق مرة اخرى في خلق جديد: و هذا الخلق الجديد هو مثل العتيق العتيد مماثلة الشي‏ء لنفسه في حالتين: (وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً. أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى‏ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...) (17: 99) (أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) (50: 15) فلا إعادة للمعدوم هناك، و إنما نشأة اخرى و خلق جديد هو مثل القديم، خلقا و جوهرا.

و ترى أنه يخلق الروح من جديد، كما يخلق البدن من جديد؟ أقول أجل، و لكن أين جديد من جديد، فجديد البدن هو صورة جديدة عما كان بدنا دون روح، و لكن جديد الروح ليس إحياءها من جديد، و إنما إحياءها عن صعقتها و إغماءها و إغفاءها إلا من شاء اللّه: (وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى‏ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ) (39: 68): صعقة الأحياء بالحياة الدنيا، و صعقة الأحياء بالحياة البرزخية، فمن لم يمت حتى الصعقة ليست له حياة برزخية، و من هو ميت حينها و حي برزخيا، يصعق: فلا هو حي و لا هو ميت، برزخ بين الموت الفوت و الحياة البرزخية، و هو آخر رمق من الحياة.

ففي الخلق الجديد تحيى عن الصعقة الروح نفسها، و يخلق البدن مرة اخرى، فيصدق تبديلهم أمثالهم، حقيقة في أبدانهم، و إعادة كاملة الحياة إلى أرواحهم و رجعها إلى أبدانها.

و هذا نزر قليل من إنشائنا فيما لا نعلم، ندرسه عن النشأة الاولى، و عما يوحيه اللّه هنا: (... نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 91

إن البدن الجديد يشابه القديم: أنه على مثاله، و أنه كان فيه، و يفارقه أنه خلاصة منه، دائبة مع الروح مدى الحياة، قابلة للخلود، بعيدة عن الفساد، بخلاف العتيق البائد غير الخالد، الناقص و الزائد، إذا فالجديد خير من العتيق صفاء و جلاء، و إن كان أبلى منه بلاء إن كان من أهل البلاء، و لكنه خير جزاء إن كان من أهله، خيرا على خير.

و

قد يروى صحيحا عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام‏: سئل عن الميت يبلى جسده؟ قال: (نعم- حتى لا يبقى لحم و لا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة «1»)

و كما

يروى عنه في البدن المعاد: (هي هي و هي غيرها).

نبذة عن تبديل الأمثال كما يخطر ببال:

إن الروح المفاقة بعد صعقتها تعود يوم القيامة الكبرى إلى شخص هذا البدن الذي صار رفاتا، تعود إليه بعد خلقه ثانيا على مثال صورته الاولى، متخلصا متحللا عما زاد على أجزاءه الأصيلة، التي خلق منها أول مرة: (كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (7: 29) (كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) (21: 104) فالعود على مثال البدء في خلق أول إنسان، و كل إنسان.

فكما ان كل إنسان مخلوق من سلالة من طين و هي الماء المهين (المني) و هو سلالة و صفوة من كافة أجزاء الإنسان، التي هي سلالة من مختلف الأغذية، التي تسللت أولا من طين تحول غذاء نباتا و حيوانا، فالمني إذا سلالة من طين، من طيات هذه التحولات، و من ثم النطفة سلالة من هذا الماء المهين، تجعل في قرار مكين من المبيض، لكي تنمو و تصبح جنينا بعد طي مختلف الصور خلقا بعد خلق، و هذا في الخلق الأول لكل إنسان إلا الأول.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 21 ص 43- ح 7 و فيه ج 37 ح 5 «و البدن يصير ترابا منه خلق»

أي الطينة المشار إليها في الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 92

فكذلك حين العود إذ تصطفى من طينه سلالة، و منها سلالة أخرى، تتخلص في الاولى عن الأجزاء الملتحقة بها طول الحياة، و في الثانية عن ثقل البدن الدنيوي لحدّ يصلح للخلود في دار الخلود، بريئا عن المرض و الموت و سائر العوارض الطارئة عليه يوم الدنيا، و حيث ان‏ (ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ) (31: 28) يكمل المطلوب في العود كما البدء: ان البدن المعاد في المعاد سلالة من سلالة من طين الإنسان، يخلق من الطينة التي خلق منها أول مرة.

و كما الإنسان الأول خلق من صلصال من حماء مسنون و طين لازب كالفخار، و كل ذلك دون تحول التراب منيا ثم جنينا، و دون مكوث الرحم طيلة شهور، فكذلك إعادته خلقا ثانيا في المعاد، فيصير طينه حماء صلصالا: طين أسود نتن صلب، فيبرئه اللّه و يصوره كصورته الاولى كالفخار، قضية مماثلة العود للبدء، فتتم الإعادة كما بدء: (كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) «1».

و هل الأمثال المبدل إليها من المثل أو المثل؟ قد تؤيد المثل آيته:

(.. قادِرٌ عَلى‏ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) و كما يجب أن يكون البدن المعاد مثل الأول و إن في الأصل، و لكنه مثل مثل: فلو كان مثله فقط وجب حمله ما كان يحمله دون زيادة و لا نقصان، و لو كان مثله فقط جاز أن يدلّ عليه بمشابهة و ليس منه في شي‏ء، و ليس هذا إعادة و تبديلا عادلا، و إنما البدل العادل هو المثل المثل:

مثل يدل عليه علامة له و آية، و مثل أنه يحمل منه الأصل مادة و الصورة كما يحق، فالأمثال المبدل إليها تجمع المثل و المثل، و يا له جمعا ما أحسنه و أعدله.

و أحرى الأمثال يوم المعاد أمثال السيرة و الأخلاق، التي تتحول صورة، و أمثال الأعمال و الأقوال التي تبقي في أعضاءها و أجواءها، و من ثم تشهد معها لها أو عليها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع (عقائدنا) بحث مقارنات المعاد ص 271- 278.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 93

هذا من تبديل الأمثال في الاخرى، كما و ان هناك تبديلا للأمثال في الاولى:

(أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ...) إذ يأخذ المني من الأصلاب و الترائب، ثم يخلق منها أمثالكم. فإذ خلق من منيك مثلك، فقد خلقك مثلك، و كذلك اللّه يخلقك مثلك من منيك و طينتك يوم القيامة، و إن كان فرق بين مثل و مثل، فهنا من منيك مثلك ولدا لك، و هناك منيك الذي خلقت منه أول مرة، تخلق منه مرة أخرى مثل الاولى، فما أوضحه مثالا خلق الأمثال يوم الدنيا بخلق الأمثال في الاخرى! فكما ان‏ (ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ) كم (أمثالكم) في الاولى‏ (وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ) في التطورات الجنينية، كذلك و أحرى‏ (ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى‏ أَنْ نُبَدِّلَ) كم (أمثالكم) في الاخرى‏ (وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ) فلتدرسوا للنشأة الاخرى من الاولى:

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى‏ فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ‏:

درسا في مرحلتين من النشأة الاولى: (نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ) (أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ...) درس الأولوية في المرحلة الاولى و لأن النشأة الاخرى أهون منها و أحرى، و درس المماثلة التامة في المرحلة الثانية: خروج المني من الأجزاء الحية و انفصاله عن الحياة الانسانية، ثم رجعه إليها عبر التطورات الجنينية، دروس حاضرة حاذرة من كتاب تكوينكم تذكركم النشأة الاخرى.

(عجب كل العجب لمن أنكر النشأة الاخرى و هو يرى النشأة الاولى)

«1»! أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ. أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ‏.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده إلى أبي حمزة قال: سمعت علي بن الحسين (ع) يقول:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 94

هنا زرع و هناك حرث، و أين حرث من زرع؟ فالزرع هو الإنبات و لا منبت حقيقة إلا اللّه: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ ...» (6: 141) «يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ ...»

(16: 11) «وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً» (18: 32) «يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً» (39: 21) فإنشاء الزرع و إنباته، و جعله و إخراجه، إنه من اللّه، مهما كان حصده و قطعه من خلق اللّه، و إذا ينسب الزرع إليهم أحيانا بتلميح دون تصريح: «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» (48: 29) فانما هي نسبة مجازية توسعية لأنهم يبذرون و قد يسقون و يصلحون، دون حول و لا قوة فيه إنشاء و إنباتا إلا بمشيئة اللّه، فلو شاء لم تبدأ رحلتها، و لو شاء لم تتم نباتها و نماءها، و لو شاء لجعلها حطاما بثمارها، أو قبل أن تؤتي ثمارها: «لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً ...»: هشيما متفتتا متكسرا تذروه الرياح و كان اللّه على كل شي‏ء مقتدرا. «فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ»: تتعجبون يائسين مما أصيب به زرعكم و تتحدثون قائلين: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ»: مخسرون فيما بذرناه و بذلنا لزرعنا إذ خاب سعينا «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ»: عن نصيبنا من رزق أو عن رحمة اللّه.

فلو أنكم أنتم الزارعون، فلما ذا تحرمون منه أنفسكم و تغرمون؟ فما الزرع إلا من عند اللّه العزيز الحكيم، يمنحكم ثمره و يسمح لكم خيره، أن يسّر البذرة في رحلتها الناجحة كما فعل فيما تمنعون بأدواره الجنينية و قبلها، حذوا بحذوه‏

(لا يقولن أحدكم زرعت و لكن ليقل حرثت)

«1».

و لتأخذوا درسا من البذرة المزروعة التي تحصدون، أنكم كذلك في القيامة تحصدون، فبذرة الحياة الدنيا لا حصاد لها وافيا إلا اليوم الذي فيه تحشرون.

و كما أن البذرة الميتة نباتيا تحيى مع الماء و الأرض، ثم تموت، و من ثم تحيى مرة اخرى و مرات في كل حصدة و زراعة، فلو لا تصدقون أن اللّه الذي أحياكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 160- أخرجه جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (ص): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 95

ثم يميتكم، أنه سوف يحييكم لكي تحصدون بعد ما تحصدون؟ و لتجزى كل نفس بما تسعى.

أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ‏.

«الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ» يختص هنا بالذكر بين سائر الماء، لأنه أصل الحياة المباشرة للإنسان، ثم بواسطة النبات و الحيوان حياة ثانوية مكملة لها.

فهل أنتم الشاربون أنزلتموه من المزن: السحاب المثقل بالماء، أم اللّه؟ فمن هذا الذي يزجي سحابا من أبخرة المياه فيبسطه في السماء، و يسقي به من يشاء؟

و من الذي خلق عنصر الماء من قبل و حوله إلى مختلف الحالات، و جعله أصل الحياة؟ أنتم أم اللّه؟ «فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ»؟.

«لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً»: بدل العذب الفرات: مالحا مرا حارا بأشده لاهبا ملتهبا كالنار، حاملا لعنة الموت لا رحمة الحياة، يؤج بكم إلى عجيج الصرخات‏ «1»، و لكنه جعله لكم عذبا فراتا سائغا شرابه، مهما جعل من دونه ملحا أجاجا لغير الشرب من مصالح الحياة «أَ فَلا يَشْكُرُونَ؟».

و كما أن هذا الماء يحمل الحياة، بضمة- و هو ميت- إلى أجزاء ميتات، فلو لا تصدقون أن اللّه يرسل هذا الماء إلى رميمكم و رفاتكم فيرجعكم إلى الحياة؟.

«أَ فَلا يَشْكُرُونَ»: عقليا أن تصدقوه في نبإ المعاد، و عمليا أن تقدموا خيرا لأنفسكم ليوم المعاد؟

أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ. نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ‏.

علّ ذكر المني و الماء و النار يوحي بأن النشأة الاخرى سوف تكون في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه كلها معاني الأجاج كما في لسان العرب لابن المنظور الافريقي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 96

إطار هذا المثلث، أن اللّه يحييه من النطفة التي منها خلق، و هي الطينة الأصيلة المخلوق منها الجنين، الباقية طوال الحياة، الحاملة كافة الأعضاء، هذه! دون الزوائد الملتحقة بها من هنا و هناك، و المنفصلة عنها كذلك إلى هنا و هناك، يرسل اللّه الماء بالنار على هذه الطينة فيحييها كما خلقها أول مرة: «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»! «1».

إن النار متاع للحياة كما الزرع و الماء متاع، قواعد ثلاث تتبنى الحياة متناصرة في مختلف الحقول، نباتية و حيوانية و إنسانية أم ماذا؟ فما هو دور الإنسان بشأن النار؟ اللهم ليس إلا الإيراء: إيقاد الزند- الناجح، دون الكابي، فهل للإنسان إلا إيقاد النار بوقودها الأصيل: شجرة النار- كما يصنعه البدائيون- أو غير الأصيل كسائر الوقود المصطنع- كما يفعله المتحضرون-؟

و كما النار تشمل سائر النار، و إلى نيران الكهارب و الاوكسيجين و سائر الإشعاعات النارية و النووية، كذلك شجرة النار، التي تتشجر فتتسعر منها النار، من الشجر الأخضر و إلى غيرها من الشجر: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ» (36: 80).

تختص النار هنا بالشجرة الأخضر، و هناك تعمّ الشجر، و ليس اختصاص الانحصار، إنما الذي يعرفه كل إنسان، و إلا فما من مادة إلا و تحمل نارا، من عناصر و جزئيات و ذرّات، و من ثم يتفجر أنها على ضوء العلم تتوقد مختلف النار، كهربيا و ذريّا أم ماذا؟.

فكما أن من احتكاك فرع من شجرة بفرع من شجر آخر تورى نار، كطريقة بدائية بادئة في إيراء النار، كذلك سائر النار بسائر الإيراء من سائر الأشجار.

ثم هناك وقود أول و وقود ثان و إلى سائر الوقود، من شجر الإيراء، و من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نبحث عن المادة المعادة في المعاد في مجالات أوسع إن شاء اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 97

حطب و زيت و بترول أم ماذا؟ «أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ؟» أنت يا رب! و لماذا؟

«نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً»: لإمكانية المعاد، فكما أنها من اصول الحياة في المبدأ، كذلك هي في المعاد، أن تتعاون مع الماء في الطينة فيرجع كل ببدنه الأصيل! فهذه تذكرة.

و من ثم تذكرة لنار المعاد، التي تورى على من قدمتها يداه، و أن اللّه ليس بظلّام للعبيد ...

«وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ»: أقوى: دخل في قواء: مفازة، و هي كذلك من الأضداد من القوة نفيا و إثباتا. فالغني مقو لكونه ذا قوة، و الفقير مقو لكونه بلا قوة، ثم المفازة قد تكون مفازة الأسفار القريبة من هنا إلى هناك دنيا، أم سفر بعيد من الدنيا إلى الآخرة، فالدنيا إذا كلها مفازة و قواء، كما و أن أصحابها كلهم ذوو قواء: فقراء و أغنياء، مفازة واسعة- زمانا و مكانا- يتجول فيها الخلق أغنياء و فقراء، و يحتازونها إلى الساهرة على سواء.

فالنار التذكرة للخلق أجمعين، هي أيضا متاع للمقوين، في سفر قريب أم بعيد. المقوين الواجدين القوة و الغنى، و المقوين الفاقدين لهما أو إحداهما، فالحاجة إلى النار حاجة عامة للناس أجمعين، مستضعفين كانوا أم مستمتعين، و على حد تفسير

الرسول الأمين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (لا تمنعوا عباد اللّه فضل الماء و لا كلاء و لا نارا، فإن اللّه تعالى جعلها متاعا للمقوين و قوة للمستضعفين و قواما للمستمتعين)

«1».

مهما كان مقوي الدنيا في مفازاتها أحوج إليها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 161- أخرجه الطبراني و ابن مردويه و ابن عساكر عن وائلة قال قال رسول اللّه (ص): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 98

و على ضوء هذا التنبؤ من نبينا العظيم و كما تتحمله الآية، يرجع ضمير التأنيث في «جعلناها» إلى مثلث اصول الحياة: الماء و الزرع و النار، فهي متاع للمقوين:

أغنياء و فقراء، أقوياء و ضعفاء، الكائنين في قواء: مفازة لا تفوز بالحياة إلا بها، و إلا فهي قفر، إذ لا ماء فيها و لا نار و لا كلاء، و من ثم فلا حياة فلا إنسان.

فمتاع هذا المثلث ظاهر، فما هي تذكرة الزرع و الماء؟ إنهما تذكران إمكانية المعاد، الذي يضم هذه الأصول في المعاد!.

و لأن اللّه يذكّركم بالقيامة و طامّتها قبل أن تأتيكم، و يبرهن لكم إليها بما لا مزيد لها قبل أن تأتوها، و ينعم عليكم بوافر النعيم في الاولى لكي تتمتعوا بها و تقدموا للأخرى:

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ‏: نزّه ربّك العظيم عما ينافي الربوبية العظيمة، نزّهه مستعينا باسمه العظيم‏ «1»، فربك عظيم و اسمه عظيم لأنه يدلك على عظيم ربوبيته، و لكنك لا تستطيع تسبيح ذاته بذاته، إذ لا تحيط به علما، فسبّحه باسمه العظيم و كل اسمه عظيم. فقل:

(سبحان ربي العظيم)

«2» لا فحسب تسبيحا في المقال، فكذلك في الإيمان و الحال و الأعمال، أن تصبح حياتك تسبيحا باسم ربك العظيم، أو تتحول إلى اسم الرب العظيم، كما و أن أولياءه المكرمين هم من أسماء اللّه الحسنى، يدلون على اللّه و يقربون إلى اللّه.

«فَسَبِّحْ» ربك العظيم‏ «بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» عن الفوضى اللاغاية الصالحة من الخلق، العابثة بهم، فلا يحشرهم للحساب الجزاء، و سبحه باسمه عن الحساب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). على أن الباء في «باسم» للاستعانة كما هو الأظهر دون تكلف زائد. فالقول انها زائدة قول زائد، و غيره بمعنى غيره لا يلائم الآية.

(2)

من لا يحضره الفقيه، و المجمع- صح عن النبي (ص) أنه لما نزلت هذه الآية، فقال (ص): اجعلوها في ركوعكم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 99

الفوضى يوم الحساب، و عن كل ما لا يليق بعظمة الربوبية الفاضلة العادلة بغير حساب.

و ترى هل يختلف «ربك» عن «رب العالمين» أ فهناك أرباب متشاكسون؟! كلا! و إنما يوجه الخطاب هنا- على أوجه الوجوه- إلى أعظم أسماء الربوبية العينية: الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فباستطاعته أن يسبح ربه باسمه العظيم، و هو أيضا من اسمه العظيم، و هو أعرف من سواه باسم ربه العظيم: رب عظيم و اسم عظيم، يسبح به رسول عظيم، و لكي يكمل التسبيح فيقتدي به من سواه من العالمين.

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ‏:

تحدثنا عن اللاقسم في مواضعها، و انه حقا نفي للقسم لا قسم، إيحاء بالاستغناء عنه لما له يقسم. و إن كان القسم عظيما فإن المقسم له أعظم و أغنى، فكرم القرآن وسعته، الزاهر المتظاهر اللامع، أظهر من مواقع النجوم و ألمع، لمن كان له بصر، فما هي هذه النجوم بمواقعها، التي يستعظم اللّه أن يقسم بها، و إن كان لما هو أعظم منها؟.

ترى انها نجوم السماء: الكواكب الطالعة فيها، الآخذة مواقعها، رصدا للراصدين، و هداية للمهتدين‏ «1»: «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» (6: 97)؟ و نجوم القرآن أهدى، و هدايتها أعمّ و أبقى! فلما ذا يقسم بها كمثال لإثبات كرم القرآن وسعته في هداه، و زهرته و علاه؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي بإسناد القمي عن مسعدة بن صدقة قال قال أبو عبد اللّه‏ (ع) في قول اللّه عز و جل: «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ» قال: كان أهل الجاهلية يحلفون بها فقال اللّه عز و جل:

«فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ» قال: عظم أمر من يحلف بها.

أقول: يشهد على ما في المتن إذ كان المقصود كل النجوم، و الحديثان كما ترى صريحان انه نفي للقسم، خلافا لمن يحاول تحويله الى القسم تحميلا لا يتحمله القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 100

أم هي هي النجوم يوم قيامتها، الساقطة الواقعة في مواقعها «1»، المطموسة عن كيانها: «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ» (77: 7) و لماذا يقسم بها لنجوم لا تسقط و لا تطمس؟ فيوم القيامة يوم تظهر نجوم القرآن بحقائقها مهما كذبوا بها من قبل:

«بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» (10: 39)!.

أم هي نجوم من السماء، هي رجوم لمسترقي السمع بالملإ الأعلى، آخذة من أهدافها من مواقع الشياطين، ثاقبة لهم و داحرة «2»: «لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى‏ وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ» (37: 9)؟

و لماذا يقسم بها لنجوم القرآن و هي أدحر و أثقب للشياطين، كما هي أهدى و أنور للمؤمنين: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (17: 82).

أم هي آيات القرآن، النازلة نجوما، بعد أن نزلت ليلة واحدة، على قلب الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعلى موقع لنزولها، ثم تتحول الى مواقع اخرى من قلوب السابقين الى دعوته، ثم أصحاب اليمين، ثم الى الناس أجمعين؟ فنجوم القرآن نجوم هداية للجنة و الناس، و رجوم على النسناس‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من موقع اسم زمان و اسم مكان، زمن وقوعها و مكانه.

(2)

مجمع البيان روي عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (ع) أن مواقع النجوم رجومها للشياطين فكان المشركون يقسمون بها فقال سبحانه: «فلا اقسم بها»

، أقول هنا المواقع جمع موقع اسم مكان و كما هو كذلك في الاحتمال الأخير، و لعله جمع موقع اسم مصدر و لكي يشمل معنى اسم المكان و الزمان.

(3) الدر المنثور 6: 161 أخرجه جماعة عن ابن عباس في قوله‏ «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ» قال: القرآن‏ «وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ» قال: القرآن، و فيه أخرج الفرياني بسند صحيح عن المنهال بن عمرو عنه قال قرء عبد اللّه بن مسعود «فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ» قال: بمحكم القرآن فكان ينزل على النبي (ص) نجوما، و فيه مثله عن مجاهد، و عن ابن عباس في إخراج آخر في الآية قال: مستقر الكتاب أوله و آخره، أقول انه فسر الموقع بمعنى المستقر و هو قريب كما قلناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 101

و هل يقسم بنجوم القرآن لإثبات كرم القرآن؟ قد يجوز و هو أحرى! فإنه من برهنة الشي‏ء على نفسه، فكما الشمس تدل على نفسها، و هي أحرى شاهد لها، كذلك نجوم القرآن بمواقعها، القلوب الواقعة هي فيها، الواعية لها، انها تدل على‏ «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ».

«فَلا أُقْسِمُ» هنا، لا قسم ضمّن فيها القسم‏ «1» لا بمواقع النجوم كلها، و إنما بنجوم القرآن، «وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ»: عظيم في دلالته، عظيم في جلالته، عظيم في معناه، عظيم في هداه.

إنه تصريح باللاقسم و تلويح بالقسم بمواقع نجوم القرآن، و ما أحلاه تعبيرا، عن لماعة نجوم القرآن و بلاغتها، و كما

يروى عن أفضل مواقعها: الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «.. له نجوم و على نجومه نجوم .. فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة و دليل المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، و ليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب، و يتخلص من نشب، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور ..»

«2».

فمهما كان القسم بسائر النجوم عظيما، لأنها دلالات ظاهرة، و شهادات على عظمة القدرة، و سعة الحكمة لمن يوقعها في مواقعها، فيهتدي بها راصدوها، و يندحر مسترقو السمع للملأ الأعلى، و هي إضافة الى ذلك ظاهرة في أنفسها في طلوعها و غروبها و انفضاضها و انقضاضها، و لكنما حق العظمة و عظمة الحق في الدلالة على كرم القرآن، ليس إلا في نجوم القرآن، و قليل هؤلاء الذين يعلمون، و كثيرون يجهلون، أن القرآن نور ينير لنفسه، فلا يستنير بسواه، و حتى الرسول لرسالته لا يستدل بسواه، فهو نور لمن أرسل به، و نور لمن أرسل اليه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع ص 159 ج 30- الفرقان و كذلك الآيات 69: 38- 43 و 90: 1 و 84: 16 و 75: 1- 3 و 70: 40- 41- فانها آيات سبع تحدثنا عن اللاقسم فيها.

(2) اصول الكافي ج 2 ص 600- الطبعة لجديدة عنه (ص) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 102

و على حدّ تعبير الموقع الثاني من مواقعه:

علي عليه السّلام‏: و نور لا تطفأ مصابيحه، و سراج لا يخبؤ توقده، و شعاع لا يظلم ضوءه، و فرقان لا يخمد برهانه، و تبيان لا تهدم أركانه .. فهو معدن الإيمان و بحبوحته، و ينابيع العلم و بحوره، و رياض العدل و غدرانه، و أثافي الإسلام و بنيانه، و أودية الحق و غيطانه، و بحر لا ينزفه المنتزفون، و عيون لا ينضبها الماتحون، و مناهل لا يفيضها الواردون، و منازل لا يضل نهجها المسافرون، و أعلام لا يعمى عنها السائرون، و آكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله اللّه ريّا لعطش العلماء، و ربيعا لقلوب الفقهاء، و محاجا لطرق الصلحاء، و دواء ليس بعد داء، و نورا ليس معه ظلمة، و هدى لمن ائتم به، و عذرا لمن انتحله، و برهانا لمن تكلم به، و شاهدا لمن خاصم به، و فلجا لمن حاج به، و حاملا لمن حمله، و مطية لمن أعمله، و آية لمن توسم، و جنة لمن استلأم، و علما لمن وعى، و حديثا لمن روى، و حكما لمن قضى»

«1».

إن القرآن قبل نزوله كان كوكبا لم يطلع بعد على المطالع غير الإلهية، و إنما كان في ام الكتاب لدى اللّه: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (43: 4) عليّ عن الطلوع لأحد، و حكيم عن أن يطّلع عليه أحد، و إنما بزغ نجما:

- كوكبا طالعا- لأول مرة، إذ أشرق على قلب الرسول الأمين في ليلة مباركة، و من ثم بزغ نجوما إذ تنزلت آياته المفصلات، مفسرات للنجم الأول، ثم انتقل منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الى حفاظ سره و خزنة علمه الأئمة المعصومين، ثم منه و منهم الى سائر المؤمنين كنجوم الشفاء و الرحمة، و على الشياطين رجوم البلاء و النقمة، نجوم أربعة للقرآن الكريم! «وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ».

«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»: كيف لا و هو من لدن رب كريم: «فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ» (27: 40) متحولا الى رسول كريم: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 193 ص 202.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 103

(81: 19) كريم في آياته، كريم في معطياته، غير ضنين و لا لئيم، فالكرم هو التوسع في المحاسن الكبيرة، فلا ينقص عن كرمه، و لا يمس من كرامته فإنه:

فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ‏:

ترى ما هو الكتاب المكنون، الكائن فيه القرآن الكريم، ليكنّه عما يمسّ منه إلا المطهرون؟ و ما هو المسّ و من هم المطهرون؟.

علّ‏ «كِتابٍ مَكْنُونٍ» هو لوح محفوظ: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» (85: 21) «1»، و ليس في كتاب ثابت عند اللّه غير لائح للآخرين، أو لائحا لجمع الأولين غير لائح للآخرين، إنما «في لوح»: صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين، من الجنة و الناس أجمعين و إلى يوم الدين، آياته لائحة، بيناته واضحة، و رغم أنه في لوح، و بمتناول الكل، فهو «محفوظ» و «مكنون» عن لعبة اللاعبين، و تحريف المحرّفين، فكيان القرآن أيا كان هو أنه في حفاظ اللّه و كنانه: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9).

و ترى أهو محفوظ كذلك عند من يقرأه عن ظهر الغيب غالطا أو عامدا، أو يكتبه كذلك و ينشره بغية تحريفه؟ .. كلا، إنما في‏ «كِتابٍ مَكْنُونٍ» و «كتاب» هو الثابت فليس إلا الحق، فهو قرآن كريم في ثابت بإذن اللّه، مكنون بكنان اللّه، آخذا من ام الكتاب، و إلى كتاب قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قلوب ممثليه المعصومين، و كتب ألسنتهم، ثم و كتب صدور الحفاظ، فالغالط يرجع لمّا يظهر غلطه، و العامد يفضح إذ يرى خلاف ما يراه الحفاظ و المؤمنون، و الكاتب غلطا، جاهلا أو عامدا، لا يبقى كتابه سندا، فريثما ينشر يدحر، و كما دحر المسلمون القرآن المحرّف الذي نشره الاسرائيليون، و كيف ينجح قرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في ج 30 ص 270، و الآية: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ» ج 29 ص 280.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 104

محرّف بين بلايين البلايين من القرائين طول العالم الاسلامي و عرضه، و خلال التفاسير و سواها، و في صدور الحفاظ و سواهم، حتى و لا كلمة واحدة، أو حرف أو نقطة واحدة، و كما الواقع المجمع عليه من هذا القرآن طوال القرون الاسلامية خير شاهد إيجابي لذلك الكن و الحفظ، و واقع الاندحار عن المجموعة الاسلامية لما قد يحاول دسه و نشره و بثه شاهد سلبي على غيره، فمهما سمي قرآنا فليس في كتاب، و إن سمي كتابا فليس مكنونا.

«لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» فما هو «ه»؟ و ما هو المس؟ و من هم المطهرون؟

الضمير الغائب «ه» راجع إلى القرآن أيا كان من محاله و مدارجه: حين ينزل من عند اللّه، و إذ يصل إلى منزل القلب المحمدي، و حين يسمع أو يفهم أو يمس خطه بلمس، أو ببصر، أم ماذا؟ فلا يمسه في أيّ من هذه إلا المطهرون و كما يناسب هذه و هذه.

فقد حمله إذ نزل، المطهرون «المقربون» «1»: «وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ. وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» (26: 212). و كما لا يحمل علمه صافيا دون كدر إلا المطهرون، الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا، و هم أهل بيت الرسالة المحمدية، فهم أولاء الذين يمسون حقائقه و ينفذون أحكامه كاملة، يمسونه كما يحق دون أن يمسوا منه بباطل.

و من ثم لا يدركه بعدهم إلا المنوّرة قلوبهم، المطهرة نفوسهم، كل على قدره، و كما يعيه قلبه و «القلوب أوعية فخيرها أوعاها»، كما و لا يسمع اليه و لا يبصره إلا المطهرون في أسماعهم و أبصارهم، دون الملتهين بالأغاني الملهية، و الصور المغرية، فهم لا يتلذذون من القرآن فلا يمسونه سمعا و لا بصرا، كما لا يتفهمونه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 162- أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي (ص) «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ». قال: عند اللّه في صحف مطهرة لا يمسه إلا المطهرون المقربون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 105

معنى و بصيرة، و لا يتذوقونه واقعا ... و إلى هنا «لا» نافية تنفي واقع المسّ هكذا في مختلف المس، كل على حسبه.

و من ثم تكون «لا» ناهية تنحو نحو النهي عن مسّه، خطه و رسمه، إلا المطهرون عن الكفر، فلا يمسه كافر، اللهم من يحاول التطهر به، لا مسّه أو المس منه، و إلا المطهرون عن أحداث و أخباث‏

«فلا يمس القرآن إلا طاهر»

«1».

و لا غريب من القرآن أن يجمع بين النفي و النهي في حرف واحد، أو انها نافية تعني في موارد النهي مبالغة النهي‏ «2».

فالطهارة المشروطة في حلية مس القرآن خطا، تعمّ الطهارة عن الكفر و طهارة الحدثين، وضوءا و غسلا، و الطهارة عن أية نجاسة في المحل الماسّ، دون اختصاص بالحدثية، خلافا لبعض الفقهاء، وفاقا لإطلاق المس و الطهارة. تأمّل.

«لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» مسّ النور و الخير، و لا مسّ السوء و الشر، فالمطهرون داخلون في مسّه، و غيرهم خارجون عن مسّه و عن المسّ من كرامته‏ «3».

كيف و هو مكنون بكنان اللّه أينما كان!.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ‏ .. إنه كتعليل لعدم مسّه إلا من المطهرين، فما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 162- أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (ص): ... و أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل مثله و عن ابن حزم الأنصاري عن أبيه عن جده عنه (ص) مثله. و

أخرج عبد الرزاق و ابن أبي داود و ابن المنذر عن عبد اللّه بن أبي بكر عن أبيه قال في كتاب النبي (ص) لعمرو بن حزم‏: «و لا تمس القرآن إلا على طهور».

و في الاستبصار بإسناده عن أبي الحسن (ع) قال‏: المصحف لا تمسه على غير طهر و لا جنبا و لا تمس خطه و لا تعلقه، إن اللّه تعالى يقول: «لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ».

(2) و الإتيان بالخبر و قصد الإنشاء عادة جارية فيما يراد تأكيد الإنشاء، فلا يخبر بالنفي هنا فيما ينهى، يعني انه من المنع لدرجة كأنه لا يقع أصلا.

(3) الاستثناء على الأول متصل إذ يمسونه، و على الثاني منفصل إذ لا يمسونه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 106

نزل من رب العالمين كيف يحمله إلى رسله الشياطين؟ أم كيف يمسه إلا من طهرهم رب العالمين، أو كيف يجوز مسّه من غير المطهرين عن أدناس و أحداث و أخباث؟!

نكات و تنبهات:

«إِنَّهُ لَقُرْآنٌ» ترى هل من نكران لأحد أنه قرآن، حتى يقسم أو لا يقسم تلميحا بالقسم‏ «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ»: مقروء!.

علّه لأن الناكر كان ينكر كونه مقروءا له من ربّه، على سمعه و قلبه، إذ قالوا «بَلِ افْتَراهُ»: اختلقه من نفسه، ثم نسبه إلى ربه، فإنكارا عليه يؤكد «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ» جوابا عن هكذا قيل.

و من قيل انه قرآن قرأه عليه الشياطين، قرآن لئيم، فيرد عليه‏ «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»: «وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ» (26: 210).

و من قيل‏ «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ» و لكن دسّ فيه و مسّ منه الشياطين، فأصبح محرّفا كما فعلوا بالكتب من قبل، فيرد بقوله‏ «فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ».

ثم على ضوء «كريم» انه كريم كما اللّه كريم، لأنه أنعم نعم اللّه و أدومه.

و من كرمه عدم هو انه بكثرة التلاوة و المراجعة، بل هو دائبا غضّ طريّ، لا تزيد كثرة تلاوته إلا طلاوة و طراوة، خلاف سائر الكلام أيا كان، فإنه لا يحلو على التكرار و الترداد، و قد يرجع مرّا إذا استمر، بخلاف القرآن الكريم: طاهر الأصل، ظاهر الفضل، لفظه فصيح و معناه صحيح‏

«ظاهره أنيق و باطنه عميق، له تخوم و على تخومه تخوم»

«1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي ج 2 ص 598 عن النبي (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 107

و ترى و القرآن هو الكتاب كيف يكون في كتاب، فما هو كتاب و كتاب؟

الجواب: أن الكتاب المكنون هو المكتوب فيه الكتاب، و القرآن الكتاب هو المكتوب، ففرق بين مكتوب و مكتوب فيه، و سواء أ كان المكتوب القرآن المسجل بقلم النور على البيت المعمور: القلب المحمدي أم ماذا، أو كان القرآن المفصل بألفاظه أو معانيه أم ماذا، و إذا كان المكتوب فيه مكنونا فالمكتوب أكنّ و آمن.

ثم «المطهرون» يعمّ من طهّروا أنفسهم و نفوسهم فطهرهم اللّه تطهيرا، كمن تشملهم آية التطهير.

و من طهروا نفوسهم فأيدهم اللّه فيما طهروا، كمن يحذون حذوهم و يتلون تلوهم من الأولياء المكرمين.

و من تطهروا- أخيرا- عن الأحداث و الأخباث، فلو قال «إلا المتطهرون» لم يشمل إلا الآخرين، و أما «المطهرون» فهو يشمل الأولين و الآخرين، لأن الطهارة فيها تعم الثلاث‏ «1».

ثم‏ «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ»: يخص القرآن المفصل النازل نجوما، بعد المحكم النازل ليلة القدر «2» مما يدل على عدم اختصاص الكتاب المكنون بالقرآن المحكم، بعد نزوله، عند النبي، أو قبله عند اللّه، أنه مكنون عند اللّه و عند نبي اللّه فقط لا! بل هو محفوظ أينما حلّ و ارتحل، و إلى القرآن المفصل، عند النبي و عند المؤمنين و إلى يوم الدين‏ «3».

و بما أن مسّ القرآن باللسان من أخفى المسّ و أخفه، فالنهي عن هكذا مسّ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التطهير الالهي، و التطهير البشري، و ما بينهما من تطهير إلهي و بشري.

(2) لأن التنزيل هو النزول التدريجي بخلاف الإنزال فانه دفعي.

(3) راجع سورة القدر ج 3 ص 371- 381 من الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 108

للمحدث، ألا يقرءه على حدث، منع خفي ينحو منحى الكراهة، و هو إيحاء لطيف استوحاه المطهرون المعصومون كما هو دأبهم في فقه القرآن.

و الكراهة هنا هي قلة الثواب، تحريضا على التطهر فالقراءة، ليدرك كامل الثواب.

و من ثم، و بعد ذلك كله في نجوم القرآن، أ فتستقبلون رجومه؟

أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ، وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ‏:

«أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ»: حديث اللّه و آياته «تدهنون»: تتهاونون‏ «وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً» (4: 87) «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ» (45: 6) «فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ» (68: 44).

و رغم أن حديث القرآن رزق رزقتموه‏ «وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ» منه‏ «أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»: تبديلا بنعمة اللّه نقمة و كفرا: «وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» (2: 211) أ تهربا من نعمة اللّه و حربا مع اللّه.

إنكم لا تدهنون بالكفر و الفسق و أي باطل، ثم تدهنون بحديث اللّه و آياته التي هي رزقكم في المثل العليا، فأفّ لكم كيف تحكمون!.

أ فتكذبون اللّه انه يقدّر الموت، و ليس بمسبوق فيه، و لا في أن يبدلكم أمثالكم و ينشأكم فيما لا تعلمون فيدينكم بما كنتم تعملون، فلو لا تدرءون عن أنفسكم الموت أو ترجعون الأرواح إذا بلغت الحلقوم:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 109

فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ. وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ. فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏:

هل ان اللّه أقرب الى المحتضر أم أنتم؟ انه‏ «أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ» بل و منه أيضا:

قيوما بحيطة العلم و القدرة «وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ»: لا رؤية البصر: أنتم و لا أي محتضر، فان هذا القرب ليس من المبصر، و لا رؤية البصيرة اليقين إلا من المحتضر، آمن أو كفر، إذ يجد نفسه بين يدي من هو أقدر منه و أقرب اليه منه، و أما أنتم الناكرون، الناظرون الى المحتضر فلا تبصرون لا بالبصيرة و لا بالبصر، فهلّا تذكرون من المحتضر أنه على نفسه ليس أقدر من اللّه و سوف يأتي دوركم على سواء.

و إذ ليس اللّه أقرب اليه منكم، و أنتم أقرب اليه، و تحبون حشره و رجعه! «فَلَوْ لا .. تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في نكران الدينونة الحساب؟

«فَلَوْ لا .. تَرْجِعُونَها» الروح‏ «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» «إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»:

«إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ. وَ قِيلَ مَنْ راقٍ ..» (75: 26) «وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ» الى المحتضر يستغيث بلسان القال أو الحال، و هو ممن يخصكم، أو ينفعكم رجعه الى الحياة لتجربوا أنكم أنتم السابقون لو تزعمون‏ «فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ»:

غير محمولين على مكروه موتا أو سواه، أو كنتم غير عباد عاجزين، أو غير مجزيين بأعمالكم‏ «1» «فَلَوْ لا تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»: في هذه الدعاوي الزور، و في عدم دينونة الحساب، فمن يدين بأنه مدين لا يدعي سبقه على رب العالمين في تقدير الموت، فلا يفكر و لا يحاول في رجع أيا كان، و لكن الذي لا يدين بأنه مدين، لأنه ناكر سبق اللّه في الحياة و الموت و في تبديل الأمثال بعد الموت، فليدرأ الموت و كل سوء عن نفسه و عمن يخصه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المفردات للراغب، يذكر هذه المعاني الثلاث للمدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 110

«فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (3: 168) «فَلَوْ لا تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»؟

فاللّه هو السابق في الموت و في الحياة، في المبدء و المعاد، و عدله يفرض المعاد الحساب، و الجزاء الوفاق.

أضواء في طيات هذه الآيات:

1- «فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»: في هذه اللحظة الحاسمة الجاسمة، إذ تولى الروح وراءها الدنيا و تستقبل الاخرى دون أن تملك من أمرهما شيئا إلا ما قدمت من صالحات و أخرت، و قد انفصلت عمن حولها و ما حولها من مالها و مالها! 2- بلوغ الروح التراقي و الحلقوم دليل قاطع لا مرد له على عدم تجردها عن مادة مّا، فالمجرد عنها ليس له مكان لا خارج البدن و لا داخله، فأين الروح المجردة في البدن حتي تبلغ الحلقوم ثم تخرج؟

3- يبتدء خروج الروح من الرجل إلى الحلقوم و من ثم تخرج، و ليس كما يزعم انها تخرج من المخرج، و إلا لم يكن بلوغها الحلقوم حالة للاحتضار.

4- ان اللّه أقرب إلى المحتضر ممن سواه، و أقرب إليه من نفسه‏ «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (50: 16) واقع معقول و ملموس، و في حياتنا اليومية، فهو أقرب إلى الكائن- أيا كان- من نفسه: كيانا و كونا و قدرة و علما و عزما و تصميما «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» (11: 56) (وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (8: 24) فإن كنت أنت أقرب إلى نفسك، أو غير اللّه أيا كان فلما ذا تغلبون في مصالحهم و لا تغلبون، كلا! (وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ) رغم البصائر المتكررة المبصرة لكم فانى تصرفون! 5- فالرجح كالبدء بيد اللّه، يقدر كيف يشاء و يميت و يحيي ثم إليه تقلبون: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ..) (29: 42).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 111

حين تقف قدرة الإنسان- أو أيا كان- و كل محاولاته، يقف علمه و ينتهي دوره المختار، فتنفرد القدرة الإلهية و علمه و أمره و يخلص الأمر كله للّه و هنا لك يخسر المبطلون‏ (فَلَوْ لا تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ):

فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ. وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ‏:

جولة ثانية تختصر الاولى، و تزيد عليها في الجزاء بين الموت و المعاد، فالاولى تستعرض الجزاء منذ القيامة الكبرى: (إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ .. فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ).

و هذه تستعرضها منذ الاحتضار و الموت و إلى القيامة، (فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ).

في هذه الجولة نرى المقربين في مثلث الرحمة، علّ الروح و الريحان للبرزخ، و طبعا جنة نعيم و هي الخلد للآخرة «1»، كما و ان المكذبين الضالين في مثنى:

(فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ) علّها للبرزخ، و (تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) و ليست إلا للآخرة «2» و من ثم لأصحاب اليمين و هم الامة الوسطى بينهما، واحد يعم سلام الإكرام و الانعام، منذ الموت إلى يوم القيام.

و ترى ما هما الروح و الريحان؟ ان الرّوح و الروح من أصل واحد، ثم اختص الثاني بالنفس، و الأول بالنفس المتنفسّ، و هما ما به الحياة، حياة الأصل للروح، و حياة النزهة للروح، فالمقربون يتنفسون بالموت عن خنق ما كانوا و حنقه، ثم يزيدهم روحا و روحا و ريحانا، و عل الروح هنا رحمة نفسانية روحانية، و نسمة من جنة الرضوان، و نفحة من معرفة الرحمان، و يا لها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

امالي الصدوق باسناده إلى موسى بن جعفر عن أبيه الصادق جعفر بن محمد (ع) في حديث‏: «فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ» يعني في قبره‏ «وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ» يعني في الآخرة.

(2)

اصول الكافي و أمالي الصدوق بهذا الاسناد «وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ» يعني في القبر «وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ» يعني في الآخرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 112

بوحدتها من روح و ريحان، ثم الريحان عطر يعطر المشام، و يذهب بعفونة الأيام.

ثم و ما هو (فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ)؟ علّه يوحي بحالة مرضية لهم تطمئن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بسلام له منهم و سلوان، فلا يضطرب بما قد اقترفوه من آثام، فقد حوّلهم اللّه من لا سلام الى سلام، إذ كفّر عنهم سيئاتهم و أدخلهم مدخلا كريما، و بدّل سيئاتهم حسنات فأصبحوا في سلام و سلوان، في رحمة و غفران، فمنهم لك سلام، عطاء من ربك و إنعام: (وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى‏).

و ترى لماذا (سلام) و ليس (السّلام)؟ قد يكون تنكير السّلام له منهم لإثبات أصل السّلام، دون أن يناحره شي‏ء من اللاسلام للأدنين من أصحاب اليمين، الذين قد يذوقوه في فترة البرزخ، و لو زاد ففي بداية القيامة، أم لو زاد فمصيرهم الأخير الجنة مهما ابتلوا هنا و هناك، إذا فحالهم مرضية للرسول الشفيع الأمين، و بشفاعته و ذويه يخرج غير المخلدين عن الجحيم، و هم أدنى أصحاب اليمين.

ثم الرعيل الأعلى منهم لهم السّلام كل السّلام دون عذاب و لا بلاء، ثم المتوسطون بين الأولين و الآخرين لهم وسط من السّلام‏ (فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ) مهما اعتراهم من غير سلام.

كما و أن روح المقربين و ريحانهم و جنتهم النعيم درجات حسب الدرجات، فلأفضل المقربين الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فضله على سواه، لحدّ يحتاجه في الزلفى من سواه.

كما و أن للمكذبين الضالين دركات في نزل من حميم و تصلية جحيم‏

«حتى انصرف المشيع و رجع المتفجع، اقعد في حفرته نجيّا لبهتة السؤال و عثرة الامتحان، و أعظم ما هنا لك بليّة نزول الجحيم و فورات السعير و سورات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 113

الزفير، و لا دعة مزيحة، و لا قوة حاجزة، و لا موتة ناجزة، و لا سنة مسلية بين أطوار الموتات و عذاب الساعات)

«1».

ثم و تصلية جحيم هي إيقادها بوقود أجسادهم و أرواحهم الجهنمية:

«وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (3: 10) فسائر أهل النار و هم هوامش الضلالة يحرقون بنارهم كما احترقوا يوم الدنيا، ثم و منهم من ينجو مع الناجين فيلحق بأصحاب اليمين، و منهم .. ثم لا يبقى في النار إلا الوقود حتى يتم جزاءهم الوفاق، ثم تخمد النار و يموت الوقود، المؤبدون ثم لا يحيون.

إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ‏:

«وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» (69: 52) لا علم اليقين فقط و لا عين اليقين، و إنما حق اليقين، الذي ليس فوقه يقين، و «هذا» هو اللّه، و هو كتاب اللّه، و هو يوم اللّه، لا ريب في أي من هذا و ذاك، فالمقربون لهم في ذلك حق اليقين، و أصحاب اليمين لهم عين اليقين أو علم اليقين، ثم للمكذبين الضالين عين اليقين إذ يدخلون الجحيم‏ «ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ» (102: 7) و كان لهم أن يرونها قبل يوم الدين: علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين.

و مهما يتعرض علم اليقين و هو اليقين العلم، للخطأ أو الإهمال في متطلبات اليقين، أو تخطأ عين اليقين أو تهمل مهما كان أقل خطأ و إهمالا من علم اليقين، فليس حق اليقين و هو اليقين الحق، الثابت الصامد، مما يخطئ أو يهمل، لأنه واضح وضح النار و أوضح.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة للسيد الرضي عن أمير المؤمنين علي (ع): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 114

سورة الحديد- مدنية- و آياتها تسع و عشرون‏

[سورة الحديد (57): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (6) آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7) وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى‏ عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (9)

وَ ما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ كُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى‏ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 115

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

هنا و أحيانا في غيرها «سبح» و هنا لك في مواضيع «يسبح» إيحاء باستمرارية تسبيح الكائنات غابرا و مستقبلا و حاضرا دون فكاك، و أيا كان التسبيح و من اي كان.

و «سبح» مما تعدّى بنفسها، فلما ذا عدّيت هنا باللام و أحيانا بنفسها؟

لأن اللام توحي بالاختصاص، فلا تسبح ما في السماوات و الأرض إلا للّه، لا له و لسواه، فليحمل عليها المعدّى بنفسها: «وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» فلا تسبيح إلا للّه.

و التسبيح هو الإمرار السريع دون تباطئ، من السبح: المرّ السريع في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 116

الماء و الهواء أو أيا كان، فالمسبح للّه يمر سريعا في ممرات نفسه و سائر الكائنات، دون وقفة و لا ريبة، و يحمل معه تنزيه اللّه ذاتا و صفات و أفعالا و أسماء و أحكاما أم ماذا، لأن الكون محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها و تنزّهه عما لا يليق به.

و ترى التسبيح فقط من‏ «ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»؟ دونهما و من فيهما و هم أقدر و أحرى؟ .. إنه للكائنات كل الكائنات: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً» (17: 44) «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ» (24: 41) «وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ» (21: 79).

فالكائنات كلها تسبيحات للّه بما لا نفقهه، من التسبيح عن شعور و إدراك ممن نحسبهم غير عقلاء و لا مدركين، أو ما نفقهه من تسبيح اختياري لمن يعرفون اللّه بدرجاتهم، أم ذاتي لمن يكفر باللّه، فذاته في صفوف الكائنات تسبح اللّه عما لا يليق به من ذات و صفات أم ماذا.

فالعارفون اللّه، و من يدق أبواب المعرفة باللّه يرون اللّه مسبّحا عبر سير البصر و البصيرة في آيات اللّه، أنفسية و آفاقية «سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (41: 53).

فالكائنات بذواتها و صفاتها و حالاتها، بأفعالها و أقوالها و كل ما لها: «سَبَّحَ لِلَّهِ» أ فلا تدل ذواتها الفقيرة البائسة على نزاهته تعالى عن البؤس و الفقر، أو لا تدل دلالة جامعة تضم سائر الدلالات أن اللّه مسبّح الذات و الأفعال و الصفات عما للكائنات كل الكائنات من ذوات و صفات: «هو خلو من خلقه و خلقه خلو منه» «كلما في الخلق يمتنع عن خالقه، و كل ما في الخالق يمتنع عن مخلوقه» و الى غير ذلك من مفارقات بين الواجب و الممكنات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 117

«سَبَّحَ لِلَّهِ‏ .. وَ هُوَ الْعَزِيزُ ..»: غالب لا يغلب‏ «الْحَكِيمُ»: فلا يجهل أو يخطأ أو يظلم، عزيز حكيم: في ألوهيته و ربوبيته .. و في أنه مسبّح.

لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ:

«له ملك» الملكية المالكية الحقة دون زوال فلا يزول و هو لا يزال‏ «مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» المعبرة عن الكائنات كل الكائنات‏ «يُحْيِي وَ يُمِيتُ»: كأبرز مظاهر الربوبية المطلقة، لا فحسب، بل: «وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» ما هو شي‏ء أو يمكن أن يكون شيئا، قدرة متعلقة بالممكنات في كافة الجهات.

فيا لتسبيح المملوك العبد للملك المالك بالحق من حلاوة و طلاوة، كيف لا و:

هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ‏:

آية فريدة منقطعة النظير، ليست إلا هي و إلا هنا كما هي، اللهم إلا في البعض من اتجاهاتها بعبارات اخرى، تعني السرمدية الإلهية: أزلية و أبدية، و الحيطة العلمية و القيومية المطلقة.

و هذه الأسماء الأربعة من مظاهر السرمدية و الحيطة المطلقة الإلهية، كونا و كيانا و علما و قدرة و قيومية أم ماذا.

«هُوَ الْأَوَّلُ» لا سواه، و ترى أنه أوّل بالنسبة لسواه في الزمان أو المكان، تقدما فيهما على أيّ كان؟ و لا زمان له و لا مكان، فهو الذي كوّن المكان و الزمان! .. أو أنه أوّل في الحدوث؟ و ليس له حدث، و إنما أحدث الأشياء و كان إذ لا كان، فلم يحدث هو أيا كان، و ان كان حدوثا بلا زمان! كلا:

«إنه الأول لا عن أول قبله و عن بدء سبقه .. و لكن قديم أول و قديم آخر»

«1»: أولية القدمة و الأزلية، فلو سألت عن ربك متى كان؟ فالجواب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن علي بن ابراهيم القمي بإسناده الى ميمون اللبان سمعت أبا عبد اللّه (ع) و قد سئل عن الأول و الآخر فقال: «.. و آخر لا عن نهاية ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 118

إذن:

«كان بلا كينونة، كان بلا كيف، كان لم يزل بلا كم و بلا كيف، كان ليس له قبل، هو قبل القبل بلا قبل، و لا غاية و لا منتهى، انقطعت عنه الغاية و هو غاية كل غاية»

«1».

ترى‏

«و متى لم يكن حتى يقال متى كان؟ كان ربي قبل القبل بلا قبل و بعد البعد بلا بعد ..»

«2» ..

و إذا سألت «أين كان ربنا قبل أن يخلق سماء و أرضا؟ فالجواب: «أين» سؤال عن مكان، و كان اللّه و لا مكان»

«3».

ف «هو كائن بلا كينونة كائن، كان بلا كيف يكون» «4»: تفارق كينونته تعالى سائر الكينونات تفارق التباين التام، إذ ليس له بدء و لا زمان و لا مكان و لا تحول من حال الى حال، بل لا تكون له حال.

هذه هي الأولية اللائقة بجناب عزه، الأزلية اللاأولية، أو و الأولية في الخالقية و التقدير، فليس معه خالق و لا بعده أو قبله، و مهما كان خلقه في زمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه رفعه قال: اجتمعت اليهود الى رأس الجالوت فقالوا له: ان هذا الرجل علم يعنون أمير المؤمنين (ع) فانطلق بنا اليه نسأله، فأتوه .. فقال له رأس الجالوت: جئناك نسألك، قال: سل يا يهودي عما بدا لك، فقال: أسألك عن ربك متى كان؟ فقال: ... فقال رأس الجالوت: امضوا بنا فهو أعلم مما يقال فيه.

(2)

بنفس الاسناد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبيه الحسن الموصلي عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏: جاء حبر من الأحبار الى أمير المؤمنين (ع) فقال: يا أمير المؤمنين متى كان ربك؟ فقال: ...

فقال يا أمير المؤمنين أ فنبي أنت؟ فقال: ويلك إنما أنا عبد من عبيد محمد (ص).

(3) فيه و روي أنه سئل الصادق (ع) أين كان ربنا ...

(4)

الكافي باسناده عن أبي عبد اللّه (ع) قال رأس الجالوت لليهود: ان المسلمين يزعمون أن عليا من أجدل الناس و أعلمهم، اذهبوا بنا اليه لعلي أسأله عن مسألة و أخطئه فيها فأتاه فقال:

يا أمير المؤمنين! اني أريد أن أسألك عن مسألة، قال: سل عما شئت، قال: متى كان ربنا؟

قال له: يا يهودي! إنما يقال متى كان لمن لم يكن فكان متى كان، هو كائن بلا كينونة كائن، كان بلا كيف يكون، بلى يا يهودي، ثم بلى يا يهودي، كيف يكون له قبل، هو قبل القبل بلا غاية و لا منتهى غاية و لا غاية إليها، انقطعت الغايات عنده، هو غاية كل غاية، فقال:

أشهد أن دينك الحق و أن من خالفك باطل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 119

و مكان، فلا يعتريه هو زمان و لا مكان، فقد كان إذ لا «كان»، لا زمان و لا مكان، ثم خلق الزمان و المكان، و خلق فيهما كلّ «كان».

هذا، و لكنما الأولية الأزلية لزامها أوليّات الالوهية كلها، فالأزل خارج عن كل زمان و مكان، مهما كان معه- لخلقه- زمان و مكان.

إن الزمان مهما كان و أيا كان، هو محدود لا محالة لتصرّمه، و إن أجزاءه محدودة، و مجموعة المحدودات محدودة لا محالة، فله أول و هو حين خلق، و آخر حين ينقضي.

و أما الأزلي الذات، و غنيّها عن كافة الذوات، المفتقرة اليه الذوات، المبتدأة المبتدعة في الذوات و في الصفات، هذا الأزلي ليس له حدّ و لا أية حالات، إنما أزلي لا أولي، أول ليس له أول، و آخر ليس له آخر:

«و الآخر» آخر كما هو أول، فالأول أزل و الآخر أبد و الجمع سرمد:

«آخر لا عن نهاية .. و لكن قديم أول و قديم آخر، لم يزل و لا يزول بلا مدى و لا نهاية، و لا يقع عليه الحدوث و لا يحول من حال الى حال ..»

«1».

«إنه ليس شي‏ء إلا يبدأ و يتغير أو يدخله التغير و الزوال، و ينتقل من لون الى لون، و من هيئة الى هيئة، و من صفة الى صفة، و من زيادة الى نقصان، و من نقصان الى زيادة إلا رب العالمين، فإنه لم يزل و لا يزال بحالة واحدة، هو الأول قبل كل شي‏ء، و هو الآخر على ما لم يزل، و لا تختلف عليه الصفات و الأسماء كما تختلف على غيره، مثل الإنسان الذي يكون ترابا مرة، و مرة لحما و دما، و مرة رفاتا و رميما، و كالبسر الذي يكون مرة بلحا، و مرة بسرا، و مرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن القمي بإسناده الى أبي عبد اللّه (ع) و قد سئل عن الأول و الآخر فقال:

«الأول لا عن أول قبله و عن بدء سبقه، و آخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، و لكن قديم أول قديم آخر خالق كل شي‏ء».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 120

رطبا، و مرة تمرا، فتتبدل عليه الأسماء و الصفات، و اللّه عز و جل بخلاف ذلك»

«1».

هذه هي الآخرية اللائقة بجناب عزّه، أو الآخرية في الخالقية و التقدير أيضا، فليس بعده خالق كما لا يكون معه أو قبله، بل هو

«قبل القبل بلا قبل، و بعد البعد بلا بعد و لا غاية و لا منتهى لغايته، انقطعت الغايات عنده، فهو منتهى كل غاية»

«2». فقد كان إذ لا- كان- و سوف يكون إذ لا- يكون-:

كينونة سرمدية فائقة التصور، ليس لمن سوى اللّه من إدراكها نصيب، إلا نفي الكينونات المخلوقة عن جنابه، و إثبات كينونة سرمدية لا نملك من تصوّرها شيئا، إلا أنها غير ما نملك من كينونات!.

و آخر بمعنى آخر هو أنه المرجع و إليه المصير، فهو آخر في الأبد، و آخر في الخالقية، و آخر في المصير.

و حصيلة التعبير التفسير عن آية الأول و الآخر، أولا و أخيرا. انه: «قديم أول، قديم آخر»

«قبل القبل بلا قبل، و بعد البعد بلا بعد» «لم يزل و لا يزول بلا مدى و لا نهاية» «الأول قبل كل أول، و الآخر بعد كل آخر، بأوليته وجب أن لا يكون له أول، و بآخريته وجب أن لا يكون له آخر»

«3»، و هو المبدء و إليه المصير. فهو أول نظرا الى ترتيب الوجودات سلاسل، فإنها استفادت الوجود من الأول تعالى، و أما هو فهو كائن بذاته دون مكوّن،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكافي عن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه عز و جل: «هو الأول و الآخر» و قلنا: أما الأول فقد عرفناه و أما الآخر فبين لنا تفسيره، فقال: ...

(2) خبر الخبر الماضي‏

إذ سأل أمير المؤمنين (ع) متى كان ربك؟ فأجاب: و متى لم يكن؟

(3)

نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (ع) و فيه‏ «إن قيل كان فعلى تأويل أزلية الوجود، و إن قيل لم يزل فعلى تأويل نفي العدم». و فيه‏ «سبق الأوقات كونه و العدم وجوده و الابتداء أزله».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 121

ثم هو آخر نظرا الى سلسلة السلوك المعرفي، فهو آخر منازل السالكين، و غاية الباغين.

و ترى إذا انحصرت به الآخرية الأبدية كما الأولية الأزلية، فما هو دور الآبدين في الجنة إذ وعد لهم‏ «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ؟».

أقول: إن أبديتهم لو كانت بمعنى اللانهاية، انها زمنية عارضية غيرية، فهم آبدون بفضل اللّه و رحمته، فمن ذواتهم هم بائدون لا يملكون أبدا و لا حياة، فهم في أبدهم لهم آخر في ذواتهم، كما و أن لزام الزمن لكيانهم يحكم بأن لهم آخرا كما لهم أول، و هذه تختلف عن الآخرية الأبدية الإلهية اختلاف العدم عن الوجود، فقد «كان الله و لم يكن معه شي‏ء»، و الآن كما كان و سوف يكون كما كان، لا يقارنه أيّ كان، و ليس معه شي‏ء أيا كان، ليس معه في أي زمان أو لا زمان، و إنما كيان كل «كان»: إنه من جلوات قدرته، و كما لا تختلف حاله تعالى بعد الخلق عما كان قبله في السرمدية، كذلك أحوال الخلق فإنها لا تختلف من حيث الفقر و العدم الذاتي، لا تختلف بعد خلقها عما قبل، اللهم إلا بظهور الوجود، دون استقلال و لا لحظة، فضلا عن الأبدية، اللهم إلا بفضل اللّه.

و من الفوارق بين الأبدين، أن الإلهي منهما لزام الأزلية، و الثاني لزامه الحدوث و البداية.

هذا، و لكن الحق أن لا أبدية للخلق و إن كانت عرضية، فان الزمان محدود أيا كان، و ما له بداية لا بد أن تكون له نهاية مهما جهلناها، و من ميزات اللانهاية أنها لا تقبل الزيادة و النقصان كما اللابداية. ترى لو نقص من زمن الجنة سنة أو زيدت، ألا تنقص اللانهاية لها و لا تزيد؟ فإن لا، فلتكن زيادة سنة و نقيصته على سواء! و إن بلى، فهذا ينافي اللانهاية اللامحدودية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (حوار) بحث الأبدية و الأزلية ص 43. و هنا أحاديث تدل على زوال كل شي‏ء، كما

أخرجه في الدر المنثور 6: 171 في دعاء الرسول (ص) «.. و الكائن بعد ما لا يكون شي‏ء ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 122

«وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ»: ظاهر على ما سواه بالقدرة و الغلبة و العلم، و ظاهر بوجوده دون كنهه، في كل ما سواه بالحكمة و الصنعة و آثار العلم، ظهور القدرة و العلم دونما استثناء، و ظهور الآية لمن أراده و ابتغاه.

«فليس ظاهرا من أجل أنه على الأشياء بركوب فوقها و قعود عليها و تسنّم لذراها، حتى و لا على عرشه و كرسيه، و لكن لقهره و لغلبته الأشياء و قدرته عليها ... و إنه الظاهر (لا ظهورا بالذات، و إنما بالآيات و الدلالات) لمن أراده ... فأي ظاهر أظهر و أوضح من اللّه، تبارك و تعالى؟ لأنك لا تعدم صفته حيثما توجهت، و فيك من آثاره ما تغنيك»

«1». و

«ما رأيت شيئا إلا و قد رأيت اللّه قبله و بعده و معه و فيه»

«2». «قبله»: بالأزلية الأولية و الخالقية، «بعده» بالأبدية الآخرية، «معه» بالقيّومية، «و فيه» بآثار الصنع الحكمة، و من رزق حديد البصر و دقيق النظر، فلا يبصر حياته إلا ربه، و هذا هو توحيد البصر.

«عميت عين لا تراك .. متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدلّ عليك ... يا من دلّ على ذاته بذاته و تنزّه عن مجانسة مخلوقاته ..».

«و الباطن»: خفي في الذات رغم أنه ظاهر بالآيات «و كل ظاهر غيره غير باطن، و كل باطن غيره غير ظاهر». و كما لم يكن ظاهرا على شي‏ء، كذلك ليس باطنا في شي‏ء، حتى يستبطن فيرى في شي‏ء، «الظاهر لا برؤية، و الباطن لا بلطافة»: ذرية الجسم و دقته! فهو الظاهر غلبا على من سواه، و غلبه باطن لا يراه من سواه، و هو الظاهر بالآيات لمن أراده، و باطن بالذات و لو عمن أراده، و هو باطن الذات و الصفات و الإرادات، إذ لا ترى بعين البصر، و هو ظاهر فيها إذ يرى بعين البصيرة، دون حيطة و لا إدراك، فباطن- أيضا- ببصيرة الحيطة و الإدراك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن علي بن محمد مرسلا عن الحسن الرضا (ع) قال‏: اعلم علمك اللّه الخير، ان اللّه تبارك و تعالى قديم- الى قوله-: و أما الظاهر ...

(2) عن الامام الصادق عليه السّلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 123

و لا ظاهر من اللّه إلا آياته و دلالاته، ثم هو باطن فيما سوى آياته و دلالاته، و ليس باطنا يحل في سواه، أو لأنه دقيق لا يبصر فإنه «لا يحس و لا يجسّ و لا يمس و لا يدرك بالحواس الخمس».

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا من هو اختفى لفرط نوره‏ |  | الظاهر الباطن في ظهوره‏ |
| وجوده من أظهر الأشياء |  | و كنهه في غاية الخفاء |

- فإنه ظاهر في التعريف، باطن في التكييف.

فسبحان‏

«الذي بطن من خفيات الأمور و ظهر في العقول، بما يرى في خلقه من علامات التدبير»

«الظاهر فلا شي‏ء فوقه، و الباطن فلا شي‏ء دونه»

«1»:

لا شي‏ء فوقه في الظهور بمعنييه، و لا باطن دونه بمعانيه، فكل باطن لغموضه و رموزه، لدقته و صغره، لبعده زمانا أو مكانا، أو لأي من أسباب البطون، انه يرجى ظهوره لمن يهي‏ء أسبابه، إلا اللّه، و كل ظاهر قد يخفى على العقول إلا اللّه، إذ الكائنات كلها دلالات و آيات بينات دالات على اللّه، فهو أظهر من كل شي‏ء، و لإحاطته على كل شي‏ء، و أبطن من كل شي‏ء، و لإحاطته من ورائه و إنه أقرب إلى كلّ شي‏ء من نفسه، «عميت عين لا تراك .. أ لغيرك من الظهور ما ليس لك! انه ليس من معاني بطونه تغيّبه عن الخلق أو تغيب الخلق عنه، فإنه بكل شي‏ء عليم و هو معكم أينما كنتم و اللّه بما تعملون بصير:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بين الأقواس مقتطفات‏

من الخطب التوحيدية لأمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة، و في الدر المنثور 6: 171 عنه (ص) «أنت الأول فليس قبلك شي‏ء و أنت الآخر فليس بعدك شي‏ء و أنت الظاهر فليس فوقك شي‏ء و أنت الباطن فليس دونك شي‏ء، و فيه كان من دعائه (ص):

يا كائن قبل أن يكون شي‏ء و الكون لكل شي‏ء و الكائن بعد ما لا يكون شي‏ء أسألك بلحظة من لحظاتك الوافرات الراجيات المنجيات».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 124

وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ‏:

فالمسبح له مما في السماوات و الأرض، الملك المالك للسماوات و الأرض، القدير على كل شي‏ء، الأول و الآخر مستغرقا كل شي‏ء، الظاهر لمريديه في كل شي‏ء، و الظاهر بقدرته على كل شي‏ء، حقيق أن يكون ظاهرا بعلمه على كل شي‏ء «وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ».

و ليس علما به بعد خلقه، و لا انه أعلم به بعد خلقه، فقد

«أحاط بالأشياء علما قبل كونها، فلم يزده بكونها علما، علمه بها قبل أن يكون كعلمه بها بعد تكوينها»

«1». فلكل شي‏ء وجود علمي قبل كونه واقعيا

«و العلم ذاته و لا معلوم، فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم»

«2».

و كما اللّه باين عن خلقه في ذاته و صفاته، كذلك باين في علمه و هو من صفات ذاته-

«علم اللّه لا يوصف اللّه منه بأين، و لا يوصف العلم من اللّه بكيف، و لا يفرد العلم من اللّه، و لا يباين اللّه منه، و ليس بين اللّه و بين علمه حدّ»

«3».

بل و ليس هناك بين، فذاته علم، كما ان ذاته حياة و قدرة، صفات ذاتية ثلاث، تنشعب منها صفات الفعل.

فقد

«علم الأشياء لإباداة لا يكون العلم إلا بها، و ليس بينه و بين معلومه علم غيره»

«4».

و «كل شي‏ء» في العلم، أوسع من «كل شي‏ء» في القدرة، فالشي‏ء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التوحيد للصدوق خطبته لعلي (ع) و فيها:

(2)

فيه باسناده إلى أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: لم يزل اللّه عز و جل ربنا و العلم ذاته.

(3) توحيد الصدوق باسناده إلى عبد الأعلى عن العبد الصالح موسى بن جعفر (ع):

(4) فيه في خطبة لعلي (ع) .. و نوافيكم بتفاصيل عن علمه تعالى في طيات آياته ان شاء اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 125

المقدور هو ما تتعلق به القدرة لصلوحه، أو يمكن أن تتعلق به لإمكانه، و أما المعلوم فيكفيه تعلق العلم فيشمل المحالات الذاتية، و كما يشمل الممكنات، ليس لأن العلم أوسع من القدرة، و إنما لأن المقدور أضيق من المعلوم، لا لنقصان في القدرة، و إنما لقصور في المحال، فإنه ليس شيئا في القدرة مهما كان شيئا في العلم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

.. آيات سبع تحمل «ستة أيام» لخلق السماوات و الأرض، و من ثم آيات في «فصلت» تفصّل هذه الستة على خلقهما سبعا و سبعا، فهي هي إذا أحرى بالبحث و التنقيب عن: كيف تنقسم الستة على السبع و السبع؟ دون سائر السبع التي تحمل «ستة أيام» دون تفاصيل كما هنا، اللهم إلا أن نشير إلى حصيلة موجزة عما نفصلها في «فصلت»:

انها ستة أوقات و أدوار زمنية مضت على خلق السماوات و الأرض، و ليست هي على سواء، و لا نصيب منها لأدوار التكامل الأرضي و السماوي، و إنما لخلق الزبد الأرضي: مادتها الأم، و الدخان السماوي كذلك، و لتحويلهما إلى سبع و سبع، و لخلق الأنجم في السماء الاولى، أم ماذا؟! فلا تناحر بين آيات الستة أيام، و آيات فصلت: ثمانية أيام، فأربعة منها لدور التكامل الأرضي، و الباقية: اثنان لخلق الأرض‏ «.. خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» و آخران لقضاء السماء سبعا- و علّه مع الأرض: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ». فاليومان الباقيان من الستة- إذا- لخلق وراء الخلقين، علّ أحدهما لخلق الدخان السماوي، أو و الزبد الأرضي، و الثاني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 126

لخلق المصابيح في السماء الدنيا، و لأنه و «أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها» متأخر عن يومي تسبيع السماء و .. أم ما ذا؟! «.. ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ»: عرش العلم: «يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها» و عرش القيمومة على ذوات الخلق: «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ» و عرش الرقابة البصيرة على الأعمال: «وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» فهذا المثلث نتيجة الاستواء على العرش انه:

«يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ»: من مياه و بذور و من سائر الأشياء أمواتا و أحياء ما لا يحصيها إلا اللّه‏ «وَ ما يَخْرُجُ مِنْها»: من مياه و أشجار و أثمار و من أحياء و أموات، صادرات و واردات أرضية كلها في ظلال عرش العلم و التقدير و التدبير، لا يفلت منها فالت، و لا يغلط فيها غالط، اللهم إلا من شذ عن أمر اللّه من الجنة و الناس، و لكنه لا يقدر على مناحرة إرادة اللّه، اللهم إلا فيما له الخيار من أمور تشريعية، و لكنها أيضا لا تحصل أخيرا إلا بإذن اللّه تكوينا مهما لم يأذن تشريعا.

«وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ»: من سماء الوحي من وحي و تقدير، و من سائر السماء من أنوار و أمطار، و من شهب و نيازك نارية و من طوارق نورية «وَ ما يَعْرُجُ فِيها» من الملائكة الموكلين بأعمال العباد، الشهود لهم و عليهم، و من أعمال و أقوال و أحوال، و من نور و نار و بخار أم ماذا! «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ»: أينما كنتم من أدوار الوجود، من ذرات و جزئيات و عناصر، و من تراب و أثمار و إلى نطفة إلى الخلق الآخر الإنسان، و مدى الحياة و بعد الموت و إلى النشأة الاخرى «هو معكم» هنا و هناك، معية هي لزام ذواتكم، و ترى ما هي هذه المعية أينما كنتم: كل مكان و زمان؟ أو ما هي المعيات المعنيات بين مختلف المعيات؟

هل انها معيّة التأييد و التوفيق؟ «وَ قالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 127

وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ..» (5: 12)

و هذه معية مشروطة لا تعمّ الجميع! .. أو معية النصرة في الحرب: «فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ» (47: 35) و ليس الكل محاربين، و لا مؤمنين أقوياء صامدين في الحرب حتى يستحقوا النصر!. أو معية الحفظ عن العدو الضاري و هو على الدرب: «إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا» (9: 4) و لا يستحقها المؤمنون كلهم فكيف بسواهم! كلا.

و إنما معيّات عامة تشمل- على أقل تقدير- المخاطبين من الجنة و الناس أجمعين، من معية علمية فهو أعلم بهم من أنفسهم: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ» (4: 108) و معية القدرة القيومية و «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» (11: 56) و المعية الخالقية، إذ الخلق لا يستغني عن الخالق بعد خلقه، فهو كما كان و أحوج مما كان، استبقاء لما أوتي: «يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»، و معية الشهادة على الأعمال أم ماذا:

«أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ» (41: 53).

و معية الحفاظ على العباد: «لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» (13: 11) و ما إليها من معيات إلهيات كما تليق بذاته و صفاته المقدسة، دون معية زمانية أو مكانية، بمداناة أو حلول أم ماذا! فقد

«كان لم يزل بلا زمان و لا مكان و هو الآن كما كان، لا يخلو منه مكان و لا يشتغل به مكان»

«1»، فمعنى كونه في كل مكان مع كل إنس و جان، هو معية العلم و القدرة و الخالقية و الحفاظ على الخليقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي بإسناده عن الامام الكاظم موسى بن جعفر (ع) قال‏: إن اللّه تبارك و تعالى كان ... و لا يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، ليس بينه و بين خلقه حجاب غير خلقه، احتجب بغير حجاب محجوب و استتر بغير ستر مستور، «لا إله إلا هو الكبير المتعال».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 128

و من ثم معها معيات خاصة للخصوص من عباد اللّه الذين يعيشون مع اللّه: معية الوحي و الإلهام، و التوفيق المستدام، و النصرة على الأعداء و الحفاظ الخاص، و معية القرب و الزلفى قدر ما يكون العبد مع اللّه! و إنها لحقيقة مذهلة و مؤنسة، حقيقة أن تؤخذ بعين العبرة و الادكار، مذهلة بروعة الجلال تمنع شاعريها عن التورّط في الضلال، و مؤنسة برحمة الظلال، رضوانا و قربى الى حضرة ذي الجلال، فيا لها من إسعاف عن كل فتك و إسفاف، و إيناس عن كل وحدة سفساف! فإيمان باللّه، و على‏

المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن اللّه تعالى معه حيث كان»

«1».

و من فروع هذه المعية الشاملة: «وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، و من ثم المعية الملكية المالكية: «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

و بطبيعة الحال ترجع امور الملك و الرعية الى الملك، فالأمور كل الأمور راجعة الى اللّه في الاولى و الاخرى، من امور التكوين و تدبيره، و أمور التشريع و تقديره، الأمور: الأفعال و الأشياء- و منها الأشخاص- و الأوامر «2» «إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» (11: 123)، «لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى‏ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (28: 70) ترجع اليه كما منه بدأت: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» (2: 156).

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ:

«لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» (23: 80): اختلاف بينهما بالنور و الظلام، و كون أحدهما خلف الآخر بنسق ثابت، و اختلافهما زمنا حسب اختلاف الفصول و أجزائها، فكما اللّه هو الخالق لهما، و مرتبهما، كذلك هو الذي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 171- أخرجه ابن مردويه و البيهقي عن عبادة بن الصامت عنه (ص).

(2) فالأمور هنا جمع الأمر بمعانيه: الشي‏ء- الفعل- الأمر مقابل النهي، أو بوجه عام: الحكم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 129

«يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ»: نقصا من الليل فزيادة في النهار كما في الصيف، و نقصا في النهار فزيادة في الليل كما في الشتاء، كحقيقة الولوج، و كذلك التقاءهما في وقتي الطلوع و الغروب، تداخل الليل في النهار غروبا، كأنه والج فيه، و تداخل النهار في الليل طلوعا كأنه يلجه، حركة دائبة منظمة لطيفة، تدل بلطف على محرّك منظّم لا تأخذه سنة و لا نوم.

«وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ»: صاحب الصدور، علّه القلب الذي يصاحب الصدور و هو فيه‏ «وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» أو و سائر ما يصاحب الصدور من العقول و الألباب، أو أنه الروح صاحب الصدر، بكافة جنودها الروحية المدركة، فاللّه عليم بهذه الذات فضلا عن الصدور، فان حصائلها بمصادرها تصدر من سائر جنود الروح.

آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ:

آية فريدة في كرامة الاستخلاف في الإنفاق، تكوينا أن هيأ لنا ربنا وسائل الإنفاق بما هبانا، و تشريعا أن أمرنا بالإنفاق كما أنفق علينا، تخلّقا بأخلاق اللّه، و لنكون مثلا للّه مهما لن نكون مثله!.

فالأموال التي نملكها ليست لنا إلا خلافة مسموحة من ربنا، تتداول بيننا في معاملات و وراثات فإنفاقات فلسنا إذا فيها إلا كأدات:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و يكفيك قول الناس فيما ملكته‏ |  | لقد كان هذا مرة لفلان‏ |

إنها أمانات فسح لنا مجالات بتصرفات فيها ضمن حدود الشرع، ننفقها على مستحقيها الآخرين كما ننفقها على أنفسنا، فلا ننسى أولا و أخيرا أنها للّه و أننا فيها مستخلفون، فلا نتخلف عن حدود الخلافة في الأمانة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 130

و يا لها من رحمة و كرامة ربانية أن يعدنا أجرا كبيرا لو أنفقنا مما استخلفنا فيه على عياله! و الخلق عيال اللّه، فأحب الخلق عند اللّه أحبهم لعيال اللّه.

و ليس الإنفاق دون شريطة الإيمان مأمورا به و لا مرغوبا فيه، بل هو مرغوب عنه، كمن يمن أو يؤذي أو يرائي الناس: «لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى‏ كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» (2: 264).

و إنما الإنفاق المندفع عن الإيمان، فلا لون له إلا ابتغاء رضوان اللّه، دون ألوان الغايات و التجارات و سائر المكاسب غير الإلهية، فالإنفاق المنطلق عن الإيمان رحمة شاملة تشمل ذوي الاستحقاق كلهم، قرباء و غرباء، ضعفاء و أقوياء، من يرجى خيره و من لا يرجى، كل ذلك على حد سواء: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (2: 262) كما و أن لغة الإنفاق توحي بذلك فإنه الإفناء، و من يبتغي أجره في الدنيا من أهلها، ماديا أو معنويا، انه ليس بمنفق، إنما هو تاجر، فقد يكون فاجرا في تجارته كمن ينفق في سبيل الطاغوت، أو يمن و يؤذي المحتاج، أو يرائي الناس، أم ماذا، و قد يكون صالحا كسائر التجار، و إنما الأجر الكبير للمنفق في سبيل اللّه لا سواه.

و ترى من هم المخاطبون ب «آمنوا»؟ أهم المؤمنون؟ فكيف يؤمرون بتحصيل الحاصل! أم الكافرون باللّه و بالرسالات؟ فمن أين يعرفون أن هذا أمر من اللّه؟ و هم ناكرون له غير مصدقين بوحيه! ثم و من لا يؤمن بدليل العقل فكيف يؤمن بمجرد النقل؟!.

نقول أولا هم المؤمنون، و قد أمروا هنا كما في غيرها بمزيد الإيمان: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» (4: 136) و الإنفاق في سبيل اللّه بحاجة إلى إيمان عريق، دون الإيمان الذي يصانع الشرك أحيانا: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 131

إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» (12: 106) فللإيمان عقيديا و عمليا مراقي و درجات لا بد أن يتدرج إليها بمساعي و محاولات دائبة.

ثم و ماذا عليه لو خص بالكافرين أو شملهم، إذ يأمرهم بالإيمان بعد استعراض دلائل الإيمان و ملزماته، فلهم أن يعرفوا وحي القرآن ببيناته، و منه أمرهم بالإيمان، فطالما البينات تقنعهم للإيمان، فهنا يأمرهم بحقيقة الإيمان، إذ لا يكفي الإيمان البدائي لمثل الإنفاق في سبيل اللّه، إذا فالخطاب يشمل الناس أجمعين مؤمنين و كافرين! و من ثم يندد بالكافرين منهم:

وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏:

فالتنديد هنا بسلب الإيمان و ليس بنقصانه، ف «ما لكم» ما داؤكم؟ و ما دواؤكم؟ فلو «لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»؟ و دوافع الإيمان تحيط بكم؟ من دعوة رسولية تملك من كافة البينات المخرجات من الظلمات الى النور «وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ» و من استجابة الفطرة للميثاق المأخوذ عليها من اللّه‏ «وَ قَدْ أَخَذَ» اللّه‏ «مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»: بالدعوتين: برسول الفطرة التي فطر الناس عليها، و برسول اللّه الذي يدعوكم بإقامة وجوهكم إليها: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ... ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (30: 30) ثم و قليل هؤلاء الذين يعلمون فيؤمنون، ثم قليل المؤمنون العالمون الذين يعملون.

فمن يحترم عقله، و يؤمن بفطرته الإنسانية، عليه أن يصغى لمن يوقظ فطرته، و يذكره مهمته في دوره الانساني السامي، فليستجب دعوة الرسول الداعي الى دعوة الفطرة، و «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»!.

إنه ليست دعوات الرسل بالتي تجانب و تنافر دعوة الفطرة، و إنما تجانسها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 132

و تنورها أكثر و أكثر، و تتبناها كدعامة اولى محكمة لبناية الإيمان المفصل، و هنا ملتقى وحي اللّه و وحي الفطرة، و كلاهما من وحي اللّه للذات و خارج الذات.

و قد يشمل التنديد المؤمنين الناقصين لماذا لا يؤمنون كما يجب، إيمان له مخلفاته في العمل و منه الإنفاق في سبيل اللّه‏ «وَ قَدْ أَخَذَ» الرسول‏ «مِيثاقَكُمْ» من ذي قبل، لتؤمنوا حقه‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بميثاقكم الذي واثقتموه‏ «1».

هذا، و شموله للكافرين هو الذي يبرر التنديد بسلب الإيمان، و ليشمل المؤمنين و الكافرين جميعا، و أما اختصاصه بالمؤمنين فلا مبرر له، أن ينفي الإيمان عن المؤمن لعدم استكماله: «وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ» و ترى كيف يدعوكم؟:

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى‏ عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ‏:

و من ميثاق الرسول آياته البينات التي توثق المبصرين بالايمان، إضافة الى ميثاق الفطرة و سائر الميثاق.

ان الإنسان أيا كان يعيش ظلمات الأوهام أحوالا و أوحالا ما دام متحللا عن وحي الفطرة و وحي الشريعة، و قليل هؤلاء الذين يقيمون وجوههم لدين الفطرة، و لا يقيمهم تماما إلا الوحي المفصل المفسر لوحي الفطرة، فالمتحلل عنهما يعيش ظلمات بعضها فوق بعض، و المتحلل عن وحي الشريعة كذلك يعيش‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عله الميثاق العام لما آمنوا بألسنتهم، انهم سوف يؤمنون بقلوبهم و أعمالهم، فشهادة اللسان ميثاق على شهادة القلوب و الأعمال، أو ميثاق أو مواثيق خاصة بينه و بين هؤلاء، أو ميثاق الآيات البينات، إذا فآخذ الميثاق هو اللّه هناك و هو رسول اللّه (ص) هنا و هو أيضا من ميثاق اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 133

ظلمات مهما كانت أخف، فالرسول يتلو عليهم آيات اللّه البينات، ليخرجهم اللّه بها من الظلمات إلى النور، قضية الرأفة و الرحمة.

و ما أسماه تعريفا بالرسول: «عبده» إذ تحلل عن عبودية و عبادة ما سوى اللّه، و اختصه نفسه باللّه، فاختص لذلك أكرم كرامات اللّه: أن يحمل أشرف و أسمى رسالات اللّه.

ان هناك ظلمات تظلم على الفطرة الانسانية فتظلمها، فإذا أخرج الإنسان عنها بمذكرات الآيات البينات فهو إذا في النور الذاتي، و ليس وراء ذاته إلا ما يزيد فطرته جلاء و اعتلاء، فالفطرة غير المحجوبة هي النور، و هي المرقى إلى ساير النور «نُورٌ عَلى‏ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ».

لذلك‏ (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ) لا (فيدخلهم النور) فإنه من دواخل ذاته فهو داخل فيه محجوبا أو غير محجوب، فإذا ارتفعت الحجب الظلمات فهو إذا في النور، دونما حاجة إلى طي مسافة بينه و بين النور، فإنما يبتدئ بفطرة اللّه التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم و لكن اكثر الناس لا يعلمون، و ينتهي الى اللّه النور، منتهى لا نهاية له، فلا بدّ للسالك الى هذا النور أن يستمر في السير، ناسيا نفسه و ذاكرا ربه.

وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى‏ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

هنا الخطاب الأول العتاب خاص بضعفاء الايمان، الذين يتثاقلون عن الإنفاق في سبيل اللّه، قاتل أم لم يقاتل، أنفق في غير سبيل اللّه أو لم ينفق و إن كانوا درجات.

«وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا» و لستم إلا مستخلفين فيما رزقتم، ثم و لا يبقى لكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 134

باقية: (وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ) فلا ان الأموال لكم، و لا انها باقية أو أنتم باقون، فإذا الخلائق فنوا و انقرضوا، خلوّا ما كانوا يسكنونه أو من يساكنونه، و زالت أيديهم عما كانوا يملكونه، و هناك اللّه وارث ما تركوه، و إن كان مالكا من قبل مالكوه، فهو الباقي بعد فنائهم، و الدائم بعد انقضاءهم.

فلا بدّ للمال أن ينفصل عن صاحبه، بالموت فالوبال، أو بالإنفاق و سائر الواجب أو الحلال، فهل من عاقل يترك ما له وبالا دون تسميد لمستقبل الحال بإنفاقه أو قرضه في سبيل اللّه؟! و يا لها من حجج بالغة دامغة، ناصعة ناصحة، فما الذي يبقى عندها من دوافع الشح و هو الق البخل لمن كان له قلب، أو ألقى السمع و هو شهيد! ثم ينتقل الخطاب إلى المنفقين المقاتلين في سبيل اللّه في ساعتي العسر و اليسر، ترى انهما سواء- كلا:

(لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ ..) من‏ (الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ ..) (9: 117) و فترة الشدة قبل الفتح، و أهمه فتح مكة، و بعده فتح الحديبية، الذين أنفقوا و قاتلوا في حالة الأسر و العسر، أيام كان الإسلام غريبا و الخطر قريبا، و المسلمون محاصرون مطاردون، قليلون في العدة، قليلون في العدة، فالإنفاق و القتال كانا في عضال، فلا تشوبهما شائبة، مهما كان الإنفاق قليلا لقلة الأموال .. (أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا) إذ أنفقوا و قاتلوا في رخاء و رجاء، و لم يكن لمن قبل الفتح رجاء و لا رخاء، أنفقوا و العقيدة آمنة، و الغلبة كائنة أو كامنة، فليكن من قبلهم أعظم درجة منهم، مهما كانت النية صافية و على سواء، فإن الموانع و الدوافع تختلف هنا و هناك، و أفضل الأعمال أحمزها، فالظروف الصعبة الملتوية قبل الفتح تحكم ان المنفقين المقاتلين في سبيل اللّه فيه أفضل ممن أنفق و قاتل بعد الفتح مهما كان الإنفاق من قبل قليلا، فليس الكم هو الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 135

يرجح الميزان، و إنما هو الظرف و الباعث و ما يمثله من حقيقة الايمان‏ «1».

«و» إن كان‏ (كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى‏) و لكنما الجزاء الحسنى درجات كما الأعمال و النيات الحسنى في اليسر و العسر درجات‏ (وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

و من ثم كما ان المناصرين في ساعة العسر مع النبي (ص) أفضل درجة ممن ناصره ساعة اليسر، فالذين ينصرون الإسلام بعد دوري الرسالة و الامامة، و ظروفهم كمن قبل الفتح أو أعسر، فهم أفضل درجة من أنفق من قبل الفتح و قاتل، إذ هم كانوا في ظلال الرسول (ص) حاضرا بآياته البينات، و الآخرون غيّب عن زمن الرسول (ص) و إنما صمدوا في الايمان لما رأوه و سمعوه من قرآنه المبين و تبيانه المتين، فأحاديث التفضيل بين من قبل الفتح و من بعده لا تشملهم‏ «2» بل و تفضلهم كآياته على من قبل الفتح. فحسناهم أفضل من حسناهم صورة طبق الأصل‏ (كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى‏ شاكِلَتِهِ) فليجز كذلك حسب شاكلته‏ (وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2)

الدر المنثور 6: 172- أخرج سعيد بن منصور عن زيد بن اسلم قال: قال رسول اللّه (ص) يأتيكم قوم من هاهنا- و أشار بيده إلى اليمن- تحقرون أعمالكم عند أعمالهم، قالوا: فنحن خير أم هم؟ قال: بل أنتم، فلو ان أحدهم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدكم و لا نصيفه، فصلت هذه الآية بيننا و بين الناس: «لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا» و أخرج مثله ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عنه (ص) و أخرج احمد عن انس في حديث عنه (ص) دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل احد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم، و أخرج ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه (ص): لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو ان أحدكم أنفق مثل احد ذهبا ما أدرك مد أحدهم و لا نصيفه.

أقول: و كل هذه مقارنة بين من كانوا زمن النبي قبل الفتح و بعده، و أما الذين أتوا و يأتون بعده فلا، فلا فضل إذا إلا للأفضل أعمالا، حسب الظروف و النيات و مدى الصعوبات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 136

فلينفق المؤمن مما هو مستخلف فيه، و سوف يتركه لمستخلفه، و لو غفل عن هذا و ذاك، و حسب انه هو المالك أو الباقي ملكه- و هو من أضعف الايمان، أو هو الكفر- فلو غفل هكذا أو تغافل- إذا فليقرض اللّه من ماله! قرضا يربيه اللّه فيه، هنا و بعد ما يحييه:

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ‏:

و من ذا الذي يبقى بعد هذا الخطاب الحنون العتاب متصلبا على منع الإنفاق و الإقراض؟! .. هنا! إذ يجعل اللّه عبده مالكا لما استخلفه فيه، و يجعل نفسه مستقرضا بمضاعف الأداء و أجر كريم، هنا ينفتك القلب، و حقيق لمن له أدنى شعور أن يموت خجلا، أو يصعق و يتصدع و جلا، كيف ان اللّه الغني الحميد يستقرض عباده الفقراء المهازيل (يستقرضهم و له خزائن السماوات و الأرض و هو الغني الحميد، و إنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملا) «1»، و مجرد الشعور ان المستقرض غني أمين، مضاعف في الرد، كريم، إنه يطيّر أصحاب الأموال إليه طيرانا.

فيا له ربا حنونا في هدايته كيف يداري عباده المجاهيل في هداه، فلا يبقي سبيلا إلا و يرشدهم، و لا يذر دليلا إلا و يدلهم، و هنا يعطف بهم الى مثلث التدليل من زواياه الثلاث، يجعل نفسه في الثالثة كأنه المستقرض: (يُقْرِضُ اللَّهَ) و ليس إلا لعباده، مما يدفع جماعة من اليهود الى القولة الهراء الاستهزاء: (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ) (3: 181) و هذه نهاية العناية الإلهية في الهداية، و كما ترمز بأن أوامره و نواهيه كلها لصالح العباد، فسبيل اللّه هي سبيل صالح الحياة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نهج البلاغة عن علي (ع) «و اتقوا أموالكم و خذوا من أجسادكم تجودوا بها على أنفسكم و لا تبخلوا بها عنها» فقد قال اللّه سبحانه: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ..» و استقرضكم و له.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 137

على ضوء الهداية الإلهية، فإنه أعلم بصالحنا منا، فإقراض اللّه، و الإنفاق في سبيل اللّه، و التصدق للّه، هذه كلها تنحو منحى سبيل الإنسان و صالحه، فاللّه هو الغني و نحن الفقراء، فما أكفر عبدا و أجهله أن يتغامض عن هذه العظات، و لا يتذكر بتلكم الموعظات، فيعيش حياته ويلات و ويلات!.

و كما الإنفاق هو الافناء، ان يؤتي ما أوتي من ماله او ماله للّه دون ابتغاء جزاء او شكور ممن سوى اللّه، كذلك الإقراض هو الاقطاع: ان تقص و تقطع مما لك قرضا حسنا، إن واجبا او ندبا، قرضا ترجع فيه او لا ترجع، حسنا متحللا عن كل سوء.

و من أركان الحسن في القرض أن يكون بنية حسنة: لوجه اللّه: (إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) و بطيبة نفس، و أن يكون مما تحبون: (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) و من الحلال- ف (لا يقبل اللّه صدقة من غلول) (وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ) و بعيدا عن الرئاء و المن و الأذى: (لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى‏ كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ) و ألا يعتز في نفسه مذللا للمستقرض، فإن اللّه هو المستقرض مهما كان لعباده المحاويج: (وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ) و ألا يماطل في ادائه ما يجد سبيلا الى أداء عاجل و ان يؤجل الى ميسرة ان كان قرضا يرجع، دون مراجعة و لا مخاجلة او مخالجة، و ان يتحرى الأحوج اشخاصا و جهات إلهية، و ان يخفيها تحرجا عن الرئاء، او يبديها تحريضا لمن سواه شرط الإخلاص: (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (2: 271) فتلك عشرة كاملة في اصول القرض الحسن.

و كما ان الإقراض من مضاعفات الرحمة و كرم السجية، كذلك اللّه يعد المقرض مضاعف الرد و كريم الأجر، و لأن الأجر موعده الحياة الاخرى، فليكن المضاعف، او من المضاعف، في الحياة الدنيا، ان يربي اللّه ماله ضعفا او أضعافا: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ) (2: 276) يربيه ماديا، و يربيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 138

معنويا ان تتزكى نفس تعوّدا على العطاء، و ألا يتهدّده الفقراء و المديونون بمسّ في ماله او نفسه او عرضه، فيعيش سليم الحال، سليم المال، و سليم المآل، (إِنَّ إِلى‏ رَبِّكَ الرُّجْعى‏).

[سورة الحديد (57): الآيات 12 الى 21]

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى‏ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (13) يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى‏ وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (15) أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (16)

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (19) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (20) سابِقُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 140

و ترى متى يضاعفه اللّه له و له أجر كريم، كأحرى الأوقات الوفيات؟ ..

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى‏ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ‏.

«يَوْمَ تَرَى» أيها الناظر البصير، و بالأحرى أيها الرسول البشير النذير! «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى‏ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ» فما هذا النور الخاص بالجهتين، الذي لا يتخطى صاحبه إلى سواه فيضطر المظلم أن يلتمسه في مناه: «انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً»؟.

انه ليس نورا يبصر و من خارج ذواتهم «نورهم» لا (نور) أو (نور سواهم) و إنما نور البصيرة الذي أخرجهم اللّه اليه، من ظلمات الهوى إلى نور المعرفة و الهدى، نور أشرق في تلكم الأرواح المستجيبة لدعوة اللّه، نور يحصل بالسعي دون فوضى، و من ثم هو يسعى بين أيديهم و بأيمانهم يوم الاخرى جزاء وفاقا «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» نور يخرج صاحبه من الخزي هناك كما أخرجه من سائر الظلمات هنا، ثم يتممه اللّه هناك كما يشاء و يرضى: «يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا» (66: 8) «1». نور يلتمس سعيا في الحياة الدنيا، و مع اختصاصها بأصحابها قد يشفعون من يليق بها أن ينظروا إليهم في الاخرى: «.. انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً».

إن سائر الأنوار لا تختص بأصحابها، فقد تغتصب أو يستفاد منها دون علم أو رضى أصحابها، يستنير منها الصديق و العدو، و المؤمن و الكافر، و أما ذلك النور فمثله كنور البصر، لا يبصر إلا لصاحبه قدر سعيه، صادرا منه و واردا اليه، اللهم إلا شفاعة مرضية، فهو برهان ربّاني: «قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع سورة التحريم ج 28- الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 141

مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» (4: 174) و هو إيمان ناتج عن ذلك البرهان:

«أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى‏ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» (39: 22) و هو العمل الصالح الناتج عن الإيمان. و من ثم هو نور الفرقان الناتج عن خالص الإيمان:

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً) (8: 29): مربع النور: (نُورٌ عَلى‏ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ)!.

ترى و لماذا (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ) دون سائر الجهات الأربع أو الست؟ ...

لأن هذا النور غير سائر النور، نور البصيرة و ليس البصر، و إن كان يهدي- فيما يهدي- البصر. و لأن طريق الجنة يمنة و وجاه، و طريق النار يسرة و وراء، و كما

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (بينا أنا على حوضي انادي هلم، إذ أناس أخذتهم ذات الشمال فاختلجوا دوني، فأنادي ألا هلم فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول سحقا)

«1». فلا نور لأصحاب الشمال لا وجاها و لا يمنة، و إنما تأخذهم النار من ورائهم و ذات الشمال.

و قد تختص‏ (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) بالسابقين المقرّبين، الذين هم وجه بلا قفا و لا أية جهة اخرى إلا وجه اللّه، و من ثم يتوجهون اليه، و يتجهون إلى رحمته و رضوانه، و (بِأَيْمانِهِمْ) لأصحاب اليمين الذين هم وجه من وجه، و إذا اتجهوا عن الأمام فإلى اليمين، فانه الدين، و إن كان أدنى من المقربين.

أو ان قسم الإيمان و العمل الصالح و الفرقان تكون بالأيمان، فان المؤمن يؤتى كتابه بيمينه، و قسم الهداية تكون بين الأيدي و منه الهداة إلى اللّه، و قد توحي له‏ (بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) نفسها فانه النور المفصول عن ذواتهم بين الأيدي، و هم الهداة خارج الذوات، و (بِأَيْمانِهِمْ) لا عن أو من أيمانهم، فانه النور الذاتي اللامع بالأيمان، فهو الإيمان و العمل الصالح و الفرقان الناتج عنهما «2».

و أما الشمال و وراء الظهر فلأصحاب الشمال إذ يؤتون كتابهم فيهما، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار، جهنم يصلونها و بئس القرار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسي ج 9 ص 359- 360.

(2)

الخصال للصدوق بإسناده الى أبي خالد الكابلي قال قال أبو جعفر (ع) في قوله:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 142

أو انه نور واحد قد توحي به وحدة النور: «نُورُهُمْ يَسْعى‏» فالنور المربع من الأيمان يعده للحساب الحاضر، و هو بين الأيدي يبشره بالثواب المستقبل و كلاهما واحد و إن كانت وحدة النور أعمّ من الوحدة العددية و النوعية. إذا فالوحدة و الكثرة كلتاهما معنيتان، لأن الكثرة هنا هي الوحدة و الوحدة هي الكثرة و كلها نور، من مثلثه الذاتي و واحده الخارجي: الهداة الى اللّه، كتابا و أنبياء و أولياء.

و كما أن مساعي النور درجات، فالحاصل عنها أيضا درجات حسب المساعي و المقامات،

(الناس منازلهم بأعمالهم)

«1»، منهم من يستضي‏ء بنوره أصحاب الجنة أجمعون، و منهم دون ذلك إلى من لا يضي‏ء نوره إلا له دون سواه.

ثم هذا النور الساعي من الجهتين الأصيلتين تضي‏ء لأصحابها من سائر الجهات، يعرفهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏

(انهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، و يعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، و بنورهم الذي يسعى بين أيديهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم)

«2» طالما السعي الشمائلي هامشي على ضوء الأولين، كما الخلفي و الفوقي و التحتي.

و من ثم يصاحب نورهم بين الأيدي و الأيمان بشرى جنة الخلود و الفوز

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«يَسْعى‏ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ»: أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين أيدي المؤمنين و بأيمانهم حتى ينزلوا منازل أهل الجنة. و رواه في الكافي عنه، و روى مثله عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) و محمد بن العباس مثله عن أبي عبد اللّه (ع).

(1).

الدر المنثور 6: 172- أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة في الآية قال ذكر لنا ان نبي اللّه (ص) قال‏: ان من المؤمنين يوم القيامة من يضي‏ء له نوره كما بين المدينة الى عدن او الى صنعاء فدون ذلك، حتى ان من المؤمنين من لا يضي‏ء له نوره إلا موضع قدميه، و الناس منازلهم بأعمالهم.

(2)

الدر المنثور 6: 172- أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير انه سمع أبا ذر و أبا الدرداء قالا: قال رسول اللّه (ص): أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة و أول من يؤذن له ان يرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدي و عن خلفي و عن يميني و عن شمالي فاعرف امتي بين الأمم. فقيل يا رسول اللّه! و كيف تعرفهم؟ بين الأمم ما بين نوح الى أمتك؟ قال: غر محجلون من اثر الوضوء و لا يكون لأحد غيرهم، و أعرفهم انهم يؤتون كتبهم بايمانهم و أعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، و أعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 143

العظيم على ضوء النور الذي التمسوه يوم الدنيا، و تممه اللّه في الاخرى: (بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

فهذا دور المؤمنين، فما هو إذا دور المنافقين؟ إنه النكسة و ظلمة الركسة:

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ‏:

هناك المؤمنون و المؤمنات في منظر طريف ظريف، و هنا المنافقون و المنافقات في منظر هائل عنيف، في حيرة الضلالة و مهانة الإهمال، متعلقين بأذيال المؤمنين و المؤمنات قائلين: (انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) و أنّى لهم الاقتباس، و لات حين مناص، من الظلمات التي عاشوها حياتهم!.

و ترى ما هذه النظرة التي يلتمس منها قبسات النور؟ إنها ليست نظرة البصر فإنها غير مفيدة، و هي حاصلة في حوارهم، و إنما هي نظرة البصيرة المتأملة الشفيعة الى اللّه أن يقبسهم من نورهم، لذلك لم تعدّ ب (إلى) المؤدية معنى نظر البصر: (انظرونا): تأملونا لهذه البغية، و ليس مجرد التأمل (في):

(أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ) (7: 185) أو التأمل (كيف):

(أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (30: 9).

(و لا نظر الانتظار: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ، إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ) (75: 23) اللهم إلا انتظارهم ليلحقوهم الى الجنة على نورهم كما هم مسرعون، و أنّى لهم و هم مظلمون مبطئون!.

أو انتظار الشفاعة لمن ينظرونهم أمل الشفاعة، و لكنه أيضا النظر (إلى) و هنا النظر (انظرونا) فهو نظر يفيد الاقتباس من ذلك النور.

و قد التمسوا محالا فأجيبوا بمحال مضاعف: (قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً) فليس هذا النور بالذي يلتمس هنا، و لا بالذي يقتبس من أهل النور هنا، و إنما يلتمس (وراءكم) يوم الدنيا التي خلفتموها وراءكم ظهريا، و من ثم يقتبس منه هنا، أو كان أصله من هناك ثم يتمم هنا بشفاعة أو التماس، ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 144

يكون تمام الاقتباس: (يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا) (66: 8)، و أما الذين لم يلتمسوا من ورائهم نورا هناك، فلا نور لهم هنا، لا أصلا و لا تتميما (وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ) (64: 40) و لكن أهل اللّه ينظرون بنور اللّه دونما ضوء بصري منه يقتبس، فأين المنافقون القائلون للمؤمنين:

(انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ)

؟ و المؤمنون‏

(رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا)

«1»؟

و هذا الجواب المهانة العتاب يحمل محالين: الرجوع الى الوراء: (رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ، كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها (23: 100) و التماس النور لو رجع: (وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) (6: 28).

و لماذا (قِيلَ ارْجِعُوا) لا (قالوا)؟ علّه لأن القائل هنا ليس هم المؤمنين أنفسهم، أو هم كلهم، بل هم خزنة النار بإذن العزيز الجبار، أو انه قيل من الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذي كان يذكرهم ذكراهم هذه ليل نهار، فلم يستفيقوا من نومتهم، فاستحقوا هكذا استهتار، بأمر تعجيزي يستهزأ بهم كما كانوا يستهزؤن بالمؤمنين، أو انه مكر من خير الماكرين أن يرجعوا الى وراء لهم اليه الرجعة، وراء في المحشر نفسه، فيفاجئون بسور له باب، كل محتمل و متحمّل، و الجمع أجمل.

لقد كان المؤمنون و المنافقون يتراءون و يتسامعون في حوار حاسم، فضرب بينهم بحجاب الجواب العتاب، ثم حجاب سور له باب بعد ذلك الجواب:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 173- اخرج الطبراني و ابن مردويه قال قال رسول اللّه (ص): ان اللّه يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه على العباد، و أما عند الصراط فان اللّه يعطي كل مؤمن نورا و كل منافق نورا فإذا استووا على الصراط سلب اللّه نور المنافقين و المنافقات، فقال المنافقون انظرونا نقتبس من نوركم، و قال المؤمنون ربنا أتمم لنا نورنا، فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا».

أقول: نور المنافقين هنا ضوئي عرضي امتهانا و مكرا حسنا، و نور المؤمنين ذاتي كسبي إكراما لهم و تكريما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 145

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ‏:

ترى ما هذا الحجاب، و ما هذا الباب، و ما هو باطن الرحمة و ظاهر العذاب؟؟

هل انه حجاب الأعراف؟: (وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ ...) (7: 46) قد يكون، و ليكن حجابا دائبا لا يستطيع أصحاب النار اختراقه يمنة أو يسرة أو من عل، فليكن سورا دائريا أو مثله، لا طوليا له جانبان منتهيان، فإنهما له بابان، فلا حاجة فيه الى باب، و لكنه‏ (بِسُورٍ لَهُ بابٌ) فالسور توحي بحجاب يحيط من الجوانب كلها، فانها الحائط المشتمل، و الباب- أيا كان- توحي أن لا سبيل الى داخل السور إلا منه، إذا فهي حائط محيط بأهل الجنة و محاط بأهل النار، و الباب هذه بابها الى الجنة، فهي باب الرحمة، و باطن السور فيه الرحمة: واقعها إذ يعيش أهلها النور، و بشارتها، إذ هم يخرجون من بابها الى الجنة، و ظاهر السور (مِنْ قِبَلِهِ) قبل نفس السور (الْعَذابُ) واقعه إذ يعيش أهله الظلمات، و مستقبلة إذ يستقبلون فيه النار.

فلن يدخل السور، و لن يقرب الى باب السور، إلا أهل النور، و أما المظلمون فهم خارج السور، و ناءون عن باب السور، فالمؤمنون هم في مربع النور: معهم، و في السور، و من باب السور، و الى الجنة النور، و المنافقون و معهم الكافرون هم محرومون عن النور بما حرموا أنفسهم.

و هذا من الفصل يوم الفصل بين المؤمنين و سواهم، ثم هناك فصائل اخرى تفصل بينهم تلو بعض، أو مع بعض حتى يتم الفصل، حين استقر أهل الجنة في الجنة و أهل النار في النار، ثم لا ترائي و لا حوار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 146

و بما أن كل ما في الآخرة هو مثال لما في الدنيا ثوابا أو عقابا، جزاء وفاقا، فهذا السور المضروب بينهم في المحشر مثال عما ضرب بينهم يوم الدنيا، سور الحياة الدنيا، الذي حاول المؤمنون أن يبطنوه و ينظروه عميقا و بعيدا فبصرهم:

(من أبصر بها بصرته) و غيرهم نظروا الى ظاهر منه و (أبصروا إليها فأعمتهم):

(يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) (20: 7) و الدنيا هي الدنيا و السور هو السور، و إنما اختلفوا و افترقوا في مفترق النظر بحديد البصر، ففريق في الجنة و فريق في السعير.

(باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) كما في باطن الحياة الدنيا الناحي منحى الرحمات لمن أبصر بها، (وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ) كظاهر الحياة الدنيا لمن أبصر إليها، فالحياة الدنيا في باطنها الرحمة، و ظاهرها من قبلها العذاب، لا أنها العذاب أو فيها العذاب، و إنما من قبلها و بسببها لمن يعلم ظاهرا منها و يجهل باطنها.

و من لطيف التعبير (فضرب) ماضيا، لا (فيضرب) مضارعا، رغم استقبال الضرب، مما يوحي أن هذا السور المضروب يوم الاخرى كان مضروبا من قبل يوم الاولى، فليس سور الاخرى إلا استمرار الاولى في صورة اخرى! ثم هذا السور حاجب الرؤية و ليس حاجب الصورت حيث الحوار و التنادي:

(يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) في سور الدنيا، و نعيش مع بعض، و يساكن بعضنا البعض، عشنا في صعيد واحد، و حشرنا معكم في صعيد واحد، فلما ذا هذا الفراق بين الرفاق؟ و قد كنا مسلمين!.

قالوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى‏ وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ:

(قالُوا بَلى‏): كنتم معنا معية الزمان و المكان و في ظاهر الإيمان، و ليست تفيد هذه المعية المادية الجوفاء، إذا اختلفنا في معية حقيقة الإيمان، فمقاييس الاخرى تختلف عن الاولى اختلاف الحساب عن الفوضي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 147

(... بلى) فيما لا يفيد هنا، و (لا) فيما يفيد: (وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ).

لكنكم عشتم مربع الظلمات بدلا عن مربع النور: فتنة الأنفس، و التربص، و الارتياب و الغرور، و أين مربع الظلمات من مربع النور!.

(فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ): أنفسكم أنتم عن برهاني الفطرة و الرسالة، فخسرتم النور الأول، و التهيتم عن النور المبين، و (فتنتم) المؤمنين الذين هم كأنفسكم قضية الايمان لو كان: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ) (85: 10) وليتكم ما لبثتم في هذه الفتنة فرجعتم الى نور الفطرة و الرسالة، و لكنكم (و تربصتم) و تلبثتم ماكثين في هذه الفتنة الالتهاء فقست قلوبكم: (وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) (57: 16) (بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) (2: 81) (كَلَّا بَلْ رانَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) (83: 14) فالتربص في الفتنة تعمّقها و تزيدها ركسة عن الحق، تربصتم بأنفسكم في الفتنة و تربصتم بالمؤمنين الدوائر:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) (4: 141) (وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (9: 98)، كذلك و تربصتم عن التوبة و الإنابة الى اللّه، ثالوث التربص المنحوس.

و لو أنكم رجعتم عن الفتنة المتربصة بكم و بالمؤمنين، و المتربصين عن التوبة، و رجعتم الى اللّه، قفزة الى الفطرة قبل انكسافها بالمرة، لرجع لكم نور العلم فالإيمان، و لكنكم‏ (وَ ارْتَبْتُمْ) إذا استأصلت الفطرة عن نورها فأظلمت، فأوصلتكم الفتنة المتربصة المستقرة الى الريبة، ريبة في كل حق ناصع، أو إيمانا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 148

بكل باطل فاجع: (أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) فقد كفرتم بالرسالة الإلهية الناصحة الناصعة كفر النفاق و الشقاق.

و طالما الخطوة الثالثة الريبة بعد تربص الفتنة زلقة خطرة، و لكنما الأمل في الرجعة الى الهدى بعد واقع و إن بصعوبة، و لكنكم (و غرتكم الأماني):

ثالوث الأماني الفارغة الجوفاء، من النفس الغريرة، و من الشيطان الغرور، و من الكفار الغارين، و ساعدتكم في هذا الثالوث المنحوس الدنيا الغرور، بكل زور و غرور. و كأنها أنزلتكم الى درك الطمأنينة الى الباطل لحد الإيمان به و اليقين، إذ زال عن فطرتكم كل نور، فلم تبق إلا الظلمات، حيث الأماني تستحكم عرى الفتنة و الارتياب، و لا سيما أمنية انتكاس أمر الإسلام، و ارتكاس المسلمين،

(تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خوّلتم و تستصغرون بها مواهب اللّه جل و عزّ عندكم، و تعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم)

«1»، و هكذا عشتم مربع الظلمات‏ (حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ): بالموت و السؤال و الحساب و العقاب، و كانت حياتكم كلها حياة الغرور إذ (وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ): الشيطان المبالغ في الغرور، فان له أيادي في مربع الضلال، و لكنه ليس و لا يمكن إلا باستجابة المغرور، دون تسيير و إنما مسايرة الزور و الغرور.

و هكذا يخطو الغرور بالإنسان الى دركات الغرور، لا لأن غروره قوي و إنما لضعف المغرور، انضعافا من الإنسان، فانضيافا الى الشيطان و (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً) (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ).

فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ:

فليس لكم هناك مال تفدون به، أو نفس تفدي عنكم، و لو كان ف (لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده الى ابان بن تغلب قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 149

يؤخذ منكم ...) (فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ) (3: 91) رغم‏ (لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) (13: 18) (فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا): (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) (5: 36) (يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ) (70: 11).

(مَأْواكُمُ النَّارُ) في دار القرار، كما كان مأواكم في دار الفرار (هِيَ مَوْلاكُمْ):

أملك بكم و أولى بأخذكم، فكأنها تملككم رقا، و لا تحرركم عتقا، و كما كنتم ارقاء لموجبات النار، جهنم تصلونها و بئس القرار.

لقد حان الآن أن ينحى المنافقون نحو الإيمان، فتخشع قلوبهم لذكر اللّه لو كانت لهم قلوب، فالمؤمنون أجدر بذلك و أحرى:

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ‏.

انه ليس المنافقين و الكافرين فقط هم الذين ينسيهم الشيطان ذكر اللّه، فيخطوا بهم خطواته، بل هو إلى تضليل المؤمنين أرغب، فحيا إلى مطاردة الشيطان ان ندرحه عن صدورنا و قلوبنا فإنه الوسواس الخناس:

بخشوع القلب يخشع القالب، و قد يخشع القالب و القلب لاه، و رين القلب لا يزيله و يجليه إلا ذكر اللّه، ذكر يأخذ بأزمة القلب و يستكن في زواياه، فليس ذكر اللسان إلا من بواعث ذكر القلب، و إلى أن يصبح العبد كله ذكرا اللّه! فالذكر الذي لا يخشع به القلب، هو قالب الذكر و ليس قلبه، و إنما حقيقة الذكر هي التي تقلّب القلب إلى اللّه، و تفرغه عما سوى اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 150

و هنا الآية ترن رنا عاتبا حنونا، و تأن أنّا صارخا على اسماع المؤمنين منونا، محذّرة إياهم أن تقسوا قلوبهم بطول الآماد في التغافل و التساهي عن ذكر اللّه، فإن ذكر اللّه درجات، كما ان نسيانه دركات، و مهما يبلغ الإنسان إلى درجات من الإيمان، فبعده درجات و درجات، لو قيست إلى ما قبله لكان كالدركات.

فليعش المؤمن حياته تروية دائبة لقلبه بمياه ذكر اللّه، فهذا الخطاب الود العتاب يواجه المؤمنين كافة إلا المقربين، يواجههم الطول التاريخي و العرض الجغرافي أن يحاولوا في تخشيع قلوبهم لذكر اللّه و ما نزل من الحق دونما غفلة و مماطلة أو مماهلة، محذرا إياهم أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم أمد الذكرى فنسوا و غفوا فقست قلوبهم، و ليس وراء قسوة القلب إلا كل فسوق و خروق، و إلى الكفر.

و القلب- كما سمي- كيانه التقلب و الانقلاب، فلا بدّ له دوما من زمام رباني يزمه عن الأزمات التقلبات، فلا بدّ من الطّرق و المتواصل عليه بطوارق أنوار الذكر حتى لا يبلد و يقسوا و تنطمس إشراقته، و لكي يرق و يبرق و يشف‏ (أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (13: 28) تخرج عن تقلباتها الفوضى، و تطمئن إلى اللّه العلي الأعلى.

ذلك لأن قلب الروح يعشق اللامحدود، و إنما تقلبه و تزلّقه إلى هنا و هناك، إلى هذا و ذاك، دونما وقفة و اطمئنان، لأنه لا يجد بغيته في هذه المحدودة الزائغة الزائفة من كائنات الوجود، فإذا تعلق باللّه اطمئن و ارتكن، ثم لا تقلّب و لا انفلات، اللهم إلا لمن لم يعرف ربه كما يحق، فقد ينزلق إلا من اعتصم باللّه و عصمه اللّه.

ان طول الآماد في فترات الرسالات من أهم ما ينسي ذكر اللّه فتقسى بها القلوب، لأنهم ينورون القلوب و يحركونها بسناد الوحي فلا يخطئون أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 151

يتباطئون، و من سواهم من مبلغي رسالات اللّه إنما يصدرون عنهم غيّبا و حضورا فقد يتباطئون أو يخطئون، مما يقلّل من تأثيرات العظات، فتتعاظم القساوات في ثالث الأدوار، دور الانتظار الذي نعيشه، إذ لا رسول و لا إمام حاضرا، و إنما منتظرا ليأتي و يقوّم الأود، فهذا الدور من أخطر الأدوار تقاسيا للقلوب، و من أكثرها مسئوليات على عواتق المسلمين، فإذا يؤثر طول الآماد في الفترات الرسالية في قساوات القلوب، و الرسالة غير منتهية، و الفترة محدودة، فما ذا يكون أحوالنا في دور الانتظار و قد انتهت الرسالة و الرسالات، و ختم دور الإمامات، و الفترة طائلة لحد غير معروف، و لحد الآن الف و ستة و ستون سنة تمضي على الغيبة التامة لدور الإمامة، و لم يسبق له مثيل طولا، و لا يأسا قاطعا عن تجديد الرسالات.

فإذ تأنّ آية الأنّ على المؤمنين زمن الرسول‏ «1» و على اسماعهم تأن الآيات من أقوى الرسالات الإلهية، فنحن الغيّب عن ذلك الزمن، و عن زمن أئمة تلكم الرسالة، نحن أحرى و أجدر و أفقر إلى هذه الرنة الموقظة، فلنأخذها نصب عيوننا، و صغي آذاننا و نقول: بلى يا رب! قد آن لنا أن تخشع قلوبنا لذكرك و حقيق لمن له قلب أن يصعق و يتفتت لما يسمعها كبعض الأولين‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 174- أخرج ابن مردويه عن انس مرفوعا إلى النبي (ص) قال: استبطأ اللّه قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل اللّه: ألم يأن ...

و فيه اخرج ابن مردويه عن عائشة قالت‏: خرج رسول اللّه (ص) على نفر من أصحابه في المسجد و هم يضحكون فسحب رداءه محمرا وجهه فقال: أ تضحكون و لم يأتكم أمان من ربكم بانه قد غفر لكم و لقد أنزل علي في ضحككم آية: «أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» قالوا:

يا رسول اللّه (ص)! فما كفارة ذلك؟ قال: تبكون قدر ما ضحكتم،

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ان رسول اللّه (ص) قال‏: لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم إلا ان كل ما هو آت قريب، إنما البعيد ما ليس بآيات.

(2) روح المعاني للالوسي ج 27 ص 180: روى السلمي عن حمد بن أبي الحواري قال:

بينا كنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلا قد خر مغشيا عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 152

و ترى ما هو الفارق بين (ذكر اللّه) و (ما نزل من الحق) و هو أفضل ما يذكرنا اللّه؟. قد يكون ذكر اللّه أعم مما نزل من الحق، حيث الحق النازل هنا هو القرآن و هو نبي القرآن بسائر بيناته، و هو أحق ما يذكر اللّه من خوارج الذوات، و لكنها لا تذكر اللّه إلا باستجابة من دواخل الذوات، فطرا و فكرا و عقولا بما معها من مذكرات آفاقية و أنفسية، فذكر اللّه يشمل سائر ما من شأنه أن يذكرنا اللّه مما نزل من الحق و سواه، فالحق النازل تشريعا من طرق الرسالات، و الحق النازل تكوينا من سائر الطرق، يتناصران في تحقيق ذكر اللّه الذي يخشع القلوب.

و من الفوارق الأدبية بين (ذكر اللّه) القرآن. و (ذكر اللّه) سوى القرآن، انه في القرآن إضافة إلى الفاعل فإنه المذكر للّه، و في سواه إضافة إلى المفعول فإنه يذكرنا اللّه: (ذكر القرآن)- (ذكر ما سوى القرآن) و لا ضير أن يجمع ذكر اللّه هنا فاعله و مفعوله سواء.

و لو ان ذكر اللّه- أيا كان- دخل شغاف القلب، و أخذ بزمام القلب فهنا الخشوع دونما محاولة أخرى، و لو انه بقي في حالة الأهبة و الذكر قالبا، و لم يتحول إلى القلب فلا خشوع و بأية محاولة أخرى، و إنما التنديد في آية الأنّ بمن لم يحول قوالب الذكر إلى القلوب، لا ما نزل من الحق و لا سواه، و إنما اكتفوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقلت: ما هذا؟ فقالوا كان رجلا حاضر القلب فسمع آية من كتاب اللّه فخر مغشيا عليه فقلت:

ما هي؟ فقيل: قوله تعالى: «أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ» فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فانشأ يقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أما آن للهجران أن يتصرما |  | و للغصن غصن البان أن يتبسما |
| و للعاشق الصب الذي ذاب و انحنى‏ |  | ألم يان أن يبكي عليه و يرحما |
| كتبت بماء الشوق بين جوانحي‏ |  | كتابا حكى نقش الوشي النمنما |

ثم قال: إشكال إشكال إشكال فخر مغشيا عليه فحركناه فإذا هو ميت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 153

بذكر اللسان، و من ثم بكل هؤلاء الذين وقفوا عن الحراك في تحكيم ذكر اللّه في قلوبهم، أو يتباطئون في الحراك، مهما انقلب ذكر من اللّه إلى قلوبهم، فليس لذكر اللّه حد و لا نهاية، و على السالك أن يتسارع في هذه السبيل حتى يتوفاه الموت، و من ثم يسرع بالعجلة التي قدمها لنفسه.

(أَ لَمْ يَأْنِ): ألم يأت آن و حين‏ (لِلَّذِينَ آمَنُوا) بألسنتهم دون قلوبهم، أو بقلوبهم أحيانا دون أخرى، أو ببعضها دون الآخر، أو بدرجة دون تزايد (أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) كل ما يذكر اللّه‏ (وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) قرآنا و أيا كان، (وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ) من اليهود و النصارى‏ (فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ): الأجل و الفترة بين الرسالات‏ (فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ) شاءوا أم أبوا وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ‏) و هم العامدون الضالون المضللون. فقيل منهم ضالون جهلا و قصورا فهم ليسوا بفاسقين، و قليل من هؤلاء القلة مؤمنون صامدون رغم طول الآماد و بواعث القساوات، و هنيئا لهذه القلة المؤمنة، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة من الملة الحنيفة المحمدية، و في أقسى الزمن و أطول الفترات: دور الانتظار، نظرة الانتصار.

و ترى هل من فرج بعد الانكسار بما تقاست القلوب في فترة الانتظار، و ماتت الأرض؟ اللهم نعم:

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ‏.

إن إحياء الأرض بعد موتها، لا بعد إماتتها، توحي ان موتها منها، و إحياءها من اللّه، فهي إذا الحياة الروحية، بعد موتها عنها بما قست القلوب‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي باسناده عن أبي ابراهيم موسى بن جعفر (ع) في الآية: قال‏: ليس يحييها بالقطر و لكن يبعث اللّه عز و جل رجالا فتحي الأرض لإحياء العدل و لإقامة الحد فيها انفع في الأرض من القطر أربعين صباحا.

أقول: سلب الاحياء بالقطر عله سلب الحصر، و كما يزعمه البسطاء، فإن الآية تشملها و ان تلويحا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 154

و إن كانت تشمل حياتا قبلها بموتها هي الحياة النباتية و الحيوانية و الإنسانية الجسدانية، و كذلك حياتا بعدها هي الحياة الاخرى عند القيامة الكبرى، و لكنما المقصود الأصيل من الحياة هنا هي الوسطى: الروحية السامية، زمن قيام الدولة الإسلامية الكبرى بزعامة القائم المهدي عليه التحية و السلام‏ «1»، لمكان (بعد موتها) و ان الآية تحتف بها آيات لا تناسب الحياة المادية فحسب:

(ألم يأن ...) (ان المصدقين ...) و إن كانت تلمح بالحياة الاولى و الاخرى أيضا.

فالأرض المبشّر بإحيائها هي الأرض الناقصة من أطرافها: (أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها) (13: 41) و هو ذهاب نورها و بهجتها بذهاب علماءها العارفين باللّه، و مؤمنيها المتمسكين بدين اللّه.

كما و انها أراضي القلوب التي خوت عن خشية اللّه، و انطفت عن نور معرفة اللّه، فاللّه تعالى يحيي هذه و تلك، زمن الانتظار أحيانا، و زمن الانتصار تماما، إذ لا حكم إلا اللّه، فلا يعبد إذا إلا اللّه.

فلا يقوم قائم الانتصار إلا بعد ما ملئت الأرض ظلما و جورا و هذا موتها، فهو يملأها قسطا و عدلا، و هذا إحياءها، و إن كان لا بد لتأسيس هذه الدولة العالمية من مساعدين من أقوياء المسلمين، فهم أولاء، العشرة آلاف جنود

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

كمال الدين و تمام النعمة باسناده إلى سلام بن المستنير عن أبي جعفر (ع): في قول اللّه تعالى: اعلموا ان اللّه يحيي الأرض بعد موتها. قال: يحيي اللّه تعالى بالقائم بعد موتها، يعني بموتها كفر أهلها و الكافر ميت.

و فيه باسناده إلى سليط قال: قال الحسين بن علي (ع) منا اثنى عشر مهديا أولهم امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) و آخرهم التاسع من ولدي هو القائم بالحق به يحيي الأرض بعد موتها و يظهر به الدين الحق على الدين كله و لو كره المشركون.

و في روضة الكافي باسناده إلى محمد الحلبي‏ انه سال أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه عز و جل:

اعلموا ان اللّه يحيي الأرض بعد موتها- قال: العدل بعد الجور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 155

المهدي (ع) و ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا اصحاب الألوية، إضافة إلى من يرجعهم اللّه من سائر المؤمنين الأشداء رجعة الاستعداد او الاستدعاء! اللهم اجعلنا منهم احياء او أمواتا.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ‏:

مزيد تأكيد لإقراض اللّه قرضا حسنا متصدقا فيه و في سواه من إنفاق في سبيل اللّه، و التصدق هو التجافي عن حق لمن يحتاجه، بتكلف، كأن يحبه كثيرا، أو يحتاجه دون ضرورة أم ماذا.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ‏:

ان الصديقين و الشهداء عند اللّه ليسوا أناسا خصوصا تحتكر لهم هذه المقامات، و تحجز لهم لأنهم أصحاب القرابات الى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أيا من ميزات اللهم إلا القربات: الإيمان باللّه و رسوله و ان كان له درجات، فالصديق و الشهيد عند اللّه هو الذي بلغ الذروة من الإيمان عقيديا و عمليا، فإن الإسلام شريعة لا مجال فيها للطبقيات في نيل الدرجات.

و من المؤمنين الذروة من فرّ بدينه من أرض الى أرض مخافة الفتنة على نفسه و دينه‏ «1» مما يدل على أن دينه أعز عنده مما سواه، و ان كانوا هم أيضا درجات.

صحيح أن المؤمن لن يصل الى درجة النبيين، إلا أن له أن يضاهيهم فيصل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 176 أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه (ص): «... كتب عند اللّه صديقا فإذا مات قبضه اللّه شهيدا و تلا هذه الآية ثم قال: و الفارون بدينهم من أرض الى أرض يوم القيامة مع عيسى بن مريم في درجته في الجنة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 156

الى درجة الشهداء و الصديقين و كما هم شهداء و صديقون: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا» (19: 41) «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا» (19: 56) «وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ» (5: 75) فالصديقون و الشهداء هم من مربع النور: الرعيل الأعلى المنعم عليهم: «فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69) فقد بلغ الصديقون الى درجة يؤمر المصلون أجمعون أن يهديهم اللّه صراطهم: «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» (1: 5) فهم البالغون القمة في النعمات الروحية الإلهية، اللهم إلا رسالة الوحي في غير النبيين منهم.

إذا فبإمكان المؤمن أن يصطف في صفوف النبيين اللهم إلا الوحي و العصمة الخاصة بهم، فإنهما جذبة إلهية لمن كمّل سيره الى اللّه، فيصطفيه اللّه تكميلا لما قصر هو عنه، فالنبوة بين سعي بشري و اصطفاء مكمل إلهي.

و لأنهم صديقون عند ربهم، فهم الشهداء عند ربهم كما النبيون شهداء:

«وَ جِي‏ءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» (39: 69) و محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو شهيد الشهداء: نبيين و صديقين: «فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى‏ هؤُلاءِ شَهِيداً» (4: 41).

إنهم يشهدون على أعمال العباد لأنهم صديقون لا يكذبون و لا يسهون، فحياتهم الصدق دون أية كذبة، و لا تورية إلا ما يشاء اللّه و يرضى، و كيف يمكن إلقاء الشهادة ممن لم يتلق الأعمال، فهم- إذا- يلقّون أعمال العباد و يتلقونها يوم الدنيا حتى يشهدوا بها و يلقوها في الاخرى، كما و أنهم شهداء عند اللّه:

حضورا عنده و ليسوا غيّبا، يشاهدون جلاله و جماله، كبرياءه و مناله، عميان عمن سوى اللّه، لا يرون شيئا إلا و قد يرون اللّه قبله و بعده و معه و فيه، رؤية علم و معرفة كأنها عيان: «اعبد ربك كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 157

و هم كذلك شهداء اللّه و حججه يوم الدنيا، يدلون اليه، مجاهدين في التدليل عليه، مثلث الشهادة الصادقة للصديقين و حسن أولئك رفيقا.

هؤلاء لهم أجرهم كما سعوا، و نورهم كما قدموا و لا يظلمون فتيلا «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا» باللّه و رسله‏ «وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا»: رسلا و رسالات بسائر الآيات‏ «أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ»: نار شديدة التأجج، كما هم كانوا نارا على أصحاب النعيم.

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ:

ان الحقيقة في الحياة الدنيا، وراء كل ما يبدو فيها هي الحياة الخماسية الزهيدة الجوفاء، دون بقاء و لا وفاء، تجمعها «انها حياة الغرور»: غرور لعب و لهو و زينة و تفاخر و تكاثر، و من ثم هي‏ (فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ) لمن أبصر إليها فأعمته عن حقيقتها، و هي هي‏ (مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ) لمن أبصر بها فبصرته، فهي من طبعها حياة الغرور لمن لا يحدّ البصر، و هي ثانية حياة المغفرة و الرضوان لحديدي البصر! فعلى السالك السبيل من هذه القنطرة الخطرة أن يعمق النظر و يحد البصر، لكي لا يغره باللّه الغرور في هذه الحياة الغرور.

انها حياة ذات وجهين و وجهتين: باطنها فيه الرحمة و ظاهرها من قبله العذاب، و كما تضرب هي سورا بين أهل الجنة و النار يوم القرار.

فبإمكان الإنسان أن يجعل من الحياة الدنيا حياة عليا، أن يقنطرها للأخرى، و يستخدمها للارتقاء في مراقي العبودية و التقى، فان الدنيا مدرسة الآخرة!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 158

يجعل بدل اللعب الطفولي، العمل البناء البطولي، و بدل اللهو عن ذكر اللّه لهوا عما سوى اللّه و عيشة مع اللّه، و بدل زينة الحياة الدنيا، زينة الحياة العليا:

الإيمان و التقوى، و بدل التفاخر بالأرذل الأدنى، التناصر فيما يحب اللّه و يرضى، و بدل التكاثر في الأموال و الأولاد، التكاثر في المثل العليا.

ان دور اللعب هو دور الطفولة، يتعبون أنفسهم فيما لا يعنى، فتذهب أتعابهم سدى، و اللهو دور الشبان، إذ يلتهون عن مهمات الحياة الى ملذاتها و ملماتها، و عن عقلياتها الى شهواتها، ثم لا يبقى لهم بعد انقضاءها إلا حسرات، إذ يرى تقضّي العمر و المال و اللذة العمياء، و الزينة في الملابس و المراكب و المساكن دور الكهولة أو ما يشارفها، بعد ما انقضى ثورة اللهو و الشهوة، ثم بعد الكهولة دور التفاخر بالأحساب و الأنساب و المناصب و الألقاب الفارغة الجوفاء، و أخيرا دور التكاثر في الأموال و الأولاد و قد يتخطى الأحياء الى الأموات: (أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ).

و من الناس النسناس من يعيش هذه الأدوار طول حياته، صبيا في كهولته، شابا في طفولته، طفلا في رجولته، يلعب و يلهو و هو شيخ هرم، و يلعب دور الزينة و التفاخر و التكاثر في سني عمره كلها (فأولى لهم ثم أولى لهم)!.

و هنا الآية تمثل خير الأمثال للحياة الدنيا (كمثل غيث) مثلا عن الحياة العليا، الخليطة بزخارف الدنيا: (إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (10: 24).

و الغيث من الغوث: المطر المغيث العطشى، و المغيث الحب و النوى، و كذلك الحياة العليا الإيمانية تغيث أصحابها عن غرور الدنيا و زخرفاتها، و هي الحياة المستجيبة لنداء الفطرة و رسالات السماء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 159

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ‏: هل الكفار هنا هم الزرّاع إذ يكفرون البذر و يسترونه تحت التراب؟ و قد يناسبه الغيث و النبات! و لكنها إذا آية يتيمة في هكذا كفر بين آيات الكفار كلها «1»! أم هم الكافرون الساترون الحاجبون الفطرة عن نور الحق، و الساترون سائر الحق بحجب التكذيب و الإنكار؟

قد يلائمه سائر آيات الكفار، و غير فصيح و لا صحيح أن يعني به في هذه اليتيمة غير ما عنى به في سائر العشرين آية، فلما ذا لم يقل الزرّاع لو كان معنيا من الكفار، كما في سائر آيات الزرّاع‏ «2»؟ و قد قورن بالكفار في واحدة منها:

«يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» (48: 29)! و لكنما العجاب من نبات الغيث لا يخص الكفار، زرّاعا أم غير زرّاع، بل يعجب المؤمن و الكافر، و لا سيما الزرّاع مؤمنين أو كافرين! قد يعني به الزرّاع هنا مضمّنا الكفار، تورية و إلماعا الى إعجابهم بالحياة الدنيا، فالغيث يعجب الزراع و أحرى، و يعجب الكفار زراعا و سواهم، و أين عجب من عجب؟ عجب كافر و هو عجاب كافر، و عجب مؤمن و هو عجاب مؤمن، عجب لاه، و عجب من رحمة اللّه.

«ثُمَّ يَهِيجُ» النبات‏ «فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً»: كسرا هشيما تذروه الرياح، و هكذا ينتهي شريط الحياة الدنيا العاجلة الزهيدة، ثم هي‏ «وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ» للزراع الكافرين المعجبين بظاهر الحياة الدنيا، اللاعبين اللاهين المتزينين المتفاخرين المتكاثرين‏ «وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ» للزراع المؤمنين، الذين استفادوا من غيث الحياة إغاثة لها عن دنياها، فما زخرفوها أو دنّسوها بغرورها و زورها، بل أنبتوها من هذه الممرة الكأداء نباتا حسنا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي احدى و عشرون آية لا يحتمل معنى الزرع إلا في هذه.

(2) و هي اربعة عشر آية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 160

فهي في الآخرة «مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ» لمن قصر قليلا و جاهد كثيرا «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» لمن عاش حياته رضوان اللّه.

فانما الدنيا مزرعة الآخرة، و أهلها كلهم زراع، فمنهم من يخسر زرعه و يخسر كالزراع الكفار، و منهم من يربح و يربح كالزراع المؤمنين.

«وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ»: إنها متاع يتمتع به الى حين: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ» (2: 36) دون استمرار ليوم الدين، و هي كذلك متاع يشترى به غفران من اللّه و رضوان، و إن كان قليلا بجنب ما يبدل عنه: «فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (6: 38) فلا أصالة للحياة الدنيا القلة إلا متاعا في الآخرة: (وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ) (13: 26) أجل انها متاع و لكنها تغري المتمتعين بها انها أصيل، يبصرون إليها كغاية فتعميهم عماية عن حقيقتها المتاع الزهيد، (وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ) و لو أبصروا بها فهي «في الآخرة مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ»!.

و لو استعلمنا بعيد النظر في هذه العبر وجدنا أن القرآن لا يقصد بهذه المهانة للحياة الدنيا إهمالها و العزلة عنها فنعيش حياة الرهبان و الدراويش، و إنما يقصد تصحيح المقاييس في استعمال هذه الحياة لتتخطى الدنيا إلى العليا، و الاستعلاء على غرور هذا المتاع الغرور، لنستبدل بها حياة أبقى و أرقى في الآخرة و الاولى، فالدين يستعمر الاولى قبل الاخرى و يستمر بالإنسان في حياة عليا و هو في الدنيا، و يصنع ميادين السباق للرفاق في هذه القنطرة إلى مغفرة و جنة:

سابِقُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ‏:

نؤمر هنا بالسباق، و في غيرها بالسراع: (وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (3: 132).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 161

و هكذا يجب أن تكون مسارع الحياة و مصارعها إلى اللّه، لا إلى اللهو.

و هل هناك من فرق بين آيتي آل عمران و الحديد؟ إن هذه تقدّر عرض الجنة كعرض السماء و الأرض، إذا فليست هي في السماوات و الأرض، و لا كعرضها، و إنما كعرض السماء و الأرض، و علّها السماء الاولى أو أية سماء؟ و لأنها للمتقين.

و تلك تقدّر عرضها السماوات و الأرض، فهي إذا فيهما و كسعتهما، بالسماوات السبع، و لأنها للسابقين فهي أوسع؟.

أقول: لا هذا و لا ذاك، فان جنة المتقين و السابقين و أيّ من المؤمنين هي فوق السماء السابعة: (وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏) (53: 15) مهما كانت لها درجات حسب الدرجات، و سدرة المنتهى هي منتهى الكون المحيط بسائر الكون، و من الأفق الأعلى لصاحب المعراج قبل مقام أو أدنى، هذه الجنة فرشها عرش السماء السابعة و

(سقفها عرش الرحمان)

«1».

و لو كانت هي في السماء و الأرض لم يكن عرضها كعرض السماء و الأرض، و لا عرض السماوات و الأرض، و إنما (جنة هي السماوات و الأرض) فالسماء هناك هي السماوات هنا و كما في غيرها، إلا إذا قيّدت بالدنيا (السماء الدنيا) أم ماذا، و العرض هو السعة، لا ما يقابل الطول، فان السماوات و الأرض ليست عرضا مقابل الطول، و إنما هي سعة جامعة للعرض و الطول، (جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ) تعني سعتها ليس إلا.

و بعد كل ذلك فشكل السماوات و الأرض دائري كروي لا طول له و لا عرض، و إنما محيط و سطح و حجم، و إن الجنة معدّة الآن للمتقين و الذين آمنوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما يروى عن الرسول (ص) تفسير الفخر الرازي ج 29 ص 253.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 162

باللّه و رسله، و لا نرى إعدادا في الأرض أن تصبح من الجنة، و لا في السماء.

إذا فسؤال: إذا كان عرض الجنة كعرض السماوات و الأرض، فأين النار؟ هذا السؤال ساقط لا جواب له إلا اختلاف المكان. و ما يعزى من جواب إلى النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

(سبحان اللّه إذا جاء النهار فأين الليل؟)

مختلق، فمن المحال اجتماع الليل و النهار في أفق و جو واحد، فكيف تجتمع الجنة و النار في السماوات و الأرض؟ و ساحة الرسول بريئة من هذه الهرطقات!.

ثم المسابقة المسارعة إلى مغفرة من الرب هي في الدنيا، و من أعمالنا، و هما الى الجنة- منذ الموت الى ما يعلم اللّه- من فضل اللّه نتيجة أعمالنا بما وعدنا اللّه: (ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

فالمسابقة الى مغفرة مسابقة- بالمآل- الى الجنة، فالدنيا هي ميدان سباق الى الجنة، يجعلها أهلها سباقا الى النار، فأين سباق من سباق، و جنة من نار؟.

ترى و كيف السباق الى غفران اللّه، و بأية وسيلة؟ إنها ترك كبائر السيئات و الإتيان بكبائر الحسنات، و الإنابة إلى اللّه، و التوبة النصوح، و تبنّي الحياة إيمانية مهما تسرّ بتها أخطاء صغار، فهنا لك الشفاعة، و هنا لك قبول التوبة، و هنا لك تكفير السيئات، و من ثمّ جنة عرضها الأرض و السماوات، أعدّت للذين آمنوا و عملوا الصالحات، فليست الجنة حصرة على المقربين، و حسرة على من سواهم من المؤمنين.

توحي المسارعة إلى مغفرة، أنه كما التوبة واجبة، كذلك السرعة لها و المسارعة إليها واجبة، فان في تأجيلها قسوة فحسرة و ندامة، و في تعجيلها تنوير للقلب المظلم و رجعة الى الرب و كرامة.

ترى و لماذا (إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) و هو من فعل اللّه لا المستغفر؟ و لم يقل:

(إلى استغفار ربكم)! لأن كل استغفار لا تتبعه المغفرة، و إنما استغفار التوبة النصوح: (أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ...) (11: 3).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 163

فالواجب تهيئة الوسائل لغفران اللّه كما يحق، و بما يشاء اللّه و يرضى، (أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ (3: 136) (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (5: 9) (أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى‏ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (49: 3) (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ) (67: 12) ...

هؤلاء ممن تحق لهم المغفرة فالجنة.

و ترى ان الإيمان باللّه و رسله كتقوى عقائدي كاف في استحقاق فضل الجنة؟ كلا، اللهم إلا بتقوى عملية و كما في آية آل عمران: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) و ان آية الصدّيقين و الشهداء اكتفت بذكر الإيمان باللّه و رسله، و لا ريب أن إيمانهم قمة الإيمان، و إن كانوا أيضا درجات.

[سورة الحديد (57): الآيات 22 الى 29]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (26)

ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (27) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (28) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 165

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ:

فما هي المصيبة المعنية هنا؟ و ما هو الكتاب؟ و ما هو الرباط بين ترك الأسى و الفرح و بين المصيبة المكتوبة؟:

المصيبة هي النائبة النازلة التي تصيب دون خطأ، الرامية المصيبة الهدف، و هي الرحمة المصيبة أهلها، من الصّوب: نزول المطر، فهي تجمع إصابة الحسنة و السيئة: «ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ» (4: 79).

و هذه الإصابات كل بإذن اللّه: «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» (64: 11) و «كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» (78: 4) و لكنما الحسنة من اللّه كما هي من عند اللّه، و السيئة من نفسك و ان كانت بإذن اللّه و من عند اللّه، فاللّه أولى منا بحسناتنا، و نحن أولى منه بسيئاتنا.

و إصابة السيئات قد تكون لأهلها بما كسبت أيديهم: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» (42: 30) إصابة بذنوبهم: «أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» (7: 100): «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (30: 41).

و إذا تصيب المصيبة السوء غير أهلها، فقد تكون امتهانا لهم بما لم ينهوا و سكتوا و رضوا، كالتاركين الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فهم قد تصيبهم ما تصيب أهل السوء من إصابات السوء، و قد تكون امتحانا و تكفيرا عن سيئات كما لأصحاب اليمين، أو تكون ترفيعا لدرجات كما للسابقين المقربين، و كل ذلك تشمله آيتنا هذه، و آيات الكسب تخص غيرهم ممن لهم يد في السوء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 166

مباشرة أم سواها «1».

و أما «كتاب» فيه المصيبات، فهل هو كتاب الإذن التكوين؟ اللهم نعم! إذن التكوين بعد إذن التقدير، و بعد ما اختار أهل السوء سوءا، أم و كتاب الإذن التشريع؟ اللهم لا! فانه لا يأذن بالشر أو يشرعه، أم و كتاب العلم‏ «2» بما يأذن و يكون؟ طبعا، فانه بكل شي‏ء عليم، فأحرى به أن يعلم بما يأذن.

و بما أن الإصابة- أيا كان- هي من خارج، تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه، و ليست من أفعاله، فكونها في كتاب لا يعني الجبر، بل و إذا شملت أفعاله فكتابه المسبق لا ينافي الاختيار في الأفعال التكليفية، لأن كتاب العلم انكشاف عما سيكون، لا تسيير لما يكون، و كتاب التقدير يكون على قدر ما يكون بسوء الاختيار، و كتاب الإذن إبرام لما تتحقق مقدماته بالاختيار، و ان كان كتاب الاذن و التقدير تسييرا بالنسبة لنتائج السيئات و عكسياتها إذ لا مفر عنها، بل و هي أيضا مختارة، فالامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار، اللهم إلا لمن تصيبه المصيبة تذكيرا و امتحانا، و بأحرى من تصيبه ترفيعا لدرجاته كالسابقين المقربين.

فأنت و أعمالك و مصائبك حسنة و سيئة، و أرضك، كلها «فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها»: الأرض و النفس و المصيبة، فلا يخفى منك على اللّه شي‏ء، و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي عن علي بن ابراهيم عن الصادق (ع) «لما حمل علي بن الحسين (ع) الى يزيد بن معاوية فأوقف بين يديه قال يزيد لعنه اللّه: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» فقال علي بن الحسين (ع) ليست هذه الآية فينا، ان فينا قول اللّه عز و جل: «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» فنحن الذين لا ناسى على ما فاتنا و لا نفرح بما أوتينا منها.

(2)

علي بن ابراهيم باسناده الى عبد الرحمان بن كثير عن أبي عبد اللّه (ع) في هذه الآية:

صدق اللّه و بلغت رسله كتابه في السماء، علمه بها و كتابه في الأرض علومنا في ليلة القدر و غيرها، ان ذلك على اللّه يسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 167

تتغلب على مشيئته في شي‏ء، و لا تجبر على شي‏ء، اللهم إلا في أجلك المحتوم، أو المعلق على غير عملك و فعلك، أو اصابتك بما أنت السبب، أو ما ليس لك نصيب في السبب، فإنها كلها «فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها» و هذا إعلام من اللّه مسبقا:

لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ:

و لماذا الأسى على ما فات و مضى، و هو مقدر كائن بحساب دون فوضى، فان كان الفوت بسيئة منك فهذا شي‏ء مرتقب، فلا تأس، و إنما غيّر سيرتك، و ان كان من غيرك فاعتبره لك عبرة و ذكرى أو تكفيرا عن سيئات، أو ترفيعا لدرجات، إذا فلما ذا الأسى على ما فات؟!.

ثم و لماذا الفرح و المرح بما آتاك اللّه، فلعله نعمة تضم نقمة فاستعذ منه باللّه، أو تجربة فاستعن فيه باللّه، أو كرامة من اللّه امتحانا فلما ذا الفرح؟ فهل تلهيك نعمة؟ و كثير هؤلاء الذين يلتهون! و ليس الامتحان في النعمة أهون منه في النقمة: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35).

فلا تحسبن النعمة لباقة منك و لياقة، و لا النقمة عذابا و آفة، فقد تكون النعمة نقمة و النقمة نعمة، و قد تكون غير ذلك‏

«و الدهر لك يومان يوم لك و يوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر و إذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر»

«1».

و هذه الآية تمثل أزهد الزهد في الدنيا لأهل الدين و كما

عن علي أمير المؤمنين عليه السلام‏: «الزهد كله بين كلمتين من القرآن: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن علي أمير المؤمنين (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 168

و من لم يأس على الماضي و لم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»

«1» .. و ما من أحد إلا و هو يحزن أحيانا و يفرح اخرى، فليكن صابرا عند الإصابة السوء، و شاكرا عند الخير، دون جزع و لا بطر.

فليست هذه الآية بالتي تجمد الطاقات، و تدعو للاتكاليات، تعطيلا للمساعي و إبطالا لها مغبة الأقدار، لأنها ليست إلا حسب المكاسب، أو المصالح و اللياقات، و ما الخارج الناتج عن كسبه و سعيه ليخطئه لو قدر له امتهانا أو امتحانا، فعليه أن يعيش سعيا و كدحا الى خير، وراء أقداره العاكسة في كتاب، و لكي تصبح مصائبه خيرات و سيئاته حسنات.

هذه الآية تستجيش الإنسان و تستصلبه في الأحداث لكي لا يجزع و يستطار فتسحقه الأحداث، و تعصف به عواصف الزمن و قواصفه، بل يصمد عند الحوادث فيتغلبها دون أن تغلبه، و ليستمر في نشاطه و كدحه تخفيفا عنها أو قضاء عليها أم صبرا حيث لا مندوحة إلا إياه، فيتعامل مع الأحداث كأنها مرتقبة طول الحياة، فيعالجها بنفسه لا أن يخالجها في نفسه تقسّما و انهزاما، فالأسى على الفائت تشغل البال، و الفرح بالآتي يفسد المآل، و هما من سوء الحال، فليكن المؤمن ثابت الحال في كل مجال، كالجبل الراسخ لا تزيله القواصف و لا تحركه العواصف، و هو عماد الزهد و سناد الكدح.

و لماذا «فاتكم» لفوات الحسنات، و «آتاكم»: اللّه لما اوتي من رغبات؟ ...

لأن فوت الحسنات مما كسبت أيديكم، و الحسنات مما آتاها اللّه، فالخير كله بيديه و الشر ليس اليه.

«وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ» فالمختال هو مفتعل الخيال و الخيلاء و الكبرياء،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في نهج البلاغة عن علي (ع) و في اصول الكافي عن أمير المؤمنين (ع) أن الناس ثلاثة:

زاهد و صابر و راغب، فاما الزاهد فقد خرجت الأحزان و الأفراح من قلبه، فلا يفرح بشي‏ء من الدنيا و لا يأسى على شي‏ء منها فاته فهو مستريح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 169

فهو فخور يفخر كثيرا بما خيّل اليه، يعيش حياة الخيال و الفخر و الكبرياء، و يأسى على ما فاته من الفائدات و الرغبات كأنه حق له مغتصب، و يفرح بما اوتي منها و يفخر كأنه حق له مرتقب، و من ثم يبخل عما اوتي من خير و يتخطاه الى أمر الناس بالبخل:

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ:

فما أجهله و أبخله، و ما ألعنه و ألأمه هذا النكد الأغود الذي يبخل بمال اللّه- الذي استخلفه فيه- عن عباد اللّه، ثم يأمر الناس بالبخل ليكونوا معه سواء، متوليا معرضا عن اللّه، و «هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» غني عن مالك و مالك، غني عنك و عن غناك، غني في ذاته و عن مخلوقاته و هم الفقراء، حميد في ذاته و ان لم يكن له حامدون، فما يناله شي‏ء من حمد الحامدين؟!.

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ:

هنا إقامة الناس بالقسط بمثلث: البينات و الكتاب و الميزان طوعا، و تقويم لهم بالقسط، بالحديد البأس الشديد كرها، لمن ليس له طوع الى الحق و رغبة الى القسط، الذين يجهلون أو يتجاهلون لغة الإنسان: البينات و الكتاب و الميزان، فليواجهوا بلغة الحيوان: حديد فيه بأس شديد، و من ثمّ منافع للناس، لأنه يؤدب النسناس و يوقفهم لحد الناس، فمثلث البرهان حجة الناس، و الحديد حجة على النسناس، فما هو الميزان بعد الكتاب؟ و ما هي البينات قبله؟ و كتابات الوحي كلها بينات!.

إن القرآن بوحدته بينات و كتاب و ميزان، و لكن سواه من كتابات الوحي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 170

كتاب و ليست ببينات معجزات، و إنما هي مبيّنات بمعجزات أصحاب الرسالات، و مهما كانت ميزانا بالمآل، و لكنها بما تثبته البينات.

و من ثم فحملة الرسالات يحملون معهم بينات تثبت تلكم الرسالات، معجزات كافية و آيات و حجج بالغة وافية لحمل الناكرين على التصديق، من كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد، و إلا فليجابه بحديد.

ثم الكتاب الحامل لشريعة اللّه، ناهج مناهج الحياة في كافة الإطارات، و هل ترى الكتاب و البينات يكفيان لتقويم الناس بالقسط دون ميزان معهم يزنون به البينات و الكتاب، و يزنون به الجماعات، فيثبتون الحجة ببيناتهم في قلوب الناس، و يحملونهم على تصديق الكتاب، و من ثم الى وعيه و تطبيقه؟.

كلا! انه لا بد من ميزان: عقلي و علمي و تطبيقي بوحي، كما الكتاب وحي ليوزن الوحي بالوحي، و يصدق الوحي و يطبق بالوحي!.

فميزان الرسل إضافة إلى البينات و الكتاب، هو عقل الرسالة و روحها و عصمتها و قدسيتها و حكمتها و حكمها: «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» (4: 105) و هذه الثلاث كلها نازلة من سماء الوحي: بينة و كتابا و ميزانا، فلا يحمل الرسل من الأرض إلا قوالب و أجسادا، و أما القلوب و الأرواح فهي نازلة بالوحي: «وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» (17: 85) روح القرآن و روح نبي القرآن: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ» (40: 15) «يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ» (16: 2) فهؤلاء الرسل الكرام أرواحهم القدسية و عقولهم و عصمهم موازين لوزن البينات و الكتاب و المرسل إليهم، و من ثم‏ «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ»! و ترى ان الناس يقومون بالقسط- فقط- بالبينات و الكتاب؟ كلا! و حتى المؤمنين منهم، فلا بدّ من ميزان لتقويمهم على حكم الكتاب بالعدل كما يقومون بالبينة و العقل، من ميزان الحكم القويم المستقيم على ضوء الكتاب بحجة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 171

البينات، فالحكومة الإلهية من الميزان النازل مع الكتاب، و إن كان الكتاب بميزان بيان الرسول يمثل التشريع، فميزان الحكم يمثل التنفيذ، فلا قوام لتشريع بلا ميزان الحكم، كما لا حكم و زينا بلا تشريع إلهي.

هذه هي القوة التشريعية التنفيذية، و ترى انها تقوّم الناس أجمعين؟ اللهم لا، إلا المؤمنين بالرسالات، الذين يعقلون فيؤمنون، و أما الذين لا يعقلون أو يجهلون أو يتجاهلون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أما هؤلاء فلا بدّ عليهم من قوة رادعة عن التخلفات، ضابطة عن الهمجيات و الفوضويات، و ما هي إلا الحديد و بأسه الشديد:

وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ‏:

و الحديد بوجه عام كل ما فيه حدة و صلابة و حتى حدة البصر: «فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22)، و بوجه خاص هو الحديد المعروف بأصوله و فروعه و مواليده.

و

«انزاله ذلك خلقه إياه»

«1» لا فقط من السماء فإن اللّه ليس ما كن السماء و ساكنها، حتى ينزل ما ينزله منها، و إنما أصل الإنزال في أمثاله إنزال الرحمة من علوّ ساحة الربوبية إلى المربوبين الهزلاء النازلين كما أنزلت الانعام الثمانية، و إن كان ذلك لا يمنع نزوله أيضا من السماء إلى الأرض كالأمطار.

فلما كانت الأرض شماسا مجنونة محترقة، كانت الفلزات كالحديد و أمثاله سائلات أحيانا و غازات و كبخارات في جو الأرض، أخرى، فلما أخذت تقر و تبرد شيئا فشيئا، أخذت السحب الغازية الحديدية و سواها تنزل فترة بعد أخرى فتدخل في شقوق الأرض أو تشقها فتدخلها فتصبح معادن تحت الأرض أو على مناكبها الجبال أحيانا! و الحديد هنا

«يعني السلاح و غير ذلك»

«2» مما يحد و يقد، و من بأسه الشديد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) في الآية: فانزاله ذلك خلقه إياه.

(2)

التوحيد للصدوق عن علي (ع) في الآية: يعني السلاح و غير ذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 172

ما هو عند البأس الشديد، و دور الحديد معروف طول التاريخ في الحروب و غيرها، إضافة إلى منافعها الاخرى.

ان البأس الشديد في الحديد لا يخص الأسلحة و في حالة الحرب فقط، انه يعم كل ما فيه الحاجة إلى البأس و القوة و الصلابة، من صناعات و بنايات و زراعات و سائر الحاجيات المحتاجة إلى البأس، أو غيرها من منافع للناس:

(وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ): و (يعلم) هنا، كما في أمثالها، من العلم: الميز- دون العلم عن الجهل: (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) (8: 38) فمن ينصره و رسله بالحديد السلاح كما ينصر بسواه فهو الطيب، و من لا ينصر قاعدا عن القتال في سبيل اللّه من أولى الضرر فهو الخبيث مهما نصر بسواه، فعلم الناصرين دين اللّه عن الخاذلين و المتخاذلين من أهم منافع الحديد، فاللّه يعلمهم تمييزا لكم، ليعرف بعضكم البعض في بلوى السلاح الحديد: (وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ) (47: 31) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) (3: 142) (وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا) (3: 167).

فالحديد السلاح، و موقف الحرب اللزام، انه بلاء يبلى به المسلمون، فالجهاد علم: علامة و ميز- للمؤمنين، و القعود عن الجهاد، أو الفرار من الزحف دون مبرر، إنه علم على المنافقين أو ضعفاء المؤمنين، علم لنا بأمر اللّه، لا علم للّه بعد جهل أم ماذا!.

فمن ينصر اللّه و رسله (بالغيب): نصرة اللّه الغيب، و للرسل الغيب، فإن رسالتهم غيب و لو تثبت بالأدلة الشهود، كما يثبت بها وجود اللّه، و كذلك من ينصر اللّه و رسله نصرة بالغيب، في عمق القلب و حق الرضا، دون نفاق و رثاء كمن ينصر ظاهرا، بلفظة قول أو عمل ما دام الأمل في هذه النصرة: أن تجلب له المناصب و الأموال، أو تعطف إليه الأنظار، فإذا جاء الخطر و خاب الأمل فحيدي حياد!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 173

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا .. وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ .. وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ‏ .. إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ:

فلأنه قوي الحجة و المهجة، قوي الرحمة و المحبة، قوي اللطف و العناية، جعل الناس تحت ظلال البينات و الكتاب و الميزان، و لأنه عزيز غالب محمود في غلبه، ينفّذ شريعته أخيرا بقوة الحديد، فللجهاد الدور الأخير بعد شلّ الحجج في تقويم الأود و تدعيم العمد، رغم انها بالغة دامغة، فالحديد ببأسه الشديد يفسح مجالات فاسحة للحياة الأمينة النبيلة، بما يكسح و يمسح و صمات العار عن جبين الإنسانية بدحر أعداءها و قهر ألداءها! ثم الرسالات الإلهية هي رسالة واحدة في جوهرها، في مبدءها و منتهاها، في معناها و مغزاها، مهما تشطرت في جزئيات هامشية منها، كما و ان أممها أمة واحدة: (إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (21: 92):

امة للّه، تلتقي في عبادة اللّه.

و ترى لماذا (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) لا المكلفون أجمع و منهم الجان؟ هل لأن الرسل أرسلوا للناس فقط؟ و ليست الرسالة محصورة لهم! أقول: ليس إلا لأنهم محور الدعوة الرسالية و الجان فروع، كما و ان رسالتهم فرع لرسالتهم، فالرسل الأصول هم من الإنس للمرسل إليهم الأصول، ثم الرسل الفروع الجن هم للمرسل إليهم الفروع الجن، و القيام بالقسط على ضوء هذه الرسالات معني فيهم أجمع.

و قد توحي‏ (وَ لِيَعْلَمَ) انه الأصل في مثلث المنافع للحديد، (فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ) هما نفعان له بطبيعة الحال، قصدا أم لم يقصدا، و لكن ثالث الأضلاع: (و ليعلم) مقصود من الحديد، فالجهاد به خير من سائر بأسه، و أنفع من سائر منافعه، لأنه يحفظ بيضة الدين، و يؤمن الحياة و يطمئنها للمؤمنين، كما و ان علم الناصرين منهم عن الخاذلين مما يبصّرهم في مجتمعهم، لكيلا يأمنوا إلى كل من يدعي الايمان، نعمتان هامتان من بين سائر نعم الحديد!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 174

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ‏:

ان شجرة النبوة الواحدة الباسقة، تمتد من فجرها و جذرها الأول الأصيل:

(نوح) و إلى ابراهيم و موسى و عيسى، و تنتهي إلى خاتم النبيين محمد (ص) و بين هؤلاء الأصول فروع متشابكة غير متشاكسة، تنبت من تلكم الأصول، ذرية بعضها من بعض‏ (فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ) و في مقدمتهم النبيون الذرية (وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ) فليست النبوة للذرية لأنهم ذرية وارثة، فالنبوة لا تعرف الذرية و لا تورث، و إنما انتجاب من بين الذرية (وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ) لا أن كلهم أنبياء ذووا الكتاب.

ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ‏:

«ثم قفينا» التقفية هي جعل شي‏ء إثر آخر استمرارا فيه بما كان، فالرسل بعد نوح و ابراهيم الى عيسى بن مريم، بعضهم استمرار بعض: كل لاحق لسابقه في رسالة واحدة مهما كانت حملتها كثرة، كقوافي الشعر المتلائمة التي تشد بعضها بعضا بالاقتفاء.

و «عَلى‏ آثارِهِمْ» مما يؤكد هذه التقفية الاقتداء، و ليس اقتداء رسول برسول مما يجعل المقتدي أدنى من المقتدى به و هو أعلى من المقتدي، «إِنَّ الْهُدى‏ هُدَى اللَّهِ» (2: 120) لا هدى النبيين، إلا حملا لها أمانة و تبليغا بها، و كما أمر سيد المرسلين أن يقتدي بهداهم: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ» (6: 90).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 175

و (برسلنا) هنا لا تعم الرسل أجمع، و إلا خرج عنهم نوح و ابراهيم من قبل، و المسيح و محمد (ص) من بعد، و إنما هم من بين نوح و ابراهيم و المسيح، مع التصريح بهؤلاء الثلاثة و التلميح أخيرا بمحمد (ص): (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ):

من المؤمنين بالمسيح، فالإيمان الثاني هو الايمان بالنبي المبشر به في الإنجيل محمد (ص)، كما و يصرح به و بكتابه في آية تجاوبها: (وَ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ. وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ‏ ...

لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ...) (5: 48).

فلا تعني تقفية هؤلاء الرسل بالمسيح: (وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) لا هنا و لا هناك انه خاتم المرسلين، و إنما كتقفية لكل سابق بلاحقه، و معظمه هنا تقفية الرسل الاسرائيليين بخاتمهم السيد المسيح، و من ثم يقفى بالرسول الاسماعيلي الذي هو بكتابه مهيمن على الكتب و الرسل أجمعين.

فمن الهراء القولة الفارغة ان المسيح المقفى به الرسل هو خاتم المرسلين، خلافا للتلويح هنا و التصريح هناك ان محمدا هو الخاتم لا سواه‏ «1».

و لماذا لم يذكر موسى عليه السلام بعدهما و قبل المسيح عليه السلام و هو من الخمسة أولي العزم؟ علّه لأن المقام ليس مقام تعديدهم، و لذلك لم يذكر أيضا سيدهم و خاتمهم محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا تلويحا. و العناية بذكر المسيح بعد الأولين ليس إلا لاستعراض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حاول الكاتب المسيحي (الحداد) في كتابه (القرآن دعوة نصرانية) إثبات ان المسيح خاتم النبيين بهذه الآية، بان الرسل يشمل الكل، فلما قفوا بالمسيح فهو آخرهم و هو زور هراء كما بيننا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 176

بعض الأحوال من الذين اتبعوه أو ابتدعوا في شرعته، كما أن ذكر نوح و إبراهيم يعني بيان ذرية النبوة في أصليها.

مثلا لذلك ترى إنجيل المسيح لا يذكر بعد التوراة مع ذكر القرآن‏ «إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏» (46: 30) إيحاء بأن الإنجيل هو الكتاب الوحي الفرع، لا يستقل عن التوراة، فليس نبي الإنجيل أفضل من نبي التوراة حتى يترك اسمه قبل المسيح هنا.

و كون المسيح من ذرية نوح و إبراهيم، و لا ينسب إليهما إلا من ناحية الام، يؤيد صدق الذرية على أولاد البنات، فالنصوص الإسلامية الدالة على اختصاص سهم السادة بذرية الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تشمل المنتسبين اليه بالأمهات، و أصرح منها آية «أبناءنا» «1».

«وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ» نص على نزول إنجيل واحد على السيد المسيح، لا أناجيل عدة متناحرة ألّفه مؤلفون عدة، حصروا بعد ردح من الزمن و بعد غربلات في أربعة، و هم مع ذلك مجهولون أو مجهولة نسبة هذه الأناجيل إليهم‏ «2»، و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ».

(2) راجع كتابنا «المقارنات» و كما اوردنا فيه مقالة (لاردنر) نقلا عن (فالتس): «ان هذا الأمر تحقق ان هذا العهد الجديد لم يصنفه المسيح و لا الحواريون مطلقا، بل صنفه رجل مجهول و نسبه الى الحواريين ليعتبره الناس، و آذى المريدين لعيسى إيذاء بليغا بأن ألف الكتب التي فيها الأغلاط و التناقضات» (ص 48).

و تذكر دائرة المعارف الفرنسية عن بعض الأساقفة ان نسبة إنجيل مرقس و يوحنا إليهما زور و افتراء و إنما ألفهما بولس (50). و في دائرة المعارف البريطانية: «اما إنجيل يوحنا فلا شك و لا مراء انه كتاب مزور» (50). و يقول المفسر الانجيلي الشهير (هورن): الحالات التي وصلت إلينا في باب زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة منقطعة و غير معنية لا توصلنا الى امر معين (52).

من مقالات الأستاذ (لن) ان إنجيل يوحنا بكامله تصنيف طالب من طلاب مدرسة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 177

نجد اسما أو ممثلا عن إنجيل المسيح في بوتقات النسيان و التناسي، يضي‏ء أحيانا لمن شاء أن يستضي‏ء «1».

و أما الرأفة و الرحمة المجعولة في قلوب الذين اتبعوه، فهما أمر ملموس، لا في المسيحيين أجمع، و إنما الذين اتبعوه، و قد كان رؤفا رحيما، فمن اتبعه، و في رأفته و رحمته، فاللّه يجعلهما في قلبه زيادة في هداه.

و هؤلاء المتبعون هم نصارى المسيح الذين نصروه في زمنه و ينصرونه بعده.

و من نصرته تصديقه بمن بشّر به: النبي محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بالمودّة للمسلمين: «... وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏ ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى‏ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» (5: 83).

و هؤلاء هم الذين جعلهم اللّه فوق الكافرين الى يوم الدين: «إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى‏ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ ...» (3: 55).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الاسكندرية دونما تردد، و نسبه الى يوحنا زورا، و لقد كانت فرقة (لوجين) في ق 2 م تنكر هذا الإنجيل و جميع ما أسند الى يوحنا (50) ...

(1). إنجيل المسيح كان في العهد الأول في متناول الأيدي، و كما في دائرة المعارف الانجليزية و كتاب اكسهومو، و اختاره الفاضل (اكهارن) و كثير من المتأخرين من علماء النمسا، و مال اليه المحققون: ليكلرك- كوب- ميكايلس- ليسنك- نيمير و مارش، و ممن ظفر أخيرا بهذا الإنجيل المغفور له حيدر قليخان قرلباش المعروف بسر دار كابلي مترجم إنجيل برنابا الى اللغة الفارسية. و يقال ان بروفسور (كربن) الفرنسي مندوب الأدباء الفرنسيين في إيران، اشترى هذا الإنجيل من مكتبة الكابلي ب 000، 000، 5 ريالا إيرانيا و أرسله الى باريس.

و مما يمثل هذا الإنجيل إنجيل برنابا القديس (راجع المقارنات).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 178

هؤلاء الأماجد، لا المسيحيين الناكرين للرسالة الإسلامية، جاهدين لها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوّا، أو الكارهين للفحص و التحري عنها، المتجاهلين عنادا الحق فيها، و أما الجاهلون القاصرون منهم، المؤمنون، فلهم أجرهم و لا يظلمون نقيرا.

وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ‏:

و ما هي الرهبانية المبتدعة؟ و كيف يجمع بين البدعة و الكتابة الإلهية؟

و ما هو حق رعايتها؟ و هل في الإسلام رهبانية كما في المسيحية؟

الرهبانية في أصلها من الرّهبة: الخوف مع تحرّز و اضطراب، و الرهبانية من اللّه مأمور بها: «إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ» (16: 51) «إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً» (21: 90)، و هي من غير اللّه منهي عنها، «فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 175) و (من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شي‏ء، و من لم يخف اللّه أخافه اللّه من كل شي‏ء).

و ترى إذا كانت الرهبانية من الرهبة: الخوف، فكيف تكون مبتدعة عند النصارى، و منهية عندنا؟! ...

أقول: لأنها شاكلة خاصة من الرهبة، منسوبة الى الرهبان: المتعبدون اللّه في الأديرة و الصومعات، بعيدة معزولة عن المجتمعات، فالرهبانية مصدر الراهب، ثم تحوّلت اسما لما فضل عن المقدار و أفرط فيه، أن تعيش بعيدا عن الحياة و الأحياء، شاغلا عن حاجيات الدنيا الى عبادة اللّه، بترك ملاذها و الزهد و التقشف فيها، و العزلة عن أهلها و تعهّد مشاقها و كأنك في قبرك! فالرهبنة من مبتدعات النصارى و ليست من مبتدءات اللّه في أية شريعة من شرائعه، و لكن اللّه كتبها عليهم بعد ما ابتدعوها، في إطارات خاصة و ظروف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 179

و زمن خاص و كما يروى‏ «1»، ففريق رعوها حق رعايتها، و آخرون لم يرعوها.

و قد تكون «رهبانية» بين جعل و كتابة إلهيين على كونها عطفا ل «مودّة و رحمة» فالمجعول هو رهبة الرهبانية، جعلها اللّه في قلوبهم مع المودّة و الرحمة:

«وَ جَعَلْنا ... وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ...» و المكتوب هو الرهبانية الحقة بعد ما ابتدعوها، و المبتدعة هي الانعزالية المطلقة عن الحياة إلى عبادة اللّه‏ «2».

إنهم حينما ابتدعوا الرهبانية، كتبها اللّه عليهم ابتغاء رضوانه، رفضا لما فيها من غايات اخرى، فأصبحوا إذن مرتبطين بها أمام اللّه أن يرعوها حق رعايتها بما رفضوه عن أنفسهم و حرّم اللّه، و ما فرضوه على أنفسهم و كتب اللّه، حفاظا على متطلباتها من تطهّر و ترفع و عفة و مناعة و قناعة و عبادة، مما يحقق في نفوسهم حقيقة التجرّد للّه، و لكنها انتهت في الغالب الى طقوس جوفاء، فارغة عن الروح البراء، تجارة كغيرها من تجارات، إلا أنها بالدين و ما أتعسه و أخسره من عناء لعناء!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مجمع البيان عن ابن مسعود قال‏: كنت رديف رسول اللّه (ص) على الحمار فقال يا ابن ام عبد! هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: اللّه و رسوله أعلم، فقال:

ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى (ع) يعملون بمعاصي اللّه، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزم اهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا و لم يبق للدين أحد يدعو اليه، فتعالوا نتفرق في الأرض الى ان يبعث اللّه النبي الذي وعدنا به عيسى (ع)- يعنون به محمدا (ص)- فتفرقوا في غيران الجبال و أحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه و منهم من كفر، ثم تلا هذه الآية: «و رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان اللّه»، ثم قال (ص): يا ابن ام عبد! أ تدري ما رهبانية امتي؟ قال: اللّه و رسوله أعلم، قال: الهجرة و الجهاد و الصلاة و الصوم و الحج و العمرة.

(2) «إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ» استثناء متصل كما بينا، و كونه منقطعا ينافي وجود المفعول «ها» في «ما كتبناها» فلا معنى لكونه منقطعا إلا على تاويل مستهجن يذاد عنه ساحة كلام اللّه بل و كل كلام فصيح او و عادي غير فصيح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 180

فمن حق الرعاية للرهبانية حصرها بزمن التقية، حفاظا على دين اللّه و على البقية الباقية من المؤمنين باللّه، و أما أن يترك فيها اللذات المحلات كأنها محرمات، كالنساء و أمثالها فلا!.

و أما أن يستمر بها في كل زمن كأنها من صلب الدين و حتى زمن القدرة على إظهاره و الدعوة اليه، و كما قد يفعله الرهبان المسيحيون، فلا.

و من حق رعايتها الإيمان بالرسول المبشر به من المسيح و النبيين قبله:

محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما قال‏: «من آمن بي و صدقني فقد رعاها حق رعايتها و من لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون»

، فإن الرهبة الحقيقية من اللّه تحلّ عقد العصبية، و تشرح الصدر لتصديق ما وصى به اللّه.

فهؤلاء الكرام هم الذين آمنوا بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صدقوه‏ «فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ»: الذين كفروا به و جحدوه‏ «1» «فلما بعث النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انحط صاحب الصومعة من صومعته و جاء السائح من سياحته و صاحب الدير من ديره فآمنوا به و صدقوه» «2» و هؤلاء هم القلة القليلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 177 أخرج جماعة من الحفاظ عن ابن مسعود قال قال لي رسول اللّه (ص): يا عبد اللّه! قلت لبيك يا رسول اللّه! ثلاث مرات، قال (ص): هل تدري أي عرى الايمان أوثق؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: أوثق عرى الايمان الولاية في اللّه بالحب فيه و البغض فيه، قال: هل تدري أي الناس أفضل؟ قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: أفضل الناس أفضلهم عملا إذا تفقهوا في الدين، يا عبد اللّه هل تدري أي الناس أعلم، قلت: اللّه و رسوله أعلم، قال: أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس و ان كان مقصرا بالعمل، و ان كان يزحف على استه، و اختلف من كان قبلنا على اثنين و سبعين فرقة نجا منها ثلاث و هلك سائرها، فرقة و أزرت الملوك و قاتلتهم على دين اللّه و عيسى بن مريم حتى قتلوا، و فرقة لم يكن لهم طاقة بمؤازرة الملوك و لا بالمقام معهم فساحوا في الجبال و ترهبوا فيها و هم الذين قال اللّه:

«وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ»: الذين آمنوا بي و صدقوني‏ «وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ»: الذين كفروا بي و جحدوني، و روي الذي قبله ابن مسعود عنه (ص).

(2) المصدر أخرج النسائي و الحكيم الترمذي في نوادر الايمان و ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس في حديث طويل ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 181

الذين رعوا الرهبانية حق رعايتها «وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ» كما و هم لا يزالون في الصوامع و الأديرة، دكّات التجارات و الغايات، و أديرة التحمير و الاستثمارات!.

فكثير من الراهبين التاركين الزواج بواحدة، يغوصون في بحر من الدعارات بالراهبات، و كثير من الراهبات التاركات الشهوات، الرافضات الزواج الواحد، يتلوثن بدعارات في الأديرة مع جماعات الرهبان.

هذا! و لكنما الرهبانية في الإسلام ممنوعة بكافة صورها، فكان من حق رعايتها للرهبان المؤمنين بمحمد أن تركوها لأنها ممنوعة في الإسلام، كما

قال الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «رهبانية امتي الهجرة و الجهاد و الصلاة و الصوم و الحج و العمرة»

«1» جمعا بين ألوان الواجبات الجماعية و الفردية و من أهمها الجهاد و كما

قال: «رهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل اللّه»

«2» طبعا و بكل الطاقات:

نفسا و نفيسا، قلما و لسانا و فكرا أم ماذا، دون الرهبانية الانعزالية الصومعية التقشفية، العازلة عن الحياة، المنعزلة عن المجتمعات، و لو كانت محصورة في العبادات، فالإسلام كله حياة، و كله هجرة، و كله جهاد، و كله حج و عمرة و صلاة، لا تختلف إلا في الصورة، و أما السيرة و المسيرة فصيغة واحدة هي:

سبيل اللّه!.

ان الرهبانية حتى الحقيقية منها لم تكتب علينا، و إنما أبدل عنها بالجهاد، و ما ألطفه‏

المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول‏: «إني لم أؤمر بالرهبانية»

«3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما مضى حديثه‏

عن المجمع عن ابن مسعود و في عيون الأخبار عن أبي الحسن الرضا (ع) قال‏: صلاة الليل.

(2)

الدر المنثور 6: 178 أخرج أحمد و الحكيم و الترمذي في نوادر الأصول و أبو يعلي و البيهقي في الشعب عن انس أن النبي (ص) قال‏: لكل امة رهبانية و رهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل اللّه.

(3) أحمد بن حنبل 3، 82، 266.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 182

«ان الرهبانية لم تكتب علينا»

«1»

«و عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام»

«2» حتى و لا حالة التقية، دونما حاجة الى صومعة أو دير، و يروى أن نفرا من الصحابة أخذهم الخوف و الخشية حتى أراد بعضهم أن يعتزل عن النساء، و بعضهم الإقامة في رؤوس الجبال، و بعضهم ترك الأكل و الشرب فنهاهم النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنها و

قال: «لا رهبانية في الإسلام»

، و

قال: «رهبانية امتي في المسجد»

، و ان كنت و لا بد، فكن في الناس- إذا- و لا تكن معهم، و آخر المطاف أن تهاجر بدينك الى بلد يحملك أو تتحمله، أو القتل أخيرا في سبيل اللّه، فإن الحياة عقيدة و جهاد.

فبدعة الرهبانية فلتة بين البدع، إذ ليست في النار «و كل بدعة ضلالة و كل ضلالة في النار» فإنهم حفاظا على إيمانهم لم يجدوا بدا من هذه البدعة، و قد احتفت بجعل إلهي لرهب الرهبنة من قبل مع المودة و الرحمة في قلوبهم، و بكتابتها كرهبنة حقيقية بعد ما ابتدعوها: «وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ... ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ».

و من ثم المؤمنون أجمع سواء المسلمون و سواهم كالذين اتبعوا المسيح، هم يؤمرون أن يؤمنوا بالرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تكملة الإيمان بالرسالة، أو الإيمان بها:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏:

هنا يبرز الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشموخ الرسالة كأنه الرسول لا سواه:

«وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ» و ان الرسل قبله قد هيأوا ظروف رسالته العالمية الختمية دون أن يستقلوا بجنبه في شي‏ء، اللهم إلا رسالة للتعريف به و تعبيد المسالك لوصوله، كالصفوف التكميلية المهيأة لقمة الثقافة!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سنن الدارمي نكاح 3.

(2) أحمد بن حنبل 6: 226.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 183

و المخاطبون أن يؤمنوا ثانيا بهذا الرسول هم المؤمنون من أهل الكتاب و سواهم، و عد كلا كفلين من رحمته، فالأولون إذ كانوا مؤمنين من قبل ثم استجدوا الإيمان به فلهم أجران‏ «1» و الآخرون إذ آمنوا أولا ثم ازدادوا إيمانا فلهم كفلان، و من ثم فمن لم يؤمن من أهل الكتاب تجاهلا و عنادا فلا كفل له و لا أجر و إنما وزر على وزر، و إذا كان جهلا قاصرا فله أجر، كمن آمن بالرسول من غيرهم ثم لم يستجد الإيمان فله كفل، و المشركون و سواهم الذين لم يؤمنوا أولا و أخيرا فعليهم وزر «كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى‏ شاكِلَتِهِ».

و علّ هذه الآية الشاملة لفريقي المؤمنين تأمين للمسلمين منهم إذ فزعوا من أجر الآخرين مرتين: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَ إِذا يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ» (28: 55).

فلما نزلت هذه الآية قالوا يا معاشر المسلمين! أما من آمن منا بكتابكم فله أجران و من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل اللّه هذه الآية: الكفلين‏ «2».

إذا فالمحور الأصيل فيها هم المؤمنون من غير الكتابيين كما و يدل عليه: «لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ...» فإنهم بحجة آية الأجرين علموا تفوقهم على المؤمنين لو آمنوا، و مساواتهم لو بقوا، فلا يقدر المسلمون على شي‏ء من فضل اللّه!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الجمع عن النبي (ص) في حديث‏: و أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه و آمن بمحمد (ص) فله أجران.

(2) الدر المنثور 6: 179 أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس، و ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 184

كلا! فهناك إيمان من أهل الكتاب قبل أن يسلموا، ثم إيمان بعده فلهم أجران، و هنا إيمان من غيرهم بداية، ثم تقوى تحكّم ذلك الايمان فلهم كفلان، حيث الايمان الأول للآخرين هو الايمان الثاني للأولين، فقد فاقهم المؤمنون المتقون- إذا- في تحكيم الايمان، فطالما لأولئك أجران، فلهؤلاء كفلان إضافة الى نور يمشون به و غفران، اللهم إلا أن يثلثوا إيمانهم بتقوى الايمان فهم سواء مع المؤمنين المثنين الايمان.

و ترى ما هما الكفلان، و ما هو النور و الغفران؟

الكفل هو الكفيل الضامن، و الرحمة الكفلان علّها الحسنتان: «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ» (2: 201) و على النور الذي يمشون به فيهما، و عذاب النار الذي يوقونها فيهما، هما الكفلان أو منهما، فحسنة الدنيا كفيلة لحسنى الحياة فيها، بتحويلها الى حسنها في الاخرى، و حسنة الاخرى التي هي الاخرى كفيلة بالروح و الرضوان، أو الحسنتان هما كفل، و الوقاية عن عذاب النار هو الآخر: كفالة إيجابية و اخرى سلبية.

ثم النور الذي يمشون به هو الفرقان الناتج عن تقوى الايمان، المخرج عن طغوى العصيان: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ» (8: 29) «أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى‏ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» (39: 22) «يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ» (6: 122) في ظلمات الوسواس الخناس و مهابط الأحوال و مخابط الأوحال فلا ينزلق أو يتخبط.

و هذا النور كفل للمؤمنين عظيم، يكفل تنويرهم في الحياتين، و يتحول من الدنيا الى الأخرى نورا يسعى بين أيديهم و بأيمانهم، و يتممه اللّه هناك:

«يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا» (66: 8).

ثم دور الغفران هو تتميم نور الإيمان، و كفارة عما ربما يعرضه من نسيان و عصيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 185

و كما عرفناه، لا يكفل الكفلان إلا لمن زاد إيمانا على إيمان، أيا كان و إنما بحساب و ميزان، و أجران لمؤمني أهل الكتاب، ثم و لهم كفلان لو زادوا إيمانا على إيمان:

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ‏:

فآية أجرهم مرتين علمتهم أن المؤمنين من غيرهم لا يقدرون على شي‏ء من فضل اللّه، و منهم من زعموا أنهم كأهل الكتاب لا يقدرون على شي‏ء من فضل اللّه الذي يؤتاه المسلمون، و آخرون- و هم كثير- تعصبوا كأن الجنة خاصة بهم: «وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى‏» (2: 111) أو أن النبوة خاصة بآل إسرائيل كأنها محتكرة فيهم، و آية الكفلين هدمت هذا المربع المزعوم بأضلاعه و تبنت صرحا عاليا بكفلين أعلى من الأجرين، اللهم إلا إذا تحول أصحاب الأجرين الى حالة الكفلين، أو تحول أصحاب الكفلين الى حالة الأجرين أو أدنى، فلكل أجره و كفله‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

هكذا يحكم اللّه في آية الكفلين‏ «لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ»: هم أو المسلمون‏ «عَلى‏ شَيْ‏ءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» فالمسلمون قادرون على فضل اللّه و أحرى، كما هم قادرون، دون اختصاص و لا حكرة لفضل اللّه بقوم خاص، و إنها القدرة بالإيمان و العمل كما يشاء اللّه و يرضى، لا القدرة بالأمنية و الأمل كما يهوون، اللهم إلا الرسالة الالهية التي لا يقدر عليها أحد إلا صفاء هي كظرف للاصطفاء.

«لِئَلَّا يَعْلَمَ ...» حال: «وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» تكوينا و تشريعا، لا بأيديهم كما يهوون، و لا بأيدي الفوضي‏ «يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ» لا من يشاءون، و بميزانه العدل لا كما يزعمون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 186

ف «لا» هنا، كما في غيرها نافية، و قولة القائل انها زائدة فارغة زائدة، تضم غلطة معنوية الى غلطتها الأدبية «1» كما الواو في «و ان الفضل» حالية و ليست عاطفة تجعل‏ «أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» متعلق اللاعلم: «لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ‏ ... أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ» نقيض ما يعنيه القرآن من تعليم الحقائق دون إغراء بجهالات و خرافات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لما عجز جماعة من الناس من تفسير «لِئَلَّا يَعْلَمَ» نفيا، قالوا «لا» هنا زائدة، فالمعنى إذا «ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شي‏ء من فضل الله» و سواء أ كان ضمير الجمع لأهل الكتاب أنفسهم أو للمسلمين فآيتا الأجر و الكفل تناقضانهما، فكل منهما قادر على شي‏ء من فضل اللّه بفضل الايمان و غير قادر بالأماني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 187

(سورة المجادلة- مدنية- و آياتها اثنتان و عشرون)

[سورة المجادلة (58): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1) الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2) وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (4)

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (5) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ (6) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى‏ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى‏ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (7) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى‏ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى‏ وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (9)

إِنَّمَا النَّجْوى‏ مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (10) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 189

سورة تحمل- فيما تحمل- أحكاما تربوية جماعية أخلاقية، جارفة التصورات الخاطئة، و التصرفات الغالطة، و العادات الجاهلة، منشأة أسسا جديدة، و مبادئ عالية، في نفوس الجماعة المسلمة، و لكي تحمل دعوة الإسلام آمنة مطمئنة لمن يبتغي السلام.

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

طرف من عنت الجاهلية بحق المرأة المظلومة المنكوبة- بين مئات الأعنات- أن الرجل كان يغضب على امرأته فيحرمها على نفسه بالظهار قائلا:

«أنت عليّ كظهر امي» فتحرم عليه، و لا تطلق منه كالمعلقة: لا أيّم و لا ذات بعل، ظلما ما أفحشه بحقها و بحقه أيضا.

فالإسلام منذ بزوغه في أفق الجزيرة، أخذ يجرف هذه الهرطقات آونات حدوثها، و من ذلك الظهار: ظاهر رجل من امرأته فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تجادله في زوجها، و تشتكي الى اللّه بأسها و بؤسه، و الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يملك حكما و لا جوابا حتى يأتيه الوحي، فانصرفت آئسة بائسة، فإذا بالوحي يأتيه حاملا تفاصيل الحكم: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ...».

إن اللّه تعالى يسمع الأقوال لا كما نسمعها، و يبصر الأحوال لا كما نبصرها، فإنه سميع لا بآلة، بصير لا بأداة، فطالما يكلمنا عن نفسه بلغتنا لكي نتفهم، و لكنه لا يعني منها إلا ما يناسب ساحة قدسه دون مناسبات الممكنات، فسمعه و بصره هما علم ما يسمع و ما يبصر، دون سمع و لا بصر كما لسواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 190

و هنا سمع أول، يشمل سمع العلم بالشكوى، و سمع إجابتها: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ...» و سمع ثان علّه يخص الأول: «وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما» أو يشمل الثاني، و ثالث يعمهما أيضا: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ»: الدعاء: قولا و إجابة «بَصِيرٌ» بموارد الإجابة، يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء.

و هل تجوز مجادلة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للشكاة على المشكي عنهم، و ليس الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالذي يتخلى عن الحكم الحق و فصل الخصومات و الإنتصار للمظلومين؟.

إن الاشتكاء إلى اللّه هنا يوحي بأن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما كان يملك حكما حينها، فالمشتكية عن زوجها ما ملكت نفسها حتى جادلت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لامسا بكرامته، و إنما طبيعة المضطر الذي يضيق عليه المخرج أن يجادل الحاكم و يشتكي إلى اللّه الذي فوقه لكي يحكم و يحلّ، فالاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه رجاء حلّه، فإذا لم يجد حلا عند الخلق يرفع شكواه إلى الخالق، و هذه هي السنة السنية أن يشتكى الى المؤمن فإنه شكوى الى اللّه، فلو قصر أو قصّر رفعها الى اللّه، توسلا بالأسباب، ثم الى مسبب الأسباب، و هي الطريقة المثلى، دون الاقتصار على الأسباب، أو رفضها بتاتا و الاشتكاء الى اللّه في كل قليل و جليل! ثم الجدال- لغويا- لا توحي بسوء، فمنها شي‏ء و منها حسن و منها أحسن، و لم تكن شكوى المظاهر منهما الى اللّه على رسول اللّه، و إنما على المظاهر، و لقد كان النبيون يجادلون اللّه: «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» (11: 74): جدال خير، رغم‏ «إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى‏ أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ» (6: 121): جدال شر، فإن الجدال أصله المفاوضة للإحكام، من جدلت الحبل: أحكمت فتله: إحكام حق أو باطل، و ما كانت المظاهر منها تجادله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا لإحكام حقها و انتصارها على زوجها المظاهر، في محاورة: مرادّة بينها و بين الرسول: تقول:

«يا رسول اللّه إن فلانا زوجي، و قد نثرت له بطني و أعنته على دنياه و آخرته و لم ير مني مكروها، أشكوه إليك، فقال: فيم تشكونيه؟ قالت: إنه قال: «أنت عليّ حرام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 191

كظهر امي» و قد أخرجني من منزلي فانظر في أمري، فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما أنزل اللّه تبارك و تعالى كتابا أقضي فيه بينك و بين زوجك، و أنا أكره أن أكون من المتكلفين، فجعلت تبكي و تشتكي ما بها الى اللّه عز و جل و الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انصرفت .. و أنزل اللّه في ذلك قرآنا: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ...»

«1».

و هذه المنعة و الحائطة الرسولية مما تحكم عقد الرسالة و تطمئن الناس أنه‏ «ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى‏. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى‏» و كما أمره اللّه: «... لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ ...» (4: 105) فما هو إلا رسول و ليس مشرّعا!.

ثم الشكوى هذه توحي بأن المرأة في الإسلام لها حق المجادلة بحقها، و المحاورة بشأنها، حتى و مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون أن يحكم عليها بالسكوت و الخمول، و أنّ إذن الزوج لا يشترط فيما يحق لها من جدال و تراجع لأخذ الحق الى حكام العدل.

الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

تنديد شديد بالمظاهرين من نسائهم، زاعمين أنهن يصبحن كأمهاتهم بهذا القول الزور المنكر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي باسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال‏: ان امرأة من المسلمات أتت النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم فقالت: ... (نور الثقلين 5: 254).

أقول: و هذه المرأة حسب الروايات هي خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت و من ذلك ما روته عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شي‏ء اني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة و يخفى علي بعضه و هي تشتكي زوجها الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هي تقول: يا رسول اللّه أكل شبابي و نثرت له بطني حتى إذا كبر سني و انقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم اني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرئيل بالآيات، (الدر المنثور 6: 179).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 192

فهنا علاجان لمشكلة الظهار: علاج من أساس: أنه منكر من القول و زور كما هنا فليترك، و علاج ثان: تحليل المظاهر منها بالكفارة كما يأتي.

فالزوجة لن تصبح اما: لا واقعا، فهي التي ولدته، و لا شرعا إلا في التي أرضعته: «وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ» (4: 23) أو نساء النبي حفاظا على كرامته‏ «وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ» و دونهما: «إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ»:

حصر الامومة الواقعية في الوالدة، ثم الشرعية الاعتبارية منها لا تحصل إلا بالرضاع فتحرم مؤبدة و هي مثل الام إلا في الميراث، و إلا في أزواج النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تحصل الحرمة المؤقتة تأديبا في الظهار، فلا امومة فيه لا واقعا و لا اعتبارا و تنزيلا.

فالحصر هنا و ان كان محصورا في الامومة الواقعية، و لكنما المنكر و الزور موجهان الى التنزيلية المقصودة من التشبيه.

فالقول: إن المظاهرين من نسائهم إنما كانوا يشبهونهن بأمهاتهم بغية التحريم كما هن، لا أنهن أمهاتهم واقعا، و الآية تنفي الامومة الواقعية هنا دون التنزيلية، فأين المنكر و الزور؟ يرده أن نفي الامومة الواقعية ينفي التنزيلية و المشابهة في الحكم أيضا إلا بدليل، و المنكر و الزور هنا هو الحكم بالحرمة كالام، أو الإخبار بها: فالقول «أنت عليّ كظهر امي» إن كان إنشاء تشريعا لحكم الحرمة فهو منكر ينكره العقل و العاطفة، و كذلك زور، لأن ذلك من اختصاصات الشارع الإلهي دون سواه، و إن كان إخبارا عن حكم اللّه فهو زور و غرور.

«ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ» ينفي الامومة الواقعية، و بما أن نفيها لا يكفي لنفي المشابهة- و ان كان يوحي به- يثنيّه بنفيها أيضا: «وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً» إذ لا دليل على المشابهة هنا، بخلاف‏ «أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ» و زوجات النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهن محرمات كما الأمهات الواقعيات، بدليل هذه الآيات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 193

فالقول «أنت عليّ كظهر امي» منكر ينكره الواقع و الشرع و الضمير و اعتبار العقل، و زور يكذبه الشرع و الواقع، عادة جاهلية تعرّقت فيهم كأنها أصل يعتمد عليه.

و الظهار من الظهور بمعنى الغلبة و العلو: «فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ»: يعلوه، فالزوج غالب على زوجته يملكها في بضعها، و يعلوها في أمره و إرشاداته:

«الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ» «كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا» كذلك و يعلوها و يركبها حين يطؤها، و لذلك قد يعبّر عن طلاقها بالنزول عنها: «نزلت عن امرأتي» إذ كان يركبها، مسيطرا عليها ... فليس- إذا- من الظهر، فإنه ليس أولى بالذكر من الأمام الذي فيه مواضع المباضعة و التلذذ منها، فظهر المرأة ليس أصلا فيما يرغب منها، بل و في إتيانها منه قول بالتحريم!.

و إذا كان الظهار منكرا من القول و زورا فهو محرم قطعا، و لا ينافيه عفو اللّه و غفره: «وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» فإنه بعد التوبة و الكفارة التالية.

وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

صحيح أن الظهار لا تجعل الزوجة كالام في حرمة مؤبدة و كالمعلقة، و لكنها تحرّمها مؤقتة نكالا من اللّه، فالمقصود منه لم يقع، و الواقع غير مقصود، و حكم الحرمة المؤقتة الزائلة بالكفارة من اللّه تعالى تأديب و تأنيب للمظاهرين من نساءهم، و ليس إمضاء لسنة جاهلية.

و «مِنْ نِسائِهِمْ» تعم الدائمة و المنقطعة و ملك اليمين خلافا للأربعة في الثانية إذ لا يعتبرونها زوجة، و لأبي حنيفة و الشافعي في الأخير، و عموم النساء للثلاث، و ان المنقطعة زوجة بالكتاب و السنة، حجة عليهم، و كما سويت بين الحرة و الأمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 194

في أحاديثنا «1». و قد تشمل المطلقة الرجعية فإنها زوجة، فلو ظاهر منها حرم وطئها قبل الكفارة، و لا تشمل قبل التزويج خلافا لمالك و أبي حنيفة في الأخير، و قولهما يخالف النص: «من نساءهم».

«ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا»: القول هنا هو الظهار، و ليس العود له تكراره، فإنه عود اليه لا له، و لا صرف الندم على الظهار، فإن العود ظاهر في العمل دون النية و الحالة، و تجاوبنا الآيتان: «وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ» «ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ»: من النجوى المحرمة، مواصلة فيها، و إنما يعني العود للظهار، نقضا له و عودا الى حاله قبله، كأن لم يكن ظهار: ان يواقعها، و يوحي به‏ «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا»

و في الصادق عليه السلام‏ «إذا أراد أن يواقع امرأته»

«2».

إذا فلا يراد من العود له إلا ثالث ثلاثة: عودا لنقضه، و رجوعا الى حالة ما قبل الظهار، فعود التكرار يكرر الكفارة، و ليس موجبها لأول مرة، إذ هو منكر و زور كما في مرات اخرى بعدها، و نص الآية يثبت الكفارة بعد العود.

ثم لا يحرم بالظهار إلا الجماع الذي تحللّه الكفارة، فغيره من الالتذاذات حلال قبل الكفارة، إلا على تفسير التماسّ بمطلق الالتذاذ جماعا و سواه، و لكن التماس نفسه ينفيه، فإنه مس من الجانبين كناية عن المواقعة، بل المس أيضا كذلك في متعارف القرآن فضلا عن التماس، كما في العلوي‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكليني عن إسحاق بن عمار قال‏ سألت أبا ابراهيم عليه السلام عن الرجل يظاهر من جاريته فقال: الحرة و الأمة في ذلك سواء و مثله كثير (الوسائل 15: 520).

(2)

رواه ابن بابويه في الصحيح عن جميل بن دراج عن الصادق عليه السلام‏ أنه سأله عن الظهار متى يقع على صاحبه فيه كفارة؟ فقال: إذا أراد أن يواقع امرأته‏ (قلائد الدرر 3:

270).

(3) الكليني باسناده عن الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين في حديث طويل: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» يعني مجامعتهما (الوسائل ج 15: 510)

و رواه القمي في تفسيره مثله، و فيه ص 518 القمي عن الصادق عليه السلام‏ سألناه عن الظهار متى يقع على صاحبه الكفارة؟ قال:

إذا أراد أن يواقع امرأته و رواه الشيخ و الصدوق مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 195

و يحرم على الزوجة ما يحرم على الزوج بنفس سند التماس حيث يحرّم المس من الطرفين، فيحل لها بكفارة الزوج، و الحكمة في هذا الحرمان من جانب الزوجة أن تساعد على حرمان الزوج.

و يصح ظهار العبد كما الحر، و عدم ملكه لرقبة حتى يعتق يدخله فيمن لم يستطع، دون أن يخرجه عمن يصح ظهاره، و لكنه لا يصح من المرأة للنص:

«مِنْ نِسائِهِمْ» إضافة الى أن لغة الظهار لا تناسب إلا الزوج كما سبق في أحاديثنا «1».

و هل يصح الظهار قبل الدخول؟ نعم لإطلاق الآية، و لا للأحاديث المقيدة لها بالمدخول بها، خلافا للأئمة الأربعة، وفاقا للأئمة الاثنى عشر عليهم السلام إذ يروون عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شرط الدخول‏ «2»، كما رووا اشتراطه بحالة طهر غير المواقعة بحضور عدلين كالطلاق خلافا للأربعة «3».

و النص هنا «ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا» فلو لم يعد فهل تحرم عليه حتى يعود، أو لا يعود فتصبح كالمعلقة؟ قطعا لا! فكيف يرضى اللّه بهذا الذي سماه كذبا و زورا أن يستمر، و إنما يجبر على أحد أمرين: العود مع الكفارة، أو الطلاق فيما إذا رفعت المظاهر منها أمرها الى الحاكم، كما في أحاديثنا: انه يجبر على أحد الأمرين بعد ثلاثة أشهر من المرافعة.

«فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا»: إذا كانت عنده رقبة، و إلا فليشتر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي باسناده عن الصادق عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام‏ إذا قالت المرأة: زوجي علي كظهر امي فلا كفارة عليها.

(2)

الكليني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن رجل مملوك ظاهر من امرأته فقال عليه السلام‏: لا يكون ظهار و لا إيلاء حتى يدخل بها و رواه الصدوق بسندين عن الصادقين عليهما السلام‏ (الوسائل 15: 516).

(3)

الكليني بإسناده إلى الباقر عليه السلام قال‏: لا يكون ظهار إلا في طهر من غير جماع بشهادة شاهدين مسلمين‏ و رواه القمي في تفسيره مثله‏ و مثله كثير (الوسائل 15: 509).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 196

و يحرّر، و هل يشترط فيها الإيمان؟ اللهم نعم، كما تدل آيات التحرير و حكمته.

تحرير رقبة جزاء بما نوى أسر رقبة: أن يحرم زوجته عما يحق لها و قد جعل اللّه العتق في كفارات متنوعة، وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب، و حكم الإسلام بالترقيق لأسرى الحرب، ثم حكمه هنا و هناك بتحريرهم، حكمان عادلان، في الأول تسلب حرية الأسير الكافر كفا عن بأسه، و إشغاله كما يجب إسلاميا، و تثقيفه كذلك، حتى إذا أسلم يأتي دور الحكم الثاني: التحرير.

«ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ» أن تكفّروا فلا ترجعوا لمثله‏ «وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ»:

من ظهار، و عود له، أو وطي‏ء قبل الكفارة أو بعدها «خَبِيرٌ».

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

لم يجد تحرير رقبة، سواء أ كان عدم الوجدان لعدم وجود رقبة كما في هذا الزمان، أو لعدم مال يكفيه لاشتراءه، أو لأنه هو رقبة فلا يملك رقبة حتى يحررها، أو لحاجة مدقعة إليه رغم وجود المال، أو وجود الرقبة، فلا يكلف اللّه نفسا إلا وسعها. كفارات مترتبة أوسطها صيام شهرين متتابعين، و التتابع هنا كما في كفارة الصيام.

فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ‏.

و النص: «ستين» يحكم بعدم جواز إطعام واحد أكثر من واحد، خلافا لأبي حنيفة: أن «لو أطعم مسكينا واحدا ستين مرة يجزي»: خلافا لنص الآية» «1».

و واجب الإطعام هو المعتاد في الطعام، و ان زاد ففضل، «ذلك»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من الغريب احتجاج أبي حنيفة لرأيه بان «المقصود دفع الحاجة و هو حاصل» و هذا اجتهاد مقابل نص القرآن!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 197

الضغوط النفسية و المالية عليكم‏ «لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» فلا تأتوا بتصرفات و أقوال منكرة و زور فإنها خلاف الإيمان‏ «وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» لا ما حددتم لأنفسكم في مثل الظهار أن تكلفتم ما لم تكلّفوا «وَ لِلْكافِرِينَ» عقائديا أو عمليا بهذه الحدود الإلهية «عَذابٌ أَلِيمٌ».

و عدم استطاعة الصوم شهرين متتابعين أعم من العجز عن أصل الصوم، أو الصوم هكذا، أو أن الشبق الشديد و الغلمة الهاجمة يطيقانه عن أن يصبر شهرين رغم إمكانية الصوم، شرط ألا يجد طريقا آخر لإطفاء نائرة الشهوة كزواج منقطع و مثله.

و إذا لم يجد ما يطعم يستغفر اللّه و يؤدى عنه من بيت المال لو أمكن، و هو ممن يأكل من الكفارة لو كان مسكينا كما في أحاديثنا «1».

و هل تسقط هذه الكفارات إذا واقعها قبلها؟ كلا! و إنما تثبت كفارة اخرى للوقاع قبلها «2». و «قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» بيان لظروف وجوبها و ان الوقاع قبلها محرّم، فلو واقع فعل محظورا، فهل إن فعل المحظور يسقط الكفارة!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال‏: جاء رجل الى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم فقال يا رسول اللّه! ظاهرت من امرأتي، قال: اذهب فأعتق رقبة، قال: ليس عندي، قال: اذهب فصم شهرين متتابعين، قال: لا أقوى، قال: اذهب فاطعم ستين مسكينا، قال: ليس عندي، قال: فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنا أتصدق عنك فأعطاه تمرا لإطعام ستين مسكينا، فقال: اذهب فتصدق بها، فقال: و الذي بعثك بالحق لا أعلم بين لابتيها أحدا أحوج اليه مني و من عيالي، قال: فاذهب و كل و أطعم عيالك‏ (نور الثقلين 5: 257).

(2)

الشيخ الطوسي بإسناده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام‏ عن الرجل يظاهر من امرأته ثم يريد أن يتم على طلاقها؟ قال: ليس عليه كفارة، قلت: إن أراد أن يمسها؟ قال: لا يمسها حتى يكفر، قلت: فان فعل فعليه شي‏ء؟ قال: إي و اللّه إنه لآثم ظالم، قلت: عليه كفارة غير الاولى؟ قال: نعم يعتق أيضا رقبة و روي ما في معناه عن الحسن الصيقل عنه عليه السلام و عن أبي بصير عنه عليه السلام (الوسائل 15: 527- 528).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 198

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ‏.

المحادة هي الممانعة، و الكبت: رد بعنف و تذليل، و هذا المقطع صورة من صور الحرب و النكاية للذين يحادون اللّه و رسوله: يأخذون لأنفسهم مواقف و حدود مستقلة و جاه حدود اللّه، في التكوين و في التشريع، واقفين عند حدّهم- حسب زعمهم- لحدود اللّه، يتعدونها في تبجح و غرور، فيختلقون أحكامهم المنكرة الزور، كمن كانوا يظاهرون من نسائهم، انهم‏ «كُبِتُوا»:

ردوا بعنف و تذليل، عن حدودهم الى حدود اللّه، كما ردّ الذين من قبلهم من حماقى الطغيان، و هذه الآيات البينات تكفي بيانا لحدود اللّه‏ «وَ لِلْكافِرِينَ» بها «عَذابٌ مُهِينٌ» كما أهانوا اللّه في محادتهم.

ان المحادين لهم كبت في الدنيا، و عذاب مهين فيها و في الآخرة:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ.

«فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا» كما عملوا، فيسمعهم ما قالوا، و يريهم ما عملوا «أَحْصاهُ اللَّهُ»: في الشهداء من أنفسهم و أعضائهم و أرضهم و في نفوس الملائكة الكرام الكاتبين و النبيين، أحصاه: تلقيا منهم و إلقاء، رغم أنهم‏ «نَسُوهُ» «وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ شَهِيدٌ»: حاضر علما في تلقيها، و حاضر علما في إلقائها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء، فليطمئن بحضوره و شهوده المؤمنون، و ليحذر من حضوره و شهوده الكافرون.

لا فحسب أنه شهيد على كل شي‏ء، فإن له علما شاملا بالكون كله، فإلى صورة حية منه تمس أوتار القلوب:

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 199

ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى‏ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ‏.

«أَ لَمْ تَرَ»: رؤية العلم كأنها عيان، استفهام تقرير: أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يرى- فيما يرى- «أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» من سرّ و إعلان، دون أن يكون شي‏ء أقرب له من شي‏ء، أو أبين له من شي‏ء، يعلم ما في الكون على سواء، دون أي جهل أو خفاء، و يعلم من يتناجون و نجواهم و «هُوَ مَعَهُمْ» معية العلم و القيومية، لا معية الكيان و الحدّ و العدد «ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى‏ ثَلاثَةٍ»:

أشخاص رجالا أو نساء أم مختلطين، تناجيا و مسارة بينهم‏ «إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ» و ليس ثالثهم، إذ لا يتناجى معهم و لا يتناجون معه، و ليس داخلا في أي حد و عدد، و إنما «رابعهم» في علمه بما يتناجون، دون أن تخفى عليه خافية، أجل، و انه تعالى لا يتمم عدد الكائنات بذاته، فهو «واحد بعدد، و لا عن عدد، و لا بتأويل عدد» فليس رابعا لهم ككائن محدود بحدودهم، يقارنهم في كيانهم و زمانهم و مكانهم و مكانتهم، و إنما مقارنة المعية العلمية و القيومية (داخل في الأشياء لا بالممازجة، خارج عن الأشياء لا بالمزايلة) «وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ» بنفس المعنى‏ «وَ لا أَدْنى‏ مِنْ ذلِكَ» اثنين أو واحد: كمن يتناجى و نفسه: (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏) «وَ لا أَكْثَرَ» من خمسة و أكثر «إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا»: و هذه المعية المطلقة اللامحدودة تفسير عميق أنيس لكونه تعالى رابع المتناجين أو سادسهم، انه المعية العلمية دون حجاب، لا و المعية العددية و سواها من المعيات التي لا تناسب ساحة قدسه تعالى، كما و ان‏ «أَيْنَ ما كانُوا» يخرجه و ينزهه تعالى عن المكان أيا كان، فليس للمحيط على كل ماكن و مكان أن يكون في كل مكان، إلا كونا علميا، و كما في جواب الامام علي عليه السلام عما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 200

سأله جاثليق: أين هو؟ و عما سئل عنه أبو بكر «1» و كما عن الامام الصادق و الكاظم عليهما السلام‏ «2».

و انها لصورة سارية سارّة من الحيطة العلمية الإلهية، بكل شي‏ء، و بنجوى المتناجين، و معاريض المتخافتين، سامعا للحوار، و شاهدا للسّرار، تترك القلوب و جلة لا تثبت لها، و لا تقوى على مواجهتها، ثم هي في نفس الوقت أنيسة أليفة لمن يعرفون اللّه و يرجون له و قارا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي بإسناده‏ سأل الجاثليق أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرني عن اللّه عز و جل أين هو؟ فقال عليه السلام: هو هاهنا و هاهنا و فوق و تحت و محيط بنا و معنا و هو قوله:

«ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى‏ ... إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا»

(البرهان 4: 303).

و في إرشاد المفيد: و جاءت الرواية أن بعض أخبار اليهود جاء الى أبي بكر فقال له: أنت خليفة نبي هذه الامة؟ قال له: نعم، فقال له: إنا نجد في التورات أن خلفاء الأنبياء أعلم أممهم فخبرني عن اللّه أين هو؟ في السماء هو أم في الأرض؟ فقال له أبو بكر: هو في السماء على العرش، فقال اليهودي: فأرى الأرض خالية منه! و أراه على هذا القول في مكان دون مكان! فقال له أبو بكر: هذا كلام الزنادقة، اغرب عني و إلا قتلتك، فقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: يا يهودي! قد عرفت ما سألت عنه و أجيب عنه به، و إنا نقول: ان اللّه جل جلاله أيّن الأين فلا أين له، و جل أن يحويه مكان، هو في كل مكان بغير مماسة و لا مجاورة، يحيط علما بما فيها و لا يخلو شي‏ء منها من تدبيره تعالى ... (الى أن قال) فقال اليهودي:

أشهد أن هذا هو الحق و أنك أحق بمقام نبيك ممن استولى عليه‏ (نور الثقلين 5: 260).

(2)

تفسير البرهان 4: 302 عن الكافي بإسناده عن ابن أذينة عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: هو أحدي الذات بائن من خلقه و بذاك وصف نفسه و هو بكل شي‏ء محيط بالإشراف و الاحاطة و القدرة، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات و لا في الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر بالاحاطة و العلم لا بالذات لأن الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة فإذا كان بالذات لزمها الحواية.

و فيه عن الامام الكاظم عليه السلام قال‏: ان اللّه تبارك و تعالى كان لم يزل بلا زمان و لا مكان و هو الآن كما كان لا يخلو منه مكان و لا يشتغل به مكان و لا يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا، ليس بينه و بين خلقه حجاب غير خلقه احتجب بغير حجاب محجوب و استتر بغير ستر مستور لا إله إلا هو الكبير المتعال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 201

و كفانا حضوره بما نسرّ و نعلن رهبة منه، و رغبة في طاعته، و لكنه ينبئنا بما عملنا يوم القيامة، رجفة فوق رجفة: «ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» و انه يعاملنا بما عملنا و يحكم‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً».

و علّ تخصيص الذكر بالعددين الفردين بمناسبة النزول‏ «1» و ان اللّه يحب الوتر لأنه وتر طالما بين الوترين من بون.

ثم التناجي بالإثم و العدوان و معصية الرسول، و ما يحزن الذين آمنوا، إنها محرمة و أحيانا لحد الكفر، كما أن التناجي بالبر و التقوى محللة و لحد الوجوب أحيانا فيما يحمل تحقيق واجب أو الذب عن محرّم، فلا تحرم و لا تجب ذاتيا، إلا بما تحمل من مفروض أو محظور:

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى‏ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أتى ذكر النجوى بخيرها و شرها في سبع سور «2» تندد بالذين يزعمون أن اللّه لا يعلم سرهم و نجواهم (43: 80) (9: 78) و أن النجوى لا خير فيها «إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ» (4: 114) ناهية عن نجوى الظالمين: «وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» (21: 3).

و لقد كانت للمنافقين و الذين في قلوبهم مرض مؤامرات سرية يتناجون فيها ضد الرسالة الإسلامية «بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ» و ضد الرسول: «معصيت الرسول»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قيل نزلت في قوم من المنافقين اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين و كانوا على هذين العددين.

(2) هذه السورة و الإسراء، طه، الأنبياء، النساء، التوبة، الزخرف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 202

الثالوث المنحوس من نجواهم، رغم ما أمروا بطاعة اللّه و الرسول، فطاعة اللّه تعم العلاقات الفردية و الجماعية سلبا و إيجابا: محرمات و واجبات، فالإثم المقرون بالعدوان هنا هو التخلفات من القسم الأول التي لا تعدو المتخلف الى سواه إلا شذرا، و العدوان هو الثاني الذي يعدوه الى سواه، و معصيت الرسول لا تعمهما، و إنما تخص التخلف عن أوامره و نواهيه الولائية كرئيس للدولة الإسلامية، فطاعته فيها طاعة اللّه بالعنوان الثانوي و معصيته معصيته، فلو لا أمره أو نهيه لم يك وجوب و لا حرمة.

فالمتآمرون ضد الإسلام كانوا يتناجون في ثالوثهم المنحوس «بالإثم و العدوان و معصية الرسول» ما ينهار به الإسلام من أساس، و لكن اللّه كان يخبر الرسول بهذه الخطط اللئيمة، و الدسائس الخفية، و التدابير السيئة للجماعة الإسلامية.

لقد نهاهم اللّه عن نجواهم هذه، ثم يعودون لما نهوا عنه إصرارا في إسرارهم المكائد اللئيمة، فيطلع اللّه نبيه و المؤمنين بثالوث النجوى، و أنهم يحيّون الرسول بغير التحية الإسلامية: «حيوك بما لم يحيك به اللّه» فهل إنها (السام عليك) كما كان من اليهود قاصدين: (الموت أو المرض عليك)؟ أو انها (أنعم صباحا و أنعم مساء): تحية أهل الجاهلية «1»؟ علّ الآية تشملهما، و لكنها لا تخص الاولى، بل قد تخص الثانية، فان «ما لم يحيك به اللّه» توحي بأنهم كانوا تاركي السنة الاسلامية في تحيتهم و هي «السلام عليكم» لا انهم كانوا يسبون الرسول في تحيتهم ليّا بألسنتهم و طعنا في الدين كما اليهود كانوا يفعلون.

و يرد عليهم أيضا قولهم في أنفسهم: «لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ» بقوله:

«حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ»: فعذاب الدنيا لا يحسب له حساب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي في تفسيره‏ .. و قولهم إذا أتوه: أنعم صباحا و أنعم مساء و هي تحية أهل الجاهلية، فأنزل اللّه‏ «وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ»، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أبدلنا اللّه بخير تحية أهل الجنة: السلام عليكم‏ (نور الثقلين 5: 261).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 203

بجنب الآخرة، إذ يصلون: يوقدون، جهنم، كما كانوا وقودا لنيران المؤامرات يوم الدنيا، و حسبهم من عذاب الدنيا أن اللّه يفضحهم في مكائدهم و مصائدهم ضد الرسالة الإسلامية «خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ»!.

و طالما لم يؤثر النهي عن النجوى في المنافقين، و لكنه مؤثر في الجماعة المؤمنة التي قد تنجرف في نجوى سيئة فتؤدي بها إلى «الإثم‏ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ» كالتشاور فيما يرتبط بالسياسة الإسلامية، بعيدا عن القيادة، و التجمعات الجانبية، تناجيا هنا و هناك، المنافية لروح التنظيم الإسلامي، فإنها قد تؤدي- و كثيرا ما تؤدي- إلى البلبلة و الفوضى، الراجعة «بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ» و إن لم تكن مقصودة! إلا أن مجرد الإثارة للمسائل الجارية، و إبداء الآراء فيها على غير علم، و بعيدا عن القيادة، قد يؤدي إلى هذا الثالوث المنحوس الذي يبغيه المنافقون ضد الإسلام.

فحذار حذار أيتها الجماعة المسلمة أن تعاونوا المنافقين على أنفسكم في تناجيكم الجانبية، فتصبحوا أعداء أنفسكم و سائر المؤمنين!.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى‏ وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ‏:

«تَناجَوْا بِالْبِرِّ»: في علاقاتكم الفردية و الجماعية، ما ثبت أنه برّ: واسع الخير و البركة «وَ التَّقْوى‏»: التجنب عن سخط اللّه، و عن معصية رسول اللّه، «تناجوا» فيما بينكم لترك التصميمات الجانبية، فيما يرتبط بالقيادة و التنظيم و السياسة الاسلامية «تناجوا» تخفيا عن الأعداء- لا عن المؤمنين المسالمين- أو تخفيا عن ضعفاء العقول من المؤمنين، الذين يفشون الأسرار جهلا فتبوء بالخسارة و الدمار، «تناجوا» متقين عن محاظير التناجي فرديا و جماعيا.

إِنَّمَا النَّجْوى‏ مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ‏:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 204

فقد تكون النجوى خالية عن الإيذاء و الإزراء و المؤامرة، و إنما بالبر و التقوى كما في تناجي الرسول و المؤمنين، فهي راجحة أو واجبة، و قد تكون محزنة و مؤذية للمؤمنين و إن لم تكن فيما يضرّهم، فهي محرّمة تشملها الآية.

و قد وردت الأحاديث النبوية بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة، و تزعزع الثقة، و تبعث التوجّس، و على حدّ قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

(... ما هذه النجوى! ألم أنهكم عن النجوى؟»

«1».

كما

عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه)

«2». اللهم إلا فيما لا مندوحة عنه و هو أوجب من وجوب رعاية أشخاص المؤمنين، كالتناجي فيما يهمّ الدولة الاسلامية، و يجب إسراره لأنه من أسرار الدولة، تقديما للواجب الأهمّ.

و قد تكون مؤامرة ضد المسلمين و مؤذية للمؤمنين: «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ»، فتشملها الآيات: هذه و المسبقتان، حرمة مضاعفة، سواء أ كانت من المؤمنين، أم من المنافقين، مهما كانت مختلفة في دركاتها.

و النجوى اللئيمة لا تضرّ المؤمنين- كما الشيطان لا يضرّ- إلا بإذن اللّه، ألا يمنع أذاها، بأن لا يخبر الرسول و المؤمنين بمؤامرات المنافقين السرية، فيقعوا في فخاخهم من غير علم، بلوى و امتحانا من اللّه، لا امتهانا!.

و في هذه المحن لا سبيل للخلاص إلا التوكل على اللّه أن يكفى بأسهم، بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6- 184 أخرج البخاري و مسلم و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه (ص): ... و

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال: كنا نتناوب رسول اللّه (ص) يطرقه أمر و يأمر بشي‏ء فكثر أهل النوب و المحتسبون ليلة، حتى إذا كنا نتحدث فخرج علينا رسول اللّه (ص) من الليل فقال: ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى!.

(2) مسند احمد بن حنبل 3: 30.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 205

سلوك السبل المستطاعة، فقصورها و كلالها عن كفاية البأس، فالتوكل على اللّه قادرين و قاصرين: «وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (65: 3).

فلا يعني التوكل على اللّه ترك الأسباب تفريطا لها، و لا فيما إذا كلّت أو قلّت فحسب، و إنما ترك التوكل على غيره من أسباب، بل التوسل بها لوصول البغية متوكلا في كل ذلك على اللّه، دون توهّم لاستقلال الأسباب و إن كانت كافية حسب الظاهر، فإن له تعقيمها، كما له تتميمها إذا قلّت أو كلّت.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ:

بما أن الدين ليس تكاليف حرفية جافة، و لكنه تحوّل في الشعور، و استجاشة لمكارم الأخلاق، و حساسية في الضمير، لذلك نرى الآيات تترى في تأديب الجماعة المسلمة بالمثل العليا، و تأنيبها فيما ينافيها، في كل قولة و حركة و سكون.

و التفسح في المجالس هو التوسع فيها، و أحرى المجالس بذلك مجالس النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما أنه أفضل القائلين: (تفسّحوا- انشزوا)، و قد كان المسلمون يتضامّون في مجالسه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ركاما، تنافسا على القرب منه، و تحارصا على استماع كلامه، فإذا ورد وارد ضنّوا بالتفسح له، فأمرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ألا يضنّوا، و يتفسحوا في المجالس ترحيبا و ترغيبا للواردين، و لا سيما إذا كانوا أفضل منهم في الإيمان- هنا- «فافسحوا» و بأحرى إذا كان الوافد أعلم، «فانشزوا»: ارفعوا: قوموا و قدموهم على أنفسكم في المكان كما هم أفضل منكم في المكانة.

نزلت الآية يوم الجمعة و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالس في الصفّة و في مكان ضيق، و كان يكرم أهل بدر من المهاجرين و الأنصار، فقدم جماعة منهم عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 206

فما فسح لهم في المكان، فأمرهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «تفسّحوا» و أمر بعضهم «فانشزوا»: ارفعوا.

أجل و إن فسح المكان و المجال للأفضل و الأعلم فرض من اللّه إكراما للعلم و الإيمان‏ «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ».

فعلى المؤمنين النابهين أن يفسحوا أو ينشزوا: يقوموا للأفضل منهم، و على القائد المسئول عن تنظيم الجماعة المسلمة أن يأمر الغافلين غير العارفين أن يتأدبوا بهذا الأدب الرائع، و لكي يكون الجو دائما جو التفضيل للأفضل، فالتنافس في الفضائل، و هذه الفسحة في المكان تتخطاهم الى فسحة في النفس، و وسعة في الصدر، و رحبة في القلب، فمتى رحب القلب اتسع و تسامح و استقبل الجالس إخوانه بالحب و السماحة. كما و أن النشوز عن المكان يتخطاه الى النشوز و الرفعة في المكانة.

«تَفَسَّحُوا ... يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ»: في الدنيا أن يخرجكم عن ضيق الحياة و ضنك العيش، و في الآخرة ألا يضيق عليكم في الحساب، فيدخلكم في فسيح جنته و وسيع رحمته.

إن ذيل الآية «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ» يتجاوب تماما و ما استوحيناه، أن واجب التوسع و النشوز هو للقادم الأفضل في العلم أو الإيمان، مهما كان راجحا لغير الأفضل تأدبا، و كما فعله الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقادمين من أهل بدر «1»، و فعله الإمام علي بن محمد النقي عليه السّلام برجل من فقهاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 185- نزلت الآية يوم الجمعة و جلس رسول اللّه (ص) يومئذ في الصفة و في مكان ضيق و كان يكرم أهل بدر من المهاجرين و الأنصار، فجاء ناس من أهل بدر و قد سبقوا الى المجلس، فقاموا حيال رسول اللّه (ص) فقالوا: السلام عليك أيها النبي و رحمة اللّه و بركاته، فرد النبي (ص) عليهم، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 207

الشيعة «1»، و لكن هذا لا يعني أنه يحق للقادم- و لو كان أفضل- أن يقيم الجالسين فيجلس مكانهم، و كما

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه، و لكن تفسحوا أو توسعوا)

«2»، و إنما الأدب الاسلامي للقادم أن يجلس بدون الشرف، كما كان من دأب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي (ص) ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم فشق ذلك عليه فقال لمن حوله من المهاجرين و الأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان و أنت يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه فنزلت الآية.

(1).

الاحتجاج للطبرسي: روي عن الحسن العسكري (ع) انه اتصل بأبي الحسن علي بن محمد العسكري (ع) ان رجلا من فقهاء شيعته كلم بعض النصاب فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته، فدخل على علي بن محمد (ع) و في صدر مجلسه دست عظيم منصوب و هو قاعد خارج الدست و بحضرته خلق من العلويين و بني هاشم، فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست و أقبل عليه، فاشتد ذلك على أولئك الأشراف، فأما العلويون فعجلوه عن العتاب، و أما الهاشميون فقال له شيخهم: يا ابن رسول اللّه! هكذا تؤثر عاميا على سادات بني هاشم من الطالبيين و العباسيين؟ فقال (ع): إياكم و أن تكونوا من الذين قال اللّه تعالى: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ»، أ ترضون بكتاب اللّه عز و جل حكما؟ قالوا: بلى، قال: أليس اللّه يقول: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ‏ .. يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ» فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرض للمؤمن إلا ان يرفع على من ليس بمؤمن، أخبروني عنه قال: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ»؟ أو قال: يرفع اللّه الذين أوتوا شرف النسب درجات؟ أو ليس قال اللّه عز و جل: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ؟» فكيف تنكرون رفعي لهذا لما وفقه اللّه؟ ان كسر هذا فلان الناصب بحجج اللّه التي علمه إياها، لأفضل له من كل شرف في النسب.

(2) الدر المنثور 6: 185- أخرج البخاري و مسلم عن عمر أن رسول اللّه (ص) قال: ...

(3)

الكافي عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) قال‏: كان رسول اللّه (ص) إذا دخل منزلا قعد في أوفى المجلس اليه حين يدخل.

و فيه عنه (ع): من رضي بدون الشرف من المجلس لم يزل اللّه عز و جل و ملائكته يصلون عليه حتى يقوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 208

ثم و رفع درجات للذين آمنوا و الذين أوتوا العلم، ذلك حسب درجات العلم و الإيمان- كما للجهال و الذين كفروا دركات- درجات في الدنيا و درجات في الآخرة، و من درجات الدنيا فرض التفسح لهم في المجالس، و القيام لهم احتراما و إجلاسهم في مقامهم، و منها اختصاصهم أو تقدمهم في مناجاة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما فرض في آيته، فالرفعة لهم شاملة للدارين و في الناحيتين الصورية و المعنوية، و على المؤمنين باللّه التخلق بأخلاق اللّه في هكذا ترفيع.

ثم و لا ريب أن للعالم الدّين درجات على العالم غير الدّين، أو الدّين غير العالم، و فيما إذا جمعا في اثنين و اختلفا في الدرجات، فالفضل للعالم الأتقى، «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» و آية الاستواء «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» إنما تفضل العالم على الجاهل، فتبقى أفضلية الأتقى بين العلماء- على درجاتهم- ثابتة.

«وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»: هكذا تؤمرون بتفضيل الفضلاء في العلم و الإيمان، و لكي تخلقوا جوا طاهرا يلمس فيه هذا الأدب الرائع، و اللّه خبير بأعمالكم، الموافقة لأوامره، و المخالفة سواء.

[سورة المجادلة (58): الآيات 12 الى 22]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (13) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (14) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (15) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (16)

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (17) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (18) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (19) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21)

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (22)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 210

يبدو أنهم كانوا يتنافسون متهافتين على تناجي الرسول (ص) كلّ في شأن يخصه، ليسمعه بالانفراد، و كأوسمة شرف، و هذا مما يخلق فوضى، و ليس بإمكان الرسول (ص) أن يقتسم أوقاته بين المتنافسين، و له مهامّ جماعية، و أوقاته الشريفة تعم الكل، فلا تصلح مناجاته إلا في صالح الامة، و ليتضح لهم مدى اهتمامهم بنجواه، لذلك كله يقرر اللّه ضريبة لمن يريد نجواه، كصدقة تصرف في صالح الامة أيضا فقال:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏:

و ذلك حينما أكثر الأغنياء مناجاة النبي (ص) و غلبوا الفقراء على المجالس عنده حتى كره الرسول (ص) ذلك، و استطالة جلوسهم و كثرة مناجاتهم، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، يأمرهم بالصدقة أمام المناجاة.

أما أهل العسرة فلم يجدوا فعفي عنهم، و لكن الأغنياء بخلوا، بين عاص في مناجاته دون صدقة، و بين من ضنّ بها و ترك مناجاته، فنزلت الآية راشقة بسهام الملام، ناسخة بحكمها حيث أحجم من كان دأبه الإقدام.

و في هذا الأمر و نسخة تعظيم للرسول (ص) و نفع للفقراء، و تمييز بين المخلص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 211

و غيره، و دفع للتكاثر عليه (ص) من غير حاجة جماعية مدقعة.

«ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ»: كجماعة المسلمين، فإنه لصالحكم جماعيا «وَ أَطْهَرُ»:

لقلوبكم، إذ تدل الصدقة أن النجوى بعدها خالصة لوجه اللّه، و لكن الفقير ماذا يصنع؟ هل يحرم لأنه فقير المال، فيضاف إليه فقر الحال؟ كلا: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» غفران يخص المعدمين دون أن يعم الواجدين، مما يجاوب الأمر بالصدقة في الدلالة على وجوبها، فإنها بين أمر و غفر، كما تجاوبه توبة اللّه عليهم إذ لم يفعلوا. و لقد تواترت الروايات أنه لم يعمل بهذه الآية إلا الإمام أمير المؤمنين علي (ع) «1» و على حدّ

قوله: (ان في كتاب اللّه لآية ما عمل بها أحد قبلي و لا يعمل بها أحد بعدي: آية النجوى .. كان عندي دينار فبعثه بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي (ص) قدمت بين يدي درهما، ثم نسخت، فلم يعمل بها أحد، فنزلت: «أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ»)

«2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أورده الثعلبي و الواحدي و غيرهما من المفسرين و المحدثين، فمن ذلك ما يقوله الشيخ شرف الدين بعد نقل كثير من أخبار النجوى: «أعلم أن محمد بن العباس ذكر في تفسيره سبعين حديثا من طريق الفريقين يتضمن ان المناجي للرسول (ص) هو أمير المؤمنين (ع) دون الناس أجمعين» و أخرجه ابن بطريق في العمدة بأسانيد كثيرة عن الثعلبي و ابن المغازلي و رزين و غيرهم، و في المستدرك عن أبي نعيم باسناده عن أبي صالح عن أبن عباس، و باسناده عن مجاهد و علي بن علقمة عن علي (ع) و ابن مردويه في المناقب بأربع طرق أحدها يرفعه إلى سالم بن أبي الجعد عن علي مثله، و في الجمع بين الصحاح الستة قال ابو عبد اللّه البخاري و روى مثله، و عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله، و الحافظ ابو نعيم في كتاب ما نزل من القرآن في علي بسنده عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس، و عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس، إلى غير ذلك من الأسانيد.

(2) أخرج سعيد بن منصور و ابن راهويه و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم و صححه عن علي (ع) قال: و في بعض الأحاديث انه (ع) استقرض هذا الدينار لنجوى الرسول (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 212

و

يروى عنه (ع): ان آية النجوى ما كانت إلا ساعة

و يروى عشر ليال، و هذه أوفق بفرصة الامتحان، و غاية الامتهان، و ان ساعة و مثلها لا تكفي للمناجات عشر مرات‏ «1»! و يروى انه سأله (ص) بين الآيتين عن عشر خصال‏ «2» فهل في ساعة واحدة عشر مراجعات في عشر نجوات تحمل كل واحدة استعلام خصلة؟! فقد ناجاه (ص) عشر مرات في هذه الفترة، فاستعلمه (ص) عشر خصال، مما يثير العجب من مدى رغبته في نجواه لحدّ تصدق بكل ماله الذي استقرضه، نجوات تترى دونما انقطاع، رغم إهمال من سواه إشفاقا أن يقدموا بين يدي نجواهم صدقات، و ليس في ذلك تنديد بالامة أجمع، إنما بمن كان يناجيه تباعا ثم ترك أو ترك الصدقة قبل مناجاته إذ واصل فيها، و اما من لم يكن يناجيه رعاية للمصلحة الجماعية، أو تقديما للأصلح في نجواه، أو لم يحصل له سؤال هام يتطلب النجوى في هذه الفترة، أما بالنسبة لهؤلاء فلا «3».

فقد تبين هنا للعامل الوحيد بالآية فضيلتان: أنه ما ترك نجواه بل قد زاد فيها، و أنه الذي يحق أن يناجي الرسول (ص) بما فيها من صالح الامة الإسلامية لأنه باب مدينة علمه و الصادر عنه، و كم له من ميزات أجمعت الامة عليها، و هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن علي (ع) قال: و يروى انه كان عشر ليال كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل.

(2) أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن مجاهد قال نهوا عن مناجاة النبي (ص) حتى يقدموا صدقة فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب فإنه قدم دينارا فتصدق به ثم ناجى النبي (ص) فسأله عن عشر خصال ثم نزلت الرخصة.

(3) أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: ان المسلمين أكثروا المسائل على رسول اللّه (ص) حتى شقوا عليه فأراد اللّه أن يخفف عن نبيه فلما قال ذلك امتنع كثير من الناس و كفوا عن المسألة فأنزل اللّه بعد هذا «أَ أَشْفَقْتُمْ ...» () لدر المنثور 6: 185).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 213

منها «1» رغم ما نقم منه الناقمون لحدّ أضمروا عن اسمه فقالوا: (رجل من المهاجرين) و أشركوا معه في هذه الكرامة غيره‏ «2» خلافا لإجماع الرواة و المفسرين.

و لما ترك جماعة من المسلمين المناجاة خشية الإنفاق و خيّم عليهم الإشفاق:

العناية المختلطة بخوف، نسخ اللّه تعالى حكم صدقة المناجاة شفقة عليهم و رحمة، و تاب عليهم، فاختصت الفضيلة في تطبيق الآية بالإمام علي (ع) لحدّ يتحسر منه الخليفة عمر «3».

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ‏:

فهنا «نجواكم» توحي بأنهم تناجوا الرسول بعد النهى و لم يقدموا صدقات، و هكذا يوحي الإشفاق أيضا فإنه عناية مختلطة بخوف، عناية في مناجاة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عنه (ع) يقول‏ للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: نشدتكم باللّه هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية ... فكنت انا الذي قدم الصدقة، غيري؟ قالوا: «لا»

و كما احتج به على أبي بكر بقوله (ع) فأنشدك باللّه أنت الذي قدم بين يدي نجواه لرسول اللّه (ص) صدقة فناجاه و عاتب اللّه تعالى قوما فقال: ءأشفقتم ... أم أنا؟ قال: بل أنت (نور الثقلين 5: 265 عن الاحتجاج للطبرسي).

(2) كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل ينقل القصة إلى أن يقول: فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئا و أما أهل الميسرة فمنع بعضهم ماله و حبس نفسه إلا طوائف منهم جعلوا يقدمون الصدقة بين يدي النجوى و يزعمون أنه لم يفعل ذلك غير رجل من المهاجرين من أهل بدر فأنزل اللّه «ءأشفقتم ...» (الدر المنثور 6: 185).

(3) تفسير روح البيان 9: 406- لإسماعيل حقي البروسي عن عمر رضي اللّه عنه: كان لعلي رضي اللّه عنه ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلى من حمر النعم: تزويجه فاطمة رضي اللّه عنها و إعطاؤه الراية يوم خيبر و آية النجوى».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 214

الرسول (ص) و خوف من الصدقات، و خوف من اللّه في تركها، فابتلوا بهذه البلية، و لو استمرت لكانت بلاء لزاما، و لكنه تعالى:

(وضعها عنهم بعد ان فرضها عليهم برحمته و منّه)

و كما يروى عن الرسول (ص) «1».

لذلك تاب اللّه عليهم: ان غفر لهم إذ لم يفعلوا، و نسخ الوجوب لكيلا يبتلوا، توبتان من اللّه عليهم، شرط أن يواصلوا في إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و طاعة اللّه و رسوله، فيتركوا الإثم و العدوان و معصية الرسول المسبق ذكرها «وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» من صالحات و طالحات.

فلم تكن المناجاة واجبة حتى يتوب اللّه عليهم في تركها، و لا الصدقة واجبة لولاها حتى يتوب عليهم إذ لم يقدموها، و إنما الواجب تقديم الصدقة عند المناجاة و لم يفعلوها: «فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»: ناجيتم و لم تقدموا صدقات «فهل تكون التوبة إلا عن ذلك» كما يروى عن صاحب النجوى عليه السلام‏ «2».

و كما أسلفناه لم تكن الخطيئة للجميع، و إنما للمجموع، أن جماعة من الأثرياء ضنّوا بالعطاء و تناجوا، كما كانوا يضنون بإفساح المجال للقادمين الفضلاء لمجلس الرسول (ص) فوبخهم اللّه تعالى، دون من ترك المناجاة لعلل مسبقة، اللهم إلا إشفاق الصدقة، فتاب اللّه على من لم يفعل: الصدقة بعد المناجاة، أو لم يفعل المناجاة خشية الصدقة، و تاب عليهم في فرض الصدقة ان نسخها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاحتجاج للطبرسي عن النبي (ص) حديث طويل في مكالمة بينه و بين اليهود و فيه:

فأنزل اللّه عز و جل ألا يكلموني حتى يتصدقوا بصدقة و ما كان ذلك لنبي قط (ثم‏

ذكر (ص) الآية و قال‏): ثم وضعها عنهم بعد ان فرضها عليهم برحمته و منه. (نور الثقلين 5: 264).

(2) الخصال للصدوق في مناقب أمير المؤمنين و تعدادها قال: و أما الرابع و العشرون فإن اللّه أنزل على رسوله (و ذكر آية النجوى و القصة ثم قال): فو اللّه ما فعل هذا أحد من الصحابة قبلي و لا بعدي فأنزل اللّه عز و جل (و ذكر الآية الناسخة ثم قال): فهل تكون التوبة إلا عن ذلك؟ (نور الثقلين 5: 265).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 215

و إبدال صدقة النجوى بهذه الواجبات يوحي بأنها لم تكن من مهام الواجبات، و لا الأصيلة منها، و إنما هي ابتلائية، و لذلك نسخت إذ أطاقها المسلمون و أشفقوا منها، إلا أن طاعة اللّه و الرسول هنا تربطهم برباط التنظيم في نجواهم، و أن يخرجوا عن فوضاها، و الاستئثار بها دونما ملزم أو مرجح، فكما الأفضل علما و إيمانا يفسح له و ينشز، كرامة للعلم و الإيمان، فبأحرى يقدم الأفضل فيهما في مناجاة الرسول (ص).

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ‏:

حملة قوية على المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان و يسرون الكفر، متآمرين في إسرارهم ضد المسلمين، ف «ما هم منكم» لكفرهم المبطن «و لا منهم» لإظهارهم الإسلام: «مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى‏ هؤُلاءِ وَ لا إِلى‏ هؤُلاءِ» (4: 143) و إن كان كلّ متول لقوم، منهم: «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» (5: 51):

هو منهم فيما به الكافر كافر و هو كفر القلب و الضمير، فالمنافق مؤمن اللسان و كافر القلب، فهو ليس مؤمنا خالصا، و لا كافرا خالصا، و إن كان من حزب الكفار أصالة، فالآيتان تتجاوبان دون تهافت و اختلاف.

إنهم يعيشون نفاقا عارما، و فيما يفضحهم اللّه، أن يخبر الرسول (ص) و المؤمنين بمكائدهم اللئيمة «يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ»: أنهم براء مما قيل عليهم، و أنهم مؤمنون حقا، و يحلفون على الكذب في صدهم المؤمنين عن سبيل اللّه، علّهم يصدقونهم بجنة الحلف، فهم يعيشون الكذب على اللّه و على الرسول و المؤمنين علّهم يفلحون في كيدهم، و يفلحون المؤمنين في ميدهم، «وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» بكذبهم، و هذا الحلف الكذب يعني محاولة استمرارهم في كيدهم، و يوحي بضعفهم و جاه الدولة الإسلامية آنذاك، إذ كانت قوية سائدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 216

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏:

عذابا شديدا في الدنيا بفضحهم على رؤوس الاشهاد، و في الآخرة برضخهم و دقهم يوم تقوم الاشهاد:

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ‏:

يهينهم اللّه بعذابه كما أهانوا دين اللّه، و صدّوا عن سبيل اللّه، بما اتخذوا أيمانهم جنة: وقاية عما يصيبهم بتجسّسهم ضد المسلمين، و تحسّسهم لصالح الكافرين، و هم هنا جماعة من اليهود المغضوب عليهم كما في آيات عدة، تحالفت معهم جماعة من المنافقين ضد الدولة الإسلامية.

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏:

فإنما المغني من اللّه- إضافة إلى فضل اللّه- عقيدة الايمان و عمل الايمان، فأما الأموال و الأولاد فلا، إلا إذا استخدمت في سبيل اللّه ... و كما كانوا أصحاب نيران المكائد حياتهم، «أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ» في الآخرة «هُمْ فِيها خالِدُونَ»:

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ‏:

«فَيَحْلِفُونَ لَهُ»: «وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ» (6: 23) مما يوحي بأن النفاق قد مزج قلوبهم لحدّ لا يفصلهم عنه فاصل البرزخ و القيامة، و هما يوما بروز الحقائق‏ «وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ» من الحياة عن العذاب بهذه القولة الماكرة «أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ» كأن الكذب يخصّهم و هم يخصّونه، فلا كاذب إلا إياهم! كذبا في حلفهم، و كذبا في زعمهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 217

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ‏:

الحوذ أن يتبع السائق حاذيي البعير أي أدبار فخذيه فيعنّف في سوقه، فاستحواذ الشيطان على حزبه أن يركب أدبارهم معنّفا في سوقهم و كما وعد:

«لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» (17: 62) و الاستحواذ أشد ألوان الاحتناك، إذا فهم سيّقة الشيطان: يسوقهم حيثما يريد، فقد يبدأ اللعين بتمشيتهم وراءه:

أن يتبعوا خطواته، ثم يركبهم محتنكا إياهم، ثم يستحوذ عليهم، و بهذا الثالوث اللعين يفقدهم مشاعرهم كأنهم ظلاله في ضلاله‏ «فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ» و لحد الإعراض، «أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ»: خالصين له مخلصين، واقفين تحت لوائه، عاملين باسمه، منفذين غاياته، و هو الشر الخالص الواصب الذي ينتهي إلى الخسران الخالص.

و للشيطان في كافة الأحزاب- إلا حزب اللّه- أعوان بمختلف الألوان و إن كانوا دركات، كما ان حزب اللّه درجات‏ «كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى‏ شاكِلَتِهِ‏ و من دركات حزب الشيطان التفرقات عن الوحدة الايمانية، عقائديا و عمليا، و منها ترك الجماعات في الصلاة، و على حد

قول الرسول (ص) (ما من ثلاثة في قرية و لا بدّ و لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية)

«1». و كما ان من ظروفها و مصائدها:

(أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب اللّه و يتولى عليها رجال رجالا) على حد قول الإمام علي (ع)

«2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور أخرج ابو داود و النسائي و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول اللّه (ص) يقول:

(2)

اصول الكافي باسناده عن محمد بن مسلم عن الباقر (ع) قال‏: خطب أمير المؤمنين (ع) الناس فقال: «أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن- إلى قوله- يخالف فيها كتاب اللّه يتولى فيها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 218

ان القلوب تحيى و تطمئن بذكر اللّه، و الشيطان يستحوذ على أوليائه ينسيهم ذكر اللّه، يجعل أعينهم في غشاء و غطاء عن ذكر اللّه‏ «الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي» (18: 101): ذكر اللّه الذي يذهب بالحجب و الأدران عن العقول و الصدور و القلوب و الألباب، فيعيش ذووا الألباب ذكر اللّه إسرارا و إعلانا، عملا و لسانا، فلا يعنى من ذكر اللّه لقلقة اللسان و لا خبر عنه في الجنان، فإنما اللسان آلة لذكر القلب و ليس هو ذاكرا في الحق: «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» و أرفع المقامات في ذكر اللّه أن ينسى الذاكر من سوى اللّه حتى نفسه‏ «فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏».

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ‏:

فهناك أذلاء و هم عصاة أمر اللّه، على مدى عصيانهم، و قد يكونون من المؤمنين، و هناك أذلون و هم الذين ينعزلون الى حزب الشيطان محادّين اللّه و رسوله: أن له و لرسوله حدّه، و لنا حدودنا، كأن لا سلطان له عليهم، و هم آلهة أنفسهم، أم الشيطان إلهم! فبمقدار ما يكون اللّه و حزبه أعز، فالشيطان و حزبه كذلك- أذلّون- في كافة الحقول، مهما كثرت و طاشت شهواتهم، أذلّون في محكمة الفطرة و العقل و الواقع، في الدنيا و الآخرة.

فمهما ذل المؤمنون أحيانا في هجمات الكافرين فهم أعزة بإيمانهم، تزول عنهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رجال رجالا فلو ان الباطل خلص لم يخف على ذي حجى و لو ان الحق خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه و نجى الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى».

و في خطبة للإمام الحسين (ع) خطب بها لما رأى صفوف أهل الكوفة بكربلاء كالليل و السيل و فيها: فنعم الرب ربنا و بئس العباد أنتم، أقررتم بالطاعة و آمنتم بالرسول محمد ثم انكم رجعتم إلى ذريته و عترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر اللّه العظيم فتبا لكم و لما تريدون إنا للّه و أنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد ايمانهم فبعدا للقوم الظالمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 219

الذلة الظاهرة: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» (3: 123) «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ» (63: 8)، و لكنما المحادّين للّه و رسوله، الذلة لزامهم إذ لا مولى لهم: «أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ»: غريقون في الذل دائبا لا يزول، و لكنما المؤمن له العز و الغلبة مهما بلغت به الصعوبات و اصطدمته العرقلات في سبيل اللّه:

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ:

«كتب اللّه»: إن كتابة الغلبة الإلهية لا تغني نقشا على ورق: إنشاء أو إخبارا، إنما هي تثبيت الغلبة بمثبتاتها و معداتها: غلبة في التكوين و التشريع، و في التشريع غلبة في الحجة و المهجة، و غلبة في التطبيق، و كل ذلك نتيجة الارادة الإلهية و تأييده رسله في غلبهم بحجج الرسالات و بيناته.

«لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي»: لا «لنغلبن» رغم واقع الجمع، إنما «لأغلبن» لأن اللّه لا يعد و يردف نفسه المقدسة في عداد خلقه و حتى رسله، و أن غلب الرسل من غلبه، فإنهم لا يغلبون إلا بما يحملون من الرسالات و إثباتاتها و معجزاتها، و لو لا فضل من اللّه و رحمة لكانوا كسواهم من الأذلين المغلوبين‏ «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» فرسل اللّه بقوة اللّه و عزته يغلبون، و إلا فهم الفقراء لا يملكون شيئا! «وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (3: 126).

أجل «و رسلي» المختصون في تحقيق رسالات اللّه، حاصرين طاقاتهم كلها في وجه اللّه، لا يبتغون إلا مرضاة اللّه فلهم سابق كلمة النصر: «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ» (37: 172) كما و المؤمنون كذلك منصورون غالبون بنصر اللّه على قدر إيمانهم باللّه: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) نصرة في الدنيا تناسب الرسالة و الإيمان، و نصرة في الآخرة هي تحقيق وعد اللّه لهم بالجنة، و لقد كتب على نفسه نصرهم حقا: «وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» (30: 47).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 220

إن الغلب و النصر هنا و هناك للمرسلين و المؤمنين ليس في الشهوات و المغريات، و إنما في بلاغ الرسالات و تطبيقها، مهما كانت التضحيات في هذه السبيل الشائكة المزدحمة بالعرقلات.

ففكرة الإله منتصرة في كافة الميادين، بعساكر الفلسفات العقلية و العلوم التجريبية، تتقدم على تقدمها قدما الى الأمام، مهما حاول الملحدون إطفاء نور اللّه، و مع صراعهم الطويل، فإن العقيدة في اللّه ظلت هي السائدة المسيطرة الثابتة، رغم أن الإلحاد الى زوال مؤكد مهما أبرق و عربد، فالبشرية تهتدي كل يوم الى أدلة جديدة تهدي: ان اللّه هو الحق و أن ما يدعون من دونه هو الباطل.

و رسل اللّه و المؤمنون الحقيقيون لا يقفون لحد في تضحياتهم بمبدئهم المجيد:

«إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ»: نحن من أهل الجنة قاتلين و مقتولين، و أعدائنا من أهل النار قاتلين و مقتولين، فثباتهم على الدفاع لا يتقيد بقيد الحفاظ على النفس و النفيس، دون حزب الشيطان، فإن مهمتهم التي يعملون لها و يأملونها، هي الدنيا برغباتها و شهواتها، فلو أشرفوا على خطورة أو مهلكة انهزموا مدبرين، أو استسلموا أذلة و آمنوا مقبلين، كما تشهد بذلك غزوات الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما أدت اليه من الفتح المبين، رغم كونها سجالا، لكنها ما انتهت إلا الى تقدم المسلمين و غلبهم، إلا فيما ضعف الإيمان، فامتحان بامتهان الهزيمة لكي يجدد دور الإيمان، إذا فهم الأعلون: «وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (3: 139) فلم تقف الفتوحات الاسلامية و لا تفرقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلا نتيجة ضعف الايمان، و لا يزال، إلا أن يستحكموا عرى الإيمان و الوحدة الاسلامية فهم الأعلون و أعدائهم هم الأذلون.

فليس حرمان المؤمنين عن ملذات الحياة، و زجهم في السجون، و تسفيرهم و تقتيلهم و التنكيل بهم، ليست هذه العقبات الشائكة الصعبة الملتوية، ذلّا لهم و غلبا لأعدائهم، و إنما هي صورة اخرى لانتصار الايمان في معركته مع الكفر،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 221

كما و أن استسلام البعض منهم- و هم ضعفاء الايمان- لدولة الكفر و الطغيان، بغية الحفاظ على أنفسهم و نفائسهم، ليس هذا انتصارا لهم، فإنما الغلبة الايمانية تظهر في مختلف وجوه المناضلات في مختلف ميادين النضال: إن قتلوا انتصروا، و ان قتلوا انتصروا، فهم أعزة منتصرون قاتلين و مقتولين، شاردين و مشرودين، حاكمين و محكومين، فقراء و مثرين، كما و أن المحادّين للّه و رسوله هم في الأذلين، في ميزان الحق، في كافة الصور، و كفى المؤمنين غلبا- بين أسبابه-: ان للحق دولة و للباطل جولة!.

ترى إن حادثة الطفّ صورة من غلب الفي‏ء الطغيان الأموي على أهل بيت الرسالة المحمدية صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ كلا، فإن قتل حسين و ذووه في الجسد، فقد قتل يزيد و حزبه في كافة الموازين الإنسانية، يزيد يقتل حسينا في جسده، و حسين يقتل يزيد في روحه، إذ إن حادثة الطفّ أثبتت للعالم أن يد الإثم و الطغيان فيها لم تك يد انسان، و إنما أيدي وحوش مجانين و أضل سبيلا، حيث لم ترحم الأطفال الرضّع و النساء و الضعفاء: قد غير الطعن منهم كل جارحة، سوى المكارم في أمن من الغير.

أجل و ان صمود المؤمنين في وجه الطغاة، إذ يحميهم إيمانهم من الانهيار، و يحمي زملائهم في حزب اللّه من ضياع الشخصية، و من خضوعها للطغيان، إن هذا الصمود الصارم غلب لهم و انتصار على الكفار، بجنب سائر الانتصارات التي تختصهم دونهم.

لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ‏:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 222

إن الإيمان الصحيح باللّه دخول في حدّ اللّه و حزبه، و خروج عن محادّة اللّه و حزب الشيطان، فلا ملتقى بينهما، و لا أنصاف حلول و لا موادّة و لا مواربة و لا مسايرة، فإنهما بين طرفي النقيض فكيف يجتمعان؟.

فأسباب الموادّة بين الحزبين فاشلة، و إنما الحاكم اللازم بينهما المحادّة، و لو كانوا من كانوا من الأقارب الأدنين آباء و أبناء و إخوانا و عشيرة، فإنها المفاصلة القاطعة بين حزب اللّه و حزب الشيطان، و التجرّد من كل جاذب و جامع، فروابط الدم و القرابة كلها منهارة عند حد الإيمان، تتقطع هذه الأواصر التي لا ترتبط بعروة الإيمان و لا تنبع منها، فهناك يقتل علي عليه السلام و حمزة أقاربهما في حروب عدة، و يقتل أبو عبيدة أباه يوم بدر، و يقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، متحللين من أواصر القرابة إلى آصرة الإيمان، فتنزل في شأنهم هذه الآية،

(إن أوثق عرى الإيمان الحب في اللّه و البغض في اللّه) كما عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏

«1».

فما هي حدود هذه الموادة اللاإيمانية الممنوعة للمؤمنين؟ نقول: منها ولاية من يستحبون الكفر على الإيمان: «لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ» (9: 23) هذا و لا سيما إذا كان ابتغاء العزة:

«الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» (4: 139) «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» (5: 51) و لكنما الولاية و الموادة توحيان بالمحبة و آثارها، فأما أن نعاشرهم بحسن الخلق علهم يؤمنون، أو يميلون إلى الإيمان، أو نأمن بأسهم، فلا محظور بالنسبة لمن لم يحاربنا في الدين: «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 187- أخرج الطيالسي و ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال قال رسول اللّه (ص): ...

و أخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال قال رسول اللّه (ص): اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا و لا نعمة فيوده قلبي فإني قد وجدت فيما أوحيت إلي:

«لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ ...»

الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 223

دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى‏ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (60: 9).

«أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ»: «أولئك» المؤمنون الصامدون غير الموادّين لمن حادّ اللّه و رسوله، «كتب» اللّه‏ «فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ»: ثبّته في قلوبهم و قرّره في ضمائرهم، فصار كالكتابة الباقية، و الرقوم الثابتة، و لكنها كتابة إلهية ما لها من زوال، فإنها بيمين القدرة و الرحمة، فقلبت قلوبهم عن التقلبات إلى الثبات، و إنما تتقلب تدرّجا إلى الكمال و الأكمل، و لحد تتهيأ لوحي الرسالة الإلهية لو شاء اللّه، و ليست كتابة الإيمان في قلب فوضى دون شرط، إنما هي بين الإيمان و العمل و فقه، و من ثم تأييد اللّه فكتابة الإيمان، و هذه هي زيادة الهدى من اللّه بعد الاهتداء بسعي المهتدي: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً» (18: 13) «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17) فليس لهم صنع في زيادة الهدى، اللهم إلا في سببه بفضل من اللّه‏ «1».

فهذا الإيمان المكتوب في القلوب، المؤيد بروح من اللّه، إنه صدّ رصين متين يسدّ عن الإنسان هجمات الشيطان، و يصدّه عن اتباعه في مزالق الشك و اللاإيمان، و كما في زمن الغيبة التامة إذ لا إمام حاضرا نلجأ اليه‏

(فنكفأ تكفّأ السفينة في أمواج البحر، لا ينجو إلا من أخذ اللّه ميثاقه و كتب في قلبه الإيمان و أيّده بروح منه)

«2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي عن الصادق (ع) سئل عن هذه الآية: هل لهم فيما كتب في قلوبهم صنع؟

قال: لا.

(2)

اصول الكافي عن مفضل بن عمر قال‏: كنت عند أبي عبد اللّه (ع) و عنده في البيت أناس، فظننت انه إنما أراد بذلك غيري، فقال (ع): أما و اللّه ليغيبن عنكم صاحب هذا الأمر و ليخملن حتى يقال مات، هلك، في أي واد سلك‏

(و تتمة الحديث في المتن) (نور الثقلين 5: 268).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 224

«وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» تشرق قلوبهم بهذه الروح النورانية، فالروح- بوجه شامل- ما به الحياة، نباتية و حيوانية و عقلانية إنسانية، و إيمانية، و إلهامية مسددة للإيمان، و قدسية بالوحي، فالأخيرة خاصة برسل الوحي، و هي روح في روح الإلهام، كما أن هذه خاصة بالرعيل الأعلى من المؤمنين، و هي روح في روح الإيمان، و هذه عامة لمختلف درجات المؤمنين، و هي روح في روح الإنسان، كما أنها عامة لبني الإنسان العقلاء، و هي روح في روح الحيوان، و هذه عامة لمطلق الحيوان كما هي روح لروح النبات، فالروح القدسية هي روح الأرواح كلها، و قس عليها ما قبلها لما دونها في المكانة من الأرواح، فكل روح كجسد لما فوقه، و هي كروح لما دونه من أرواح.

فالإيمان المكتوب المستقر في القلب هو يستحق روح الإلهام، دون المستودع:

«وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ» (6: 98) كما ان الايمان المستقر الملهم قد يصطفى لرسالة السماء فيزوّد صاحبه بروح القدس:

روح النبوة و روح الوحي.

و قد يعبر عن روح الإلهام بفرقان من اللّه نتيجة التقوى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» (8: 29) و هو نور في القلب يفرق بين الحق و الباطل إذا اختلطا و ضاق المخرج: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ» (65: 3) فهذه الروح- دوما- شريطتها التقوى و على حدّ تفسير الإمام الرضا (ع) «1». ثم كان عاقبة هؤلاء الأماجد بما آمنوا و اتقوا: «و يدخلهم» اللّه‏ «جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها» دخول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي بإسناده الى أبي خديجة قال‏: دخلت على أبي الحسن (ع) فقال لي:

«إن اللّه تبارك و تعالى أيد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقت يحسن فيه و يتقي، و يغيب عنه في كل وقت يذنب فيه و يعتدي، فهي معه تهتز سرورا عند إحسانه، و تسيخ في الثرى عند إساءته، فتعاهدوا عباد اللّه نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقينا و تربحوا نفيسا ثمينا، رحم اللّه امرءا هم بخير ففعله، او هم بشر فارتدع عنه، ثم قال: نحن نؤيد بالروح بالطاعة للّه و العمل له» (نور الثقلين 5: 269).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 225

الجنة في الجنة و خلودها فيها «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» بما اتقوا و تحللوا عن إنياتهم و أنانياتهم، فنسوا أنفسهم دون مرضاة اللّه‏ «وَ رَضُوا عَنْهُ» حينما اتقوه، و إذ يدخلون الجنة «أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» جماعته الخاصون به، الخالصون له، المتجمعون تحت لوائه، المنقادون بقيادته، دون أن يكون للشيطان و حزبه منهم نصيب‏ «أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» دنيا و عقبى، مهما اختلفت ألوانه و ظروفه، اختلاف الدنيا و الآخرة.

و الإفلاح هو شق الطريق الشاق الملتوي، نحو الهدف المرمي، فحزب اللّه يشقون أمواج الفتن في معارك الحياة بسفن النجاة، فلا يغرقون، إنما يفلحون هم و يفلجون خصومهم، و لأنهم حزب اللّه‏ «وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

أجل- و لأنهم أهل معرفته و محبته و أهل توحيده، يفوزون بنصر اللّه من مصارع المحن و المهن، فاللّه تعالى أسبل على وجوههم نور هيبته، و أعطى لهم أعلاما من عظمته و كلأهم بحسن رعايته.

إن حزب اللّه يلتقون في الرابطة التي تؤلفهم، في وحدة متراصّة متينة رصينة، فتذوب كافة الفوارق تحت هذه الراية، دون أن يتحكم فيهم أحد إلا اللّه، أو يبتغون إلا مرضاة اللّه، محادين حزب الشيطان.

فهذان حزبان متناقضان لا يختلطان و لا يتميّعان و يستحيل اجتماعهما استحالة اجتماع النقيضين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 226

(سورة الحشر- مدنية- و آياتها أربعة و عشرون)

[سورة الحشر (59): الآيات 1 الى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (2) وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (3) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (4)

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى‏ أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (5) وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (6) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى‏ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (7) لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (8) وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (10)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 227

حادث جلل رعيب، و نفاق عارم رهيب، و نقض عهد منقطع النظير من بني النضير، نزلت فيه هذه السورة، و تعلقت به نصوصها، مبتدأة بتسبيح اللّه و مختتمة به، بدء و ختام مسك، يمسك و يربط ما توسطهما بتنزيه اللّه عن الظلم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 228

و الضيم فيما فعل بالذين كفروا من أهل الكتاب، دمار و بوار لبني النضير عديم النظير، و ليعلموا أنهم هم الأذلون بما حادّوا اللّه و رسوله، و المؤمنون هم الأعزون بما ارتبطوا بحد اللّه.

تقول الروايات: كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود: بني النضير و قريضة و قينقاع، و كان بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عهد و مدة، فنقضوا عهدهم شر نقض و أخطره، و السبب هم بنو النضير «1» فلم ير رسول اللّه بدا إلا حربهم و إخراجهم لمّا غدروا و خانوا خيانة مخيفة على كيان الإسلام: «وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى‏ سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ» (8: 59).

و إنهم و عدوه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخرجوا دون حرب، ثم تحالفوا مع المنافقين نقضا ثانيا: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كانت واقعة بني النضير أوائل الرابعة من الهجرة بعد أحد و قبل الأحزاب، يذهب الرسول (ص) مع عشرة من كبار أصحابه إلى بني النضير طالبا منهم المشاركة في أداء دية قتيلين، وفق ما كان بينه و بينهم أو مقدمه على المدينة، و أن لا يكونوا له و لا عليه، فاستقبلوه بالبشر و الترحاب و وعدوه بأداء ما عليهم، بينما كانوا يدبرون أمر اغتيال الرسول (ص) و من معه، ينتدب عمرو بن جحاش بن كعب ليلقي عليه صخرة، فيلهم الرسول بغدرهم فيقوم كأنما يقضي أمرا ثم علموا انه دخل المدينة، فأمر الرسول (ص) بالتهيؤ لحربهم، إضافة إلى ما كان من كعب ابن الأشرف من هجاء الرسول و تأليب الأعداء عليه، و انه اتصل مع رهط من بني النضير بكفار قريش اتصال تحالف و تآمر ضد الرسول (ص) فلما نبذوا عهدهم هكذا نبذ إليهم الرسول على سواء كما قال اللّه، فتجهز (ص) و حاصر محلتهم و أمهلهم ثلاثة أيام أو تزيد ليجلوا عن المدينة على أن يأخذوا أموالهم و يقيموا و كلاء عنهم على الباقية، و لكن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض و المقاومة كما قال اللّه تعالى: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا» فتحصن اليهود في الحصون فأمر الرسول (ص) بقطع نخيلهم و التحريق فيها فنادوه ان يا محمد! قد كنت تنهي عن الفساد فما بالك تفسد هكذا فأجابهم اللّه‏ «فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ» لا للفساد، إنما لدفع الفساد، و لما بلغ الحصار ست و عشرين ليلة يئس اليهود من صدق وعد إخوانهم المنافقين و قذف اللّه في قلوبهم الرعب فكان كما قال اللّه في هذه السورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 229

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ. لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ» (59: 13).

مكر تلو مكر، و غدر تلو غدر، يهدفون به المقام في المدينة ثم احتلالها مع إخوانهم المنافقين، و لكن اللّه يطلع نبيه عليه، و يخرجهم لأول الحشر، و علّه أول الجمع بين المتحالفين: اليهود و المنافقين‏ «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ».

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

إن تسبيح اللّه و تنزيهه- طوعا أو كرها- هو لزام ذوات الكائنات، فكيانهم كخلق اللّه تسبح اللّه عن أي نقص في الخلق‏ «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» ثم و هي تسبح اللّه عن شعور و لكن لا تفقهون: «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) ثم العقلاء النبلاء منها يسبحون اللّه كما يعرفون: تسبيحات ثلاث في الكائنات لا يخلو منها حتى الملحدين الكفار، و ان كفروا به في ثالث ثلاثة: التسبيح الاختياري العقلاني، بما حملوا و خانوا أمانة التكليف.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ:

فلو كانوا مؤمنين بكتاب اللّه- التوراة- ما خالفوا بشاراته بحق الرسول الاسماعيلي محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما نقضوا عهودهم معه بعد ما أحكموها، و لكنهم كفروا بالكتاب، رغم أنهم من أهل الكتاب، يؤمنون ببعض الكتاب- لصالحهم كما يظنون- و يكفرون ببعض- كتجار الشريعة الإلهية! هؤلاء اليهود الكفار من بني النضير أخرجهم اللّه تعالى من ديارهم لأول الحشر، فما هو الحشر هنا؟ و ما هو أوله؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 230

يقال: الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم، و إزعاجهم عنه الى الحرب و نحوها، فما هو معنى إخراج بني النضير من ديارهم لأول الإخراج الى الحرب؟

فقد كان إخراجهم حيادا عن الحرب، و تخلصا عن كيدهم و ميدهم.

ثم نرى عشرات من آيات الحشر لا تناسب لا الإخراج، لا غاية الحرب:

«وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» (2: 203) أ فإخراجا لحرب اللّه؟! و إنما الحشر هو جمع خاص، في الدنيا أو في الآخرة، كل حسبه و بحسابه، أللهم إلا إذا كان معدّى ب «على»: «وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ قُبُلًا» (6: 111) و ليست الحرب و الإضرار هنا أيضا إلا مدلولة ل «على» دون الحشر، فالحشر أيا كان و أينما، هو الجمع عن تفرق، في الأبدان أو الأرواح أو فيهما، في العقيدة أو العمل أو فيهما، في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما، في الخير أو الشر أو فيهما، الى خير أو إلى شر أو إليهما.

و حشر بني النضير هنا كان في الدنيا، و علّه أو أنه حشرهم و جمعهم مع إخوانهم المنافقين، و تآلفهم و تعاهدهم ضد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فما أن حشروا حشرهم اللئيم، إلا و أطلع اللّه نبيه على كيدهم و أخرجهم من ديارهم.

«لأول الحشر»: بداية الجمع المؤلّب على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و إن كان إخراجهم الأول من بلاد الإسلام أيضا، و لكنه لا يغير لغة الحشر عن معناه، و إن وافق واقعه هنا: أخرجهم لأول جمعهم اللئيم، و لأول مرة في تاريخهم اللئيم، و من أول الحشر الأرض التي منها يحشرون (أرض اليهود) على حدّ

المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال لهم: (اخرجوا، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر)

«1». ف «لأول الحشر» يحشر الحشرين، و ما أليقه و أنسبه جمعا بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 187- أخرجه البزاز و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في البعث عن ابن عباس قال: من شك ان المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية ... قال لهم رسول اللّه (ص) ...

و أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن الحسن قال‏: لما أجلى رسول اللّه (ص) بني النضير قال: هذا أول الحشر و إنا على الأثر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 231

المعنيين، من حشرهم الشرير في الدنيا، و إلى حشرهم الشرير في الآخرة، فمهما يكن الحشر الأول مبتدء يستحق «من» و الثاني منتهى يستحق «إلى» و لكن في «ل» إيحاء بهما و إيفاء لهما «لأول الحشر».

فقد حشروا حشرهم هكذا بغية احتلال المدينة و عصيان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القضاء عليه، فردّ اللّه عليهم حشرهم فأخرجهم لأوله و لمّا ينضج أو ينتج، و للأرض التي منها يحشرون.

... ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ:

إنه لم يكن إخراجهم لضعفهم في عدّة أو عدّة حيث‏ «ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ» و لا لقوتكم أنتم في عدّة أو عدّة، لحدّ: «ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا» و لكن اللّه تولى مهمة هذا الإخراج: «فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» نصرا من اللّه للرسول و المؤمنين المجاهدين.

فرغم عدم توقع المؤمنين خروج هؤلاء من عاصمة الرسالة الإسلامية، و رغم المنع المنيعة في حصونهم لحدّ أنستهم قوة اللّه التي لا تمنعها الحصون، و رغم أنهم بالتالي كانوا يحسبون أنفسهم بحكم هذه العدد الظاهرية ظاهرين على المسلمين، رغم هذا كله‏ «فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا».

فهنا حساب و احتساب يستطيعه الإنسان و يعرفه و يتبناه لما يهدف، و هناك حساب في ميزان اللّه يغلب كل حساب و احتساب، لا قبل له بأي حساب، فأين حساب من حساب؟

فمهما يملك الإنسان- كما يزعم- كلّ دوافع الغلبة و الظهور، و لكنه لا يملك قلبه الذي هو مصدر أمره و نهيه، قوته و وهنه، سقوطه و نجاحه، فمنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 232

تصدر الأوامر لعساكر العقول و الأفكار، و الحواس و الأعضاء، و على حد المروي عن الإمام الصادق عليه السلام.

فهنا نجد بني النضير استعدوا بعدّة عديمة النظير، و لكنما اللّه أتاهم من حيث لم يحتسبوا، من حيث قلوبهم التي هي بيد الرحمان‏ «وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» أتاهم من دواخل حصون القلوب فكسرها، لحدّ ساعدوا المؤمنين في خراب حصونهم في القوالب‏ «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» «بأيديهم» حيث كانوا يخربونها من دواخل حصونها لكيلا تقع في أيدي المؤمنين، «وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» إذ كانوا يهدمونها من خوارج حصونها لكي يخرجوهم و يحتلوها، و لما كانوا هم السبب لهجوم المؤمنين و هدمهم بيوتهم بما نقضوا عهودهم، صحت نسبة تهديم المؤمنين إلى اليهود أنفسهم‏ «بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ».

و هذا لما و هنوا بما قذف في قلوبهم الرعب، فسألوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجليهم، و يكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الأسلحة، فأجابهم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به آبالهم، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه، فيحمله على ظهر بعيره، أو يخربه و يكسر الأبواب حتى لا يقع في أيدي المؤمنين. و بما و هنوا استطاع المسلمون أن يهدموا بيوتا و حصونا، تناصرا من الجانبين في هدم البيوت مهما كانت الأهداف مختلفة، و لكنما الواقع الذي حصل (هدم البيوت) كان لهم و هنا و للمسلمين قوة و عزا «فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ»:

(و لا يصح الاعتبار إلا لأهل الصفا و البصيرة)

«1».

و من هذا الاعتبار ألا يعتمد الإنسان- أيا كان- على أي من معدات الحياة الدنيا، فليؤمن باللّه، و ليؤمنّ حياته و نجاته بحول اللّه و قوته.

إن الاحتلال و التخريب و عيث الفساد في الأرض، إنها من صفات اليهود السيئة طول تاريخهم البئيس التعيس، تأخذ مثالا منه نعيشه اليوم من سلطات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 233

الاحتلال الإسرائيلي في بلادنا المقدسة الزاهرة الطاهرة، أنهم ما أبقوا من قنطرة و قنيطرة من باقية، حينما احتلموهما، و عند ما ارتحلوا عنها، بلادا كانت من أعمرها، فأصبحت في الدمار لحدّ إذا زرتها ما عرفتها، «فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ»!.

وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ:

إن جلاءهم: تسفيرهم عن أرض الوطن دون رجوع، إنه لون من عذاب الخزي لهم في الدنيا، عذاب نفسي أصعب من العذاب الجسدي أحيانا، فلو لا أن كتبها اللّه عليهم لعذبهم بصور اخرى كما عذب الذين من قبلهم باستئصال، أو سبي، أو اقتتال، كإخوانهم بني قريظة، و لكنما المكتوب لا يحوّل، ثم لهم في الآخرة عذاب النار و بئس القرار.

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ‏:

إن مشاقّة اللّه و هي اعتباره في شق غير شقهم، هي نكران لربوبيته، كما و أن مشاقة الرسول نكران لرسالته، كأنهم آلهة أو رسل! فالعقاب الشديد الناشب إلى الدنيا أيضا، هو لزام المشاقة هذه و تلك.

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى‏ أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ‏:

صحيح أن اللينة: النخلة الناعمة الجيدة- لا ذنب لها لكي تقطع، و لكنها من خلق اللّه، قد تقطع بإذن اللّه، لحكم يعلمها اللّه، استئصالا لأصحابها، «فَبِإِذْنِ اللَّهِ» ليعز المؤمنين، «وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ»، ففي هذا القطع أهداف حكيمة عدة من أبرزها إخزاء الفاسقين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الواو هنا كما في أمثالها تدل على معطوف عليه محذوف، يستفاد من المقام أو لا يستفاد، و من المعطوف عليه هنا إعزاز المؤمنين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 234

فقد قطع المسلمون لينات عدة من اليهود، و أبقوا أخرى‏ «1»، فتحرجت صدورهم من القطع: أنه كان منهيا عندهم لأنه إفساد، و من الترك أنه يتنافى و هدف التدمير و الخراب، فهو تناقض من التصرفات الحربية، هكذا تقوّلوا على المسلمين لما تحرجوا من فعالهم، و لكي يخسأ هؤلاء الكلاب النابحة، و لكي تطمئن قلوب المسلمين، يأتي هذا التصريح هنا: «فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ» فقطعها يخزيهم بالحسرة عليها، و تركها يخزيهم أنهم مضطرون ليتركوها «2»، فهذا من إخزاء اللّه لهم بأيدي المؤمنين.

و من الإيحاءات الفقهية هنا جواز قطع الأشجار و إفساد الثمار، إذا اقتضى الأمر ذلك لصالح غلب المسلمين و عزهم و إذلال الكافرين و خزيهم، و إن كان الأصل الأول عدم السماح في شي‏ء من ذلك، و لكنما عز المؤمن و ذلّ الكافر كذلك هما أصلان أصيلان فوق الأصول من هذا النمط.

ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ:

تتجاوب آية الفي‏ء هذه و آية السعي: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» في أن الأصل في أية فائدة هو السعي و العمل لانتاجها قدره دون فوضى، فما أفاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في التفسير الكبير للرازي 29: 283 روى‏ أن رجلين كانا يقطعان، أحدهما العجوة و الآخر اللون، فسألهما رسول اللّه (ص) فقال: هذا تركتها لرسول اللّه، و قال: هذا قطعتها غيظا للكفار.

(2) في التفسير الكبير للرازي 29: 283 روى انه عليه السلام حين أمر ان يقطع نخلهم و يحرق قالوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل و تحريقها؟ و كان في أنفس المؤمنين من ذلك شي‏ء فنزلت هذه لآية.

و هذا الشي‏ء في الدر المنثور 6: 188- أخرجه الترمذي و حسنه و النسائي و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس في الآية: استنزلوهم من حصونهم و أمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون قد قطعنا بعضا و تركنا بعضا فلنسألن رسول اللّه (ص) هل لنا فيما قطعنا من أجر و هل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل اللّه: «ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ...»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 235

اللّه على رسوله: (الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة، الراجعة إلى حالة محمودة) إنها ليست للذين كانوا مع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإن اللّه هو الذي سلّطه عليهم و عليها «وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ» و أن المؤمنين ما حاربوا في هذه المعركة، و إنما ألقى اللّه في قلوب أعدائهم الرعب فأخذوا يخربون بيوتهم «فما أوجفتم»: أسرعتم «عليه»: الفي‏ء «من خيل»: أفراس «و لا ركاب»:

جمال، فلا نصيب لكم إلا من ذكره اللّه.

فالآية تنبه المسلمين ان هذا الفي‏ء الذي خلّفه بنو النضير وراءهم، لم يركضوا هم عليه خيلا، و لم يسرعوا إليه ركبا، فليس حكمه حكم سائر الغنائم التي لهم أربعة أخماسها و الباقي لمن قررهم اللّه، إنما هو كله للرسول (ص) يصرفه في وجوه وجهه اللّه لها.

و أحرى من قرية بني النضير فدك و هي انتقلت إلى فاطمة الصديقة إما نحلة أو لا أقل إرثا.

ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى‏ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى‏ فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ‏:

ان آية الفي‏ء هذه و آية الأنفال: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» (8: 1) تتجاوبان في ضابطة اقتصادية إسلامية حكومية: أن الأموال غير الخاصة، و التي لم يعمل و لم يسع لها أحد، بأي من صنوف الأعمال، إنها أموال عامة تختص برئيس الدولة الإسلامية يصرفها لصالح المسلمين، دون أن تكون دولة بني الأغنياء منهم، سواء في ذلك الأراضي و الأموال التي ملكت بغير قتال، و الأراضي الموات و الغابات و رؤوس الجبال و بطون الأودية و البحار و الأنهار، و ميراث من لا وارث له و ما شابه ذلك من الثروات العامة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

وسائل الشيعة 6: 365 ج 4- الكافي باسناده عن العبد الصالح موسى بن جعفر (ع) في حديث‏: و له (الإمام) بعد الخمس الأنفال، و الأنفال كل أرض خربة باد أهلها و كل أرض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 236

فالفي‏ء- كما أسلفناه- الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة، الراجعة إلى حالة محمودة، من فاء: رجع محمودا محبورا، و النفل مقابل الفرض، و هو هنا الزائد، زوائد الأموال، و هي التي لم تفرض للأشخاص، إذ لم يفرضها أحد لنفسه بسعي خاص، فالفي‏ء النفل، لا يفي‏ء و يرجع إلا إلى رئيس الدولة الإسلامية ليصرفه في المصالح العامة و الخاصة كما أراه اللّه، و تقرّره و تقرّه شريعة اللّه للحفاظ على الكيان الإسلامي من الانهيار «1».

و فيما إذا سئلنا: إذا كان الفي‏ء و الأنفال واحدا، فلما تختص آية الأنفال أموالها باللّه و الرسول، و آية الفي‏ء تعمها و صنوفا أربعة أخرى؟

و الجواب: أن الرسول إنما له الفي‏ء و الأنفال لأنه رسول، لا كشخص من أشخاص المسلمين، إنما كرسول، و رئيس للدولة الإسلامية، فما كان له بحجة الرسالة و جهتها يصرف في محاويج الإسلام و المسلمين، و منها ما شرحتها آية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب و لكن صالحوا صلحا و أعطوا بأيديهم على غير قتال، و له رؤوس الجبال و بطون الأودية و الآجام و كل أرض ميتة لا رب لها، و له صوافي الملوك ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود، و هو وارث من لا وارث له، يعول من لا حيلة له، و ان اللّه لم يترك شيئا من صنوف الأموال إلا و قد قسمه فأعطى كل ذي حق حقه (إلى أن قال) و الأنفال للوالي، كل أرض فتحت أيام النبي (ص) إلى آخر الأبد، و ما كان افتتاحا بدعوة أهل الجور و أهل العدل، لأن ذمة رسول اللّه (ص) في الأولين و الآخرين ذمة واحدة، لأن رسول اللّه (ص) قال: المسلمون اخوة تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم.

(1). الدر المنثور 6: 192- أخرج احمد و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء اللّه على رسوله مما لم يوجف عليه بخيل و لا ركاب فكانت لرسول اللّه (ص) خاصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنتهم ثم يجعل ما بقي في الكراع و السلاح عدة في سبيل اللّه.

أقول: و مما يدل على وحدة الفي‏ء و النفل ما

رواه الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) انه قال في حديث: الفي‏ء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل، و الأنفال مثل ذلك هو بمنزلته‏ (الوسائل 6: 367 ج 11).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 237

الفي‏ء: «وَ لِذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» كما و أنه يصرف ما للّه في سبيل الدعوة إلى اللّه، و شيئا مما له في تحكيم الرسالة الإسلامية.

فليس «للّه» هنا تعني ان اللّه يملك سدسا من الفي‏ء ملكا ذاتيا، فإن له ملك السماوات و الأرض! و لا ملكا عرضيا بالتمليك أو التملك و حاشاه! إنما تعني أنه يصرف في الإلهيات، كما تعنى «للرسول» أنه يصرف في شؤون الرسالة، سواء في ذلك شؤون الرسول (ص) الخاصة به، أو شؤون رسالته، أو في محاويج أمته، و كما كان يفعل «كما يحب» «1» و يجب.

و من شؤون الرسول ذووا قرابته الملتصقون به، المحرمة عليهم الزكاة و الصدقات فإن لهم حقا مما للرسول، و أقرب القربى هم الأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

«و ذي القربى»: ذي قربى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقط، شريطة الحاجة، فيمن سوى الأئمة من آله، «وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» و علّهم أعم من ذرية الرسول، ثم و لا يشترط في اليتامى و ابن السبيل المسكنة و إلا لاكتفي بالمساكين، و لو اجتمعت عناوين عدة في واحد منهم استحق حقوق العدة، كهاشمي يتيم ابن سبيل، فله حقوق ثلاثة.

و لا يعني ذكر هؤلاء اختصاص الأنفال بهم، إنما هم من المصاديق الأكثرية في استحقاق الأموال العامة، و لذلك لا تذكر آية الأنفال إلا اللّه و الرسول، إيحاء أن للرسول ما يحب و يستصلحه.

و إذا كانت الفي‏ء و الأنفال للّه و للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلاهما في تصرف الرسول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الوسائل 6: 367 عن الإمام الصادق (ع) في حديث: و الأنفال للّه و للرسول فما كان للّه فهو للرسول يضعه حيث يحب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 238

للمصالح المسبقة، ثم إلى الخلفاء المعصومين من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» فما هو مصيرها بعدهم (ع) زمن الغيبة الكبرى إذ لا نبي و لا إمام ظاهرا؟

أقول: إنها للنواب العامين زمن الغيبة، يصرفونها فيما يحق لتعزيز شوكة الإسلام و عيلولة من لا حيلة له‏ «2» و حياطة المسلمين و حيلولتهم عن أعدائهم، فهم ولاة الأمر على الشعوب المسلمة، فليست هي ميراثا أو مالا لهم خاصا، إنما بسبب النبوة أو الإمامة أو الولاية الشرعية، و تجمعها الزعامة الإسلامية «3» فلا يحق لهم صرفها لمصالحهم الخاصة، إلا بقدر ما يصرف لغيرهم من المسلمين، و الأحاديث المحلّلة إياها للمسلمين زمن الغيبة لا تعني الفوضى في تصرفها لمن يشاء كما يشاء، و إنما عن طريق الوالي العام العادل، تقسيما عدلا، دون اختصاص أو زيادة للأغنياء:

كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ‏:

قيل الدولة بالفتح و الضم واحدة، و قيل: الأول لما يتداول من الحال، و الثاني لما يتداول من المال و الجمع دول و دول، و على أية حال فدولة الأغنياء و دولتهم طبقية عارمة ظالمة لا يقرها الإسلام و لا أية شريعة من شرائع اللّه، كما و يندد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك قائلا:

«إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثين صيروا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما هو الشأن في كل ما للرسول و عليه (ص) من تكاليف رسالية، و بذلك استفاضت الأحاديث كما

رواه في الكافي عن الصادق (ع) (فيما يعد من الأنفال) فهو لرسول اللّه (ص) و هو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء (الوسائل 6: 364 ج 1)

و مثله كثير.

(2)

الكافي عن الإمام موسى الكاظم في حديث‏ الأنفال و أهلها: ان اللّه لم يترك شيئا من صنوف الأموال إلا و قد قسمه فأعطى كل ذي حق حقه ... و الأنفال إلى الوالي‏

(المصدر 366).

(3) كما

في الفقيه باسناده عن علي بن راشد قال‏: قلت لأبي الحسن الثالث (ع) أنا نؤتى بالشي‏ء فيقال: هذا كان لأبي جعفر (ع) عندنا فكيف نصنع؟ فقال: ما كان لأبي بسبب الإمامة فهو لي و ما كان غير ذلك فهو ميراث على كتاب اللّه و سنة نبيه (ص)

(المصدر 374).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 239

مال اللّه دولا و كتاب اللّه دغلا و عباده خولا و الفاسقين حزبا و الصالحين حربا»

«1» و الواجب تداول الدولة و الدولة بين الناس كل الناس إلا النسناس، كلّ حسب سعيه و قدره و استحقاقه و قدرته على الإصلاح و الاستصلاح، و كما هو صالح الشعوب المسلمة، و اما أن تتنقل دولة المال و دولة الحال بين الأغنياء، أو الأقوياء ام من ذا؟ فلا! إنها قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الإسلامي اقتصاديا و جماعيا، تمثل جانبا عظيما من أسس الحكم العدل، فرغم ان الملكية الفردية معترف بها فيها، و لكنها محددة بقاعدة عدم اختصاص دولة المال بين الأثرياء، ممنوعة عن الفقراء فكل محاولة و كل حالة تفضي إلى دولة المال بين الأغنياء، او دولة الحال بينهم أو بين الأقوياء، إنها حالة سيئة و محاولة سيئة حسب التنظيم الإسلامي الذي لا يؤصّل إلا أصالة الحق و العدل أينما حل، و من أي حصل.

و بذلك يوحي تحريم التكنيز و إن كان من الأموال الشخصية «وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (9: 34) فدولة المال و تكنيزه و تضخم الثروة، إنها مما لا تتوافق و الروح الإسلامية العادلة الفاضلة.

و بما أن النظام الرأسمالي قائم على دولة المال بين الأثرياء، و على الحكرة و الرباء، و على عدم الإنفاق للبؤساء العجزة المعوزين، فالنظام الاقتصادي الإسلامي منه براء.

و بما أن النظام الشيوعي لا يحترم الملكية الفردية العادلة، و لا يعدل بين السعي و المنتوج تماما، فاقتصاد الإسلام منه براء، طالما كان أشبه به في بنود.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). القمي في تفسيره عن أبيه عن النبي (ص) قال: (نور الثقلين 5: 278). و مثله، في العيون في باب ما كتبه الرضا (ع) للمأمون من محض الإسلام و شرائع الدين، و البرائة ممن نفى الأخيار و شردهم و آوى الطرداء اللعناء و جعل الأموال دولة بين الأغنياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 240

و إنما الإسلام نظام خاص فريد متوازن الجوانب، لا شيوعية و لا رأسمالية مهما تشابهتا معه في جوانب لا محيد عنها في كافة المتخالفات.

فعلى الشعوب المسلمة المحرومة المحطمة المظلومة كفاح صارم ضد دولة الحال و دولة المال على ذوي الاثرة و الكبرياء فيهما، لإيصال كل ذي حق إلى حقه، و لتسود الجماعات المسلمة دولة الإسلام و دولة لصالح الجماهير كلها، و لن تتحقق هذه الدولة الكريمة إلا على ضوء إتباع الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الرسالة الاسلامية بكافة بنودها:

وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ‏:

توحي الآية بأن البعض من المسلمين ما كانوا يرضون بتقسيم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ كان يحرم بعضا و يؤتي بعضا، و كان يزيد بعضا على بعض حسب ما يراه، و كما يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قسم الفي‏ء بين المهاجرين و نفر من الأنصار المحاويج، فاعترضه الباقون و تسائلوه في ذلك، فصدرت ضابطة عامة أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مفوض إليه الأمر في دولة الحكم و دولة المال و كما يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن الأئمة من آله (ع) «1» دون أن تختص الآية بإيتاء المال و النهي عنه، مهما نزلت بهذه المناسبة.

فهذه هي النظرية الدستورية الاسلامية ان أصل القانون من اللّه لا سواه، و تطبيقه من رسول اللّه، لا سواه، خلاف كافة النظريات الدستورية الوضعية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي باسناده إلى الميثمي عن أبي عبد اللّه الصادق (ع): ان اللّه عز و جل أدب رسوله حتى قومه على ما أراد ثم فوض إليه فقال عز ذكره‏ «ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» فما فوضه اللّه إلى رسوله فقد فوضه إلينا.

أقول: و هذا المعنى متواتر عن أئمة آل البيت- راجع تفسير البرهان (4: 314- 316) و نور الثقلين (5: 279- 284).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 241

طول التاريخ، التي تؤصل الأكثرية في سنّ القوانين، أو تحصر حق التقنين برئيس الدولة الذي هو بشر كسائر البشر يخطأ و يسهو و يجهل و يميل.

نحتج بهذه الآية فيما نحتج لحجية سنة الرسول قولا و عملا و تقريرا، أنها من سنة اللّه، و ان ما سنه ليس إلا بما أراه اللّه.

ثم تختم الآية بذيل يربط هاتين القاعدتين الرئيسيتين بتقوى اللّه: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ»: تقوى في دولة المال و دولة الحال، فلله الدول على أية حال، يؤتيها من يشاء و يمنعها عمن يشاء، فدولة المال عامة لجميع الشعوب حسب الحقوق و المساعي بما قررها اللّه، و دولة الحال و هي الحكم بين الناس، إنها للّه و لرسل اللّه الحاملين المبلغين رسالات اللّه، و لا يخشون أحدا إلا اللّه و كفى باللّه حسيبا.

ثم آية الأنفال تختصها باللّه و الرسول، و آية الفي‏ء تعمهما و الأربعة الباقية، ثم الآية التالية تختص بالذكر الفقراء المهاجرين ... مما يوحي بتفويض الرسول في الفي‏ء و الأنفال، و أن النسب ليس شرطا أصيلا في استحقاقها:

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ‏:

«للفقراء» علّه بدل عن‏ «الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» كما اللام توحي بذلك‏ «فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى‏ ...»: و للفقراء مهما كانوا من يتامى الهاشميين و مساكينهم و أبناء سبيلهم، أم من المهاجرين و الأنصار، كما يروى أن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قسم في‏ء بني النضير بين المهاجرين و ثلاثة من فقراء الأنصار، مما يبرهن على عدم اختصاص الفي‏ء بالهاشميين، و للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أولي الأمر فيه الخيرة.

«لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ» الذين هاجروا أرض الوطن في سبيل اللّه‏ «الَّذِينَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 242

أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ»: من وظائفهم و أشغالهم و مصالحهم و أموالهم، تركوها كلها حفاظا على شريعة اللّه بدافع الإيمان باللّه‏ «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً» لا يبتغون من غيره جزاء و لا شكورا، و إنما «فَضْلًا مِنَ اللَّهِ» أن يعيد إليهم مسكة الحياة الدنيوية، «وَ رِضْواناً» و هو الأصل فيما يبتغون، «وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ» بقلوبهم و سيوفهم في أحرج الحالات، لا ملجأ لهم سواه، و لا جناب لهم إلا حماه‏ «وَ رَسُولَهُ» حيث يتبعونه فيما يفعل أو يقول، دون تحرّج مما قضى‏ «أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» في إيمانهم دون شائبة و لا عائبة.

فهؤلاء الكرام لهم نصيب من الفي‏ء، للفقر و الإيمان و الجهاد، و هم أفضل من يستحقون الفي‏ء، و كذلك من بوّء لهم دار الهجرة، بواء المكانة و المكان قبل أن يهاجروا:

وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ‏:

«وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ»: دار الهجرة، المدينة المنورة، فإنها من أسمائها العشرة كما يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» «وَ الْإِيمانَ» تبوّءا لهما على سواء، فكما يطمئن الإنسان إلى داره، اطمأن هؤلاء الأماجد إلى إيمانهم الرصين الحصين و استوطنوه، و طنا أليفا أمينا للروح، كما الدار مأمن للجسم.

فالتبوّء من البواء: مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النبوة و هي منافاة الأجزاء، فالتبوّء هو التكلف في البواء للراحة و الطمأنينة، سواء أ كان بواء في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 195- أخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن زيد بن أسلم قال قال رسول اللّه (ص): (للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة و هي طيبة و طابة و مسكينة و جابرة و مجبورة و تبدد و يثرب و الدار).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 243

المكان و الدار، أو المكانة و الإيمان، ف (الإيمان بعضه من بعض و هو دار، و كذلك الإسلام دار و الكفر دار كما في الصادقي عليهم السلام‏ «1».

فهؤلاء الأنصار تبوّءوا مكانا يناسب الإيمان، عمّروهما و تهيئوا لاستقبال الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المهاجرين فيها، مكانا تتساوى أجزاؤه لهم و للوافدين المهاجرين، و هذه هي التبوئة الحقيقية العادلة، فإن المهاجرين المضطهدين كانوا بحاجة إلى هكذا بواء الذي فيه كل رواع قلبا و قالبا، بعد ما اضطهدوا و لاقوا ما لاقوا من الأذى طيلة المقام بمكة، فإن أهلها كانوا يدمرون الدار و الإيمان، فهاجروا إلى من يعمرون الدار و الإيمان، لهم و لمن سواهم سواء، يملكهم الحب في اللّه و يملكونه (و هل الدين إلا الحب؟) «2».

«يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ» حبا لهم و استقبالا عديم النظير في التأريخ، فقد كانوا يتسابقون إلى إيوائهم، و احتمال إعبائهم، لحدّ كان المهاجرون يقترعون لأنفسهم لدور الأنصار، إذ كانت مفتحة لهم الأبواب أكثر من الحاجة «وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا» هم، مهما كانوا محاويج في متطلبات عيشتهم، و لا سيما مع الضيوف: الواردين، و لكن نفوسهم الأبيّة، و صدورهم المنشرحة، لم تكن توجد فيها حاجة مما أوتوا من بلغة العيش رغم حاجتهم المدقعة اليه، و لا حاجة مما أوتي المهاجرون من الفي‏ء، بل‏ «وَ يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ» الفقراء المهاجرين‏ «وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ»: حاجة مدقعة، و الخصاصة في الأصل هي الفرجة، و هم لم يكن لهم ما يسدّ فرج الحياة، و رغم ذلك، و مع حياتهم المعيشية المختلفة، هؤلاء الأنصار المحاويج آثروا المهاجرين على أنفسهم مرتين: فيما أوتوا من الفي‏ء، و في أموالهم الخاصة، تشجيعا لجنود الهجرة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكافي بإسناده الى أبي عبد اللّه الصادق (ع) في حديث طويل يقول فيه: ...

(2)

محاسن البرقي بإسناده الى باقر العلوم (ع) في حديث: (الدين هو الحب و الحب هو الدين)

يعني الحب في اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 244

و ترغيبا للتضحية في سبيل اللّه، و الإيثار على النفس، رغم شحّها أو حاجتها، إنه القمة العليا من الإنفاق، و قد بلغها الأنصار في تلك الظروف الصعبة الملتوية، و كم من بون بينهم و بين من يؤثرون الحياة الدنيا و هم أغنياء: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» (87: 16).

و لقد

قال النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للأنصار: (إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم و أموالكم و قسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم، و إن شئتم كان لهم الغنيمة و لكم دياركم و أموالكم، فقالوا: لا، بل نقسم لهم من ديارنا و أموالنا و لا نشاركهم في الغنيمة، فأنزل اللّه‏ «وَ يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ».

و هذه الآية تعمّ جميع الذين يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة، إلى يوم الدين، دون اختصاص بمن نزلت في شأنهم من الأنصار و سواهم كما في أسباب التنزيل‏ «1».

«وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ»: بخل نفسه و تضيّقها «فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» فإن شح النفس، و هو الحالة الرديئة التي تبخل الإنسان في العطاء و تحرصه فيما بأيدي الناس‏ «2»، إنه من اصول موانع الفلاح، فواقعه يفلج و زواله يفلح، و داؤه العضال حاضر الأنفس: «وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» (4: 128)، و حاضر الداء هو دوما حاضر البلاء، إلا لمن توقى فوقاه اللّه‏ «وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

و حينما يمدح اللّه تعالى من يوق شحّ نفسه، بوقاية صاحبها و تأييد اللّه، يندد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير الكبير للرازي ج 29: 287، عن ابن عباس.

(2) من لا يحضره الفقيه روى الفضل بن أبي قرة السمندي انه قال: قال لي ابو عبد اللّه أ تدري من الشحيح؟ قلت: هو البخيل، فقال: الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده و الشحيح يشح بما في أيدي الناس و على ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئا إلا تمنى أن يكون له بالحل و الحرام، و لا يقنع بما رزقه اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 245

بمن لا يوق، فهو شحيح على المؤمنين و على الخير أينما حلّ و ارتحل: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى‏ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» (33: 19).

و كما أن لشحّ النفس دركات، كذلك لوقايته درجات، منها ألا تشح عن أداء الواجبات من زكاة و سواها، و كما عن علي عليه السلام‏ «1»، كما و أن منها ألا تشح عن المندوبات كقري الضيف كما

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (ثلاث من كنّ فيه فقد برى‏ء من الشح: من أدى زكاة ماله و قرى الضيف و أعطى في النوائب)

«2»، و كلمة الفصل عن الشح بصيغة شاملة

قول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (ما محق الإسلام محق الشحّ شي‏ء قط)

«3»، و

(شر ما في الرجل شح هالع و جبن خالع)

«4»، و إلى غير ذلك من كلماته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول خطورة الشح‏ «5».

و حدّ الإيثار أن يتجاوز نصف ما عنده، فالنصف سواء و ليس إيثارا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 196- أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب (ع) قال‏: من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه.

(2) المصدر- أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد اللّه: سمعت رسول اللّه (ص) يقول: ...

(3) المصدر- أخرجه الحكيم الترمذي و أبو يعلى و ابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللّه (ص): ...

و في من لا يحضره الفقيه: ثم قال (ص): (إن لهذا الشح دبيبا كدبيب النمل و شعبا كشعب الشرك).

(4) المصدر- أخرجه ابن أبي شيبة و أبو داود و ابن مردويه و البيهقي عن أبي هريرة عن النبي (ص).

(5) كما

في المصدر أخرج أحمد و البخاري في الأدب و مسلم و البيهقي عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه (ص) قال‏: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، و اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم و استحلوا محارمهم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 246

فضلا عما دون النصف، و كما في الصادقي عليه السلام‏ «1» و أرقى الإيثار ما فعله من‏ «يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً» كما شرحناه في سورة الإنسان.

و لا يعني الإيثار أن يترك الإنسان نفسه و عياله جياعا عراة، فإن ذلك تهلكة و ليس إيثارا، و كما

في الصادقي عليه السّلام نقلا عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان و هو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه و عياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل اللّه و هو أحسنها أجرا)

، و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للأنصاري‏، حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق و لم يكن يملك غيرهم و له أولاد صغار: (لو أعلمتموني أمره ما تركتم تدفنوه مع المسلمين بترك صبية صغار يتكففون الناس)

«2».

أجل، و كما قال اللّه: «وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً» (25: 67).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي عن ابان بن تغلب عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏: سألته فقلت: اخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ فقال: يا ابان! دعه لا ترده، قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أرد عليه، فقال: يا ابان! تقاسمه شطر مالك، ثم نظر إلي فرأى ما دخلني، فقال: يا ابان! أما تعلم أن اللّه عز و جل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟ قلت: بلى جعلت فداك، فقال: أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت و هو سواء، إنما تؤثره إذا أعطيته من النصف.

و فيه أيضا عنه (ع) عن الرجل ليس عنده إلا قوت يومه أ يعطف من عنده قوت يومه على من ليس عنده شي‏ء، و يعطف من عنده قوت شهر على من دونه؟ و السنة على نحو ذلك؟ أم ذلك كله الكفاف الذي لا يلام عليه؟ فقال: هو أمران أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبة و الاثرة على نفسه، فإن اللّه عز و جل يقول: «يُؤْثِرُونَ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ»، و الأمر الآخر لا يلام على الكفاف، و اليد العليا خير من اليد السفلى، و ابدأ بمن تعول.

(2) علي بن ابراهيم القمي عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة في حديث طويل عن أبي عبد اللّه الصادق (ع) يشرح فيه حدود الإيثار و الإقتار (نور الثقلين 5: 288).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 247

هؤلاء المهاجرون و الأنصار الذين مدحهم اللّه على سواء، و أشركهم في قسمة الفي‏ء و الأنفال، فهل إن هذا و ذاك يختصهم؟ كلا! بل:

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ‏:

هذه الآية تلقي ضوءا عاما لجميع هؤلاء الذين حياتهم حياة المهاجرة و النصرة في سبيل اللّه و المحبة و الإيثار في اللّه، من كانوا و أيا كانوا و أينما كانوا، فإنما الأصل الأول و الأخير هو الإيمان و العمل الصالح، دون اختصاص بسابق أو لاحق، و إن كان للسابقين- بما هم حجر الأساس- لهم فضلهم، و لكنما السبقة و السباق في الإيمان أيضا قد يحصلان بعد البداية، أو كأفضل منها أحيانا، و في ظروف أشد خطورة، و أجواء أظلم و أطغى.

«وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ»: من بعد المهاجرين و الأنصار الأولين، جاءوا للإيمان كما هم، أم جاءوا إلى الوجود و نشؤا في جو الإيمان، بعدية كونية أم كيانية يجمعهما أنهم مؤمنون، و هذا عطف على الفقراء المهاجرين، يعطفهم على‏ «ذَوِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ» للعطف بهم في تقسيم الفي‏ء و الأنفال، مما يدل على شمول الفي‏ء لكافة المؤمنين الفقراء، و إن كان بنو هاشم أولى إذا ساووهم في الإيمان أو سابقوهم.

فهذه صورة ثالثة و وضيئة عن المؤمن الحقيقي، تطمئنه أنه لو حرم الهجرة و النصرة الاولى، و لكنه لا يحرمهما بعدهما، فلتكن حياة المؤمن حياة الهجرة و النصرة في اللّه دون أن يخاف أحدا إلا اللّه.

هؤلاء تشبه حالهم مقالهم: «يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ»: سبق الزمان أو سبق الإيمان في درجاته، فهم مهما انفصلوا عن إخوانهم المؤمنين، الأنصار و المهاجرين، زمانا و مكانا، و لكنهم لا ينفصلون عنهم أخوّة و إيمانا، فقد تتجلى فيهم الاصرة الباهرة التي تربط هذه الامة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 248

بعضها ببعض، و التي تتخطى الزمان و المكان، و كل ما سوى الإيمان، فلا يحبون لأنفسهم و يطلبون، إلا و يطلبونه و يحبونه لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان، و ليس تقديم أنفسهم في الدعاء إلا تبوءا لها لكي تستجاب دعوتهم لإخوانهم، و من ثم لأنفسهم، و هذا لون من ألوان الإيثار، بالنسبة لمن سبقوهم أحياء و أمواتا.

«وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا»: الغلّ هو العداوة و الضّغن من الغلّ: القيد، فكما الغل قيد للأجسام، كذلك الغل قيد للصدور و الأرواح، يجعلها ضيّقة ضنكا ضغينة، فاللّه تعالى ينزع الغل من صدور من ينتزعه بسعيه:

«وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ» (7: 43) «... إِخْواناً عَلى‏ سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ» (15: 47)، كما و أنه يجعل فيها الغل لمن يغلّ، فيذره في غلّه يعمه، و في طغيانه يتردد، فالمؤمنون العاملون لانتزاع الغلّ عن صدورهم يلتمسون من اللّه تعالى أن يعينهم لزوال الغل، إذ كلّ سعيهم و قلّت حيلتهم في تواتر الأغلال‏ «رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ».

[سورة الحشر (59): الآيات 11 الى 24]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (13) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (15)

كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (16) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (17) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (19) لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (20)

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 250

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ‏:

«الَّذِينَ نافَقُوا» من المسلمين المستسلمين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم، هؤلاء يقولون لإخوانهم في الكفر: يهود بني النضير، فليست الأخوّة في الدم و القرابة فحسب، فالأعمق منها هي الأخوة في العقيدة، فكما أن المؤمنين إخوة فيها، كذلك الكافرون إخوة في الكفر، مهما اختلفت أواصر القرابة و العنصرية و اللغة و ما شابهها هنا و هناك.

إن الأخوة على ألوان يجمعها الوجه المشترك بين جماعة، يربطهم برباط واحد كجامع الوطن، إذ آخى بين عاد و هود (7: 65) و صالح و ثمود (7: 73) و مدين و شعيب (7: 85) و لوط و سدوم (50: 13) مهما تناقضوا في العقيدة أو تباعدوا في النسب.

و جامع النسب كما هو ظاهر، و جامع الإيمان: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (49: 10) و جامع الكفر: «وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ» (7: 202) و هذه الآية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 251

«يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ»: بني النضير، لما قرر إخراجهم من قريتهم لما خانوا و نقضوا عهدهم‏ «لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ» إيحاء لهم بشدة رباط الاخوة بينهم لحدّ: «وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً» حتى الرسول الذي آمنا به بألسنتنا، فقد نجاهره بالخلاف لصالحكم، و إيحاء ثان هو أشد و آكد: «وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ» بالنفس و النفيس، فقلوبنا معكم، و أسيافنا لكم، و لكن اللّه يفضحهم أن نفاقهم مزدوج، ينافقون إخوانهم كما نافقوا المسلمين‏ «وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» و هذه الشهادة أصبحت ملموسة لبني النضير عن نفاق مدروس من إخوانهم المنافقين.

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ‏:

فقد كان لا بدّ للمنافقين أن يفوا لإخوانهم بوعدهم في هذا الثالوث المنحوس:

فيخرجوا معهم إن أخرجوا، و ينصرونهم إن قوتلوا، و لا يوّلوا الأدبار إن نصروهم، تطبيقا لوعدهم، أو ليكذبوا نبأ القرآن عنهم، و لكنهم ما فعلوا من ذلك شيئا، و كيف بالإمكان تكذيب القرآن رغم واقع الإختيار لهؤلاء الذين يتربصون بالإسلام الدوائر، و لكن عليهم دائرة السوء و كلمة اللّه هي العليا، فلقد وقع ما نبّئ النبي من كيد المنافقين، كما وقع مئات و مئات من هذه الأنباء الغيبية، التي هي حجج دامغة على الناكرين.

إنهم يجمعهم: ألا عزم لهم و لا حزم إذ لا مولى لهم عليه يعتمدون، فهم يرهبونكم و لا يرهبون اللّه، رغم حصونهم بعدتهم و عدتهم:

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ‏:

هؤلاء الإخوة في الكفر يرهبونكم و لا يرهبون اللّه كرهبتكم أنتم عبيده! و «ذلك»: هذا البعيد البعيد من الحالة النفسية الرديئة «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ»:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 252

الحقائق فيثبتوا لها، فلم يعرفوا اللّه حتى يهابوه حق مهابته، و لم يعرفوكم حتى لا يهابوكم‏

«و من خاف اللّه أخاف اللّه منه كل شي‏ء و من لم يخف اللّه أخافه اللّه من كل شي‏ء»

«1» أجل و إن المرتبط إيمانيا بمصدر القدرة و الجبروت يرهب منه كما يرهب من اللّه! و لا يجتمع في قلب خوف من اللّه و خوف من شي‏ء سواه، إذ لا إله إلا اللّه، و لكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد اللّه أشد مما يخافون اللّه، أو لا يخافونه أبدا، و لذلك تراهم يخالفون و عودهم لإخوانهم رهبة منكم.

لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ‏:

و من رهبتهم إياكم أن «لا يقاتلونكم»: الكافرون و المنافقون سواء بنو النضير و إخوانهم أم نظرائهم «جميعا»: حال أنكم جميع في قلوبكم، جميع في اتجاهاتكم، و جميع في دفاعكم و هجماتكم في سبيل اللّه بدافع‏ «إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ» كذلك‏ «لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً»: و هم جميع بكافة صنوفهم، تجمعوا على قتالكم أو تفرقوا، «إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ» فلا يتكلون إلا على العدة و العدة، إذ لا ايمان لهم به يثبتون، و لا مولى لهم عليه يتوكلون، فهم يقاتلونكم متكلين على هذه المعدات الحربية، و أما في غير حصار و لا جدر فهم يهربون و يتساقطون رهبة منكم و خوفا، و كما نلمس هذه الحالة البئيسة من الكفار طوال التاريخ، نلمسها في حروبهم مع المؤمنين الحقيقيين، مهما كانوا قلة و أولئك كثرة «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ» و فيما نرى غلب الكافرين على المؤمنين، نجده من تفرق المؤمنين و ابتعادهم عن مبدئهم، كما يشهد بذلك التاريخ.

تشهد الاشتباكات المتواصلة بين الفدائيين و الصهاينة بصدق هذه الملحمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 253

القرآنية، فما يقاتلون إلا بتحصنات و معدات حربية، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولّوا الأدبار كالجرذان، و من ثم لم تكن نكسات المسلمين العرب إلا قدر انتكاساتهم عن الروح الايمانية و تفرقهم بينهم.

«بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ»: قوتهم فيما بينهم شديد، كما أن: بؤسهم بينهم شديد «1» و من بؤسهم في بأسهم: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى» فمظاهرهم تخدع إذ نراهم كأنهم متضامنون، و في معسكرات قوية متوحدة، و لكنما الواقع خلاف الظاهر فإن‏ «قُلُوبُهُمْ شَتَّى» لتشتت أهوائهم و أهدافهم، فهم يقاتلون ما ظنوا أنهم يقتلون و يحتلون، فإذا ظنوا أنهم يغلبون أو يقتلون يولون الأدبار ثم لا ينصرون خلاف المؤمنين الحقيقيين الذين هم جميع في قلوبهم، فإنهم يرونهم منتصرين، قاتلين و مقتولين فلا يوّلون.

فمهما انتصر الكفار في حربهم مع المؤمنين، لم يكن ذلك إلا لتشابههم في قلوب شتى، فتغلب من تزيد عدته و عدّته، و إنما يظهر حق هذا النبأ القرآني فيما قلّت عدة المؤمنين و عدتهم، أو تساوت مع الكافرين، فانتصر المؤمنون، كما في معارك عدّة، و يعاكسه عكس الأمر أحيانا، فيما كانت القلتان بجانب الكفار دون المسلمين فانتصر الكفار، فليس إلا بتماسكهم بها اكثر من المسلمين- رغم شتاتهم جميعا- كما في الحروب الإسرائيلية الأخيرة، اللهم إلا حرب رمضان، إلا لمن رفضها عن دوامها حتى النصر.

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ»: فتشتت قلوب العساكر هو الحماقة الكبرى، و عدم الاكتراس بالطاقات المعنوية مع العناية بالمعدات الحربية، من عدم العقل.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏.

مثل هؤلاء الحماقى كمثل من قبلهم كالمشركين يوم بدر، و كبني قينقاع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بأسهم: على أنفسهم هو بؤسهم و على غيرهم هو قوتهم، فالمعنيان هما هنا معنيان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 254

و أضرابهم من الخونة الناقضين عهودهم مع المسلمين، فقد كانت وقعة بني قينقاع قريبة من وقعة بني النضير بين بدر و أحد، إذ حقدوا على المسلمين لما انتصروا في بدر، إذ خافوا أن يؤثر على موقعهم في المدينة بزوال معنوياتهم و جاههم، فبلغ الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحسّسهم و تهامسهم ضده، فحذرهم من ذلك فاستكبروا قائلين:

إنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب؟ و اللّه لئن حاربناك لتعلم أنا نحن الناس! فأخذوا يتهرجون متحرشين بالمسلمين حتى جردوا امرأة مسلمة عن ملابسها في سوقهم، فاندلع الحرب بينهم و بين المسلمين و حاصرهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى استسلموا و عرفوا من هم الناس و من هم النسناس! و كان ما كان من خداع المنافقين معهم نظير بني النضير، فأجلاهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن المدينة، على أن يأخذوا أموالهم إلا أسلحتهم، فانجلوا إلى الشام‏ «ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ» في الاولى‏ «وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الاخرى، هؤلاء الكفار مع إخوانهم المنافقين.

و مثل عام شامل عن عمليات المنافقين الخادعة اللئيمة المشئومة:

كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ. فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ‏:

مثل حزب الشيطان هؤلاء، المضلّلون و المضلّلون، كمثل زعيمهم الأول، دائبا في تضليلهم، آئبا عنهم أخيرا، متبرئا منهم، و كما فعل بالمشركين يوم بدر: «وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ. إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ» (8: 49).

و هذا هو دأبه الدائب: يعد و يخلف، نفاقا عارما يعيشه، و عجب من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 255

هؤلاء الذين يتبعون خطواته و هم يبصرون، و كما فعل بالمنافقين يوم بدر، و ببني النضير، و كم لهما من نظير.

«كَمَثَلِ الشَّيْطانِ»: شيطان الجن و الإنس بنوعيهما «إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ»:

نوع الإنسان، يأمره بالكفر بما يزين له و يزخرف فيتبعه من عميت بصيرته و ضلت سيرته، يعده في كفره ألوان الوعود الحلوة «فَلَمَّا كَفَرَ» و حصل ما أراد منه نكص على عقبيه و «قالَ إِنِّي بَرِي‏ءٌ مِنْكَ» كأنه أشطن منه و ألعن و هو يتقي اللّه: «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ» فقد يكذّب في قولته: «إِنِّي أَخافُ» كما في أكثر الأحايين، و قد يصدّق كما في بدر إذ رأى الملائكة النازلين لتعزيز المؤمنين قائلا: «إِنِّي أَرى‏ ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ»:

«إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ» (8: 12).

«فَكانَ عاقِبَتَهُما»: الشيطان المضلّل، و الإنسان المضلّل‏ «أَنَّهُما فِي النَّارِ» ابتداء من دار الفرار إذ عاشوا في نار التضليلات، و إلى دار القرار «خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ»: ظلم التضليل و ظلم التضلّل، مهما اختلفا في مداه، فإنهما ائتلفا في معناه.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ‏:

إن عقائد التقوى و أعمال التقوى لبنات لتبني شخصية الإنسان للحياتين، فلتنظر نفس إنسانية ما قدمت من صالحات أو طالحات لغد، تقوى تتبنى حياته الطيبة، أو طغوى تتبناها مرذولة نجسة، تهدم صرح إنسانيته، فلتنظر لتقدم ما يقدمه دون تأخير، و تنكير «نفس» يوحي بقلة المراقبين لأحوالهم و أعمالهم كما هو الواقع- و بين المتقين أيضا- فالمعروف الساري بين الناس عدم المراقبة، و الإهمال بشأن «غد»، لذلك فلتزوّد نفس التقوى العقائدي و العملي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 256

بتقوى النظرة و الرقابة لما تقدمه نفسه. فواجب الإنسان أن يقدم كل يوم لغده، و كل غد لما بعده، فيتخطى- هكذا- حياته الدنيا، إلى غد الاخرى، متبنيا صرح الحياتين دائبا «فمن ساوى يوماه فهو مغبون» مقدما من كل يوم لغده هنا، و من أيام الدنيا جميعا لغد الآخرة، سلسلة تقدمية من حياة التقوى ليعيش مع اللّه حياته كلها، و علّ تثنية التقوى في الآية بدء و ختما، توحي بمفعول التقوى لغد الدنيا و غد الآخرة مهما كانت الاخرى هي الأحرى‏ «1»، و تشيران كذلك إلى تقوى العمل و تقوى المراقبة و المحاسبة كما و ان تنكير «غد» يوحي بعدم اختصاصه بغد الآخرة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فبالنسبة لغد الآخرة

يروى عن رسول اللّه (ص) قوله‏: «تصدقوا و لو بصاع من تمر، و لو ببعض صاع، و لو بقبضة، و لو ببعض قبضة، و لو بتمرة، و لو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن أحدكم لاقى اللّه فيقال له: ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أجعلك سميعا بصيرا؟

ألم أجعل لك مالا و ولدا؟ فيقول: بلى، فيقول اللّه تبارك و تعالى: فانظر ما قدمت لنفسك، قال: فينظر قدامه و خلفه و عن يمينه و عن شماله فلا يجد شيئا يقي به وجهه من النار (نور الثقلين 5: 292) عن اصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد اللّه (ع) قال: قال رسول اللّه (ص)

: و في الدر المنثور 6: 201- أخرج ابن أبي شيبة و مسلم و النسائي و ابن ماجة و ابن مردويه عن جرير قال: كنت جالسا عند رسول اللّه (ص) فأتاه قوم مجتابي النمار متقلدي السيوف، ليس عليهم أزر و لا شي‏ء غيرها، عامتهم من مضر، فلما رأى النبي (ص) الذي بهم من الجهد و العرى و الجوع تغير وجه رسول اللّه (ص) ثم قام فدخل بيته، ثم راح إلى المسجد فصلى الظهر، ثم صعد منبره فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: أما بعد ذلكم فإن اللّه أنزل في كتابه:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ‏- إلى قوله- الْفائِزُونَ» تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدقوا قبل أن يحال بينكم و بين الصدقة، تصدق امرؤ من دينار، تصدق امرؤ من درهمه، تصدق امرؤ من بره من شعيرة من تمره، لا يحقرن شي‏ء من الصدقة و لو بشق التمرة، فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه فناولها رسول اللّه (ص) و هو على منبره فعرف السرور في وجهه فقال: من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها و مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا، و من سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه و زرها و مثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا فقام الناس فتفرقوا فمن ذي دينار و من ذي درهم و من ذي طعام و من ذي و من ذي فاجتمع فقسمه بينهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 257

فواجب النظر إلى ما تقدمه أن يكون عميقا أنيقا، من نظر البصر و البصيرة نظر العقل و الفطرة و السريرة، على ضوء الشريعة الإلهية، دون أن تتخطاها إلى ميول الهوى، و العقل المتحلل عن وحي السماء، و هذه هي المراقبة التي أمرنا بها لكي لا نخسر الحياة «1»، فرب غفلة و غفوة يسيرة تخسرك كثيرا، و توكل على اللّه ليكون لك نصيرا «أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ‏:

«نَسُوا اللَّهَ»: نسيان الفطرة بما حجبت و درنت، فألحدوا في اللّه، أو أشركوا به، أو نسيانا في عقولهم و فكرهم فشكّوا فيه رغم يقظة الفطرة، أو نسيانا لعهده ألا يعبدوا الشيطان و لا يطيعوه و يغتروا به: «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» (20: 115)، أو نسيانا للقائه: «فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا» (7: 51)، أو نسيانا لذكره: «وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً» (25: 18) عصيانات بنسيانات تجمعها نسيان اللّه عقائديا و فكريا و عمليا، ثالوث منحوس يخلف الفسق و البوار، مهما كانت دركات عدة: من خلاف الاولى و الفسق و الكفر و الإلحاد، كما أن ذكر اللّه درجات، من الإسلام و الإيمان و العصمة الإلهية.

و من عقبات و عقوبات نسيان اللّه أن ينسيهم أنفسهم،

(من عرف نفسه فقد عرف ربه)

كما أن من ذكر نفسه كما هي، ذكر ربه، بما في النفس من آيات ربوبيته و ملزمات عبوديته، فمن ينسى ربه ينسيه ربّه نفسه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن النبي (ص): حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا قبل أن توزنوا و تجهزوا للعرض الأكبر.

و في الكافي بإسناده إلى أبي الحسن الماضي (ع) قال‏: ليس منا من لم يحالب نفسه في كل يوم فإن عمل حسنا ازداد شكرا و ان عمل سيئا استغفر الله و تاب إليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 258

«فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ» فلما نسي نفسه فسق عما يحق له و عليه، و خرج عن طوره: «أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» ينسيهم أنفسهم بما نسوه فنسيهم: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ» (9: 67).

و ليس نسيان اللّه لمن ينساه أن يجهلهم أو يغفل عنهم، و إنما أن يعاملهم معاملة الناسي لرعيته فيذرهم في طغيانهم يعمهون و في غيّهم يترددون، و يكلهم إلى أنفسهم، فهم إلى بوار يتردّون، و إلى شر دار ينهارون، و هذا هو اسّ البلاء الذي يخافه حتى‏

الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا: (ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا).

إن البليّة كلها، و الرزيّة كلها أن يجهل الإنسان نفسه و ينساها، فيحسب فقره غنى، و جهله علما، و تعلقه باللّه استقلالا بجنب اللّه، إذ نسي أنه فقير الذات و الصفات و الأفعال إلى اللّه، فهو يطغى أن رآه استغنى! و هذا هو الفسق المطلق: الخروج عن الطاعة، لما أخطأ نفسه فخرج عن طوره.

لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ‏:

أصحاب النار هم الناسون اللّه فالناسون أنفسهم، و أصحاب الجنة هم الذاكرون اللّه فالذاكرون أنفسهم، نار النسيان و جنة الذكر، فهل تستويان، و إنما الفائزون: الظافرون بالخير مع حصول السلامة، هم الذاكرون، فذكر اللّه جنّة عن النار، فجنّة و نعم القرار: «فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ» (3: 185) و نسيانه نار و بئس القرار.

ليس بين الفريقين المتفارقين مفرق طريق و لا أنصاف حلول، لا يلتقيان في أي مفرق و لا أية سمة أو خطة أو سياسة، في أي من عوالم الوجود! لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ‏:

«لو» توحي باستحالة مدخوله حيث الجبل ما دام جبلا ليس ليعى القرآن،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 259

فلو كان يعي القرآن و يعرف البيان لخشع في سماعه قلبا و قالبا، و لتصدّع من عظم شأنه على غلظ أجرامه و خشونة أكنانه‏ «1»، فالإنسان الواعي أحق بذلك و أحرى، إذ كان واعيا لقوارعه، عارفا ببوارعه، عالما بصوادعه، فيا للإنسان غير الخاشع و لا المتصدع من قلب قاس دون حراس و لا اكتراس:

«ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (2: 74) فما أعجب و أخرى حال أهل المشاقة و العناد، و ما أكثرهم من عتاد، لا تلين قلوبهم لذكر اللّه، فلا يخشون و لا يخشعون! «فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ» (39: 23) فالذين يحسون و يلمسون شيئا من مس القرآن في كيانهم، هؤلاء يتذوقون تلك الحقيقة المشعة التي لا يعبر عنها إلا هذا النص القرآني المجيد، فإن لهذا القرآن سلطانا على القلوب غير المقلوبة، لا تثبت له إلا أن تتفتت و تهتز هزات و تحوّلات لا قبل لها، يحوّلها عن قلب التراب إلى مجلى أسماء و صفات رب الأرباب، تخلية لها عما سواه، فتجلية باللّه، «وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» فيتذكرون بها لما يتوجب عليهم أن يكونوا و جاه هذا القرآن.

إن هذا القرآن شفاء للقلوب و للقوالب أيضا و كما

يروى عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن جبرئيل لما نزل بها قال لي ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السأم و السأم الموت»

«2» و من أشفى الشفاء لما في الصدور الآيات التي تحمل التعريف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالفرق بين الخشوع و الخشية ان الأول للقوالب و الثاني للقلوب، فلو كانت للجبال قلوب كما للإنسان لخشعت و خشيت.

(2)

الدر المنثور 6: 201- اخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال أنبأنا أبو نعيم الحافظ أنبأنا أبو الطيب محمد بن احمد بن يوسف أنبأنا إدريس بن عبد الكريم الحداد بإسناد عن النبي (ص):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 260

باللّه و توصيفه و تعديد أسماءه الحسنى:

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ‏:

فإنها و الآيتين بعدها تسبيحات مديدات بصفات مجيدة عديدة تمثل صفاته العليا كلها، و كما يختمها بايحاء عام لها: «لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏».

«هُوَ اللَّهُ» هو: الذات الغائبة من كافة الجهات، محجوبة لأبعد أغوار الحجب، لا يرجى ظهورها لا للبصائر و لا الأبصار في أيّ من عوالم الوجود، ف «هو» هو الاسم الأعظم المحجوب، كما «اللّه» هو الاسم الأعظم الظاهر «1».

«لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» في أيّ من ذات الالوهية و صفاتها و متطلباتها أجمع، تذكر منها هنا ثلاث: «عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ»: كل غيب لنا و شهادة عندنا، يعلمه علما يعتبر الكل بالنسبة له شهادة، فإنما الغيب و الشهادة، بالنسبة لمن يجهل بعضا و يعلم بعضا، و أما الذي لا يعزب عن علمه شي‏ء فلا غيب عن علمه، فالكل له شهادة، يشهد الغيب الكائن، و الذي لم يكن بعد فإنه من أغيب الغيب لحدّ كأنه الغيب فقط «2». و علّه لأن الغيب الكائن هو في مظان الشهود بعضا للبعض من أهل الشهود، و لكنما الغيب الغيب: غير الكائن، مختص باللّه، و إن كان يظهر على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و في كتاب طب الأئمة بإسناده إلى عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (ع) قال: يا ابن سنان! لا بأس بالرقية و العوذة و النشرة إذا كانت من القرآن و من لم يشفه القرآن فلا شفاه اللّه و هل شي‏ء أبلغ في هذه الأشياء من القرآن! أليس اللّه تعالى يقول جل ذكره: «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ ...».

و

بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر (ع) ان رجلا شكا إليه صمما فقال: امسح يدك عليها و اقرأ عليها: «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ‏ ... هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ... إلى آخر الحشر».

و بإسناده إلى جابر بن يزيد الجعفي عنه (ع) قال لي يا جابر! اقرأ على كل و رم آخر سورة الحشر (نور الثقلين 5: 294).

(1). راجع تفسير سورة التوحيد في ج 30 ص 513- 514.

(2) مجمع البيان عن أبي جعفر الباقر (ع) قال: الغيب ما لم يكن و الشهادة ما قد كان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 261

بعضه من ارتضى من رسول، و في تقديم الغيب على الشهادة ايحاء لطيف ألا فرق بينهما عنده تعالى لحدّ كأنه أعلم بالغيب من الشهادة! «هُوَ الرَّحْمنُ» بجميع خلقه فإنها الرحمة العامة «الرَّحِيمُ» بالمؤمنين خاصة فإنها الرحمة الخاصة، و هما تشملان كافة الصفات الإلهية ذوات الفاعلية و العلاقات العامة أو الخاصة بالكون، على علم نافذ فيهما دون عزوب عن أية خافية.

توحي هذه الصفات الثلاث بعد تصريحة التوحيد، بوحدانيته تعالى في علمه و رحمانيته و رحيميته، ما يشمل توحيده في كافة صفاته و أسماءه الحسنى.

و من ثم تبرز هذه الثلاث، بعد الحياة العقلانية العقيدية للإنسان، تبرز في حياته العملية، في كمال منهجه تفكيرا و شعورا و سلوكا، أنه مراقب من اللّه، و غريق في رحمانيته و رحيميته، فلا يغفل و لا يطغى.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ‏:

أسماء أخرى ثمان بعد الثلاث، و هي كلها بعد توحيده الذي هو أم الأسماء، و هذه الثمان تفاصيل لتلكم الثلاث، إذ إنها من شؤون علمه و رحمانيته و رحيميته، كما انها كلها بسائر الأسماء لزامات توحيده تعالى- «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و علّ هذه الثمان حملة عرش الأسماء و الصفات، و كما أن لعرشه تعالى يوم القيامة حملة ثمان.

«الْمَلِكُ»: وحيد في ملكيته و مالكيته، لا يشركه فيها أحد: «وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ» (17: 111) و لا يشبهه‏ «فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» (23: 116) فهو مالك الملك لزاما لألوهيته لا سواه: «قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ» (3: 26) ملك المبدء: «وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 262

يَشاءُ» (5: 17) و ملك المصير: «وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» (5: 18) إذا فليس للخلق سيد سواه.

«الْقُدُّوسُ»: مبالغة في القدس، حقا في اللّه الملك، فلا قدس يحق و يجب في الملك إلا و فيه حقه غير المحدود، لا يملك إلا بقداسة، و لا يحكم و يحاسب إلا بقداسة، و لا يعذب إلا بقداسة، فالقداسة المطلقة اللانهائية مشعة في الملك الإله دون من سواه، و من قدوسيته سلامه:

«السَّلامُ»: سلام في ذاته، عن كل نقص و رين، و في صفاته عن كل ظلم و شين، سلام في دعوته: «وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ» (10: 25) و في هدايته لمن يتقبل دعوته: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ» (5: 16) و في جزاءه للسالكين سبل السّلام: «لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (6: 127) «وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ» (10: 10) لذلك يحق له التسليم: «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» (2: 112) «أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (3: 83).

أجل انه سلام دون سأم، و ليس السأم إلا بما كسبت أيدينا و يعفو عن كثير فعذابه السأم سلام في حساب الحق و العدل، و كما ان سلامه لغير أهله- و العياذ به- سأم في هذا الحساب، فالخير كله بيديه و الشر ليس إليه، فإنه يؤمن و لا يؤمن عليه:

«الْمُؤْمِنُ»: يؤمن بذاته المقدسة الملك القدوس السّلام، و يؤمن خلقه أجمع مما تتعرض لهم من بواعث البوار، به و بما يرسل عليهم حفظة: «وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (6: 61) و يؤمن المؤمنين و يؤمّنهم عن الزلة و الانحراف يوم الدنيا، و عن ذلة العذاب و الانجراف في النار يوم الدين، فهو مؤمن بعد له و فضله من يستحق الأمن أو لا يستحقه، فضلا منه لمن يستحقه.

«الْمُهَيْمِنُ»: سلطان على خلقه رقيب، كما و ان كتابه مهيمن على ما قبله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 263

من كتاب: «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ» (5: 28) هيمنة حكيمة لا نفاذ فيها ممن سواه و لا نفاد، و إنما سيطرة الملك القدوس السّلام المؤمن:

«الْعَزِيزُ»: الغالب- عزيز في ملكه و قدسه و سلامه و هيمنته، عزيز في ذاته و صفاته و أفعاله، عزيز في حكمته (2: 220) عزيز في انتقامه (3: 4) عزيز في قوته (11: 66) عزيز في رحمته (21: 9) عزيز في غفرانه (67: 2) فلا عزة إلا له و به و منه‏ «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ» (63: 8).

«الْجَبَّارُ»: و الجبر هو إصلاح الشي‏ء بضرب من القهر، فالجبّار هو كثير الجبر لكل كسر من كل كسير، كسرا في الخلق أو الخلق، في القلب أو القالب، فهو جبار في الإصلاح، لا تحمله إلا هذه الآية، ثم أهل الطغوى جبارون في الإفساد، بين جبار عصي (19: 14) و جبار شقي (19: 32) و جبار عنيد (11: 59) في بطشة جبارة: «وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ» (26: 130) فهذا الجبار العصي العنيد الشقي يقابل الجبار المصلح الوفي: «إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ» (28: 19) فهناك جبار يجبر الكسير «1»، و هنا جبار يكسر الجبير، فأين جبار من جبار سبحان العلي القدير، و لا يوجد جبار في الإصلاح إلا اللّه، حتى و لا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلا في بلاغ الرسالة، لا في التكوين و لا التشريع! «وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ» (50: 45).

و كل جبره تعالى إصلاح، سواء جبره الخلق في ذواتهم و البعض من أفعالهم، أو في أحوالهم المنكسرة التي تتطلب الجبر، و للعارفين نصيب من هذا الاسم المجيد لأنفسهم مهما حرموا عن كامله‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

من أدعية الإمام علي (ع): «يا جابر كل كسير و مسهل كل عسير».

(2) من حظه أن يقبل على نفسه، مجبرا نقائصها باستكمال الفضائل، فيحملها على ملازمة التقوى و مجانبة الطغوى، و يكسر منها الهوى الطائشة و الشهوات الفاحشة، و يترفع عما سوى اللّه، متخليا عنهم متحليا باللّه، لا يزلزله تعاور الحوادث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 264

«الْمُتَكَبِّرُ»: «الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ» (13: 9) «الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» (22: 62) فلا كبير إلا اللّه، فمن سواه صغار في صغار

(و الكبرياء ردائي فمن شار كني في ردائي ألبسته ثوب الذلّ)

«1»، فهنا تكبّر بالحق بمعنى التعظم و إظهار الكبرياء، و آخر بالباطل لمن ليس له: «سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (7: 146) و المتكبر من يرى غيره حقيرا صغيرا بالنسبة لنفسه و هذا لا يحق إلا للّه‏ «2».

و كما الجبار في اللّه تحمله فقط هذه الآية، كذلك المتكبر، فسائر الآيات تعبر عنه بالكبير، فالمتكبر الكبير غير المتكبر الصغير، فهذا باطل يتظاهر بالكبرياء و ليست له و لن تكون، و ذلك حق تظهر الكبرياء في صفاته و أفعاله، مما تدل على كبرياء الذات، دون تكلّف و لا ادّعاء، فهو متكبر: يظهر الكبرياء، لأنه كبير عليّ متعال، و إنما التواضع كمال لغير الكبير، و نقص للكبير، و بديله فيه هو العدل و الفضل و الرحمة، متكبرا عما لزامه الصغار، و على من سواه فإنهم كلهم بجنبه صغار.

«سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ» به في هذه الأسماء و الصفات.

هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

صفات اخرى ثلاث، تمثيلا عن أسمائه و صفاته الفعلية الظاهرة في خلقه، صفات مترتبات في المظاهر الخارجية، خلقا، ثم برءا لما خلق من: برء العود، فهو يخلق عود الخلائق ثم يبرئها: بريئا هو من تفويت و تنقيص، و بريئة هي كخلقه من التفاوت و التهافت‏ «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» و التخلق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حديث قدسي.

(2) الكبير خاص بمن له حق الكبر أيا كان، و المستكبر خاص بمن لا يتكلفه و لا يستحقه، و المتكبر أعم منها و يتبع في معناه القرينة كما هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 265

بهذا الاسم هو أن يبرئ العبد أعماله عن الاتجاهات غير الإلهية، و عن التناقضات و الاختلافات، ثم تصويرا بإعطاء الملامح المميزة، و السمات المتميزة التي تمنح لكلّ شخصيته الخاصة المائزة له عما سواه: «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ» (82: 8) فالتسوية و التعديل من البرء و التقدير و قبلهما الخلق و بعدهما التصوير، سبحان العليّ القدير.

و مهما كانت هذه الصفات مترتبات زمنيا في الخلق، و لكنها موحدة في ذات اللّه، فإنه خالق إذ لا مخلوق، و بارئ إذ لا مبروء، و مصوّر إذ لا صورة! «لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏»: و هي هي صفاته العليا، صفات الذات و صفات الفعل، و حسنى الأسماء و الصفات هي التي تليق بهذه الذات، و القبيح كل القبيح أن ندعوه بغيرها: «وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى‏ فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (7: 18).

و الإلحاد في أسماء اللّه أن تختلق له أسماء لم يسمّ بها نفسه، أو تفسر أسماءه بما لا يليق بذاته المقدسة، و على المؤمن أن يستوحي من أسماء اللّه الحسنى فيصوغ نفسه وفق إيحاءاتها و اتجاهاتها، تخلّقا بأخلاق اللّه ما أمكن، لا تشبّها إذ لا يمكن،

و في المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة من آل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ أن الأسماء الحسنى مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة

«1»، إحصاء في القلب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

التوحيد للصدوق بإسناده الى علي بن أبي طالب (ع) قال قال رسول اللّه (ص): إن للّه تبارك و تعالى تسعة و تسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة، و هي: (اللّه.

الإله. الواحد. الأحد. الصمد. الأول. الآخر. السميع. البصير. القدير. القاهر. العلي.

الأعلى. الباقي. البديع. البارئ. الأكرم. الظاهر. الباطن. الحي. الحكيم. العليم.

الحليم. الحفيظ. الحق. الحسيب. الحميد. الحفي. الرب. الرحمان. الرحيم. الذارئ.

الرازق. الرقيب. الرءوف. الرائي. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار. المتكبر.

السبوح. الشهيد. الصادق. الصانع. الظاهر. العدل. العفو. الغفور. الغني. الغياث.

الفاطر. الفرد. الفتاح. الفالق. القديم. الملك. القدوس. القوي. القريب. القيوم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 266

و إحصاء في القالب، في عقيدة الإيمان و عمل الإيمان،

و يروى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ أنها أربعة أرباع على حدّ قوله: (أسألك بكل اسم سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب)

«1».

يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

فألسنة الكائنات من الأرض و السماوات ناطقة- بيانا أو برهانا- عما لا يليق بالالوهية، و عن أن يكون له شريك في الملك أو ولي من الذلّ فكبّره تكبيرا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

القابض. الباسط. قاضي الحاجات. المجيد. الولي. المنان. المحيط. المبين. المقيت. المصور.

الكريم. الكبير. الكافي. كاشف الضر. الوتر. النور. الوهاب. الناصر. الواسع. الودود.

الهادي. الوفي. الوكيل. الوارث. البر. الباعث. التواب. الجليل. الجواد. الخبير.

الخالق. خير الناصرين. لديان. الشكور. العظيم. اللطيف. الشافي).

أقول: هذه الأسماء بين مذكورة في القرآن و مستفادة من القرآن، و هي تجمع بين صفات الذات: الحياة- القدرة- العلم- و بين صفات الفعل الراجعة كلها الى صفات الذات (راجع كتابنا: حوار بين الإلهيين و الماديين).

(1). تفسير روح البيان للآلوسي ج 9 ص 468.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 267

(سورة الممتحنة «1»- مدنية- و آياتها ثلاث عشرة)

[سورة الممتحنة (60): الآيات 1 الى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4)

رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى‏ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تسمت السورة ب «الممتحنة» بمناسبة آية النساء المؤمنات المهاجرات، فللامتحان مكانته، كما للنساء مكانتهن، فسورة النساء و مريم و الممتحنة و المجادلة، إنها مما توحي بعطف اللّه و لطفه الخاص بالنساء، بدل ما أهينوا طوال التاريخ، و كما لا نرى سورة تتسمى باسم الرجال إلا بعض رجالات الوحي: محمد- نوح- إبراهيم- يوسف- هود- يونس- ثم و اسم يشملهم أجمع «الأنبياء».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 268

.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 269

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ‏:

ملامح هذه الآية و ما بعدها، و مصارحها أيضا، تشهد أنها نزلت تنديدا ببعض المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم و أموالهم و أهليهم، و ظلت نفوسهم مشدودة عالقة إلى بعض من خلفوا هناك من الأهلين، فاتخذوا مشركي مكة أولياء، يعتاضون بولايتهم الحفاظ على أهليهم، و منهم- كحاطب بن أبي بلتعة- من ألقى إليهم بالمودّة، فلم يكتف هذا الذليل الهزيل الإيمان بموادتهم، فقد تخطاها إلى إلقاء أسرار النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليهم بالمودة، يتسقطهم أسراره ذات الخطورة، فإلقاء المودة شي‏ء، و الإلقاء بالمودة شي‏ء آخر يتطلب مفعولا به محذوفا، و ما هو إلا أسرار النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كما تقول الروايات‏ «1»، كما و أن نفس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 203- أخرج أحمد و الحميدي و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و أبو عوانة و ابن حبان و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي و أبو نعيم معا في الدلائل عن علي (ع) قال‏: بعثني رسول اللّه (ص) أنا و الزبير و المقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: اخرجي الكتاب، قالت:

ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي (ص) فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي (ص)، فقال النبي (ص): ما هذا يا حاطب؟ قال:

(تجد الجواب في المتن).

و روى القمي أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم و هاجر الى المدينة و كان عياله بمكة و كانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول اللّه (ص)، فصاروا الى عيال حاطب و سألوا أن يكتبوا الى حاطب يسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا الى حاطب يسألوه عن ذلك، فكتب إليهم حاطب: إن رسول اللّه (ص) يريد ذلك، و دفع الكتاب الى امرأة تسمى صفية فوضعته في قرونها و مرت، فنزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) و أخبره بذلك، فبعث رسول اللّه (ص) أمير المؤمنين (ع) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 270

الإلقاء إيحاء بكيان هذه الولاية، أنها ملقاة مفصولة عن القلب، بمكتوب أو سواه بعث لهم سرا.

«تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» و «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ» تقتضيان أدبيا أن جماعة منهم ألقوا إلى المشركين مسرّين شيئا من الأسرار، و قد فضحهم اللّه كما يفضح المنافقين، لأنهم اعتملوا عملية النفاق، و إن لم يكونوا منافقين، و لكنه ضلال عن سواء السبيل، فما دور الأرحام و الأولاد بجنب الإيمان إلا دور الأغارب البعيدين سواء، فلما ذا الاعتياض بإلقاء الأسرار بهم بالمودة؟ إعلانا أو إسرارا «وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ»؟.

يقف الإنسان هنا حائرا من فعلة حاطب و أضرابه، و هو مسلم مهاجر، فيا للنفس البشرية من منحنيات عجيبة، قد يحتمي لمن يعانده حفاظا على قرابته و أحمّته، و بينه و بين الذين يلقي إليهم بالمودة ثالوث المفارقات: «عَدُوِّي وَ عَدُوَّكُمْ» «كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ» «يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ».

إنهم عادوا اللّه إذ أشركوا به، و عادوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ كذبوه، و كفروا بالحق الذي جاءكم من اللّه يحمله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أخرجوا الرسول و المؤمنين مغبّة إيمانهم باللّه و محبة إدخالهم في الكفر كما هم: «أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ» لا تتخذوهم أولياء «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي» فمفاصلة أعداء اللّه من شروط الإيمان الذي يدفعكم للخروج عن الأموال و الأهلين جهادا في سبيل اللّه و ابتغاء مرضاة اللّه.

فكيف يوادهم و يلقي إليهم بالمودة أسرارا، من هم رجال اللّه المنتسبون اليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض المغبرة، و يمثلون شاشة الحق في مصارح و مسارح المجتمع المتصارعة؟ .. إنه ليس إلا ضعف الإيمان و لمّا ينضج، و إنه من عقبات رواسب الأواصر القريبة، و العصبيات الصغيرة، و القرابات التافهة، التي يجب أن تذوب في بوتقة الإيمان و لمّا تذب!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 271

و لئن سأل سائل: إذا كان هؤلاء أعداء اللّه و أعداء المؤمنين فكيف بالإمكان موالاتهم و الإلقاء إليهم بالمودة، و القلب لا يتحمل المتناقضين؟ فالجواب: ان الموالاة هنا ليست هي القلبية، و إنما ظاهرية دفاعا عن شرّ يزعم، و شاهدا عليه- إضافة إلى شاهد الإلقاء- ترجّي المودة في المستقبل إذا زال الكفر:

«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً».

ثم هذه الآيات و إن كانت تنديدا شديدا من زاوية بمن اعتمل هذه العملية النكراء الخائنة، و لكنها من زوايا اخرى بين محذرة الكفار المستغلين، و مربية البعض من المؤمنين المستغلين الضالين هنا سواء السبيل.

فهنا لك نقف مرة اخرى وقفة الحائرين أمام عظمة العطف الرباني بشأن هؤلاء إذ يخاطبهم خطاب المؤمنين، لا المنافقين، رجاء رجوعهم عما فعلوا، و ندمهم عما افتعلوا كما فعلوا، و كذلك العطف النبوي المعطوف إلى العطف الرباني بخلقة العظيم إذ لا يعجل بحاطب حتى يسأل: (ما حملك على ما صنعت؟) بكل رحابة صدر و حنان، فلما صارحه بما قصد مجيبا عتاب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

(لا تعجل عليّ يا رسول اللّه! إني كنت امرءا ملصقا من قريش و لم أكن من أنفسها، و كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم و أموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتي، و ما فعلت ذلك كفرا و لا ارتدادا عن ديني) (و اللّه يا رسول اللّه ما نافقت و لا غيّرت و لا بدّلت، و إني أشهد أن لا إله إلا اللّه و أنك رسول اللّه حقا) «1».

هنا يكف الصحابة عنه بقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (صدق، لا تقولوا إلا خيرا)، و لينتهضه من عثرته من فوره، دون مطاردة و مشاردة.

و نجد خلاف هذا الحزم في الخليفة عمر، إذ ينظر إلى العثرة ذاتها، دون أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفقرة الاولى في الدر المنثور، و الثانية في تفسير القمي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 272

يفكر في علاجاتها قائلا: (إنه قد خان اللّه و رسوله و المؤمنين، فدعني أضرب عنقه)، فأين علاج من علاج فيه كل فجاج و حراج! و في أحاديث عدة أن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أجاب عمر: (إنه شهد بدرا، و ما يدريك لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، و لكنه لا يوافق الأصول الإسلامية لا كتابا و لا سنة، فمن أعجب العجاب أن يرفع قلم التكليف عمن أتى بواجب الجهاد! و لا يرفع عن النبي الذي كلّ حياته جهاد! و من أقرب ما يعارض هذه الفرية الفاتكة نفس الآية «وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ».

ثم هذا الخطاب اللطيف العتاب يجعل من هذا المؤمن الجاهل الضعيف مؤمنا عارفا قويا نادما على ما افتعل، و ينبّه سائر المؤمنين ألا يفعلوا فعلته، مبينا مع الآيات التالية أخطارها:

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ‏:

إن عداء هؤلاء الأعداء لكم مركوز في كيانهم و قلوبهم المقلوبة، مهما تظاهروا بالولاية، بغية مساندتكم إياهم، إلقاء بالمودة لهم أسرار الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنه يظهر لكم ببسط أيديهم و ألسنتهم بالسوء إليكم‏ «إِنْ يَثْقَفُوكُمْ»: يظهروا عليكم، و هذه الصيغة المضارعة بعد أداة الشرط «إن» تشير الى التحذير من مستقبل الثّقف الذي يعدّه المؤمن على نفسه بجهالة التصرفات الفوضى، كما أن مضيّ «ودّوا» إيحاء الى تعمّق هذا الودّ قديما في نفوسهم- دون رباط بشرط الثقف-، إلا أن «لو» الدالة على امتناع مدخولها، تكافح هذا الخطر الكامن، ما دام المؤمنون متمسكون بعروة الإيمان.

و بما أن البسط مقابل القبض، فبسط الألسن هو إظهار الكلام السيئ فيهم بعد زمّ الألسن عنهم، فيكون الكلام كالشي‏ء الذي بسط بعد انطوائه و اظهر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 273

بعد إخفائه، و كذلك بسط الأيدي، و إن كان هذه ضررها بالإيقاع و تلك ضررها بالسماع.

و الثّقف: الحذق في إدراك الشي‏ء و فعله، فإذا أدركوكم و سيطروا عليكم بحذقهم الكافر الماكر، حينذاك يظهر لكم مدى عدائهم لكم لحدّ: «وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»: جمعا بين العداء في القلب و في القالب، و عداء القلب ان:

«لَوْ تَكْفُرُونَ» هي أمرّ و أدهى، إذ توحي بكافة ألوان المحاولات و الحيل ليردّوكم و يرجعوكم عن الإيمان، و لحدّ المستحيل الموحى به ب «لو».

فهم دائما ينتفعون و لا ينفعون مهما تظاهروا بالوداد، و إنما هم شداد في عدائهم العارم، فكيف تتولونهم؟.

ثم و لو يتولونكم في التخفيف عن أرحامكم و أولادكم و لن يخففوا، ف:

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ:

إنهم لن ينفعوكم و إن كانوا مؤمنين، فكيف ينفعونكم و هم كافرون؟

فوشائج القرابة المتأصلة في كيانكم، المشتجرّة في زوايا قلوبكم، إنها قد تنسيكم ما يتوجب عليكم في ظل الإيمان باللّه، فإنه الوشيجة الدائبة التي لا انقطاع لها و لا فصال، لا بد أن تنسي المؤمن سواها من الوشائج على طول الخط، فكل وصال إلى فصال‏ «يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ» إلا وصال في اللّه و اتصال باللّه، و على المؤمنين أن يتأسوا في صمود وشيجة الإيمان بالرعيل الأعلى ليذيبوا سائر الوشائج و لا يذابوا فيها.

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 274

وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ:

الأسوة كالقدوة، هي الحالة التي يكون عليها الإنسان في اتباع غيره، إن حسنا أو قبيحا، و لذلك تقيد هنا و أشباهه ب «حسنة».

«لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» (33: 21) فالأسوة الحسنة في الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تعمّ أحواله و أفعاله و أقواله، و هي أشمل و أكمل من الأسوة بإبراهيم، و إنما أمرنا هنا باسوة حسنة في إبراهيم بما كان منه في آزر (عمه أو جده لأمه)، و لم يكن هكذا للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أسوة إبراهيم- هذه الخاصة- تخصص بغير قوله لأبيه:

«لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» ربي، و أسوة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تلكم الشاملة نافذة المفعول دون استثناء، فأين أسوة من أسوة؟! «قَدْ كانَتْ لَكُمْ ..» توحي بأن هذه الاسوة لها كينونة عريقة مسبقة في المؤمنين، حسب التشريع الإسلامي، و كما هي شريطة الإيمان دوما و خريطة مستملكات الإيمان كذلك: «التولي في الله- التبري في الله» و شيجته مشيجة بقلوب المؤمنين.

«فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ»: الإبراهيميون في هذه السنة السنية، سواء أ كانوا معه في عصره، أم بعده بعصور، و إلى زمننا، و إلى يوم الدين، فإن النص‏ «وَ الَّذِينَ مَعَهُ» مما يوحي بالمعية غير المتقيدة بزمان و لا مكان، لا «و الذين كانوا معه» لكي يختص بالغابرين، و بهذا المعنى يكون محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمون الذين معه ابراهيميين، مهما سبقه الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في هذه السنّة حقها و مظاهرها، فإن المعية لها درجات، قد يكون المعطوف أقوى من المعطوف عليه، كما ان آية الاسوة في محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. الشاملة، تشهد- بقرنها بآية الاسوة في ابراهيم الخاصة المقيدة- تشهد له بهذه الأفضلية، إنها شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 275

كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها شيخ النبيين ابراهيم الخليل عليه السّلام مهما سبقه البعض ممن لحقه كالرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم! «إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» براءة بريئة عن كل شين و رين، صامدة في وجه القرابات الكافرة، قاطعة وشائجها مهما تشجرت و استطالت و حتى الأبوة و العمومة، لحد الكفر بهم و نكرانهم كأن لا قرابة «كَفَرْنا بِكُمْ» كفر البراءة «1» و النكران و المفاصلة، لا كفر الايمان، إذ ما كانوا مؤمنين بهم مسبقا حتى يكفروا بهم عن إيمانهم لا حقا، «وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ» فالإيمان هنا هو نهاية العداء و بداية الولاء، فإذا آمنوا زال هناك كفران: كفرهم باللّه، و كفر المؤمنين بهم براءة و عداء.

«إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..» قاله قبل أن يتبين له انه عدو للّه، لا تحتمل هداه، إذ أمره بهجره مليا: «قال أ راغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك و اهجرني مليا» (19: 46) هنا يستلهم ابراهيم من هجره مليا: مدة طويلة، لا دائما، انه يتروى في أمره فيها، فقد تجوز هدايته، لذلك يسلم عليه و يعده الاستغفار: «قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا» (19: 48) فوعد الاستغفار مربوط باحتمال الاهتداء، فلما طال الأمد و ظن ابراهيم انه اهتدى حقق وعده: «وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ» استغفر له و هو بعد حي ظن انه اهتدى، أو سوف يهتدي، و كان فيما مضى من الضالين المعاندين، و لما تبين له انه عدو للّه تبرء منه كما في آية الاعتذار حيث تفسر آية الاستغفار: «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (ع) قال: قلت له:

أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب اللّه عز و جل، قال (ع): الكفر في كتاب اللّه على خمسة أوجه (إلى أن قال) و الوجه الخامس من الكفر كفر البرائة و ذلك قول اللّه عز و جل يحكي قول ابراهيم‏ «كَفَرْنا بِكُمْ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 276

لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ. وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (9: 114).

فليس وعد الاستغفار في آيته، إلا نتيجة احتمال الاهتداء المشيرة إليه آية الاعتذار: (عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ): موعدة آزر التي وعدها ابراهيم بقوله:

(وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا) لا التي وعدها ابراهيم آزر بدافع القرابة فإنها محظورة قطعا كما في آيتي الاعتذار و الاستغفار.

فالمحرم قطعا هو الاستغفار و وعده للمشركين من بعد ما تبين انهم أصحاب الجحيم، و لا يتبين هكذا إلا ممن ثبت عداءه للحق بعد ما جاءه كمن صرح بهم القرآن و من تثبتنا عليه ذلك و لا نحتمل هداه.

و أما المشرك المرجو هدايته، كآزر في ظن ابراهيم، إذ أمره بهجره مليا، الملهم لتروّيه فيه، فقد يجوز الاستغفار له قبل هدايته، و كما فعل ابراهيم.

و إذ لم يكن في استغفاره لآزر محظور، فلما ذا الاستثناء فيه عن أسوة ابراهيم؟ علّه رعاية الواقع، فإن آزر كان عدوا للّه لا يستحق الاستغفار، مهما أخطأ ابراهيم في ظنه و كان معذورا، و لم يكن استغفاره محظورا، فالأسوة تشمل حق العلم و الواقع، و حاشا اللّه أن يأمرنا بأسوة تخالف الواقع، مهما كان صاحبها معذورا ظنّ الواقع، و لكنها محظور حسب الواقع.

ابراهيم يعد أباه الاستغفار مشفّعا له بأنه لا يملك من اللّه إلا الافتقار: (وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ): لا قبول الاستغفار، و لا أن تأهل الاستغفار، إنما دعاء معه رجاء: (رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ) تسليم للّه بلا حدود، و تسلّم لأمره بلا قيود، سمة إيمانية بارزة في ابراهيم طول حياته، و لأنه يحتمل مكيدة أبيه في ملامح و عده من هجره الملي، يلوذ بربه أن ينجيه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 277

رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

يستغفر ربه لو جعل فتنة للكافرين كما جعل في فتنته لآزر في استغفاره، فسنادا الى عزته تعالى يسأله الخروج عن الفتنة، و إلى حكمته المغفرة لو افتتن، فيا لهذه العبودية الخالصة من سمّو و علوّ! و مع ذلك كله تستثنى هذه الفتنة المغفورة، غير العامدة، عن اسوته: «إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ ..» فيا للرسالة الإسلامية من نزاهة تفوق الرسالة الإبراهيمية! إذ لا ترضى من الأسوة إلا الحسنة علما و واقعا، لا السيئة- و لم تكن في إبراهيم- و لا بينهما: حسنة في ظنه، سيئة معذورة كما فعله إبراهيم، إنما حسنة خالصة:

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ:

فيا لها من تربية رابية على الابراهيمية الحنيفة، تختص الأمة الإسلامية، إذ تستخلص لهم خالص التربيات عبر الرسالات كلها، كما ان رسالتها خالصة الرسالات كلها، أو انها الرسالة الإلهية وحدها، و ما سواها إنما تحضّر لها و تهيئ كبذرات لإنماءاتها «لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ» أن يلاقيه في الدنيا و الآخرة معرفيا و رضوانا «وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ» و هو آخر المطاف و غايته، «وَ مَنْ يَتَوَلَّ» عن هذه الرسالة، فيتولى مناوئيها ممن يتربصون له و يترصدون‏ «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»: غني عن إيمانكم، و هو يحمد على أية حال، توليتم له أو توليتم عنه، سواء، و لكنه لا يرضى لعباده الكفر «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

من صحاح الأحاديث القدسية: «يا عبادي! انكم لن تبلغوا ضرري فتضروني و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو ان أولكم و آخركم و إنكم و جنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي! لو ان أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي! لو ان أولكم و آخركم و إنسكم و جنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 278

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏:

تلميح بفتح مكة المكرمة بصيغة الترجي: «عسى اللّه»: هنا موضع رجاء لكم، لا ان اللّه يرجوا، و إنما يرجي المؤمنين بما كانوا يأملون علهم لتحقيقه يعملون، و هو بشارة لفتح مكة، الذي سبب دخول الناس في دين اللّه أفواجا:

طوعا أو كرها، ف «عسى» هنا و في أمثاله حتم من اللّه، يكلّل بالرجاء، و لكي يحيى المؤمنون حياة الرجاء، ليكونوا دائبي الحراك و السعي لتحقيق الرجاء «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»! عسى اللّه أن يعوضكم عن أرحامكم المشركين، بأرحام لكم مؤمنين في مكة، منهم، و من سواهم بقرابة مستقبلة، فيجعل بينكم مودة «وَ اللَّهُ قَدِيرٌ» على تحقيق هذه الأمنية «وَ اللَّهُ غَفُورٌ» للمشرك إذا آمن‏ «رَحِيمٌ» له، و للمؤمن، المتقاربين نسبا أو صهرا.

و لقد وقع هذا الأمل بعد أمد قصير، ان فتحت مكة، فأسلمت قريش، و وقفت مع المهاجرين و الأنصار تحت لواء التوحيد، مهما كان فيهم منافقون.

و هكذا يعالج الإسلام وشائج القرابات، و لكي يتخطاها إلى وشيجة الإيمان، خطوات و خطوات، و لكي يجتمع الجميع في حزب اللّه، و الاخوة في اللّه، في جو عطر رائع لا خبر فيه عما سوى اللّه‏ «وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»! من مظاهر المودة الموعودة بفتح مكة تزويج النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ام حبيبة بنت أبي سفيان حيث أصبحت من أمهات المؤمنين، رغم ما كان من أبيها من عداء عارم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نقص ذلك من عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيهما لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد اللّه، و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه‏ (تفسير روح البيان للحقي ج 9 ص 479).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 279

إلا أنه الآن عريكة أبي سفيان، فاسترخت شكيمته في عداء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

ان المفاصلة بين المسلمين و الكفار قاطعة شاملة، ثم بينهم و بين المستسلمين المنافقين قلبية فحسب، ثم بينهم و بين فرقاءهم في الإيمان مواصلة شاملة دون أية مفاصلة، و المودة الموعودة تشمل المواصلتين.

ان حرمة الموادة تتركز على المعادين المحاربين، دون الكفار المسالمين، فعاشروهم بالمعروف و أقسطوا إليهم علّهم يؤمنون:

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ‏:

فهؤلاء، برهم، و الأقساط إليهم غير محظور، بل هو محبوب، و انها من أسس شرعة الحق و العدل، ان الأصل للمسلم مع من سواه البر و الخير و العدل إلا مع المحاربين المعتدين، دفاعا عن الحق، و حفاظا على الحقوق.

إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى‏ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ‏:

إنها مقاتلة في الدين و تشريد و مظاهرة على إخراجكم في الدين، هي التي تمنعكم عن موادتهم، و تفرض عليكم عداءهم، لا أصل الكفر و كما تشهد له الروايات‏ «2»، و لا أية مقاتلة و لا أي إخراج، فلو قاتلك الكافر على نفسه و ماله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد أسلمت أم حبيبة من قبل و هاجرت مع زوجها عبد اللّه بن جحش إلى الحبشة فتنصر و راودها على النصرانية فأبت و صبرت على دينها و مات زوجها فبعث رسول اللّه (ص) إلى النجاشي فخطبها عليه و ساق إليها اربعمائة دينار و بلغ ذلك أباها فقال: ذلك الفحل لا يفدع أنفه.

(2) الدر المنثور 6: 205- أخرج الطيالسي و أحمد و البزاز و أبو يعلي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و النحاس في تاريخه و الحاكم و صححه و الطبراني و ابن مردويه عن عبد اللّه بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 280

و حقه، و أخرجك من داره التي اغتصبتها، فلا عليك و لا لك معاداته، و لا تحرم لك موالاته.

انه نظام سياسي ثابت صامد للمسلمين ما عاشوا، دون اختصاص بمن مضى من مشركي العرب، فهناك كانت امبراطوريتان قويتان الفارسية و الرومانية تحيطان بأرض الإسلام، بدأتا تجمعان له، إذ تشعران بخطورته، تؤلبان عليه الإمارات العربية و سواها، من مستعمراتها، كذلك و اضرابها من الدول المستعمرة المعادية للإسلام طول التاريخ، فلم يكن بد من تطهير المعسكر الإسلامي من أعدائه الجهال أو المعاندين، و تخليصه من المرتزقة، و لكي تكون كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا هي السفلى.

لا فحسب الرجال في عسكر الإسلام هم الذين يجب امتحانهم، فامتهانهم و تأنيبهم أو تأديبهم، بل النساء كذلك يدخلن في هذه البوتقة.

[سورة الممتحنة (60): الآيات 10 الى 13]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10) وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْ‏ءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (11) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى‏ أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (12) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (13)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب و اقسط و سمن و هي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول اللّه (ص) فسألته فانزل اللّه: «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ» إلى آخر الآية، فأمرها أن تقبل هديتها و تدخلها بيتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 281

أحكام عدة بشأن المؤمنات المهاجرات، تبتدئ بامتحانهن و تحرّي أسباب هجرتهن، ألا تكون وراء حب فردي في دار الإسلام، أو تخلصا عن زواج مكروه في دار الكفر، و إنما هجرة في اللّه، خالصة في دين اللّه، و تنتهي بشرط قبول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مبايعتهن، و بذلك يكمل إيمانهن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 282

تقول الروايات إن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه:

(على ألا يأتيك منا أحد و إن كان على دينك إلا رددته إلينا) زعما من المشركين أنه يشمل النساء أيضا «1»، أو إذا شملهن يرضى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بردّهن الى الكفار فيرجعن كافرات! فلما كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و المسلمون معه- بأسفل الحديبية، جاءته نساء مؤمنات يطلبن الانضمام إلى دار الإسلام في المدينة، فجاءت قريش تطلب ردّهن، زعم تنفيذ المعاهدة، فنزلت الآيتان تمنعان ردّ المهاجرات المؤمنات بعد الامتحان و العلم بإيمانهن كيلا يكنّ منافقات فترجع هجرتهن بالخسار على دار الإسلام.

«فَامْتَحِنُوهُنَّ»: و كيف الامتحان؟ هل انه الإقرار بالشهادتين‏ «2»؟

و ليس امتحانا، فإنه محنة و لا محنة في لفظة القول، و قد أقرّ بهما المنافقون، ثم النص تفرض الإيمان موضوعا للهجرة قبل الامتحان‏ «إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ»، و الشهادتان من أقل الإيمان! لحدّ قد لا تسمّيان إيمانا «قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا».

أو انه التحقق من واقع الشهادتين في قلوبهن؟ فهذا حق، و لكنه كيف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء، و لم يجر للنساء ذكر، و أن ام كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها الى المدينة و سالا رسول اللّه (ص) ردها عليهما، فقال (ص): إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردها عليهما، و في الدر المنثور 6: 206- أخرج ابن سعد عن ابن شهاب- مثله- و فيه‏: جاء أخواها يريدان أن يخرجاها و يرداها إليهم، فانزل اللّه ...

أقول: و في أحاديث عدة (ان اللّه نسخ العقد بالنسبة للنساء) و لكنها تخالف جوهر الإسلام الذي يفرض رعاية العهود مع من لم ينقضوها، و ان رد النساء المؤمنات خلاف المصالح الاسلامية جماعية و فردية، فكيف يعاهدهم الرسول (ص) هكذا، و يمضيها اللّه تعالى ثم ينقضها؟ رغم التصريح في الآية: «ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ...»، إذ تلمح بانه حكم ثابت على طول الخط.

(2) خلافا لما في الدر المنثور 6: 207- أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا عبده و رسوله ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 283

يتحقق؟ فهل بالاشتراط عليهن: «ألا يشركن بالله شيئا و لا يسرقن و لا يزنين و لا يقتلن أولادهن و لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن و لا يعصينك في معروف» فذلك حق كله و هي من اصول الإيمان العملي الذي يدل على تعرّق الإيمان في قلوبهن، و لكن مجرد قبول الشرط لا يكفي شاهدا على الالتزام به و بواقعه!.

إذا فليكن الامتحان في أمثال هذه عمليا بعد الاشتراط، ليجمع بين عمل الإيمان و عقيدة الإيمان، طالما لا يحصل منه اليقين، و إنما العلم العادي، و قد اكتفى اللّه للمؤمنين به: «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ» دون أن يحمّلنا العلم الحقيقي كما اللّه يعلم:

اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ‏:

إن حصيلة الامتحان هذا هي العلم بأنهن ما خرجن طامعات، و إنما مؤمنات، فليركز الامتحان- أيا كان- على ركيزة الهجرة، امتحان الحلف: (باللّه ما خرجت من بغض زوج، و باللّه ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، و باللّه ما خرجت التماس دنيا، و باللّه ما خرجت إلا حبا للّه و رسوله) ثم يتمم بامتحانهن عمليا فيما هي شريطة قبول بيعتهن، فقبل البيعة بشروطها لا يمكن العلم بإيمانهن، إذا:

فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ..:

إن رجع المؤمنات المهاجرات، بعد العلم بإيمانهن، إنه محرّم عليكم و عليهن و على أزواجهن، عليكم لأنه قد يسبب رجوعهن الى الكفر، و عليهن كذلك، و لأنه سبيل للكافر على المؤمن، و عليهم إذ انقطعت الصلة بينهم و بينهن، و الزوجية حالة اندماج فاستقرار، و لا اندماج بين الكفر و الإيمان فلا استقرار، فلا الشرع يسمح بهكذا رجع، حفاظا على صالح الإيمان، و لا الواقع يجاوبه إذ لا سكن و لا اطمئنان بين المؤمن و من ليس له إيمان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 284

و هل الكفر المانع من زواج المؤمنة هو الشرك فحسب؟ كما المشركون فقط هم شأن نزول الآية، إذ كانوا هم فقط في مكة المكرمة، أم إن الكفر هو المانع إطلاقا، كفرا باللّه أو كفرا بالإسلام، كما هو موضوع الحكم بالحرمة هنا «فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ» فلم يقل «إلى المشركين»، و هو كالصريح في موضوعية مطلق الكفر، و شأن النزول لا يخص الآية بنفسه.

و تدل عليه آية البقرة أيضا، إذ تعلل حرمة نكاح المؤمنة للمشرك ب:

«أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» فعموم الكفار هنا و فعلة الدعوة الى النار في المشرك، المعممة له الى مطلق الكافر أيضا، يثبتان عموم التحريم على الكافر مشركا أم كتابيا، فسبيل الكافر على المؤمن، الممنوعة، و دعوته الزوجة المؤمنة الى النار، يساندان عموم التحريم على الكفار، دون المؤمن و الكتابية، إذ تعكس بينهما الدعوة و السبيل، و آية المائدة تسمح بزواج الكتابية للمؤمن، دون زواج الكافر بالمؤمنة كما يأتي.

و هل ان المؤمنة المهاجرة أو غير المهاجرة، غير العريقة في الإيمان، الساقطة في الامتحان، هل يحل رجعها الى الكفار، أو زواجها به بدوا؟ هنا الآية لا تحرّم، و علّه للظروف الخاصة السياسية آنذاك، التي تتطلب تخليص دار الإسلام عن عناصر غير صالحة، حفاظا على صالح الدولة الإسلامية، إلا أن رجعها الى الكافر لا يجوز مبدئيا، بسند دليل الدعوة و السبيل، و عموم آية البقرة في تحريم المؤمنة على الكافر، إذ تشمل كافة مراتب الإيمان، كما تشمل كافة مراحل الكفر، و لا أقل من نسخ آية البقرة في عموم التحريم، آية الممتحنة في خصوصها على المؤمنات الممتحنات، و لنا إلقاء خصوصية الامتحان و كمال الإيمان للأدلة المسبقة، و أن‏ «لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ» حكم مستقل عن‏ «فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ»، ففي رجع الممتحنة حرمة مغلّظة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 285

و في رجع غيرها من المؤمنات حرمة عادية، و قد تؤيده السنة «1».

إذا فلا تحلّ المسلمة- و حتى المقرّة بالشهادتين فحسب- على الكافر، و حتى الكتابي الموحد، لا استدامة، و لا ابتداء.

و إذ لا يحلّ رجعهن إلى الكفار فكيف يجبر خسارهم فيما أنفقوا، فهل تذهب أزواجهم بما أخذن منهم هدرا؟ كلا! إن الإسلام أعدل من هذا و لو بالنسبة للكفار المعاهدين:

وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا: سواء أنكحتموهن أم لا، ما أنفقوا في أصل الزواج، دون النفقات الاخرى، فقد أخذوا حقوقهم منهن مضاجعة و سواها بدل ما أعطوا من هذه النفقات، و إنما على المسلمين رجع نفقات الزواج الى الأزواج، ثم و ما هو دور نكاحهن:

وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ‏: لا محظور في نكاحهن شرط أن تؤتوهن أجورهن، دون أن تحاسبوا عليهن ما آتيتم أزواجهن من أجورهن، فإنه زواج ثان لا يحكم عليه بحكم الأول و قد مضى.

إن إيمان زوجة الكافر يفصلها عنه دون طلاق، فهل تعتد عدة الطلاق، أم عدة الوفاة، أم لا عدة و إنما تريّث لاستبراء رحمها، أم و لا تريّث إطلاقا؟

إن آيات العدد وفاة و طلاقا مختصة بهما، لا تتخطاهما الى غيرهما إلا بحجة قاطعة، و آيتنا هذه تنفي الجناح عن نكاحهن شريطة المهر دون ذكر عدة و لا تريّث، إذا فلا عدة هنا لعدم الحجة، اللهم إلا لاولات الأحمال منهن:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد اللّه (ع): ان لامرأتي أختا عازمة على ديننا و ليس على ديننا بالبصيرة إلا قليل، فإن زوجها لا يرى رأيها، قال (ع):

لا- و لا نعمة، ان اللّه عز و جل يقول: «فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 286

«وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» (65: 4) اللهم إلا أن يختص الحكم بالمطلقات، لأن الآية بما قبلها، في بيان أحكام الطلاق، ثم التريّث أيضا لا دليل عليه، إلا أن لحوق الولد بالفراش أقل ما يفرضه هنا هو التريث، لكي لا يختلط أمر الولد بين الزوجين، طالما لا حرمة للزوج الكافر تعتد هي لأجلها، ففي العدة حكم عدة، منها حرمة الزوجية و قد انتفت هنا، و منها عدم اختلاط المياه، و الحفاظ على النسب، و يكفيه التريث للتعرّف الى كونها حاملا أم لا.

و الخبر الدال على عدة الطلاق‏ «1»، إضافة الى أنه من الآحاد، يختص بالنصراني، فلا ينهض حجة لإثبات حكم لا يلائم القرآن، إلا أن الأحوط هنا الأخذ بأقل العدد: عدة الطلاق.

و كما ان المرأة المؤمنة تنفصل عن الكافر دون طلاق، كذلك الكافرة تنفصل عن المؤمن دون طلاق، لانفصام العلاقة هنا و هناك:

وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ: فلا يحل إمساك نساءكم اللاتي بقين على الكفر، و العصمة ما يعتصم به، و هي بين الزوجين علقة الزوجية الحاصلة بالعقد، ف: لا تقيموا على نكاح الكافرات و خلاطهن كأزواج، بعد ما انقطعت عصمة الإيمان و علقته بينكم، بإيمانكم و بقائهن على الكفر.

و حرمة الإمساك بعصمة الكافرة- و قد كانت زوجة- تتخطاه إلى حرمة النكاح البادئ- و أحرى- فلا تحل الكافرات للمؤمنين على أية حال، بداية و استدامة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

فروع الكافي ج 2 ص 133 و التهذيب ج 2 ص 274 حمران عن الباقر (ع) في ام ولد لنصراني أسلمت أ يتزوجها المسلم؟ قال: نعم، و عدتها من النصراني إذا أسلمت عدة الحرة المطلقة ثلاثة قروء، فإذا انقضت عدتها فليتزوجها إن شاءت. و رواه الشيخ بإسناده عن الحسن ابن محبوب مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 287

و هل ان الكافرات هنا المشركات، كما الآيات نازلة فيهن و في المشركين؟

أم هن و الكتابيات، لأن شأن النزول لا يخص الآية بموردها، و إنما المتبع فيها عموم اللفظ: «الكوافر» لا خصوص المورد: «المشركات»؟ وجهان أشبههما ثانيهما، فلا تحل- إذا- نكاح الكتابيات على أية حال لعموم هذه الآية.

اللهم إلا أن آية البقرة تخص الحرمة بالمشركات، فعلّها ناسخة عموم الكوافر هنا، و آية المائدة تصرح بحلّ الكتابيات، فهي ناسخة آية الكوافر، و مؤكدة ان المشركات في البقرة لا تعم الكتابيات، أو إذا عمت بما تعلّل فهي أيضا منسوخة بآية المائدة، فتحل الكتابيات على المؤمنين، و تبقى حرمة المؤمنات على الكافرين مشركين أم كتابين، على قوتها، في عموم آيتي الممتحنة و البقرة.

فآية الممتحنة حرمت المؤمنات على الكافرين: «فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ» مشركين و كتابيين، و حرمت الكافرات على المؤمنين‏ «وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ» كذلك فإن موضوع الحرمة فيها هو الكفر لا خصوص الشرك، رغم أنه مورد نزولها.

ثم آية البقرة، و إن كانت تختص الحرمة بالشرك دون مطلق الكفر: «وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (2: 221).

هذا- و لكن الغاية التي تزيل الحرمة: (حتى يؤمن .. حتى يؤمنوا) إنها تضم الكتابيين و الكتابيات إلى جماعة الشرك، إذ لم يؤمنوا و لم يؤمن، و احتمال ان الإيمان هنا هو الخروج عن الشرك فيعم الكتابي، انه- على بعده- تدفعه حكمة الحكم أو علته: «أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» مهما اختلفت نار الدعوة بين المشركين و الكتابيين، و علّ اختصاص المشرك بالذكر بحساب أنه الأصل في الحرمة، التي لا علاج لها و لا استثناء فيها، دون الكتابي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 288

و أخيرا تأتي آية المائدة- و هي آخر ما نزلت، ناسخة غير منسوخة- تأتي ناسخة لعموم الحرمة في الكتابيات فقط: «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ ..» (5: 5) فصدرها يدل على سابق الحرمة: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَناتُ».

فإنما خرجت عن حرمة الزواج الكتابيات، على شروط فصلت في الروايات دون الكتابيين على المؤمنات، فهم باقون على قوة الحرمة بعمومها في آية الممتحنة، و بما يقرب النص في آية البقرة: «أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» فسيطرة الزوج على الزوجة في مختلف الطاقات و الإمكانيات و المتطلبات تجعل لدعوته إياها تأثيرا، دون العكس، إلا بالمغريات و الملهيات، فدعوة إلى النار لها زوجها المؤمن، أو ولدها، فهذا الزواج أيضا محظور، و كما تؤيده الروايات.

و ما ألطف التشريع في هذه الآيات الثلاث، ان الاولى تعم الحرمة في الكافرات، مشركات أم كتابيات، و الثانية تعتبر موضوع الحرمة المشركين و المشركات، مع التلويح- لمكان الغاية و التعليل- إلى حرمة الكتابيات، و الثالثة الناسخة تحلل الكتابيات، و تبقي الكتابيين في عموم التحريم، و الروايات الناظرة إلى الآيات، و المفسرة لها متضاربه، بين ما يوافق هذه الآيات الثلاث و ما في مجراها فمقبولة «1» أو لا توافقها، أو تخالفها فمضروبة عرض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الوسائل 14 ب 2 ص 413 ج 6 علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم و المتشابه نقلا عن تفسير النعماني باسناده عن علي (ع) قال‏: و أما الآيات التي نصفها منسوخ و نصفها متروك بحاله و ما جاء من الرخصة في العزيمة فقوله تعالى: «وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ» و ذلك ان المسلمين كانوا ينكحون في أهل الكتاب من اليهود و النصارى و ينكحونهم حتى نزلت هذه الآية نهيا أن ينكح المسلم من المشرك أو ينكحونه ثم قال تعالى في سورة المائدة: «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فأطلق اللّه مناكحتهن بعد ان كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 289

الحائط «1» أو مردودة إلى أهلها.

و حكمة الحرمة أو علتها في آية البقرة «أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» ليست بالتي تنسخها آية المائدة أو أي ناسخ، و إنما تنسخ أصل الحرمة كضابطة عامة، مع بقاء الحرمة في موارد الدعوة إلى النار، فلا تحل الكتابية التي تدعوه للضلالة أو أولاده‏ «2»، و لا تزويجها على مسلمة، فإن لزامه سبيل الكافرة عليها بالمشاركة في حقوق الزوجية، و تسوية بينهما فيها «3»، و لا أن يتزوج مسلمة على كتابية و هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نهى و ترك قوله: «وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» على حاله لم ينسخه.

أقول: و هو مقبول على تأمل في سابق حل الكتابي ذكرا و أنثى. و مما يلائم الآيات الأحاديث المعللة لمنع نكاح الكتابيات كما

رواه عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (ع) في حديث قال: (و ما أحسب للرجل المسلم أن يتزوج اليهودية و لا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو يتنصر).

و ما رواه معاوية بن وهب و غيره جميعا عن أبي عبد اللّه (ع) في الرجل يتزوج اليهودية و النصرانية فقال‏: إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية و النصرانية؟ فقلت له: يكون له فيها الهوى، قال: إن فعل فليمنعها من شرب الخمر و أكل لحم الخنزير، و اعلم أن عليه في دينه غضاضة.

(1). كما ورد في أن آية المائدة منسوخة بآية الممتحنة،

ففي الوسائل ج 14 ص 410 عن زرارة بن أعين قال‏: سألت أبا جعفر (ع) عن قول اللّه عز و جل: «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» فقال: هي منسوخة بقوله: «وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ»

، و آية المائدة خاصة و ناسخة، لأن المائدة آخر ما نزلت، و إلا فكيف تنسخ بآية الممتحنة و هي من اوليات المدنيات؟.

(2) انظر صفحة 288 هامش رقم (1).

(3)

المصدر ص 418- محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال‏: لا تتزوج اليهودية و النصرانية على المسلمة.

و عن أبي عبد اللّه (ع) في رجل تزوج ذمية على مسلمة قال: يفرق بينهما و يضرب ثمن حد الزاني اثنا عشر سوطا و نصفا، فإن رضيت المسلمة ضرب ثمن الحد و لم يفرق بينهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 290

لا تعلم لأنه مس من كرامتها، اللهم إلا برضاها «1»، فلو أمن كل ذلك جاز نكاحها على كراهية، إلا البله المستضعفة، فلا كراهية «2»، و إلا التي يرجى إسلامها فراجح أو واجب، و الضابطة العامة هي حرمة نكاح المشركين و المشركات إطلاقا، و كذا الكتابيين، و حلّ الكتابيات كحكم ثانوي على الشروط المسبقة، و علة الحرمة «أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» تتخطى غير المسلمين إلى فساق المسلمين الذين يدعون إلى الفسق، أو لا يؤمن عليهم، ففي الحرمة هنا و هناك مراتب عدة حسب مراحل الأخطار التي يجلبها الزواج المتخلف.

و بعد إجراء هذه التفاريق بين المؤمن و الكافر في الزواج يأتي دور إجراء التعويض على مقتضى العدل و المساواة:

وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا: فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي فارقته لإيمانها، كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي ظلت كافرة أو ارتدّت، و هكذا يكون حكم اللّه بعيدا عن الجور حتى بالنسبة للكافرين، ضامنا للعدل حتى مع الظالمين: «ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

و فيما إذا لم يدفع الكافر مثل نفقة زوجة المؤمن- الفائتة- اليه، فعلى الدولة الإسلامية أن تدفع و لا سيما إذا أراد الزواج:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر ص 420- أبو بصير المرادي في حديث عن أبي جعفر (ع): فإن تزوج عليها (يهودية و نصرانية) حرة مسلمة و لم تعلم أن له امرأة نصرانية و يهودية ثم دخل بها فإن لها ما أخذت من المهر، فإن شاءت أن تقيم بعد معه أقامت، و إن شاءت أن تذهب إلى أهلها ذهبت، و إذا حاضت ثلاثة حيض أو مرت لها ثلاثة أشهر حلت للأزواج، قلت: فإن طلق عليها اليهودية و النصرانية قبل أن تنقضي عدة المسلمة، له عليها سبيل أن يردها الى منزله؟

قال: نعم.

(2)

المصدر ص 414- عن زرارة قال‏ قلت لأبي جعفر (ع): إني أخشى أن لا يحل لي أن أتزوج ممن لم يكن على أمري، فقال: و ما يمنعك من البله؟ قلت: و ما البله؟ قال: هن المستضعفات من اللاتي لا ينصبن و لا يعرفن ما أنتم عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 291

وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْ‏ءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ‏:

فقد تفوت زوجات المؤمنين إلى الكفار بانفلاتهن إليهم كافرات، أو أسرهن عندهم مؤمنات، ثم تحصل المعاقبة، فعلى الآخرين- ممن بأيديهم أزمة امور المسلمين- أن يعوضوا المحرومين عما أنفقوا مثل ما أنفقوا، فما هي المعاقبة؟

و ممن هي؟

إنها قد تكون معاقبة الزواج لمن فاتتهم أزواجهم، فإنها الوصول إلى عقبى الشي‏ء و هي هنا زواج بعد الاولى تعقبها، و كما

عن الإمام الرضا عليه السّلام: (أن يتزوج اخرى)

«1»، أو معاقبتهم أزواجهم دون أن يقدروا على رجعهن، أو معاقبتهم- بسائر جنود الإسلام- الكفار، و لكي يحصلوا على ما أنفقوا و لم يحصلوا.

و لفظ الآية يتحملها جمعاء، و القدر المتيقن منها وجوب إنفاق ما أنفق، إذا لم يحصل عليه من الكفار، و أراد معاقبة الزواج، سواء غنم المسلمون منهم شيئا أم لم يغنموا، و المتيقن من عدمه أو عدم جوازه من بيت المال، ما إذا حصل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

و في علل الشرائع بإسناده عن يونس عن أصحابه عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (ع) قال‏ قلت: رجل لحقت امرأته بالكفار و قد قال اللّه عز و جل في كتابه: «وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْ‏ءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا» ما معنى العقوبة هاهنا؟

قال: إن الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة اخرى غيرها يعني تزوجها، فإذا هو تزوج امرأة اخرى غيرها فعلى الامام ان يعطيه مهر امرأته الذاهبة، فسألته: فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها؟ و على المؤمنين ان يردوا على زوجها ما أنفق عليها مما يصيب المؤمنين؟ قال: يرد الامام عليه أصابوا من الكفار أم لم يصيبوا، لأن على الامام ان يجبر حاجته من تحت يده و إن حضرت القسمة فله ان يسد كل نائبة تنوبه قبل القسمة و إن بقي بعد ذلك شي‏ء قسمه بينهم و إن لم يبق لهم شي‏ء فلا شي‏ء لهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 292

على ما أنفق و لم يرد الزواج، و أما إذا لم يرد الزواج و لم يحصل على حقه ففيه تردد، و إطلاق المعاقبة يشمله فيؤتى من بيت المال.

ثم الخطاب الأول «فاتكم» للأزواج، و الثاني «فعاقبتم» يعمّهم و غيرهم حسب المحتملات، و الثالث «فآتوا» يخص غيرهم، فان الإنسان لا يؤتي نفسه و لا يعوض عن نفسه، و مزج الخطاب هنا و هناك يوحي بأن المسلمين إخوة لا يفرق بينهم أي فارق.

ثم يأتي مرة ثانية مكملة للأولى، دور المؤمنات في تفاصيل البيعة و موادها الأساسية:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ‏ «1»: مهاجرات و غير مهاجرات، مجيئا إليك لغاية المبايعة الإيمانية، المسرودة إليهن موادها الأصيلة مسبقا:

عَلى‏ أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ‏: كحلقة اولى من مقومات الحياة الجديدة، و هي كلها هنا سلبية توحي بأن لترك المنكرات عقائدية و عملية سبقا على فعل واجباتهما، فتلك تزكية و هذه تحلية، و الاولى هي أساس للثانية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 211- أخرج ابن جرير و ابن مردويه عن ابن عباس‏ أن رسول اللّه (ص) أمر عمر بن الخطاب فقال: قل لهن ان رسول اللّه يبايعكن على أن لا تشركن باللّه شيئا، و كانت هند متنكرة في النساء، فقال لعمر: قل لهن و لا يسرقن، قالت هند: و اللّه إني لا صيب من مال أبي سفيان الهنة، فقال: و لا يزنين، فقالت: و هل تزني الحرة؟ (في نقل آخر: فتبسم عمر بن الخطاب لما جرى بينه و بينها في الجاهلية) فقال: و لا يقتلن أولادهن، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر، قال: و لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن ...

و أخرج عبد الرزاق في المصنف و أحمد و ابن مردويه عن انس قال‏: أخذ النبي (ص) على النساء حين بايعهن ان لا ينحن، فقلن يا رسول اللّه، ان نساء أسعدتنا في الجاهلية أ فنسعدهن في الإسلام؟ فقال النبي (ص): لا إسعاد في الإسلام و لا شطار و لا عقر في الإسلام و لا خبب و لا جنب، و من انتهب فليس منا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 293

«وَ لا يَسْرِقْنَ» الأموال و النفوس و الأعراض، من أزواجهن و سواهم.

«وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ» كما كان من دأب الجاهلية و أد البنات مخافة العار أو خشية إملاق أم ماذا؟

وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَ‏: من حمل عن زنا يحمّلنه أزواجهن زورا و افتراء، فقد كانت المرأة في الجاهلية تبيح نفسها لعدة رجال شهوة و تجارة، فإذا حملت ألحقته بمن تهواه و هي تعلم من أبوه، و علّ بهتان «بين أرجلهن» يختص بإزالة البكارة إذا كانت بغير زوجها، ثم هي تفتريها على زوجها.

وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ‏: ف «ك» هنا تصريح و تلميح، تصريح للرسول خاصة، ف «في معروف» قيد توضيحي، فان كل أوامره معروفة، فلا يتقيد أمره بشي‏ء لأنه يصدر عن اللّه، و كما للّه طاعة مطلقة دون شرط، اصالة، كذلك للرسول طاعة مطلقة و لأولي الأمر المعصومين (ع) الصادرين عنه دون قصور أو تقصير، رسالة عنه.

ثم و تلميح الخطاب يعمّ غير اللّه و الرسول و أولي الأمر، الذين يحكمون بين المسلمين، فلا تجب طاعتهم إلا «في معروف»، و هذا الشرط هو أحد القواعد الأساسية في نظام الإسلام: ان لا طاعة عمياء لأحد على المسلمين إلا في المعروف الذي تقرره شريعة اللّه، إلا في اللّه و رسوله و آله، فطاعتهم مطلقة إذ لا خطأ و لا جهل و لا جور فيها إطلاقا.

و إنما نسب العصيان الى الرسول‏ «لا يَعْصِينَكَ» دون اللّه‏ «لا يَعْصُونَ اللَّهَ» و إن كانت طاعة الرسول هي طاعة اللّه‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ»، لأن طاعة الرسول تعني ما سنّة، كما أن طاعة اللّه تعني ما فرضه في كتابه، فللرسول أوامر بالولاء بما خوّله اللّه‏ «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» (4: 105) فلا يطلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يأمر أو ينهى كولي الأمر، بحجة من كتاب اللّه، لأن سنته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 294

حجة بعد كتاب اللّه، و الكل راجع إلى اللّه مهما اختلفت كيفية الصدور عن اللّه‏ «1».

و من ثم، إذا أكملن هذه الشروط: «فَبايِعْهُنَّ» كما تناسبك، (و قد قالت ام حكيم: يا رسول اللّه! كيف نبايعك؟ قال: إنني لا أصافح النساء، فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال: أدخلن أيديكن في هذا الماء) «2».

بايعهن حتى يستقبلن حياة جديدة طاهرة زاهرة، و أما بالنسبة لما مضى:

وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏: فلاستغفار الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- حيث يشفع باستغفار المذنبين- أثر عظيم في الغفران، شفعا عزيزا لا يردّه اللّه: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64).

و هنا السورة تنتهي بما بدأت به من النهي الشديد عن تولي المغضوب عليهم:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لذلك ذكرت في الأحاديث من المعروف هنا ما لا يعرف من كتاب اللّه،

فقد سألت ام حكيم رسول اللّه (ص): ما ذاك المعروف الذي أمرنا اللّه أن لا نعصيك فيه؟ قال: لا تلطمن خدا و لا تخمشن وجها و لا تنتفن شعرا و لا تشققن جيبا و لا تسودن ثوبا و لا تدعين بويل ...

فبايعن رسول اللّه (ص) على هذا.

و في بعضها أضيف البعض من أوامر اللّه ليدل على شمول‏ «وَ لا يَعْصِينَكَ» لما أمر اللّه به، كما

رواه عبد اللّه بن سنان قال‏: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه‏ «وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ» قال: هو ما فرض اللّه عليهن من الصلاة و الزكاة و ما أمرهن به من خير.

(2)

في الكافي بإسناده عن ابان عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏: لما فتح رسول اللّه (ص) مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه، فأنزل اللّه عز و جل: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ ...»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 295

علّ القوم المغضوب عليهم هنا هم اليهود و كما في آيات عدة، و قد يشهد له تنظيرهم في يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور، و هم المشركون الناكرون للآخرة، و لقد حرّم توليهم على المسلمين لأنهم تماشوا المشركين في نكران يوم الدين، أو عدم المبالاة به: «قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ»: من ثوابها بما قدمت أيديهم: «قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‏ حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» (2: 96).

فهذا يأس بحساب عدم الثواب، و لهم يأس آخر بنكران الحساب، و هو أشبه بيأس الكفار من أصحاب القبور، إذ يئسوا من حياتهم و من حسابهم بعد موتهم، فكما يئس المشركون الناكرون لحياة الحساب من أصحاب القبور كذلك اليهود يئسوا من الآخرة، رغم أن المعاد من اصول دينهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 296

(سورة الصف- مدنية- و آياتها أربع عشرة)

[سورة الصف (61): الآيات 1 الى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (4)

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (5) وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (6) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى‏ إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (8) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) وَ أُخْرى‏ تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (13) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى‏ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 297

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

مضي التسبيح في فعله: «سبح» للتدليل على أنه لزام الخلائق في ذواتهم منذ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 298

خلقوا، كما ان مضارعه: «يسبح» في سواها، للدلالة على استمراره دون انقطاع ما وجدوا، فالخلق، بما انه فعل اللّه، انه تسبيح للّه بذاته و صفاته الخلقية، يسبحه عما ينافي العزة و الحكمة «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

و من ثم فهذه التسبيحة الشاملة من الكون كله في مطلع السورة توحي بأن شريعة الإسلام- و هي الأخيرة من شرائع الدين- انها تشمل كل ألوان التسابيح للّه العزيز الحكيم، فالأمانة التي يقوم عليها المسلمون هي- إذا- أمانة الكون كله، و انها تتجاوب ما في السماوات و ما في الأرض إذ سبح و يسبح للّه كله، فالتنديد بالمؤمنين بهذا الدين، لو تركوه أو بعضه، يكون أشد مما على الخلق كله، و هنا التنديد بآية شاملة:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ‏:

تقول الآيات و الروايات إنها نزلت في جماعة من الذين آمنوا، يتمنون ان لو كتب عليها القتال، فلما كتب كرهوه و تمنوا خلافه: «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى‏ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى‏ وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا. أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (4: 78) «وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ» (4: 81).

هذا و كما توحي به التالية لآية المقت أيضا: آية البنيان المرصوص، و لكنما النصوص القرآنية أبعد مدى من الحوادث المفردة الماضية التي تنزل الآيات لمواجهتها، فعلينا أن نسير في مسيرات مدلولاتها العامة و المرسلة، دون أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 299

نختصها بمناسبات نزولها فنموّت القرآن بموتها و هو كتاب الحياة الخالدة يجري كجري الشمس.

فآية المقت تعلمنا ضابطة عامة أن القول المنافق للفعل مقت كبير، كما أن القول الموافق له واجب كل مؤمن، فليكن المعني من القول هنا هو المطلوب فعله، سابقا أو لاحقا أو على أية حال، فمن الأقوال ما يطلب تركها كالمنكرات، و منها ما لا فعل لها، فليساهما داخلين في نطاق الآية التي تندد بالذين يقولون ما لا يفعلون.

ثم القول هنا يشمل الوعد الحسن فيجب الوفاء به، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فيجب على الآمر الائتمار بما يأمر به، و على الناهي الانتهاء عما ينهى عنه، و كذلك سائر الأقوال الحسنة الواصفة للحسنات، أو المخبر بها، فلتصدّق في فعلها من قائلها، فإذا كان القول الحسن هنا و هناك و هنالك لا يجاوبه الواقع، فليترك هذا القول فإنه تقوّل انقلب سيئا و مقتا كبيرا عند اللّه إذ ينافق فعله، مهما كان حسنا عند اللّه لو يوافق فعله، إذ لا قيمة لقول لا يسنده و يسانده فعله، فإما السكوت عن هكذا قول، أم ضم الفعل إليه كما يستطاع.

فخلف الوعد مقت و لو مع الكفار غير الناقضين عهودهم، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر مقت لمن لا يأتمر فيما يأمر أو لا ينتهي عما ينهى: «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (2: 44) فهذا النفاق في الأمر و النهي إفساد، و إن كان القصد منهما الإصلاح، و كما يشير إليه شعيب عليه السّلام: «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ..» (11: 88) فتارك المعروف المأمور من قبل تاركه، و فاعل المنكر المنهي من قبل فاعله، انهما يزدادان جرأة و هتكا في حرمات اللّه، و وهنا في عقيدة الإيمان إن كانت لهما، و ان ذلك يكشف عن أن الآمر الناهي كأنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 300

مستهزء بشريعة اللّه، فهو «كالذابح نفسه» على حدّ المروي عن الإمام الصادق عليه السّلام‏ «1» كما و يذبح غيره.

و حاشا اللّه أن يأمر، او يسمح بأمر و نهي فيهما الفساد، و هو يصرح انه خلاف العقل: «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» و انه ممقوت عنده مقتا عظيما «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» فهو يستجر اللعنة بدل الرحمة كما

عن الإمام علي عليه السّلام: «لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له و الناهين عن المنكر العاملين به»

و:

«فانهوا عن المنكر و تناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي».

فالتقوّل في عدم اشتراط وجوب أو جواز الأمر و النهي بفعل ما يأمر و ترك ما ينهى، إنه خلاف العقل، و خلاف النقل كتابا و سنة، و نشبع البحث كما يجب في آياته الخاصة إن شاء اللّه.

كذلك و سائر الأقوال الحسنة المخبرة عن أفعالك، أو الواصفة لحسنات الآخرين، يجب أن تجاوب أفعالك أنت، أو تكون كذبا و مقتا كبيرا عند اللّه‏ «2»، فإنما القول تعبير عما في الضمير، أو ما تضمر من نية أو عقيدة أو فعل، فليجاوبها كما يمكن و يرام، و هو لزام الإيمان، و لذلك يخاطب به المؤمنون:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..» إيحاء بأن عقيدة الإيمان تستلزم عمل الإيمان، و إلا فلا إيمان، إلا صورته و خياله، و هذا مقت كبير عند اللّه: «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ» فمهما كان ترك الفعل الحسن لمن لا يقول مقتا، فهو ممّن يقول أشد مقتا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البرهان ج 1 ص 93 العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏ قلت له:

«أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ..» قال: فوضع يده على حلقه- قال: كالذابح نفسه.

(2)

و من ألطف ما ورد في نفاق الكذب ما رواه أحمد بن حنبل و أبو داود عن عبد اللّه بن عامر بن ربيعة قال‏: أتانا رسول اللّه (ص) و أنا صبي فذهبت لأخرج لألعب، فقالت امي: يا عبد اللّه تعال أعطك، فقال لها رسول اللّه (ص): «و ما أردت أن تعطيه»؟ فقالت: تمرا، فقال (ص): «أما انك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 301

و في تقسيم حاصر بين القول و الفعل، قد يفعل الإنسان قبل أن يقول، ففعله هو قوله قبل قوله، و إذا يقول فليس بدافع التشهر و الفخر، و إنما توجيها للآخرين، فهذا هو العليين من القول و الفعل، و قد يقول و لا يفعل، بل و يضاد فعله قوله، و هذا هو السجين منهما، ثم بينهما متوسطات من زيادة القول على الفعل دون رئاء، أو قول يجاوب الفعل و لكنه رئاء، أم ماذا، فإنما يحسن من القول ما يعتقده القائل و يفعله تماما.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ‏:

ان سبيل اللّه في كافة مجالاتها، هي سبيل مرضاة اللّه، و هي سبيل مصلحة الإنسان دينا و دنيا، مجتمعات و أفرادا، و في كل متطلباته كإنسان، فسبيل اللّه- إذا- هي سبيل صالح الإنسان، و اللّه هو الغني عن عباده و هم الفقراء إليه، و هكذا يفسر نصرة اللّه و صراط اللّه، و كلما للّه مما يؤمر به الناس.

ثم المقاتلة في سبيل اللّه ليست فوضى دون نظام و قيادة صالحة، فكما لا قتال إلا في سبيل اللّه، متحللا عن الأطماع التوسعية، كذلك لا قتال في سبيل اللّه إلا «صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ» في تضامن عن قيادة و نظام بين الجماعة المسلمة، داخل صفوف متراصة: برية و بحرية و جوية، متضامنة منضمة كل مع بعض، كما يتضامن كلّ مع صفيفه، و كلّ صف واحد، فإنهم يقاتلون تحت قيادة واحدة و نظام واحد «كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ» تتضامن أبعاضه في صميمه، مهما اختلفت شكليا و من حيث الوظائف في تصميمه.

و لو كان المسلمون أجمع، أو المسلمون العرب على أقل تقدير، لو كانوا هكذا في مواجهة ثالوث الاستعمار الصيهوني الانكلو أمريكي، و الاستحمار الروسي المناوئ له شكليا، و المساند إياه ضد المسلمين واقعيا، لو كانوا مقاتلين في سبيل اللّه صفا كأنهم بنيان مرصوص، لما انهزموا و اصطدموا من دويلة العصابات الصهيونية و عملائها المرتزقة داخل البلاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 302

و كما اللّه يحب هكذا مقاتلين، فإنه كذلك يبغض غيرهم، ممن لا يقاتل هكذا في ظروفها الموجبة، بين من يترك القتال الواجب، أو يقاتل في غير سبيل اللّه، أو في سبيل غير اللّه، أو يقاتل في سبيله منعزلا عن صف كبنيان مرصوص، كالهجمات و المدافعات الفوضى، دون نظام و قيادة، اللهم في الدفاع الفردي، دون الجماهيري، فمنذ اليوم الأول قام مجتمع إسلامي ذو قيادة مفترضة الطاعة هي قيادة الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قبل أن تقوم دولة الإسلام في المدينة المنورة، فتلك القيادة الجزئية الصغيرة الحجم ظاهرا، كانت حجر الأساس للدولة الإسلامية في المدينة و على طول الخط.

و القرآن- دائما- يبني أولا أفرادا، كما لمسناه من الآيتين الأوليين، أن يكونوا مؤمنين صادقين غير منافقين، و أن تكون حياتهم تسبيحات للّه، ثم يتبنى هؤلاء- كلبنات لبناء هيكل الإسلام- يتبناهم جماعة موحدة مسلمة رزينة رصينة متراصة، فطالما الشر عارم، و الباطل متبجح، و الشيطان يقود، من ثم يتعين على حملة الإيمان و حرّاسه أن يكونوا نبهاء أقوياء ليغلبوا عملاء الشيطان، و لكي يقاتلوا في سبيل اللّه وحده، فيما لا سبيل للحراس على كيانهم إلا القتال وحده، فاللّه سبحانه و تعالى لا يتشهّى القتال، و لا يشهّي المؤمنين- فيه، و إنما يفرضه فيما يحتمه الواقع، و لدافع مدقع، حفاظا على الكرامة، و حسما لمواد الفساد التي لا يحسمها إلا القتال، ممن يقاتلون في سبيل الله‏ «صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ»: بنيان تتعاون لبناته، و تتضامّ متماسكة، تؤدي كل لبنة دورها و تسد ثغرتها، و لكي يسدوا ثغور الإسلام عن هجمات الكافرين.

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ‏:

«وَ إِذْ قالَ ..» علّها عطف على أذى الرسول من بعض المؤمنين، و هم الذين يقولون ما لا يفعلون، أم و على سائر الأذى طوال تاريخ الرسالات من قبل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 303

المناوئين ضد رجالات اللّه، و في هذه التذكارات تسلية لخاطر النبي الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه ليس وحده يؤذى بين المرسلين، و ثانية بما يزيغ اللّه قلوب الزائغين، ثم في آية البشارة التالية يبشره أنه مبشر به من قبل السيد المسيح، و يخبره بكيد الفاسقين المتخلفين عنها، ذاكرا فيها رسالة عيسى التي هي امتداد لرسالة موسى، و ممهد للرسالة الأخيرة المحمدية.

«وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ..»: فقد آذوه ألوان الأذيات‏ «وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ» و أذية رسول اللّه هي أذية للّه، و هي تستجر اللعنة في الدنيا كإزاغة القلوب، و في الآخرة بألوان العذاب: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً» و 33: 57).

«فَلَمَّا زاغُوا»: مالوا و انحرفوا عن حق الطاعة، و انجرفوا إلى باطل العصيان، «أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»: ان ترك هدايتهم، إذ أبعدهم عن جنابه و خلاهم و ما يختارون، و وكلهم إلى أنفسهم، كما و يجاوبه ذيل الآية كتعليل للإزاغة:

«إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ»: فالذي يفسق عن أمر ربه، و يزيغ بعناد و عتاد عن طاعته، انه لا يستحق الهداية الإلهية، التي هي جزاء لقبول الهداية و استقبال الهداة، اللهم إلا تسييرا للهداية و هو مذموم، كما التسيير للضلالة مذموم.

فإذ ينسب اللّه الإزاغة بعد الزيغ إلى نفسه، لا يعني منها الدفع إلى ضلال اكثر، و إنما ترك التوفيق و الهداية الثانوية، فانها خاصة بالمهتدين: «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً» (18: 13).

و إذ يسترجي الراسخون في العلم أن لا يزيغ اللّه قلوبهم: «رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا» (3: 8) فالمعني منه: أدم لنا ألطافك و عصمك لتدوم قلوبنا على الاستقامة، و لا تزيغ عن مناهج الطاعة، دعاء مستجاب للمؤمنين بفضل اللّه و رحمته و كما وعدهم‏ «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»

و كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 304

فالهداية الاولى: دلالة الطريق- أوجبها اللّه على نفسه عدلا، و الثانية:

إيصال الطريق فضلا، فهذه تستوجب الدعاء دون الاولى الحاصلة دون دعاء.

وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ‏:

آية بينة عديمة النظير في القرآن من حيث البشارة الصريحة التي تحملها عن السيد المسيح عليه السّلام، تؤيدها عشرات من آيات البشارات العامة في القرآن، و في سائر كتابات الوحي، تنقبنا عنها في مؤلفنا الخاص بها «1».

و مما يجلب النظر في هذه الآية أنها تحصر رسالة السيد المسيح في مهمتين اثنتين أو أنهما من أهمها: تصديق التوراة، التبشير بخاتم النبيين، و في الحق لم تكن الرسالة الإنجيلية مستقلة عن شريعة التوراة، و كما يصرح في آيات أنه بعث بشريعة التوراة و زيادات أخلاقية و تحليل بعض ما حرّم على اليهود تأديبا «2» ثم البشارة الأحمدية- التي يلمح لها في الإنجيل ببشارة الملكوت- هي المهمة الثانية، طالما هي الاولى في الدعوات الرسالية لأنها الأساس في الرسالات الإلهية من آدم إلى السيد المسيح و من بينهما.

و بما ان التبشير هو الاخبار السارّ، و ليس مجي‏ء رسول بذهاب آخر بشرى سارة إلا إذا كان أفضل منه، و شريعته أكمل من شريعته، فآية البشارة هذه تفضل المبشّر به على المبشّر، و كما ان «أحمد» في نص البشارة تدل على ذلك:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رسول الإسلام في الكتب السماوية و هو يضم تسعة و خمسين بشارة من الكتب السماوية بصورة المناظرة مع علماء أهل الكتاب، و لقد بشر فيها ب: «أحمد- محمد- بمئد مئد- قدوس» كما ذكر مولده و صفاته و دعوته و سائر ميزاته.

(2) راجع سورة الجن في الآية «إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 305

انه أحمد و أفضل من المسيح و من قبله من حملة الرسالات.

«و» أذكر بين ذكريات الرسالات المعرقلة من قبل المناوئين، و البشارات المكذوبة بهم‏ «إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» و طالما النبيون و غيرهم لا يذكرون بنسبة الآباء و الأمهات في القرآن، لأن بناء شخصية الإنسان ما يتبناه هو لا سواه، نرى السيد المسيح ينسب إلى امه، لا لإثبات شخصية روحانية له من قبلها، و إنما لإثبات آية خارقة إلهية هي ولادته دون أب، و للذود عن ساحة مريم (ع) إذ نسبت إلى الزنا، فليس المسيح ابن رجل لا حلالا و لا حراما، إنما ابن باكرة طاهرة! إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ‏ و لا تعني «إليكم» تخصيص الرسالة الإنجيلية ببني إسرائيل، و إنما هم المحور و المنطق الأول لهذه الرسالة، يجب أن تتخطاهم إلى العالم كله، كما تناصرت بذلك الآيات القرآنية و الإنجيلية سواء «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ» لا «ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ» فأين ما بين أيديهم من التوراة المحرفة: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» (2: 79)، أين هو مما بين يدي المسيح من خالص وحي التوراة: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ» (5: 44) و إن كان فيما بين أيديهم الشي‏ء الكثير مما بين أيدي السيد المسيح، و بذلك يحتج عليهم، و بذلك يستقر بهم الى دعوته.

وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ:

ان (أحمد) هو (محمد) في نص البشارة و معناها، فإنها حسب النص اليوناني (بيركلتوس): كثير الحمد- المترجم إلى (أحمد و محمد) سواء، فإن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 306

الأفعل و المفعّل من مادة الحمد، أو أية مادة، يفسران بمعنى واحد رغم اختلاف الصيغة، و إن كان أحمد أفضل بحكم (أفعل) و من القريب ان اسم المبشر به على لسان السيد المسيح كان (أحمد) ثم يوحنا الذي ألف انجيله باللغة اليونانية، ترجمه إلى ما يفيد معناه في لغة (بيركلتوس).

هذا- و إن كان المحرفون الكنسيون حرفوا (بيركلتوس) أيضا إلى (باراكلتوس) ليحولوا محمدا إلى المسلّي، و لكنما ألفاظ البشارة نفسها تنأبى إلا أن تكون بشارة برسول بعد السيد المسيح عليه السّلام هو أعظم منه و أكمل- كما و أن البشارة لغويا تلمح بأنه أكمل منه و ممن قبله أيضا، فهو إذا رسول، لا روح القدس الذي كان معه، و هاكم نص البشارة حسب الأصل السرياني المترجم عن الأصل اليوناني:

في يوحنا 14: 16 (و أنا بت طالبن من ببي و خين پارقليطا بت يبل لو خون هل أبد).

(و أنا أطلب من الآب (الخالق) فيعطيكم (بيركلتوس) آخر ليمكث معكم إلى الأبد- روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه و لا يعرفه و أما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم و يكون فيكم).

و في يوحنا 15: 26 (إين إيمن دأتي پارقليطا هود أنا شادو رون لكسلو خون من لكس ببّي روخاد سر ستوتا هود من لكس ببّي پالت هو بت يبل سهدوت بس ديّى).

(و متى جاء (بيركلتوس) الذي سأرسله أنا إليكم من الآب (الخالق) روح الحق من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي و تشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء).

و في يوحنا 16: 7- 15 (إلا أن سر ستوتا بمرون إلّو خون و صپايلا قتوخون دأن لا أزن سبب د أن لا أزن پارقليطا لي أتى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 307

لكسلو خون إين إن أزن بت شادرنّه لكسلو خون).

«لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق. لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم (البيركلتوس)، و لكني ان ذهبت أرسله إليكم، و متى جاء يبكت العالم على خطية و على بر و على دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. و أما على بر فلأني ذاهب إلى خالقي و لا ترونني أيضا. و أما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين: ان لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم و لكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. و أما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به و يخبركم بأمور آتية و يمجدني لأنه يأخذ مما لي و يخبركم. كل ما للأب هو لي، لهذا قلت انه يأخذ مما لي و يخبركم» «1».

ان (بيركلتوس) هنا و هناك، نصا و مواصفات، لا تنطبق إلا على الرسول الأقدس (أحمد) محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مهما حاول المحولون المحرفون الكلم عن مواضعه، ان يحرفوها عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فالحق يتجلى كالشمس بين ظلمات الأباطيل و زخرفات الأقاويل.

و لقد صرح بعض الخبراء باللغة اليونانية من المستشرقين‏ «2» و معهم بعض‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نقل الترجمة عن اللغة اليونانية سنة 1906- الكتاب المقدس- و نحن نقلناها هنا حرفيا إلا ترجمة البار قليطا، و الترجمة هنا تزيد عن الأصل السرياني، إذ المقصود من نقل الأصل الإشارة إلى نص «بار قليطا» و إلا فالأصل الأولي يوناني، و قد ترجمنا «الآب» ب «الخالق» حسب ما تعنيه في اللغة اليونانية خلاف الترجمات الإنجيلية التي تطلب من (الآب) أن يكون (الأب) لكي يصبح المسيح ابنه.

(2) كالدكتور (كارلونلينو) المستشرق الطلياني إذ يسأله فتحي عثمان- كما في كتابه (مع المسيح في الأناجيل الأربعة ص 348) قلت له: ما معنى بيركلتوس؟ فأجابني بقوله: ان القسس يقولون معناها المعزي، فقلت: إني اسأل الدكتور (كارلونلينو) الحاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، فقال: ان معناه: الذي له حمد كثير، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل حمد؟ فقال: نعم- فقلت ان رسول الإسلام من أسمائه احمد!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 308

الكتاب المسيحيين المبشرين‏ «1» ان (بيركلتوس) اليونانية تعني: الذي له حمد كثير: (أحمد- محمد)، مهما حاول الآخرون أن يجعلوها (باركلتوس) لكي تعنى المسلي حتى يتخلصوا عن محمد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتسلوا إلى روح القدس المزعوم الذي يوحي لهم كما يشتهون، فيصبحوا أنبياء يوحي الكنيسة من الروح، إلا أن تواجد الاولى في الترجمات الإنجيلية قبل الإسلام، ثم تحرّفها إلى الثانية بعد الإسلام مما يكشف عن مدى ميدهم عن حق البشارة إلى باطل يهوونه، غلطة عامدة تجرهم إلى غلطات.

و مما يدلنا تاريخيا ان المبشر به هنا نبي بعد السيد المسيح لا روح القدس المسلي دعوى جماعة من المسيحيين انهم (بيركلتوس) الموعود المنتظر «2».

و من ثم مواصفات المبشر به في آياتها تحيل أن يكون هو روح القدس المسلي، فإنه: (بيركلتوس آخر) (يوحنا 14: 16) و روح القدس واحد ليس معه و لا بعده آخر، فانما هو نبي آخر، حيث الحمد الكثير يحمله النبيون أجمع فهم كلهم معنويا: (بيركلتوس): أحمد، و إن كانوا في ذلك درجات، ثم النبي الآخر له من معناه النصيب الأوفر، لحدّ خص باسمه دونهم (أحمد- محمد) مهما شاركوه في درجات أدنى من معناه: الحمد الكثير!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كعبد المسيح في ينابيع الإسلام ص 152 حيث يقول: زعم العرب ان فار قليطا معرب بريكليطوس و لكنه من بار اكليطوس، و كالاستاذ الحداد في كتابه مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي.

(2) يقول و ليم ميور في كتابه لب التاريخ ط 1848- ان «منتنس المسيحي الذي كان رجلا تقيا شديد الرياضة ادعى في آسيا الصغرى اني فارقليط موعود المسيح الذي تنتظرونه فآمن به طائفة منهم، و يقول أيضا: ان اليهود و النصارى زمن محمد كانوا بانتظار النبي الموعود فار قليطا فاتخذه محمد ظرفا صالحا للادعاء اني أنا فار قليطا موعود المسيح.

و في التواريخ و الآثار: انه لما كتب الرسول محمد (ص) كتاب الدعوة إلى الإسلام للنجاشي، انه لما وصله الكتاب قال: أشهد باللّه انه هو النبي الذي ينتظره أهل الكتاب و كتب في جوابه:

أشهد انك رسول اللّه (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 309

و لئن سئلنا لماذا بشر بأحمد؟ و محمد أشهر! فالجواب: ان (بيركلتوس) اسم وصفي عني به محمد وصفا في: (بيركلتوس آخر): نبي آخر، فان النبيين كلهم محمّدون أوصافا إذ يحملون الحمد الكثير، مهما حمله محمد الأخير اسما و وصفا و كما في نص سليمان عليه السّلام (و كولو محمّد يم): و كله محمد: اسما و وصفا و خلقا و دينا و في كل شي‏ء «1»، ثم و عني به أحمد في سواه‏ «2» إذ قصد تفضيله على السيد المسيح و سواه كما في النص الثالث الآتي شرحه، فأحمد هو الأفضل إطلاقا في حمل الحمد، و كما هو حامل لواء الحمد يوم القيامة.

و مما يفضل به هذا المحمد الآخر انه الأخير من مواكب الرسالات الإلهية أيضا: «فيعطيكم بيركلتوس آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا 14: 16) ف (كم) هنا لا يعني- و محال أن يعني- الجماعة المخاطبين زمن المسيح فقط، إذ لم يكونوا مؤبدين بأشخاصهم، و كما أن أبدية المحمد الآخر هي أبدية الشخصية الرسالية لا الشخص، فهو خاتم النبيين.

و سمة أخرى ل (بيركلتوس) يعنى فيها (أحمد) «انه خير لكم أن أنطلق لأنه ان لم انطلق لا يأتيكم (بيركلتوس)» فهل ان روح القدس خير من السيد المسيح حتى يصبح ذهابه لمجي‏ء الروح خيرا لهم؟ أم و إذا كان خيرا منه، أ ينفصل عنه و لحد استحالة الجمع بينهما؟ «إن لم انطلق لا يأتيكم» و هذه تصريحة بينة ان المبشر به كائن مستحيل الاتصال بالسيد المسيح، و إذا كان هو روح القدس المتصل بالنبيين أجمع، استحالت نبوة السيد المسيح، فالذين يحاولون في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في نشيد الأناشيد 5: 15 «حكو ممتقيم و كولو محمد يم زه دودي و زه رعى بنت يرشالام، أي: فمه حلو و كله محمد هذا محبوبي و هذا ناصري الذي يرعاني يا بنات أورشليم.

(2) إذا فلا يتم في «احمد» رغم ما يتقوله الأستاذ حداد في (مدخل إلى الحوار الاسلامي المسيحي) بقوله: اسم النبي العربي في القرآن هو محمد كما يرد في أربع آيات: (3: 144) (33: 40) (47: 2) (48: 29) لذلك فوروده بلفظ احمد مرة يتيمة مشبوه و لا يعرفه الواقع التاريخي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 310

تحويل أحمد إلى روح القدس، انهم يحيلون نبوة السيد المسيح في الوقت ذاته، إذ أحال المسيح مجي‏ء (بيركلتوس) لو لم يذهب هو، و جنّد ذهابه لمجي‏ء (بيركلتوس) فهل هو إذا روح القدس ملازم النبيين، و ملازم السيد المسيح طوال رسالته؟! إنه أفضل من السيد المسيح إذ اعتبر ذهابه خيرا لغاية مجي‏ء (بيركلتوس) و لأنه (أحمد) أفضل منه محامد و ممن سواه، فليكن من أفضل أولى العزم من الرسل، و من شهود هذه الأحمدية: «و لكن متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يوحنا 16: 13) مما يوحي أن السيد المسيح لم يرشد إلى جميع الحق، و لأن حامل هذا الإرشاد الشامل، شرطه أن يحمل الحمد الشامل:

أن يكون (أحمد) ليرشد العالم مع الأبد إلى كل خير، كما و أن لفظ البشارة (أحمد) يوحي بهذه الأفضلية الأحمدية.

لذلك، و أن المبشر به يحمل الرسالة الأخيرة التي هي الرسالات كلها و زيادة نرى السيد المسيح يردد تأكيده به في توصيات: «الآن قلت لكم قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون» (يوحنا 14: 29).

و أنه يعتبر حفظ وصاياه من شروط مجي‏ء (بيركلتوس): «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. و أنا أطلب من الخالق فيعطيكم (بيركلتوس) آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا 14: 15- 16).

و لقد عبر عن أحمد في نص يوناني آخر ب (ايودكيا) كما في (لوقا 3: 14):

«و ظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين يسبحون اللّه و يقولون: الحمد للّه في الأعالي و على الأرض (إسلام) و للناس (احمد)، رغم ان التراجم تقول:

«و على الأرض السّلام للناس الذين بهم المسرة» و كما هو دأبهم في تحريف الترجمات عن البشارات المحمدية.

فهم يترجمون (ايريني) ب (سلام) و (ايودكيا) ب (مسرة) رغم انهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 311

(إسلام و احمد) حسب الأصل اليوناني واقعيا و لغويا.

واقعيا لأن الأرض لا تحمل السّلام التام ما دام فيها تضارب العقائد و الأحكام.

فهذا هو السيد المسيح عليه السّلام يقول عن سلام الأرض: «ما جئت لألقي سلاما على الأرض بل سيفا» (متى 10: 34) «جئت لألقي نارا على الأرض أ تظنون أني جئت لألقي سلاما؟ كلا! أقول لكم بل انقساما» (لوقا 12: 53).

إذا ف (ايريني) على الأرض ليس سلامها، و إنما هو إسلامها الذي سوف ينتهي إلى سلامها التام في دولة القائم المنتظر عليه السّلام: ملكوت اللّه الذي يلتمسه المسيحيون في صلواتهم ليل نهار، و الملائكة تعني بهذا الهتاف ان (أحمد) سوف يؤسس الإسلام على الأرض فيشملها كما الحمد للّه شامل في الأعالي.

و لغويا: الحق ان (ايودكيا) مركبة من (ايو- دكيا) ايو بمعنى: حسن، جيد، صالح، مرحي، حقيقي، حسن ملاحة- و (دوكيا) لم نجدها هكذا في كتب اللغة و إنما (دو كوئه) أي: الحمد، الاشتهاء، الشوق، الرغبة، البيان، الفكر، ثم الصفات المشتقة من (دوكسا): و هي، حمد، محمود، ممدوح، نفيس، مشتهي، مرغوب، مجيد، و المركب من هذين هو «محمد و أحمد».

كما و ان الأصل العبراني (شلم حمد) هو الإسلام و أحمد، لا السّلام و المسرة، و إن كان الإسلام و أحمد سلاما و مسرة للمؤمنين‏ «1».

هذان الأحمدان طرف من البشارات الإنجيلية بجنب العديد من البشارات المحمدية في التوراة و الإنجيل نتحدث عنها في طيات آياتها إنشاء اللّه تعالى و منها ما في كتاب أشعياء (42: 10) «يسبحون الرب تسبيحا جديدا و يبقى أثر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه تفصيل القول حول «بيركلتوس» و «ايريني ايودكيا»، ننقله عن الأب عبد الأحد الآشوري العراقي من كتابه «الإنجيل و الصليب» ط القاهرة 1351 ه نقله عن التركية إلى العربية مسلم عراقي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 312

سلطانه بعده و اسمه (أحمد)» «1».

هكذا يترجم الآية القسيس أو سكان الأرمني، بعد الآيات السابقة لها، المبشرة برسالة عالمية من نسل قيدار بن إسماعيل، و أحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من ولده.

و هكذا يبشر السيد المسيح بني إسرائيل و الحواريين بالرسالة الأحمدية المحمدية، مفضلا له على نفسه و سواه، و انه يستقل بشريعة عالمية خالدة فيها تبيان كل شي‏ء:

كما بشر به النبيون من قبل:

فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ‏: بينات فيما بشر به من اسمه و سماته و صفاته، و آيات بينات في كتابه تبين بوضوح انه من عند اللّه العزيز الحكيم، و بينات في تشريعاته و تصرفاته، بحيث أصبح كله بينات، و لكنهم لحقدهم العصيب‏ «قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ» ترى كيف تكون الحقيقة إذا كانت البينات الأحمدية سحرا؟! ان صيغ البشارة بالنبي الآتي، التي نعهدها من حملة الرسالات الإلهية، تصور لنا حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، و هي وحدة متماسكة في أصلها و اتجاهها، مهما اختلفت في شكلياتها حسب المقتضيات، انها ممتدة من السماء إلى الأرض، و بشارة السيد المسيح ثابتة بهذا النص، سواء تواجدت في الأناجيل الحالية أم لا، و لكنها موجودة كما عرفناه و إن كان عليها سمة التحريف فإن نور اللّه لا يطفئ مهما حاول الكافرون في إطفائه.

و بشارة السيد المسيح لا تختص باسم (أحمد) و إن كانت أفضلها إذ يحمل تفضيله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. فالنص «و إذ قال» مما يدل على انه من بشاراته، لا «إذ كان يقول» حتى تدل على انه كان (أحمد) دائما، بل و (محمد) أيضا.

هنا نلفت أنظار الذين يقولون: اننا مسيحيون، ثم لا يؤمنون بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع (رسول الإسلام) ص 58- 61.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 313

انهم ليسوا بمسيحيين أيضا إذ رفضوا بشارته و تركوا وصيته في محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أما الذين آمنوا به فهم حقا مسيحيون و مسلمون إذ آمنوا به تطبيقا لوصية السيد المسيح عليه السّلام.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى‏ إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ‏:

المفترون على اللّه الكذب فرق شتى، بين مفتر لا يعلم، و متجاهل يعلم، و عالم لا يجهل و لا يتجاهل، و إنما يفتري علما و عنادا فلا أظلم منه، و منهم من يدعى إلى الإسلام، بحجة البشارات الصادقة لرسول الإسلام، و بسائر الحجج القاطعة للأعذار، و رغم كل ذلك يفتري على اللّه الكذب، في تكذيب رسوله المبشر به من قبل، و تكذيب رسالته التي تحمل كافة بينات الصدق، فمن أظلم منه‏ «وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» إذ لا يريدون الهداية و يرفضون الهداة.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ‏:

نور اللّه هنا هو الرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنه نور الأنوار الرسالية، و هو القرآن:

«فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (7: 157) «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» (9: 32).

و الفرق بين «ليطفئوا» و «أن يطفئوا» أن في الأول الإرادة واجهة لأمر يتوصلون به إلى إطفاء نور اللّه، كنكران البشارات، و تسحير المعجزات، و لكي يطفأ النور المحمدي، و في الثاني القصد إلى إطفاء نور اللّه بالقضاء على النبي و دعوته قصدا بالذات.

فرغم محاولات الكافرين و حيلهم في إطفاء نور اللّه، ان اللّه حتم على نفسه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 314

إبقاء نوره و إتمامه، و كما نرى البشارات المحرّفة بأيدي الدس و التحريف، انها تدلّ على تحرّفها، و تدلّ من خلاله دلالات بيّنة على صاحب الرسالة السامية محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تفضح المحرفين، فالذين حوّلوا (بيركلتوس): أحمد- إلى (باركلتوس): المسلي، لكي يحوّلوه عن أحمد الرسول إلى مسلي الروح، فهل باستطاعتهم تحويل صفاته و سماته إلى غيرها؟ لذلك ظلّت هذه البشارة الأحمدية مشرقة دائبة خارقة ظلمات التحريف و التجديف! و هي الإرادة ليطفئوا نور اللّه، و كذلك إطفاءه بالقضاء على الدعوة الإسلامية، فإنها مطلّة على العالم أجمع و طالعة ما طلعت الشمس و غربت، لا تطفئ نوره و لا ذاته و صفاته.

إنه نص يرثي الكافرين مستهزئا بهم، فما قولهم بأفواههم‏ «هذا سِحْرٌ مُبِينٌ» إشارة الى المعجزة التامة الكافلة، إلا كمن يحاول إطفاء نور الشمس بنفخة من فيه، فما أفضحه و أعجزه من هؤلاء الضعاف المهازيل!.

فالنار هي التي تطفأ مهما طالت زبانيتها، و لكنما النور، المستمدة من نور اللّه و إرادته، إنها ليست بالتي تطفأ، و إنما تزداد إشراقا و تهاما رغم تطاول الإطفائيات الطائلة الجاهلة، مهما يخيّل للطغاة الجبارين، و للأبطال المصطنعين بأيدي و على أعين الصليبيين و الصهاينة المجرمين، أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد.

ترى ان اللّه تطفأ ذاته النورية بإطفاء الكافرين؟ فكذلك نوره، فإنه طالع من مطلع ليس له أفول و هو الحضرة الإلهية: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِي‏ءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى‏ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ. فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ. رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ» (24: 37).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 315

و من أرجل و أبطل هؤلاء الرجال الأنوار، الرسول الأقدس محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته الطاهرون المعصومون كما وردت بذلك متواتر الآثار.

إنه ليس إتمام النور المحمدي بإبقاء شخصه حيّا، و لا ببقاء دينه حينا سليما عن النقص و النقض، و إنما هو إظهاره على الدين كله: أن يحكم العالم أجمع و لو كره الكافرون و المشركون:

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ‏ «هُوَ الَّذِي‏ ... وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (48: 28).

«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ»: كأنه الرسول لا سواه، فمن هكذا إضافة يستفاد الحصر، و لأنه يحمل الرسالات الإلهية و زيادة خالدة «بِالْهُدى‏»: كل الهدى التي تتطلبها و تحتاجها الحياة العقلانية و أضرابها على طول الخط، دون نقص أو نسخ‏ «وَ دِينِ الْحَقِّ»: دين للحق: الثابت- لا «الدين الحق» لأن رسل اللّه كلهم مرسلون بالدين الحق، ف «دين الحق» هو الثابت من الدين الذي ليس له دور خاص و لا جماعة خاصة، فدوره شامل ما دامت هذه الحياة قائمة، و جماعته هم المكلفون أجمعون، حق بكافة معانيه: ثبوتا و جاه زلازل التشويهات و التمزيقات و التحريفات، و ثبوتا تجاه النسخ بشريعة اخرى إلهية، فإنه لا شريعة بعده، فهو حق يجري في مجاري الحياة جري الشمس.

فلقد حرفت الكتب الإلهامية الاخرى، و انتهت لحال لا تصلح معها لشي‏ء من قيادة الحياة، و حتى لو ظلت سليمة عن التحريفات، فهي نسخة سابقة مؤقتة لأدوارها المحددة لها، لا تشمل كافة طلبات الحياة المترامية الأطراف، المتجددة دائبة، فليست هي «دين الحق» مهما كانت «الدين الحق».

و «دين الحق» هكذا يستحق الظهور على الدين كله، و كما جعل غاية لحقه:

«لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»: على الدين الباطل كله: الطاعة الباطلة، و هي شرعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 316

الشيطان، و على الدين الحق كله‏ «1»، إذ ينسخ الشرائع كلها، و يكمّلها، فلا يبقى دين إلا دين الإسلام، و كما وعدناه في دولة القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السّلام الذي به يملأ اللّه الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا.

إن جذور و مؤهلات هذه الغاية متواجدة في شريعة الإسلام، مهما لم تتحقق زمن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خلفائه حتى الآن ظهورا على الأديان، و لكنها سوف تتحقق في الدولة المحمدية الأخيرة التي يبتدء بها مؤسسا لها حفيده المهدي المنتظر عليه السّلام‏ «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»: ظهورا و غلبا شاملا بدينه و كتابه، و بشخصيته الرسالية، مهما قضى شخصه نحبه، و انقضى دوره كشخص، و لكنه مستمر في دعوته، في كتابه و كيانه، في خلفائه الأوصياء الأوفياء، فيمن تخضع له الأمم كما بشرنا به في كتابات السماء «2».

إن الديانات الاخرى، من حق و باطل، ليست لها مؤهلات الغلبة الشاملة، و تأسيس دولة موحدة عالمية، لا في ذواتها، و لا في زعاماتها، و لكنما الإسلام يملك هذه الأهلية فيهما معا، فدستوره العالمي هو قرآنه الكامل، الحافل لكافة متطلبات الحياة، و قيادته العالمية هي الظاهرة في رسوله و أوصيائه، و الباهرة أخيرا في القائم المهدي عليه السّلام‏ «وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»: الذين يشركون باللّه في طاعته و عبادته، في دينه و حكمه، فليحكم دين اللّه وحده، ظاهرا على الدين كله‏ «وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» إذ يشهد في كتاباته ببشارات تتلاحق بحق هذا الدين و هذا الظهور، و إذ يشهد بما يؤيد أهل هذا الدين فيما يأملون، من كانوا يعلمون و يعملون، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

تفسير البرهان 4: 330- عن أبي الفضيل عن أبي الحسن الماضي (ع) في الآية قال‏: يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم (ع).

(2) راجع (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه بشارات عدة بشأن القائم المهدي (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 317

إن الإسلام ليس فكرا أو نظرية في بطون الكتب، تترسمها الأجيال فيعيشوا الخيال بعيدا عن الواقع، إنما هو دين الحياة الواقعة، حقيقة في عالم الواقع، ما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين حين و آخر، و تنبض و تنتفض قائمة على جذورها المجردة عن الأباطيل، رغم كل ما جرّد على الإسلام و المسلمين من كيد و حرب و تنكيل، و ظهرت قوة و حقيقة و نظاما على سائر الدين قدر ما أظهرتها جماعتها، فدانت لها معظم الرقعة العامرة مدى قرون من الزمن .. و إلى أن يدين لها كل المعمورة طوعا أو كرها بقوة النور و النار، طوع الأبرار و كره الأشرار «وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ‏ الْمُشْرِكُونَ».

إن إتمام نور الإسلام ليس إلا في زمن يشمل العالم كله، فيرتفع فيه علم الإسلام مرفرفا لا ندّ له و لا ضد، و كما

سمع علي عليه السّلام يقول تفسيرا لهذه الآية:

(كلا و الذي نفسي بيده حتى لا يبقى قرية إلا و ينادى فيها بشهادة أن لا إله إلا اللّه و أن محمدا رسول اللّه بكرة و عشيا)

«1».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى‏ تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير العياشي بالإسناد عن عمران بن هيثم عن عباية انه سمع أمير المؤمنين (ع) يقول في الآية: أظهر ذلك بعد؟ قالوا: نعم. قال: كلا ...

و عن ابن عباس في الآية قال: لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي و لا نصراني و لا صاحب ملة إلا صار الى الإسلام، حتى تأمن الشاة و الذئب و البقرة و الأسد و الإنسان و الحية، حتى لا تقرض فارة جرابا و حتى توضع الجزية و يكسر الصليب و يقتل الخنزير، و هو قوله تعالى:

«لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» و ذلك يكون عند قيام القائم (ع).

و عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر (ع) في الآية قال‏: يظهره اللّه عز و جل في الرجعة (تفسير البرهان 4: 330).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 318

هنا إيمان أول هو رسمه و صورته قبل أن يتعرّق في القلوب، و هو الإيمان التقليدي، فهو لا ينجي- بمجرده- من عذاب أليم، إنما هو رأس مال يتجر به، و التجارة تصرف في رأس المال طلبا للربح، و هذا الإيمان الأول هو رأس مال لربح الإيمان العريق باللّه و رسوله و الجهاد في سبيله بالأموال و الأنفس، ثم هذا الربح أيضا رأس مال لتجارة ثانية و ربحها النجاة من عذاب أليم، تجارة متسلسلة ترجع لآخر المطاف الى نجاة قاطعة عن حياة بئيسة في الدنيا و في الآخرة، دون اختصاص بالأولى، مهما كانت في الآخرة أتمّ و أولى.

إنها تجارة من رأس مالها أنفس المؤمنين و أموالهم- و هي من اللّه-: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ‏ ... فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ» (9: 111).

فبأنفسهم يؤمنون باللّه و رسوله ثانيا، و يفتدون بهما في سبيل اللّه مجاهدين، و بأموالهم كذلك يجاهدون صرفا لها في سبيل اللّه، و لكي تصبح حياتهم المؤمنة كلها قنطرة و سبيلا للّه دون أن يكون لغير اللّه فيها نصيب.

في آية التجارة تقدّم الأموال لتقدّمها في تقديم المجاهدين بالعدد المكافحة، ثم إذا نفدت الأموال أو ما كفت أو ما أفادت لحسم جذور الفساد، فلتقدّم الأنفس فداء بعد الأموال في سبيل اللّه، و في الآية الثانية تقدّم الأنفس لأنها الأصل في الجهاد، و إذا قدّم الأصل فتقديم الفرع- و هو المال- سهل.

و من عوائد هذه التجارة غفر الذنوب و دخول الجنة، إيجابا للرحمة بعد البعد عن العذاب:

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ‏:

فغفر الذنوب كلها «ذنوبكم» الغابرة و الحاضرة- و هي صغائر المعاصي- إنه رهين هذا الإيمان العقائدي و العملي التام، فإنه يضم كبائر الطاعات فعلا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 319

«إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» (11: 114) و كبائر المعاصي تركا: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31)، ثم بقية حاضرة بجنب أمثالها و المستقبلة:

وَ أُخْرى‏ تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ‏:

و تجارة و عائدة أخرى، تحبونها هنا «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ» إذ تنصرون دينه‏ «وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ»: فتح مكة المكرمة و هو فتح الفتوح فيما مضى، و فتح القائم المهدي عليه السّلام‏ «1»، و هو أشمل، و إن كان متأخرا بزمن، فكل آت قريب.

فقد تربحكم هذه التجارة في الحياتين‏ «وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» بهذه الفتوحات و الأرباح الدائبة، و إنما المؤمنين المجاهدين بكل ما لديهم من إمكانيات، لا القاعدين.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى‏ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ‏:

هذه المقالة من السيد المسيح هي لما أحسّ منهم الكفر: «فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى اللّه قال الحواريون نحن أنصار اللّه آمنّا باللّه و اشهد بأنّا مسلمون. ربنا آمنّا بما أنزلت و اتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (3: 54).

كون الإنسان من أنصار اللّه و الأنصار إلى اللّه لا يعني أن اللّه بحاجة إلى نصرة في ذاته أو صفاته أو أفعاله إلى عباده الضعفاء المهازيل، و إنما يعني نصرة الإنسان نفسه في صالحه الحيوي بكافة مجالاتها، الذي لا يصلح إلا بإرادة اللّه و دلالته، فليس بإمكان الإنسان أيا كان أن ينصر نفسه إلا على ضوء شريعة اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في الآية: يعني في الدنيا بفتح القائم (ع)، و أيضا فتح مكة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 320

المسنونة لصالح الإنسان، و توفيقه الذي يرافقه فيه: «وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (6: 153).

و من نصرة اللّه نصرة رسوله الدال عليه، السالك سبيله: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى‏ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي» (12: 108) كما و التنظير: «كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ» يوحي بأصالة هذه النصرة في نصرة اللّه، فكونوا أنصارا لرسول اللّه في الدعوة و الاتجاه الى اللّه، و تطبيق و نشر شريعة اللّه، في صفوف متراصّة رزينة رصينة صامدة لا تنفصم: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (7: 157) و تعاكس نصرة اللّه هكذا أن ينصر ناصريه، مما يدلّ على أن نصرته تعالى هي نصرتهم أنفسهم بدلالته و توفيقه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ» (47: 7) «وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (22: 40).

و الحواريون الأنصار هم تلاميذ السيد المسيح، الأخصاء، منطلق دعوته الذين كانوا يلوذون به و يأخذون عنه، منقطعين عمن سواه من معلمين‏ «قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ» أنصارك الى اللّه، بما أنك وسيط في هذه السبيل، لا أصيل‏ «فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ» بالمسيح أو بنصرته الى اللّه‏ «وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ» كذلك‏ «فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى‏ عَدُوِّهِمْ» الكافرين و التاركين لنصرته «فأصبحوا» بإيمانهم باللّه و من ثم بتأييد اللّه «ظاهرين» غالبين على عدوهم، و من ذلك أنهم‏ «مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ» في محاولة صلبه إذ صلب من ألقي عليه شبهه و رفع هو الى سماء رحمة اللّه، و هكذا يكون دور الإيمان و المناصرة في اللّه، عاليا ظاهرا على الأعداء مهما كانت جولة الباطل، فإن للحق دولة!.

و العبرة المستفادة عبر نصرة الحواريين و الذين حذوا حذوهم، هي استنهاض همّة المؤمنين بالشريعة الأخيرة من دين اللّه، المختارين لهذه المهمة الكبرى، أن يقوموا قومة رجل واحد لنصرة صاحب الرسالة السامية الأخيرة، ليؤدّوا هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 321

الأمانة الكبرى الى الأمم سليمة عزيزة، و لكي تحكم العالم أجمع في جولته الأخيرة.

و لعمر اللّه إن نصرة المؤمنين بهذه الرسالة كانت عالية غالية، إذ نصروا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و آله (عليهم السلام) في مختلف الأخطار الحاسمة «1»، خلاف ما نبّئنا عن أنصار السيد المسيح، إذ كانوا قلة و هم لم ينصروه إلا قليلا حتى رفعه اللّه!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏: إن حواري عيسى كانوا شيعته و إن شيعتنا حوارينا و ما كان حواري عيسى بأطوع له من حوارينا لنا، و إنما قال عيسى للحواريين من أنصاري الى اللّه قال الحواريون نحن أنصار اللّه، فلا و اللّه ما نصروه من اليهود و لا قاتلوهم دونه، و شيعتنا و اللّه لا يزالون منذ قبض اللّه عز و جل رسوله ينصروننا و يقاتلون دوننا و يحرقون و يعذبون و يشردون من البلدان، جزاهم الله عنا خيرا. و قد قال أمير المؤمنين (ع): و اللّه لو ضربت خيشوم محبينا بالسيف ما أبغضونا، و اللّه لو آويت مبغضيه أو حبوت لهم من المال ما أحبونا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 322

(سورة الجمعة- مدنية- و آياتها إحدى عشرة)

[سورة الجمعة (62): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (2) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5) قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (6) وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (9)

فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (10) وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 323

سورة تسمى باسم أفضل أيام اللّه الذي يؤتى فيها بأفضل فريضة من فرائض اللّه، المشرف بها المسلمون، المفضلون بها عمن قبلهم كما يروى عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما و أن سورة الحج تسمّت باسم هذه الفريضة العظمى التي تزامل صلاة الجمعة في فرضها و فضلها، بل و هي أفضل منها فإنها مؤتمر سنوي عالمي تشكل مملكة الحج، و هذه مؤتمر اسبوعي بلدي.

ثم لا نجد سورة اخرى تتسمّى باسم أية فريضة إسلامية سواهما، مما يوحي بمدى أهمية هذين الفرضين الجماعيين اللذين هما كمفتاح لسائر الفرائض، يجمعان بين شتات القطاعات المسلمة التي تفصلها فصالات الأمكنة و اللغات و الطائفيات و القوميات.

فصلاة الجمعة سيدة الفرائض، كما يوم الجمعة سيد الأيام و أعظم عند اللّه من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 324

يوم الأضحى و الفطر، فإن له من سابق الفضل و واقعه و لاحقه عبر الزمن ما ليس لغيره من الأيام:

فإنه يوم جمع اللّه فيه الخلق بعد الأدوار الستة للخلق، فالجمعة في هذا الأسبوع العالمي هو يوم الجمع العام، كما أنها لغويا كثير الجمع، و لذلك جعل عيد الإسلام الاسبوعي لأنه جماع الشرائع، و لكثرة الجمع المفروض في فرضها.

ثم هو يوم خلق اللّه فيه آدم حيث أتمّ جمع روحه الى جسمه، و فيه جمع له زوجته، و فيه أسجد له ملائكته، و فيه أدخله و زوجه جنته، و فيه تاب اللّه عليه عن خطيئته، و فيه أهبطه الى الأرض، و فيه قال اللّه للنار كوني بردا و سلاما على إبراهيم، و فيه فدى اللّه إسماعيل بذبح عظيم، و فيه كشف اللّه عن أيوب كربه، و فيه استجاب اللّه ليعقوب دعاءه، و فيه حملت السيدة مريم السيد المسيح، و فيه خلق اللّه تعالى الأنبياء و الأوصياء، و فيه جمع اللّه تعالى لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمره، و فيه قام الإمام الحسين عليه السّلام قومته الثائرة، و فيه يقوم القائم المهدي عليه السّلام، و فيه- بين الظهر و العصر- تقوم القيامة الكبرى.

ليلتها غرّاء، و يومها زاهر، و ليس على وجه الأرض يوم تغرب فيه الشمس أكثر معافى من النار منه، يضاعف اللّه عز و جل فيه الحسنات، و يمحو فيه السيئات، و يرفع فيه الدرجات، و يستجيب فيه الدعوات، و يكشف فيه الكربات، و يقضي فيه عظام الحاجات، ما دعا اللّه فيه أحد من الناس و عرف حقه و حرمته إلا كان حتما على اللّه أن يجعله من عتقائه و طلقائه من النار، فمن وافق منكم يوم الجمعة فلا يشتغلن بشي‏ء غير العبادة، كما وردت بذلك الأخبار عن الرسول الأقدس صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة الأطهار (عليهم السلام) «1».

و لأن صلاة الجمعة هي القمة في فرائض اللّه، جعل وقتها هذا اليوم المبارك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع البحار الجديد المجلد 89 ص 263- 286، فإن ما نقلناه متون الأحاديث مع زيادات شارحة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 325

الميمون، طالما تكسب الجمعة من صلاة الجمعة فضلا عظيما على فضائلها.

ان فريضة الجمعة مؤتمر اسبوعي يهيئ الجو للمؤتمر العالمي السنوي- الحج- تجمع من المسلمين لأدائها و الاستماع إلى خطبتيها السياسيتين الإسلاميتين آلافا من المسلمين العائشين في الدائرة التي تقام في مركزها الجمعة، و قطرها على أقل تقدير (22) كيلومترا.

الآيات الاولى في هذه السورة هي تقدمات و تهيئات لآيات فرض الجمعة، فإنه ذكر اللّه الجامع مجامعه، الحافل محامده، و لذلك نرى مطلع السورة كيف يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من الكائنات كلها، فإنها جمعة في تسبيح اللّه، فلتكن الجمعة جمعة في ذكر اللّه و تسبيحه:

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»:

«يسبح» لمضارعتها توحي باستمرارية التسبيح للّه من كائنات الأرض و السماوات، و الصفات الأربع هي كدعائم لهذا التسبيح الشامل:

فلأنه «الملك»: يملك الكائنات مدبرا لها- يسبّح، فما كل ملك يسبح، إنما «القدوس» الذي كله قداسة و نزاهة: ذاته و صفاته و أفعاله، و لا كل ملك قدوس يسبح، إنما «العزيز» الغالب على أمره، فإن المغلوب على أمره قد يضطر لما لا يسبّح و ينزه، و لا كل ملك قدوس عزيز يسبح، فقد لا يكون حكيما في ملكه و قدسه و عزته، و إنما «الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»: الذي هو حكيم في ملكه، حكيم في قدسه، حكيم في عزته، فهو الذي تسبحه الكائنات و تنزهه، ذاتا و صفات و أفعالا، عن كل شين و رين، تسبحه طوعا أو كرها، فإن الكائنات بما هي مخلوقة، إنها بألسنة الذوات و الصفات تسبح خالقها من كل نقص و تفاوت‏ «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ».

هذا الإله العظيم يبعث لخلقه رسولا، ترى كيف يكون هذا الرسول و هو البقية الباقية من رسالات اللّه و اللامتناهية من رحمات اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 326

«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»:

ترى من هم الأميون هنا، و الرسول منهم و مبعوث فيهم؟ أهم غير الذين أوتوا الكتاب من موحدين و مشركين و ماديين، فالكتابي ليس محط الدعوة الإسلامية؟: «وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ» (2: 78) و هؤلاء الأميون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، و من سواهم الذين لم يؤتوا الكتاب، هؤلاء و هؤلاء تشملهم الدعوة الإسلامية!: «وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ» (3: 20) استفهام تقرير لمن أسلم و إنكار على من لم يسلم، فلا تخص الرسالة الإسلامية هؤلاء الأميين! أم هم العرب من ام القرى «مكة المكرمة» و لأنها سميت ام القرى:

«لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏»؟ و لكنهم اللبنة الاولى في بناية هذه الدعوة و منطلقها إلى من حولها: «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها» (6: 93): الجنة و الناس أجمعون، و المكلفون سواهم إن كانوا، فإن «القرى» جمع محلى بلام الاستغراق تستغرق كافة القرى و المجتمعات، فهي المكلفون أجمع، المحتفون حول العاصمة الرسالية الام، مهما كانوا بعيدين مكانا و ان في السماوات، فضلا عن هذه المعمورة الصغيرة:

«وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ» (6: 19): من بلغه القرآن، إنسانا و غير إنسان، و «قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً» (7: 158) «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ» (34: 28) لا تختصه بالناس، و كما تدل ثنائية الخطابات في الرحمان، ثم و «من بلغ» تعمها و سائر من يبلغه.

ف «الأميين» في آية الجمعة قد تعني المكلفين أجمع و الرسول منهم، لأنهم أجمع أميون بالنسبة للقرآن قبل نزوله، كما الرسول كذلك: «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ» (11: 49) فقومه هم المرسل إليهم أجمع: طول العالم و عرضه! ثم و له خاصة و بأحرى لغيره: «وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» (4: 113) «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» (42: 52) «ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 327

كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48).

ان الامية- و هي النسبة إلى الام- تعني الجهل واقعيا أو نسبيا، واقعيا لمن يجهل كل شي‏ء و حيا و سواه: أن ظل لا يعلم شيئا كما ولد من أمه: «وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً» (16: 78) و هذه هي الامية المحضة.

ثم النسبية فهي درجات: ممن درس علوما غير كتابية، فإنه أمي بالنسبة للوحي الكتابي مهما كان مثقفا في سواه و لأعلى درجات الثقافة، فهو من الأميين و جاه الذين أوتوا الكتاب و إن لم يدرسوا ما درسه: «قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ».

و من أوتي الكتاب و لا يفهمه إلا أماني: «وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ» فهو أمي في علم الكتاب رغم أنه كتابي.

و من أوتي الكتاب و علمه، و لكن لم يؤمن بالوحي الأخير «ام الكتاب:

القرآن الكريم» فإنه أمي بالنسبة لعلم القرآن مهما كان عبقريا في سائر الوحي قبل القرآن، و في سائر العلوم سوى الوحي، و هذه هي حالة المكلفين أجمع و منهم الرسول الامي، و معه ملائكة الوحي و جبريل، حالتهم قبل وحي القرآن:

انهم كلهم أميون، الموحدون منهم و المشركون.

فالرسول محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمي كسائر الأميين بالنسبة للقرآن قبل وحيه، إضافة إلى أنه لم يقرء على أي مقرئ و لم يكتب عند أي كاتب قبل نزول القرآن، و إن كان موحدا يلهم بواسطة أفضل ملك من ملائكة الوحي ليلة و نهاره يرشده سبيل المكارم و يعلمه أحسن أخلاق العالم.

انه امي مبعوث في الأميين و هم كافة المكلفين في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، في السماوات و الأرضين: «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها»! و لئن كان الأميون في آية الجمعة هم أهالي ام القرى، فهو رسول فيهم، لا إليهم خاصة، و إنما «فيهم» و هو رسول العالم أجمع، لأنه ولد فيهم، و انهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 328

محط الدعوة الاولى و منطلقها إلى العالم أجمع.

ثم و بعد ان نزل عليه القرآن زالت أميته و أصبح أقرء القراء بما يقرء ام الكتاب حافظا له غير ناس، معلما فيه للجنة و الناس، و من اكتب الكتاب، حيث الامية هذه خاصة بما قبل نزول القرآن: «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (29: 48) و أما بعده فأنت تتلو و تخط بما اوحى اللّه‏ «1»! كما و زالت الامية ممن أرسل إليهم، كل حسب وعيه، فأهل القرآن درجات في علمه و الإيمان به، كما ان غيرهم دركات في أميتهم علما و إيمانا به.

ف «هو» اللّه «الذي بعث»: في الذين أماتتهم الجهالة الجهلاء، و أرقدتهم عن النهوض بأعباء الحياة: «في الأميين»: العالمين أجمع، و لقد كانت أميته عن أي علم اكثر من بعضهم كتابة و قراءة: وحي الكتاب و سواه، أللهم إلا في معرفة اللّه و طاعته بإرشاد مباشر من ملك الوحي «رسولا منهم» في البشرية و الامية ام ماذا: «يتلوا ..»:

ثم المهمة من هذه الرسالة السامية في المرسل إليهم ثلاثية هي: تلاوة آيات اللّه، و تزكيتهم، و تعليمهم الكتاب و الحكمة، و كما في دعوة إبراهيم عليه السّلام:

(رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ‏ ... رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ) (2: 129) و لذلك‏

يقول الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (أنا دعوة أبي ابراهيم)

و لقد سمع اللّه دعوته في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

بصائر الدرجات عن الامام الصادق (ع): ان النبي (ص) كان يقرء و يكتب و يقرء ما لم يكتب‏

و في علل الشرائع عن الامام الباقر (ع) لقد كان رسول اللّه (ص) يقرء و يكتب باثنين و سبعين لسانا (نور الثقلين 5: 322)

أقول: يعني بعد وحي القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 329

محمد و اثني عشر إماما من عترته كما في التوراة «1».

و هل تتقدم التزكية على تعليم الكتاب و الحكمة في الأهمية، أو في واقع التربية؟ اختلاف الترتيب بينهما في الآيتين يوحي بعدم التقدم و هو الحق، فإنهما معا يتساوران متعاونين في التربية الإسلامية، دون أن تكون لكلّ مدرسة على حدة، فالتزكية التي لا تحمل التعليم جاهلة دنسة، و التعليم الذي لا يحمل التزكية جاهل دنس، فرب عالم لا عقل له، فالإسلام لا يريد علما بلا تزكّ و لا تقوى بلا علم، فليس بإمكان المسلم أن يحلّق على المثل العليا إلا بجناحي العلم الحكيم و التقوى، و كل منهما يساند الآخر، كلما ازداد العلم و الحكمة بآيات اللّه ازداد التزكي كالعكس تماما.

ثم التلاوة لا تعني القراءة اللفظية فحسب، فإنها من الرسول المعلم المزكي قول بليغ في الأنفس: (وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً) (4: 63) و لا يبلغ القول الأنفس إلا إذا خرج من حاق النفس، مازجا فطرة القائل و فكرته و عقله و أعماله، و هذه هي التلاوة حقا، و كما هي لغويا: المتابعة: (وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها، وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها) تلاها: تبعها، فالرسول يتلو القرآن اتباعا له في كافة المجالات، و يتلوه عليهم كما تلاه هو في نفسه، اتّباعا له، و اتباعا لهم، و هكذا تلاوة له عليهم تجعلهم علماء حلماء حكماء أزكياء، إضافة إلى ما يعلّمهم و يزكيهم.

ثم تعليم الكتاب- القرآن- له درجات، لفظيا و تعبيريا و في إشاراته و لطائفه و حقائقه، على حد

قول الإمام علي عليه السّلام‏: (كتاب اللّه على أربعة أشياء على العبارة و الإشارة و اللطائف و الحقائق، فالعبارة للعوام، و الإشارة للخواص، و اللطائف للأولياء، و الحقائق للأنبياء)

فقرينة الإشارة التي هي بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفر التكوين الفصل 17- الآية 20- تجده بالنص العبراني في تفسير دعاء ابراهيم في البقرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 330

المعنى تفسر العبارة، بالمعنى الأولي الحرفي للآيات، و قبله علم ألفاظها، و بعده الثلاثة الاخرى، الناتجة عن التأنق و التعمق و الحكمة في نضد معانيها و نضج مواضيعها.

هكذا يعلمهم الكتاب، كلّا حسب فهمه و وعيه، و (يعلمهم) كذلك (الحكمة): في علم الكتاب، كيف يفسر بعضه ببعض، و الحكمة في هذه المعاني الحكيمة من الكتاب، و الحكمة العقلية، و الحكمة العلمية، و الحكمة الاخلاقية، و الحكمة العملية، و الحكمة النظرية، و الحكمة عن كل فصل يفصل الإنسان عن الصواب.

إن الحكمة هي الوصل الحكيم: كيفية خاصة في وصل المفصول، توصل الإنسان إلى الغاية المطلوبة، فمجرد علم الكتاب، بألفاظه و معاني آياته فرادى لا يغني، إلا بحكمة في ترتيب آياته، لكي تفسر بعضها بعضا، و ينطق بعضها على بعض، فإن الفوضى في تفسير الآيات، جهلا عن ارتباطاتها، تخلق ارتباكات و تظهر تناقضات، و كما نراها من الكثير ممن لا حكمة له في تفسير الكتاب، فلا سبيل ناجحة في تفسير الكتاب إلا تمسكا بالكتاب، بالحكمة التي علمنا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إياها: (وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (7: 170) فمن الإفساد في الكتاب التمسك بغيره في تفسيره، من أهواء ضالة، و آراء فاسدة، و أقاويل مبعثرة، أللهم إلا الكتاب كأصل، و ما روي عن حملة الكتاب كفرع إذا وافقه كما

تواتر عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (لقد كثرت عليّ الكذابة و ستكثر فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوء مقعده من النار فما جاءكم من حديث يوافق كتاب اللّه و سنتي فأنا قلته، و ما جاءكم من حديث يخالف كتاب اللّه- و سنتي- فلم أقله).

ان هذه الحكمة و سواها من الحكم هي كلها في القرآن، و قليل من يعرفونها ف (ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا و له أصل في كتاب اللّه و لكن لا تبلغه عقول الرجال) أللهم إلا رجالات الوحي و من يحذو حذوهم: (وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 331

عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ) (2: 231).

نرى الكتاب و الحكمة مقرونين في عشرات من الآيات، مما تؤكد أن الكتاب المنفصل عن الحكمة فيه، أو الحكمة في تفسير معانيه، هذا الكتاب لا يكفي هدى، بل و قد ينقلب ضلالا (وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً) (17: 82) و القرآن‏ (حِكْمَةٌ بالِغَةٌ) (54: 5) لكل فصل فيه تباب، و بعد الحكمة في تفهم الكتاب يأتي دور الحكمة في سواها مما يتوجب على المسلم في صالح الحياة، علمية و عملية و أخلاقية، سياسية و اقتصادية، و كل ما تتطلبه الحياة الحكيمة السليمة كأفضل ما يمكن.

«وَ يُزَكِّيهِمْ»: في الحق ليست التزكية إلا من اللّه: (بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ) (4: 49) إلا أنه لا يزكي إلا من تزكى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها) (91: 9) (خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى) (20: 76) .. و لكنما التزكية من اللّه و التزكي من المكلفين لا يكونان إلا بوسيط و هو رسول الوحي، إذ يتلو عليهم آيات اللّه و يعلمهم الكتاب و الحكمة فيزكيهم: تزكية للضمير و الشعور، تزكية للعمل و السلوك من الأساطير الغامضة الحمقاء، إلى اليقين الواضح، و من رجس الفوضى الاخلاقية إلى طهارة الإيمان السليم، تزكية للفرد و الجماعة المسلمة سواء:

«وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»: فانه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، إلى صراط العزيز الحميد، و هم من بعث فيهم و إليهم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الأميين، لا و نفسه المقدسة، فانه كان قبل القرآن مسترشدا بأعظم ملك من ملائكة اللّه، منذ كان فطيما، إلى أن اهتدى بهدي القرآن.

فمهما كان ضلالهم مبينا، كان هداه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مبينا لحد سمي بمحمد الأمين، و إن كان ضالا عن هدي القرآن قبل وحيه، و لكنه لم يكن ضلالا عن أصل الحق، و إنما عن كمال الحق و تمامه، و الأنبياء كلهم- على هداهم- كانوا ضالين عن وحي الكتاب قبل قضاءه، فضلالهم هذا أهدى من هدى من سواهم، فان كلا درجات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 332

وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

«يَتْلُوا عَلَيْهِمْ» الأميين‏ «آياتِهِ» .. و يتلوا على‏ «آخَرِينَ مِنْهُمْ» الأميين‏ «لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ»، كما «وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ» بعثه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهم، و إن جاءوا بعده، حيث البعثة ابتدأت به، ثم استمرت بحملة رسالته‏ «1».

فمهما كانت تلاوته و تعليمه و تزكيته مدى حياته بنفسه القديسة، اصالة، و بوكلاءه وكالة، فهذه المهمة الإسلامية الخالدة يحملها أولوا الفضل و العلم بعده و الى يوم القيامة الكبرى، دون وقفة عن هذه المسيرة الفاضلة، فمن حمّلها و لم يحملها فمثله كمثل الحمار يحمل أسفارا و أولئك عليهم لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (2: 160).

ان أئمة الدين- المعصومين- و العلماء الربانيين، هم- على درجاتهم- خلفاء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في هذه المهمة الثلاثية الإسلامية، فمن يتركها و لم يفعل ذلك يلق أثاما، و يلاقي ربه مهانا.

«لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» لحوقا في الامية و في التكليف كما هم، و في الزمن و هم الجنة و الناس أجمعون الى يوم يبعثون‏ «وَ هُوَ الْعَزِيزُ» الغالب على ما يعرقل السير عن هذه المسيرة «الْحَكِيمُ» في غلبه و في إتقان هذا الكتاب و الحكمة و التزكية لحد تشمل طول العالم و عرضه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ف «آخرين» عطف على كلا «بعث» و «يتلو».

(2)

الدر المنثور 6: 215- أخرج الطبراني و ابن مردويه عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللّه (ص): ان في أصلاب و أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالا و نساء يدخلون الجنة بغير حساب ثم قرء «وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

أقول هؤلاء من الآخرين و ليسوا كلهم، فالأميون كما قلناه هم كافة المكلفين من الجنة و الناس أجمعين، و إنما ذكرهم الرسول بغية ترغيب أصحابه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 333

و من ثم فهذه الرسالة السامية الخالدة من نسل إسماعيل أورثت ضغينة و شكيمة في إسرائيل الذين كانوا ينتظرون النبي الموعود، مؤولين بشاراته بنبيّ إسرائيلي، ظانين ان فضل اللّه يختصهم، لا يتخطاهم الى سواهم، رغم ان اللّه تعالى أنذرهم في التوراة بزوال النبوة عن بيت إسرائيل، و استقراره في محمد الاسماعيلي، و قد كادوا له مكائد، و تربصوا به دوائر و من مكائدهم: (وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى‏ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى‏ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (3: 74):

ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ‏:

«ذلك» الرحمة التامة البعيدة المحتد و المدى «فضل اللّه»: كل فضله الممكن ايتائه للخلق، فلم يقل (من فضل اللّه) حتى يفيد التبعيض، «يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ» و قد شاءه لمحمد و سائر الأميين‏ «وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» على محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين برسالته العالمية.

انهم ظنوا متجاهلين، خلود النبوة في إسرائيل، و ضنوا عن انتقالها الى إسماعيل، كأنهم المقتسمون فضل اللّه، المختصون بأفضله لأنفسهم! و قد خاب أملهم كما خاب عملهم:

ففي التوراة (التكوين 49: 10) (لا تنهض عصى السلطنة من يهودا و لا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم).

و الأنبياء الاسرائيليون كلهم من نسل يهودا، فليكن شيلوه غير إسرائيلي، فان به تنهض عصى السلطنة من يهودا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص 23- 32- ففيه تفاصيل الآيات الدالة على انتقال الشريعة من إسرائيل إلى غيره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 334

و في (التثنية 18: 7) حسب الأصل العبراني (نابى‏ء آقيم لا هم مقرب إحيحم كموشه و ناتتّى دباري بفيو و يدبر إلوهيم إت كال أشر أصّونو).

(نبي أقيم لهم من أقرباء أخيهم و أضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به).

ف (أخيهم) هم- حسب نص التوراة «1»- بنو عيص أخو إسرائيل، و أقرباء بني عيص هم بنو إسماعيل، لمصاهرة بين عيص و إسماعيل، و قد بعث محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من بني إسماعيل، و كما تؤيده آيات أخرى‏ «2».

و قد صرحت باسمه الآية التوراتية التي تحمل إجابة دعوة ابراهيم في إسماعيل كما في الأصل العبراني.

(و ليشمعيل شميعتيخا هينّه برختي أوتو و هيفرتي أوتو و هيربتي أوتو بمئد مئد شنم عاسار نسيئيم و نتتيّوا لغوي غادل).

(و لإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها أنا أباركه كثيرا و أنمّيه و أثمره كثيرا و أرفع مقامه كثيرا بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اثني عشر اماما يلدهم إسماعيل و أجعله امة كبيرة) «3».

فما أحمق المحمّلين التوراة، التاركين المؤولين لها، الماحقين بشاراتها، التاركين شريعتها:

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ‏:

بنو إسرائيل هم‏ «حُمِّلُوا التَّوْراةَ»: تكليفا بهذه الأمانة الإلهية، حفظا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و أمر القوم و قل لهم انكم لحد إخوانكم بني عيص .. (تثنية 28: 8).

(2) راجع (رسول الإسلام) 33- 40).

(3) المصدر ص 40- 43.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 335

و علما و عملا و نشرا «ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها»: ضيّعوا هذه الأمانة و خانوها إذ لم يحفظوها، حيث حرفوها و لا سيما بشاراتها بحق النبي الإسماعيلي، و لم يتعلموها، أو تجاهلوا عما علموا منها، و لم يعملوا بها و لا نشروها سليمة، و هذا تكذيب شامل بآيات اللّه و ظلم فاحش بحقها.

فمثل هؤلاء الخونة الظالمين كمثل الحمار يحمل أسفارا: كتبا سافرة ظاهرة مسفرة عن الحقائق دون ستار، كما أن كتب السماء كذلك كلها، و لكنه حمار سافر لا يفهم ماذا يحمل مهما كان سافرا ظاهرا، فلا يدرك من حمل الأسفار إلا حملا، و أما هم فكان بإمكانهم تفهّم ما حمّلوه، و حمله كما أمروا، فهم أضلّ سبيلا من الحمار، ضلالا عامدا عن تقصير، مهما كان ضلال الحمار عفويا عن قصور، فالإنسان الحمار يحمل حمل الأسفار على ظهره كزميله الحمار، و الإنسان الإنسان يحملها في قلبه و قالبه و عمل الواقع، فأين حمل من حمل، و أين حمار من حمار؟! و من ميزات هذا الحمار عن زميله أنه ذلول سلس القياد، لين الانقياد، يوصل حمله إلى ذويه، و الحمر الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها، حرّفوها و خانوها شرسين شمسين، و غيّروها كما اشتهوا، و شروا بها ثمنا قليلا.

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ‏ أيّ قوم كانوا، هودا أو نصارى أو مسلمين، و كلما كانت الآيات المحمّلة أعظم و أرقى، فتاركوا حملها أظلم و أطغى، إذا- فمثل الذين حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه كمثل الحمار و أضلّ منه مضاعفات بمئات المئات، مدى أفضلية القرآن من التوراة، فليس مجرد الانتساب بكتاب و شريعة بالذي يفضل منتسبيه على غيرهم، اللهم إلا بحمله كما حمّلوا.

و من ضلالات اليهود أنهم- على تكذيبهم بآيات اللّه و قتلهم الأنبياء بغير حق و بغيهم و ظلمهم كثيرا- كانوا و لا يزالون يزعمونهم‏ «أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ»:

شعب اللّه المختار:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 336

قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏:

إنها مباهلة باهل بها الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اليهود فنكلوا عنها خوف نكال الموت الذي بعده العذاب، و لم يقبلوا التحدي فيها، كما نكل نصارى نجران،

و يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا و رأوا مقاعدهم من النار)

فلو لم تكن هذه مباهلة لتمنوا الموت ليكذبوا كلام اللّه: أنهم ليسوا من أولياء اللّه، و لكنهم ما فعلوا.

«الَّذِينَ هادُوا»: لقد ذكروا بهذه الصيغة في آيات عشر، و سموا أنفسهم هودا متفاخرين: «وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى‏» (2: 111) «وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ تَهْتَدُوا» (2: 135) و سمّوا أيضا يهودا: «وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى‏ نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ» (5: 18).

و الهود هو الميل، سمّوا أنفسهم هودا إذ مالوا عن عبادة العجل إلى اللّه، و لكنهم في الحق مائلون عن اللّه كما تشهد بذلك حياتهم، و «الَّذِينَ هادُوا» عله تعريض لهم أنهم لو كانوا مائلين إلى اللّه فلما ذا هذا الميل البعيد إلى غير اللّه؟ و من خلاله تعريض أنهم في الحق مائلون عن اللّه لا إليه! و هكذا يعنى من «هادوا» فيما يسميهم اللّه.

«إِنْ زَعَمْتُمْ» فطالما يتقولون هذه القولة الجاهلة الجوفاء، لكنها لا تتخطى الزعم، و زعمهم كذلك داحض بهذه المباهلة التي هادوا عنها محيدا بعيدا.

«أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ»: ولاية تخصهم دون سواهم، فهم أولياؤه و أبناؤه و شعبه المختار، فلو صحّت هذه المزعمة فلتحبوا لقاء اللّه، و الانتقال إلى دار كرامة اللّه و رحمته عن هذه الفانية الزهيدة الظالمة الفاتكة! «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في زعمكم هذا، تمنيا في أعماق الضمائر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 337

كمبدء، و كبداية للحياة، إن كنتم صادقين في ولايتكم، فإن الموت سبب للقاء مولاكم!.

وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ‏:

لا يتمنون الموت أبدا، خوفا مما فرط منهم من الطالحات، و ما انفرط عنهم من الصالحات، و تنسب الأفعال إلى الأيدي لغلبة الأيدي عليها، و إن كان فيها ما يعمل بالقلب و اللسان، و سواهما من جوارح الإنسان.

و هذه الأبدية المنفية عنهم هي من ملاحم الغيب القرآنية، فمن ناحية تثبت صدق القرآن، و من ناحية اخرى كذب الذين هادوا في زعمهم المدعى، فلا و حسب أنهم لا يتمنون الموت، بل و من أمنياتهم البعيدة خلود الحياة لكي يزحزحهم عن العذاب: «قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‏ حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» (2: 96)، فهم أحرص الناس على حياة بئيسة تعيسة و أحرص من المشركين، فإنهم ناكروا الحياة الحساب، و اليهود يقرّون بها، فخوفهم من الموت أكثر من المشركين، فحرصهم على حياة أشد من المشركين! أية حياة كانت كما يوحي بها تنكير الحياة «حياة».

و طالما هم يفرّون من الموت إلى الحياة، و لكن الموت لاقيهم لا محالة:

(كل امرئ لاق في فراره ما منه يفرّ، و الأجل مساق النفس إليه، و الهرب منه موافاته)

«1»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). القمي في تفسيره عن أمير المؤمنين (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 338

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏:

أنتم تفرّون منه و هو راكض وراءكم، و هو أسرع ركضا مهما أسرعتم فرارا «فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ» لقاء مثلثا: ثالثها الموت إلى الحياة البرزخية، و من ثمّ بعد الموت، و بعد انقضاء الحياة البرزخية «تُرَدُّونَ إِلى‏ عالِمِ الْغَيْبِ» غيب النيّات و غيب الطويّات‏ «وَ الشَّهادَةِ» و الكون كله له شهادة، لا يغيب عنه غائبة:

تردّون إلى اللّه مولاكم الحق‏ «فَيُنَبِّئُكُمْ» علما و جزاء «بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

و إنها لفتة لطيفة تلفت الفالتين عن اللّه أن مردّهم لا محالة إلى اللّه، فلا ملجأ إلا إليه، و لا مهرب عنه إلا إليه، حقيقة يتناساها الناس، فيتذكرها من سوى النسناس.

ثم لقاءان آخران أحدهما لزام كل أحد، فإن الإنسان- أيا كان- هو كل يوم في نقصان من الحياة، و زيادة من بواعث الموت، يلاقيه طول حياته، و لقاء آخر هو موت الروح و الضمير الإنساني، و هو لزام من يفرّ من الموت الثالث بما قدمت يداه، يفرّ من موت هو يعيشه طول حياته الشرّيرة «1»، و الفرق بين الموتين أن أحدهما في عاجل التكليف، و الآخر في آجل الجزاء.

و هل إن تمني الموت من صالحات التمنيات، فليعرّض وليّ اللّه نفسه للموت بغية لقاء اللّه؟ و إلا فهو من أعداء اللّه! أقول: نعم و كلا!.

نعم: في الموت الذي يأتي ببواعثه الخارجة عن خيرة الإنسان بإذن اللّه، أجلا محتوما، أم معلقا على ما ليس له فيه عمل و لا أمل، يتمناه المؤمن تمنيا للقاء اللّه، و كما

يروى عن علي عليه السلام‏: (و اللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا التوسع مستفاد من «ملاقيكم» الدال بصيغة الفاعل على الاستمرار، لا «يلاقيكم» الدالة على المستقبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 339

الطفل بثدي أمه)

فهو يأنس الموت أنسه بألذ الحياة فإن فيه لقاء اللّه، و لكنما الفاسق لا يتمنى هكذا موت، لأنه له لقاء عذاب اللّه!.

و كلا: في الموت الذي يأتيه باختياره إياه فالمؤمن لا يتمناه- اللهم إلا في الدفاع و الجهاد في سبيل اللّه- إذ يأمل أن يسعى و يعمل من الصالحات أكثر مما مضى، حتى تزيده درجات، فيلاقي ربه عند موته بنفس مطمئنة راضية مرضية، داخلة في عباد اللّه و في جنة اللّه. و الفاسق لا يتمناه خوفا من استعجال عذاب اللّه، أو رجاء أن يعمل صالحا فيما ترك، و يترك و يجبر طالحا فيما فعل، للفساق الذين يرجى رجوعهم إلى اللّه.

و أما الذين هادوا فلن يتمنوه أبدا، لا هذا و لا ذاك، و إنما يفرّون منه، معلقه و محتومه، فرارا بما قدمت أيديهم‏ «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏:

الآيات المسبقة بعمومها في تسبيح اللّه، و شمول الرسالة المحمدية، و التنديد بمن حمّل الشريعة ثم لم يحملها، إنها تقدمات و تنبيهات لفريضة الجمعة، أنها جامعة شاملة للمكلفين أجمع من تواجد زمن الوحي، و آخرين منهم لما يلحقوا بهم، إلا المعذورين- الى يوم الدين.

تبدء الآية بخطاب شامل للذين آمنوا بهذه الرسالة- أجمع- اللهم إلا من لم يؤمن، فكيف يخاطب بما هو من فروع و ملازمات الإيمان؟!.

و في هذه البداية تنبيهات ثلاث: «يا» «أيّ» «ها» و لينتبه المؤمنون في مثلث التنبيه مدى أهمية هذه الفريضة الإلهية.

و «الَّذِينَ آمَنُوا» هم المؤمنون كافة، و جاه الكافرين كافة، المؤمنون في كل عصر و مصر، طول العالم و عرضه، من الجنة و الناس أجمعين، و من معهم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 340

المكلفين، و إلى يوم الدين، فالسعي إلى فريضة الجمعة هو من لوازم الإيمان، و كما

في خطبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم الجمعة: (و من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر فعليه بالجمعة: يوم الجمعة)

«1».

كما و أن هذا الشمول هو من طبيعة الفرائض الإسلامية. ف (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، و حرامه حرام إلى يوم القيامة)، ثم لا توجد أية حجة تختص فريضة الجمعة بالمؤمنين زمن حضور المعصومين، و لو كانت لضربت عرض الحائط لمخالفتها الكتاب و السنّة الثابتة، و منها ما

رواه الفريقان عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ أنه خطب لأول جمعة أقامها في المدينة المنورة فقال: (إن اللّه افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في يومي هذا، في شهري هذا، في عامي هذا، إلى يوم القيامة، فمن تركها استخفافا بها، أو جحودا لها، فلا جمع اللّه له شمله، و لا بارك له في أمره، ألا و لا صلاة له، ألا و لا زكاة له، ألا و لا حج له، ألا و لا صيام له، ألا و لا برّ له، ألا و لا بركة له حتى يتوب، فمن تاب تاب اللّه عليه)

«2». و لم يستثن- في من استثني- المؤمنون زمن غيبة الإمام المعصوم رغم استثناء المجنون و الصغير اللذين لم يشملهما قلم التكليف‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار ج 89 ص 211 نقلا عن شرح النهج لابن أبي الحديد.

(2) الدر المنثور 6: 318، وسائل الشيعة ج 3 ص 7 ح 28، و عوالي اللآلي عنه (ص) مثله، و الشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره عن جابر عنه (ص)، و رواه الشهيد الثاني في رسالة الجمعة، و في سنن ابن ماجة ج 1 ص 433 باب فرض الجمعة.

و روى القطب الراوندي في لب الألباب‏ أن النبي (ص) خطب يوم الجمعة و قال فيها: و اعلموا أن اللّه فرض عليكم الجمعة إلى يوم القيامة ...

(3)

ففي الخصال و غيره بأصح الأسناد عن أبي جعفر الباقر (ع) قال‏: إنما فرض اللّه عز و جل من الجمعة إلى الجمعة خمسا و ثلاثين صلاة فيها صلاة واحدة فرضها اللّه في جماعة و هي الجمعة و وضعها عن تسعة: عن الصغير و الكبير و المجنون و المسافر و العبد و المرأة و المريض و الأعمى و من كان على رأس فرسخين‏

- الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 341

«إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»: فما هي الصلاة من يوم الجمعة و النداء لها؟

هل إنها صلاة غير فريضة الظهر أو الجمعة؟ و لا نعرف إسلاميا صلاة أخرى غيرهما يوم الجمعة، فهي إذا بينهما، فهل هي الظهر؟ و لا يختص فرضها بيوم الجمعة، و لا يجب الاجتماع فيها بنداء أو غير نداء! إذا فهي صلاة الجمعة، كل ذلك إضافة إلى الإجماع و الضرورة أن آية الجمعة نزلت بشأن صلاة الجمعة، و كما يؤيده متواتر السنة من طريق الفريقين عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن آله الكرام عليهم السلام.

و أما النداء لها- فهل هي القول: (الصلاة)؟ و ليست إلا لصلاة الأموات و العيدين! أو (إلى صلاة الجمعة)؟ و لا نعرف إسلاميا نداء كهذه لصلاة الجمعة، و لم تسبق من أئمة الجمعات هكذا نداء!.

أو أنها إقامتها كما عن بعض المتفقهين المشترطين في وجوب الحضور لها إقامتها بشروطها؟ ثم يأتي دور البحث عن المقيم لها، هل هو المعصوم؟ أم و المأذون من قبله خاصا؟ أم العدول القادرون على إلقاء الخطبتين؟ و كل هذه الترديدات في: المقيم لها، نابعة من مجهولية الفاعل‏ «إِذا نُودِيَ» فعلّه المعصومون لا سواهم، أو علّهم و المأذونون أم ماذا؟.

و هذه الاحتمالات المسلسلة غريبة في نوعها من الحلقة الاولى: «إِذا نُودِيَ» أي: إذا أقيمت! و ليست إقامتها نداء لها، و إنما هي تطبيق لفرضها، و النداء لشي‏ء غير المنادى له بالضرورة، فهل تقام الجمعة نداء لنفسها، تحصيلا للحاصل! إضافة إلى أن شرط إقامتها لوجوب حضورها خلاف الضرورة: فإن الجمعة كانت منذ بزوغها واجبة دون هذا الشرط، قبل نزول الآية و بعدها، فكيف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: لو كان حضور المعصوم أو إذنه من شروط الجمعة لكان يذكر هنا، و الحديث في مقام بيان كافة الشروط، و يؤكده ذكر الصغير و المجنون غير المكلفين، فالذي لا يحضر الجمعة لا يخلو حاله عن الصغر أو الكبر أو الجنون أو السفر أو أنه مملوك لغيره أو امرأة أو مريض أو أعمى أو هو على رأس فرسخين، ثم لا يوجد استثناء بعدها عن فرض الجمعة إطلاقا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 342

دخل زمن الغيبة فأصبحت الجمعة مشروطة بإقامتها بعد إطلاقها؟! إذا ف «إذا» هذه ليست شرطية ينتفي جزاؤها بانتفاء فعلها، إنما وقتية توحي بأن صلاتها يوم الجمعة تفرض عند الأذان، و لا صلاة هكذا إلا صلاة الجمعة.

ثم لو كانت هي إقامتها، فمجهولية المقيم لها في «نودي» تجهّل و تسفّه المترددين في: من يقيمها؟ فلو كانوا أشخاصا خصوصا لأشير إليهم، فالفعل المجهول هنا علامة الإطلاق، و أن المقيم لا شرط فيه، اللهم إلا الشرط العام لأئمة الجماعات: (العدالة) إضافة إلى الخاص بالجمعة: (القدرة على الخطبتين).

أقول: إنما النداء هنا كما في غيرها من الصلوات اليومية هي: الأذان، و لا نعرف إسلاميا نداء للصلوات سواه إلا للعيدين و الأموات، فهو نداء حقا، و لمكان الحيعلات الثلاث، التي تحيّي و تحرّض المسلمين لحضور الصلاة و إقامتها، و بالضرورة الإسلامية لم يعهد نداء لصلاة الجمعة غير الأذان، و ضرورة اخرى ان الأذان ليس شرطا لوجوب الصلاة.

و لكي يخفق الكفار هذا الصوت المدوي العالي من على المآذن- كانوا و لا يزالون- يتخذونه هزوا و لعبا، «وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ» (5: 58) و قد أطبق المفسرون على أنها الأذان، يتخذه الكفار هزوا و لعبا إهانة لها و للصلاة، و مهانة في تصميم المسلمين لها.

فآيتا النداء- إضافة إلى إجماع المفسرين و الروايات- تدلاننا أن ليس النداء هنا إلا الأذان المؤذن لوقت فريضة الجمعة عند الزوال، فهل إن الأذان شرط لوجوب السعي إلى صلاة الجمعة لمن يسمعه؟ أم الشرط هو واقع الأذان، و إن لم يسمعه، إذا علم بدخول الوقت؟ أم الشرط هنا ليس إلا دخول الوقت، و ليس الأذان إلا إيذانا له، سواء أ كان بنية فريضة الجمعة أو سواها؟ ف «إذا نودي» لا يعني إلا حلول الوقت المعلوم بالأذان غالبا، إذ لم تكن الشواخص وقتئذ منصوبة في كل مكان، و لا أية وسيلة اخرى تؤذنهم بحلول الوقت إلا الأذان، و الجاهل بالوقت لا يكلف بالفريضة الوقتية، و لا أظن فقيها يظن أن واقع الأذان أو سماعه أو نية كونه للجمعة، شرط لوجوبها، فلم يقل «إذا نودي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 343

لصلاة الجمعة» و لكي لا تختص النداء بها، نية أو هيئة خاصة للنداء، و إنما نداء للصلاة، الكائنة يوم الجمعة: أذانا للإيذان بدخول وقتها، و قد اتفق عليه الجمهور «1» و إلا الشاذ منا.

فلا يعقل أن يفرض اللّه تعالى فريضة هامة كهذه، شرط خيرة المكلفين، فإن أذّنوا وجبت و إلا فلا! فضلا عن نية الجمعة في الأذان، فكيف يعرفها السامعون؟!.

ثم المؤمنون المخاطبون بالسعي هم الأئمة و المأمومون أجمع، ف «إذا نودي»:

أذّن: دخل الوقت، فليسع الأئمة لإقامة الجمعة، و ليسع الباقون لحضورها؟

فعلى الأئمة جمع المأمومين و رعايتهم في أداء فرض الجمعة، كما

عن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيّته، الإمام راع و مسئول عن رعيّته ...)

«2».

فليس وجوب الجمعة مشروطا بأيّ من شروط: إقامتها، أو نداء خاص لها، و لا الأذان و لا الاجتماع، و إنما بدخول وقتها، فيجب السعي إليها على المؤمنين أجمع- أئمة و مأمومين- إلا المعذورين كما يأتي.

فهنا نداءان لفريضة الجمعة، إلهي هو نداء اللّه، و بشري هو الأذان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فتح الباري 3: 36- و قال عطاء: إذا كنت في قرية جامعة فنودي للصلاة من يوم الجمعة فحق عليك أن تشهدها، سمعت النداء أو لم تسمعه، و قال: و بهذا صرح أحمد و نقل النووي انه لا خلاف فيه.

(2)

فتح الباري في شرح صحيح البخاري 3: 31- عن عبد اللّه بن عمر قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول: (كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته، الامام راع و مسئول عن رعيته، و الرجل راع في أهله و هو مسئول عن رعيته، و المرأة راعية في بيت زوجها و مسئولة عن رعيتها، و الخادم راع في مال سيده و مسئول عن رعيته، و الرجل راع في مال أبيه و هو مسئول عن رعيته، و كلكم راع و مسئول عن رعيته).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 344

للتحريض لها و الإيذان بدخول وقتها، و من أسخف الأقاويل إناطة الفرض في الاولى بالثانية، أصالة نداء المؤمنين و فرعية نداء اللّه!.

فواجب السعي إلى فريضة الجمعة- إقامة و حضورا- لا يناط إلا بحلول وقتها:

و لماذا لم يقل «إذا نودي لصلاة الجمعة»؟ إذ ليست لها نداء خاص! و لماذا لم يقل «للصلاة في يوم الجمعة»؟ لأن «يوم» ظرف يفيد ما تفيده «في»! و لكن «من» هنا، لها موقعها:

فهل انها تبعيضية، أو بيانية، أو نشوية، أو اختصاصية؟ .. ثم الظرف:

«من يوم الجمعة» هل هو مستقر يتعلق ب «نودي» أم لغو ب (كائن) المقدر؟

احتمالات تتحملها الآية، إلا ما تجعل الصلاة بعضا ليوم الجمعة، و لا تباعض بين الفعل و الزمان! أو ما تختص النداء بصلاة الجمعة، و لا نداء يختصها!.

ثم بقية الاحتمالات تحرّر النداء إلا عن كونها أذانا كائنا يوم الجمعة، و تحرر صلاتها إلا أن تكون بنية الجمعة و لها كالتالي:

«إذا نودي للصلاة- نداء بعض يوم الجمعة: ظهرا، لا كل نداء لصلواتها كلها، أو نداء يوم الجمعة: أن تكون «من» بيانا لموقع النداء، أو نداء ناشئة يوم الجمعة، للصلاة الكائنة للجمعة، الناشئة للجمعة».

نداء محررة إلا عن وقتها الخاص (ظهر الجمعة)، و صلاة محررة إلا عن كونها صلاة الجمعة.

إذا فلا صلاة ظهرا يوم الجمعة إلا صلاة الجمعة، هي ركعتان بعد خطبتين مع شرائطها، و هي هي أربع ركعات كصلاة الظهر لو لا الشرائط أو إمكانيتها، يجهر في الأوليين كما في ركعتي الجمعة، بنيّة الجمعة لا الظهر، و كما في المعتبرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 345

المستفيضة «1».

إذا فالنداء: الأذان- الكائن ظهر الجمعة، هي نداء لصلاة الجمعة على أية حال، نويت أم لا، نودي لها بغير الأذان أم لا، إلا أن السعي إلا ذكر اللّه فيها، و الاجتماع فيه، ليس إلا عند اجتماع الشرائط: عددا و مسافة، و عدالة للإمام، و قدرة على إلقاء الخطبة، ثم ما دونها هراء مختلق كاشتراط حضور المعصوم أو إذنه الخاص، فلا أثر له إسلاميا عندنا.

و عند فقد الشرائط أو بعضها فأربع ركعات، بنيّة الجمعة أيضا كما سبق.

«فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ»: فما هو السعي هنا؟ و ما هو ذكر اللّه؟.

السعي هو عدو دون شدّ، و عمل مقصود مهتم به، و هو العمل الذي يؤتى به على همامة و عناية، سواء أ كان في إصلاح: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ» (21: 94) أو كان في خراب: «وَ سَعى‏ فِي خَرابِها» (2: 114) أي: المساجد.

فالسعي إلى الجمعة- خطبة و صلاة، إقامة و حضورا- هو القصد و العناية الخاصة لها، دون أن يشغل الإنسان عنها أيّ شاغل دنيوي أو أخروي، أن يعدّ لها عدتها، فيستعد، دون إهمال و لا إمهال، فتكون هي بين أشغاله كلها أصلا يقصد، فيسعى في إزالة الموانع عنها، و في كمال الاستعداد لها، فلا يسافر يومها «2»، و لا يتعب نفسه بما يضعفها عنها، بشرب دواء أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها

موثقة سماعة قال‏: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن الصلاة يوم الجمعة، فقال: أما مع الامام فركعتان، و أما من يصلي وحده فهي أربع ركعات بمنزلة الظهر (وسائل الشيعة ج 3 ص 13- 14)

راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

(2)

ففي المغني ج 2 ص 362 عن النبي (ص): من سافر من دار إقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكة لا يصحب في سفره و لا يعان على حاجته، و في وسائل الشيعة ج 18 ص 731 و المستدرك ب 44 من صلاة يوم الجمعة مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 346

صوم أو حجامة «1» أو سواها، و لا يشغلها بما يؤجلها، بل يعجل فيها قاصدا لها بهمام بالغ، و قلب فارغ عن سواها.

و السعي إلى الجمعة درجات، كما التكاسل عنها دركات، فلكلّ سعي لها حسب ظروفه و مكانه و زمانه و إمكانه، و قد يحسب الإعداد لها قبل يومها، كما و أن أصحاب النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يتجهزون للجمعة يوم الخميس لأنه يوم مضيق على المسلمين‏ «2»، و قد لا يجب إلا وقتها كمن حضرها، أم هو جار لها قريبا إياها.

فواجب السعي تأكيد لوجوب الجمعة، و تحصيل مقدماتها، و إزالة موانعها دون اختصاص بالعدو أو الركض إليها.

ثم السعي هنا- كما أسلفناه- لا يخص المأمومين أن يحضروها، بل يعمّ كافة المؤمنين غير المعذورين، أئمة و مأمومين، فعلى كلّ أن يسعى سعيه، فالإمام يحضّر حاله لإقامتها، و يحرّض المؤمنين لحضورها، و المأموم يستعد لحضورها، و يعدّ غيره لها، فتحصيل العدد (خمسة أو سبعة) هو أيضا داخل في نطاق السعي، كما و أن تحريض من سوى العدد واجب ثان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و في نهج البلاغة من كتاب له (ع) للحارث الهمداني‏: لا تسافر يوم الجمعة حتى تشهد الصلاة، إلا ناضلا في سبيل اللّه أو في أمر تعذر به‏

(ج 3 ص 143)، راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة) ص 125- 128.

(1).

وسائل الشيعة ج 3 ص 47 عن علي (ع): لا يشرب أحدكم الدواء يوم الخميس، فقيل يا أمير المؤمنين! و لم ذلك؟ قال: لئلا يضعف عن إتيان الجمعة.

و نهى النبي (ص) عن صوم يوم الجمعة (صحيح البخاري صوم 63- مسلم صيام 145- 146، سنن ابن ماجة صيام 37، ترمذي صوم 39) و كذلك نهى عن الحلق قبل صلاة الجمعة (سنن أبي داود صلاة 214- ابن ماجة إقامة 96)، و عنه (ص): «اجتنبوا الحجامة يوم الجمعة» (سنن ابن ماجة طب 22).

(2)

وسائل الشيعة ج 3 ص 46 عن الامام الباقر (ع): (و اللّه لقد بلغني أن أصحاب النبي «ص» ...)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 347

فعلى الأئمة و المأمومين التواصي بحق صلاة الجمعة، فلو تكاسل الإمام عنها، وجب على المأمومين السعي في دفعه إليها، و لو تكاسل واجب العدد من المأمومين أو الزائد عليه، فعلى الإمام السعي في دفعهم إليها، تعاونا في هذا البر العظيم و التقوى الهامة من المؤمنين أجمع.

و ما يزعم دلالته على اشتراط حضور المعصوم بين ضعيف مخالف للكتاب و السنة المتواترة، التي أنهيت إلى مائتي حديث‏ «1» و بين ما لا يدلّ عليه أبدا «2» و يعترف الفقهاء غير القائلين بالوجوب التعييني بقطعية دلالة الكتاب و السنة عليه، و إنما ذهبوا إلى التخيير جمعا بينهما و بين الإجماعات المنقولة، و هذا غريب من نوعه، فإنه خروج عن الكتاب و السنة و عن الإجماعات المزعومة «3».

«إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ»: و هل إنه ركعتا الجمعة فحسب؟ لأن الصلاة أفضل الذكر،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المولى محمد تقي المجلسي والد صاحب البحار في رسالة الجمعة: «فصار مجموع الأخبار الدالة على الوجوب مائتي حديث، و الذي يدل على الوجوب بصريحه من الصحاح و الحسان و الموثقات و غيرها أربعون حديثا، و الذي يدل على المشروعية في الجملة تسعون حديثا، و الذي يدل بعمومه على وجوب الجمعة و فضلها عشرون حديثا، و الذي يدل على عدم اشتراط الاذن بظاهره ستة عشر حديثا.

(2) منها ما

يروى عنهم (ع): (لنا الخمس و لنا الأنفال و لنا الجمعة و لنا صفو المال) و قد جمع فيها ضعف السند و الدلالة، فلو أن (لنا) تختص الجمعة بهم، فالخمس إذا خاص بهم أيضا، فهل يلتزم به هؤلاء الناكرون لوجوب الجمعة زمن الغيبة؟.

ثم و ما يذكر فيه الامام يعنى به إمام الجمعة لا الامام المعصوم،

ففي صحيحة زرارة (قال‏ قلت لأبي جعفر (ع): على من تجب الجمعة؟ قال: تجب على سبعة نفر من المسلمين، و لا جمعة لأقل من خمسة أحدهم الامام، فإذا اجتمع سبعة و لم يخافوا أمهم بعضهم و خطبهم) (الوسائل ج 3 ص 8 ح 4)

، فقد أهمل البعض الذي يؤمهم هنا تدليلا على عدم اشتراط العصمة، و كما

في صحيحة فضل بن عبد الملك قال: سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول‏: (إذا كان قوم في قرية صلوا الجمعة أربع ركعات فإن كان من يخطب لهم جمعوا إذا كانوا خمس نفرات) (المصدر ص 8 ح 6).

(3) كما في الجواهر أن أحدا لا يشك في دلالة الكتاب و السنة القطعية على وجوب الجمعة، و إنما الذي يحملنا على القول بالتخيير وجود الإجماعات المنقولة على حرمتها زمن الغيبة، و الجمع بينهما يقضي بالتخيير بينها و بين الظهر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 348

و النداء هي (للصلاة من يوم الجمعة)؟ فواجب الحضور هو حضور الصلاة دون الخطبتين! كلا، فإن الخطبتين من الصلاة، ف (إنما جعلت ركعتين لمكان الخطبتين)! و ذكر اللّه أعمّ من الصلاة، فقد ذكرت الصلاة بلفظها فيما عنيت بخصوصها: «فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ» لا (فإذا قضي ذكر اللّه) و لأن القيام ليس من شرط الصلاة كلها، و الآية تندّد بالذين تركوا الرسول قائما- لا مصليا-: «وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً» و ليس المحظور ترك الصلاة و الإمام قائم فيها، بل فيها كلها، فليس القيام هنا إلا في الفرض الذي يجب فيه القيام كله و هو الخطبتان، فليكن ذكر اللّه هنا شاملا للخطبتين.

و ليس المعني من ذكر اللّه هنا خصوص الخطبتين، لأنه يعمهما و الصلاة، و هي أهمه، و لأن الأمر بالسعي لو كان يخصهما لانتهى الفرض بانتهائهما، و الآية المحددة لانتهائه تنهيه بانقضاء الصلاة: «فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ»!.

فالصلاة أولا «لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» و هي أخيرا «فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ» تعني مجموع الخطبتين و الركعتين، كما و ذكر اللّه في هذا البين تشملهما جميعا، و هو إجماع المفسرين و الروايات، فقد ذكر ذكر اللّه بين الصلاتين مع واجب القيام فيه للتدليل على أن خطبتي الجمعة من صلاتها، و قد يجب فيهما كثير مما يجب فيها، كوجوب السكوت في الخطبتين، و يوحي به‏ «فَاسْعَوْا إِلى‏ ذِكْرِ اللَّهِ» فما فائدة السعي إلى الخطبتين من دون إصغاء، و يؤيده مستفيض الأحاديث‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: و هذا رفض للكتاب و السنة و الإجماعات جميعا، مع أن معارضة الإجماع- و لا سيما المنقول منه- لدليل الكتاب و السنة، هذا أمر غريب!.

(1).

ففي حديث المناهي عن النبي (ص) أنه نهى عن الكلام يوم الجمعة و الامام يخطب، فمن فعل ذلك لغى و من لغى فلا جمعة له‏ (الوسائل ج 3 ب 14).

و في الفقه الرضوي قال أمير المؤمنين (ع): لا كلام و الامام يخطب، و لا التفات إلا كما يحل في الصلاة، و إنما جعلت الجمعة ركعتين من أجل الخطبتين جعلتا مكان الركعتين الأخيرتين فهي صلاة حتى ينزل الامام‏

(المصدر) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة) ص 101- 107.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 349

«وَ ذَرُوا الْبَيْعَ»: و هل البيع هنا يعني المعاملة الخاصة، فهي المحرمة وقت النداء و الصلاة لا سواها؟ فلو اشترى، أو آجر و استأجر، أو رهن و ارتهن لم يفعل محظورا؟! و نحن نعلم بيقين ان النهي عن البيع هنا ليس إلا لمنافاته فريضة الجمعة، و هذا يعم كلّ مناف فعلا أو تركا، بيعا أم سواه.

أو أن البيع رمز إلى كل ما يشغل عن الفريضة، و إنما ذكر كأهم ما يرام من الأشغال الدنيوية، فغيرها أحرى بالمنع، و إن كانت من الأمور الاخروية و أحرى، إذ لا دافع لها إذ تمانع فرضا أهم منها، أللهم إذا كانت أهم منها كحفظ النفس و الناموس و الدين، فالمؤمن المأمور مؤكدا بصلاة الجمعة، المنهي عن أهم مهامه الدنيوية، أحرى له دينيا ألا ينشغل عنها بسائر الأمور حتى الاخروية التي هي أدنى منها إن كانت مضيقة، أم تساويها أو هي أهم منها إن كانت موسعة، فالوقت خاص بالجمعة لا تعدوها إلى سواها.

فهنا دلالتان على حرمة ما سوى الجمعة: الأمر بالسعي إليها، و النهي عما يمانعها، فلا تجوز- إذا- صلاة الظهر و الجمعة مقامة، أو يمكن إقامتها على شروطها، و لا سائر الفرائض، و لا تركها إلى بدل أو لا إلى بدل، فالذي يصلي الظهر مقارنة الجمعة، و هو على بعد منها أقل من فرسخين، و هو على علم من إقامتها، و هو لا يرى الإمام فاسقا بسند مقبول شرعا، كانت صلاته باطلة، أللهم إلا المعذورين.

«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»: و هل يعني الخير هنا الأفضل، أن صلاة الجمعة خير من تركها، أو خير من اللهو و من التجارة؟ و لا فضل في اللهو حتى تكون الجمعة أفضل منها! و ليس «خير» افعل التفضيل دائما: «وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ» (2: 22) فلا خير في مشرك، إلا الشر و «قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً» (2: 263) و لا خير في هكذا صدقة، هذا، رغم وجود «من» هنا فيهما، الدالة بطبعها على أفضلية ما قبلها، فضلا عن خير الجمعة هنا، الخالي عن «من» التفضيل، ثم و «من» في: «ما عِنْدَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 350

اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ» أيضا لا تثبت أفضلية الجمعة على اللهو و التجارة، لمكان اللهو الذي لا فضل فيه بل هو حرام، و لأن «خير» و ان عديت ب «من» ليست ظاهرة في التفضيل، أللهم إلا إقناعيا و ادعائيا، ان لو كان غير الجمعة خيرا فهي أفضل منه.

إذا فلا مقابل لهذا الخير إلا الشر، بل التقابل بينهما دائما مما تعنيه اللغة، فليس الخير موضوعا للتفضيل، فاستعماله فيه مجاز إطلاقا، و لو كان فهنا مستثنى لوجود اللهو الذي لا خير فيه، و هو شر كله.

فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ‏:

إذا قضيت الجمعة بخطبتيها اللتين هما منها، رجع ما كان يمانعها إلى حكمه قبلها، إن واجبا أو مستحبا أو مباحا، فالأمر بالانتشار لا يعني وجوب الانتشار، و إنما رفع الحظر عن ابتغاء فضل اللّه بعدها، ثم تتبع الأحكام السابقة على الجمعة، فعطلة الجمعة ليست من الواجبات، و إنما قدر من وقتها تشغله الجمعة بمقدماتها و متطلباتها، ثم ليأخذ المؤمنون حرياتهم في ابتغاء فضل اللّه، أيا كان من مبتغيات الحياة، و ليذكروا اللّه كثيرا بعد الانتشار، كاستمرار لذكر اللّه في فريضة الجمعة، فحري بالجمعة أن تعيشها بذكر اللّه و إن كنت في شغل دنيوي بعد الانتشار «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» في الحصول على فضل اللّه، و تفلجون من يصدكم عنه.

وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ‏:

تنديد شديد بهؤلاء الذين كانوا ينشغلون عن فريضة الجمعة بتجارة، و إن كانت تربحهم دنيويا، و لكنها تخسرهم بترك الجمعة، و أضل منهم هؤلاء الذين ينشغلون عنها بلهو لا يربحهم و لا دنيويا و إنما خياليا و شهوانيا، فقد منعوا عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 351

التجارة و هي من العبادات لو لا الجمعة، فكيف باللهو و هو من المحرّمات، و لو لا الجمعة «قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ»: الذي تخلفه فريضة الجمعة «خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ» الذي لا خير فيه و كله شر، «وَ مِنَ التِّجارَةِ» و إن كان فيها خير «وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» و ليس هو اللهو، و ليست هي التجارة.

هناك تتقدم التجارة لتقدّمها على اللهو فيما يبتغيه الإنسان لصالح حياته، و هنا تتأخر، لكي تثبت أن ما عند اللّه خير، و حتى من التجارة، لا من اللهو فقط.

و هذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، و يمتاز عن سائر المناهج، توازنا بين متطلبات الحياة الأرضية، الجسدانية، و ما يتوجب من الحياة الروحية السماوية، متداخلين مع بعض، و متآزرين مع بعض، أو متلاحقين، فذكر اللّه واجب أثناء ابتغاء المعاش، ثم هناك ذكر آخر متحلل متجرد عن المعاش:

صلاة الجمعة و سائر الصلوات.

إن أحاديث الحث على الجمعة تجعلها قمة في الفرائض و كما استوحيناها من آيات الجمعة، و لحدّ فرضت قراءة سورة الجمعة في الركعة الاولى، حثا على فرضها، و سورة المنافقين في الثانية تنديدا بتاركها: ان عليه و صمة و طبعة النفاق‏ «1»، و كما

عن باقر العلوم عليه السّلام‏: (من ترك الجمعة ثلاث جمع متوالية طبع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

مستدرك الوسائل ج 1 ص 407 عن الشيخ الفقيه أبي محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي في كتاب العروس عن زرارة عن أبي عبد اللّه (ع)، و في الكافي و التهذيب عن أبي جعفر (ع) قال‏: (إن اللّه أكرم المؤمنين بالجمعة فسنها رسول اللّه (ص) بشارة لهم و توبيخا للمنافقين، و لا ينبغي تركها متعمدا، فمن تركها متعمدا فلا صلاة له).

و في الدر المنثور 6: 222- أخرج سعيد بن منصور و الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال: كان رسول اللّه (ص) يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين، و في الثانية سورة المنافقين فيقرع بها المنافقين. و هنا أحاديث عدة تدل على وجوبهما في صلاة الجمعة، كما

في الكافي قال أبو عبد اللّه (ع): من صلى الجمعة بغير الجمعة و المنافقين أعاد الصلاة في سفر أو حضر،

و عنه (ع): من لم يقرأ في الجمعة الجمعة و المنافقين فلا جمعة له.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 352

اللّه على قلبه)

«1»، و ليس ترك الجمعة بين الشيعة، و ذهاب جماعة من المتأخرين إلى التخيير بينها و بين الظهر، ليس ذلك مسنودا إلى أي دليل شرعي، اللهم إلا التقية في تركها، و قد تسرّبت التقية فعلا إلى الفتاوى، فأصبحت كأنها ليست فريضة تعيينية! رغم النصوص القاطعة من الكتاب و السنة عليها، و ما شرط حضور الإمام إلا خيالا خيّل إلى جماعة، لا نجده في نصوص الجمعة إطلاقا، و لفظة الإمام في البعض منها لا تعني إلا إمام الجمعة كما في غيرها من الصلوات، أو يشترطوا حضور المعصوم في صلاة الجماعة إطلاقا! على سواء، فإن الإمام فيها على سواء، إضافة إلى صراحة الكثير من النصوص أن ليس المقصود من الإمام المعصوم، و الأحكام الإسلامية تعمّ المسلمين أجمع إلى يوم القيامة دون نسخ أو اختصاص بجماعة أو شروط، إلا عامة لهم.

فلعمر اللّه لا نجد مبررا لهؤلاء الذين يتركون الجمعة و لا تقية فيها، أو يفتون بعدم فرضها التعييني سنادا إلى ما يزعمون من إجماعات منقولة، و لو كان لها أصل فهي معارضة للكتاب و السنة! و قد أطبق الفقهاء و المحدثون القدامي على وجوبها التعييني، إلا من يشذ عنهم غالبا كالسلّار، و أفتى به كثير من متأخريهم‏ «2».

إن الجمعة تضاهي الحج في أنها مؤتمر إسلامي ثان: اسبوعي- يدفع المسلمين للاجتماع في مؤتمرهم السنوي: الحج، فهي الصلاة الجامعة التي تعني صلات بين بين مختلف الطبقات ممن آمنوا بالرسالة الإسلامية، فلا تصح إلا جماعة، فهي ذات دلالة منقطعة النظير، على طبيعة العقيدة الإسلامية.

فليست أهميتها- إذا- لأنها صلاة كسائر الصلوات، و هي تنقص عن أكثرها ركعتان! و إنما لخطبتيها الهامتين التوجيهيتين السياسيتين، اللتين توطدان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة ج 3 ب 4 صلاة الجمعة، و مثله أحاديث كثيرة كما

يروى عن أمير المؤمنين (ع) قال‏: من ترك الجمعة ثلاثا متتابعة لغير علة كتب منافقا (المستدرك ج 1 ص 407).

(2) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 353

أركان الدولة الإسلامية، و توجّهان الامة إلى ما يتوجب عليهم كسادة العباد، و قادة البلاد، و أمناء الرحمان و أركان الرشاد و السداد.

فإمام الجمعة يمتاز عن سائر الأئمة بميزات معرفية و عقائدية و أخلاقية، و من حيث بلاغة الكلام و فصاحته، و أن يكون شجاعا صارما صامدا قويا في دين اللّه، لا تأخذه في اللّه لومة لائم، و خبيرا عارفا مطّلعا متضلعا فيما جرى و يجري للمسلمين و عليهم.

ذلك الإمام الخطيب دون الموظفين وعّاظ السلاطين، الذين يستغلون هذه الفريضة الإلهية لتوطيد أركان عروش الظالمين المستبدّين، المسيطرين على الشعوب بالسيف و النار.

و دون الخطباء الضعفاء الذين يحسبون الجمعة اجتماعا للبكاء و الدعاء، رغم أنها للبكاء على حالة المسلمين المتخلفة، و لإبكاء من يتدخل في شئونهم مستعمرا لهم و مستحمرا إياهم.

فلبس البرد و شبه الأكفان لخطيب الجمعة رمز للاستماتة في سبيل اللّه و دحر الشياطين، كما الاتكاء على سيف أو قوس، أو سلاح اليوم، رمز لإماتة الأعداء، كما و يجب على كل مسلم أن يعيش مميتا مستميتا، و لكي تكون كلمة اللّه هي العليا و كلمة الذين كفروا السفلى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 354

(سورة المنافقون- مدنية- و آياتها إحدى عشرة)

[سورة المنافقون (63): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (3) وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (4)

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى‏ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (8) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (9)

وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى‏ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 355

سورة تحمل اسم المنافقين ثم وصماتهم و سماتهم، كما أن سورة اخرى تحمل اسم المؤمنين، ثم لا تحمل ثالثة اسم المسلمين، و لأنهم بين مؤمنين- بمختلف درجاتهم- و منافقين- بشتات دركاتهم- فالمسلم إما منافق: ينافق و يناقض باطنه ظاهره، أو مؤمن يوافق باطنه ظاهره، هذا يعيش وفاقا و ذاك نفاقا، فأين منافق من موافق؟.

فالمنافقون يندد بهم في مئات الآيات القرآنية بمعاصيهم و أخطارهم و مكائدهم و مآسيهم ضد الإسلام و المسلمين، منها سبعة و ثلاثون آية، مصرّحة بنفاقهم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 356

أكثرها في ثلاثة عشر سورة «1» تكر عليهم كرات عنيفة بتكرار مخازيهم و الفتن التي أقاموها ضد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الرسالة الإسلامية، و تحذّر المؤمنين عنهم اكثر من سائر الكفار و المشركين، إذ كانوا عملاء و همزات وصل بين مختلف الفئات الكافرة، و لحدّ تحصر العداء فيهم «هم العدو» كما هنا، و تخلدهم في الدرك الأسفل من النار في غيرها.

فقد انسلّوا من الجند الإسلامي يوم أحد، التحاقا بعدوهم، و توهينا لعزمهم، و عقدوا أحلافا مع اليهود استنهاضا على المسلمين، و بنوا مسجد ضرار تفريقا بينهم و إرصادا لمن حارب اللّه و رسوله، و اختلقوا و أشاعوا حديث الإفك، و أثاروا الفتنة في قصة السقاية و العقبة، و أرجفوا المدينة ضد الرسول و المؤمنين، و إلى غير ذلك من تحركاتهم المنافقة ضد الرسالة الإسلامية، فهم كانوا أصلاء في هذه المؤامرات من جهة، و عملاء من أخرى، قاتلهم اللّه فأنى يؤفكون.

إن كفار مكة لم يكونوا لينافقوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ لم يكن المسلمون فيها من القوة بحيث يرهبون، فيتملّق لهم في الظاهر، فإنما كانوا يناوئونهم جهارا، و يقاومون الدعوة بكل ما لديهم من طاقات دونما تحرز أو تحفظ، و أما في المدينة فقد كان للنبي أنصار أقوياء إضافة إلى من هاجر من المؤمنين الأصفياء، فلم يكن- إذا- من الهيّن أن يقف البقية الباقية من الكفار، في وجه الدعوة، إلا بألوان النفاق و المكيدة- و كما هي شأن التغلب و جاه الأسد- لذلك تجد آيات المنافقين مدنية كلها، إلا ما يلمح للنفاق بمعنى أوسع.

و لكي يكيدوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و يشاركوهم فيما يدر عليهم الإسلام و يحذروا عما يتحذّرون، كانوا إذا جاءوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يشهدون بأنه رسول اللّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي سورة البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، الفتح، الحديد، الحشر، التحريم، المنافقون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 357

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ‏: شهادة السر و العلن و هي أثبت لهم من العلم (نعلم انك لرسول اللّه) فإن المنافق يعلم الرسالة و ينكرها و قولة الشهادة منهم تعني اننا لسنا بمنافقين: أن نعلم الحق ثم نخالفه، و مما يشهد لميزة الشهادة هذه اتخاذ أيمانهم جنة، إذ كانوا يرمون بالنفاق.

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ‏: فإنه الذي بعثك برسالته فعلمه بها كاف لك كرسول، و إن كان اللّه يشهد لمن أرسل إليهم بهذه الرسالة السامية، بمختلف الشهادات القاطعة، فما لك و شهادتهم الزور و الغرور.

وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ‏: يخفون ما لا يبدون، و يبدون ما لا يخفون، فعلمه تعالى في نفسه بكذبهم لا يكفي تكذيبا لهم، و إنما يشهد، و كما في آيات تفضحهم، فهم حذرون دائما أن تنزل آية أو سورة تنبئهم بما في قلوبهم، و هذه هي الحكمة الموسّطة للعلم بين الشهادتين: «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ ..» (9: 64) و لعلها هذه السورة «المنافقون».

فالقول الكذب هو المخالف المنافق، إما للواقع، أو للعقيدة، أو لهما، ثالوث الكذب و النفاق و جاه الصدق و الوفاق، فمن صدق مطلق و هو الموافق لهما، و من كذب مطلق يخالفهما، و من صدق من جهة و كذب من اخرى، فالمقالة الموافقة للواقع، المنافقة للعقيدة، و إن كانت صدقا و جاه الواقع، و لكنها كذب لمنافقة العقيدة، و هي من أخطر الكذب: كذب المنافقين، و المقالة المنافقة للواقع، الموافقة للعقيدة، إنها دونها في الخطر، سواء من الكافر الذي يشهد بعقيدته الكافرة، أو المؤمن الخاطئ الذي يشهد بما يؤمن به و لكنه خلاف الواقع، و إن كان بين الكاذبين بون، كذب كافر عامد، و كذب مؤمن غير عامد، فأحرى أن يسمى هذا جهلا لا كذبا.

فالقولة غير الموافقة لواقعي العقيدة و الحقيقة معا، و إنها قولة منافقة كاذبة تماما، و الموافقة لهما صادقة تماما، ثم بينهما متوسطات، و إن كانت المنافقة للعقيدة، الموافقة للواقع أخطرها مسّا من كرامة الحقيقة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 358

فموقع الجملة المعترضة «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ» هو الحفاظ على صدق شهادة المنافقين و جاه الواقع، فشهادته ثانية بكذبهم المؤكد بأداته: «ان .. ل» لتثبت كذبهم بالنسبة لواقع العقيدة، لا واقع الحق.

و هكذا يكون دور المنافقين في كذبهم أنه أخطره إذ يغرّ غير النابهين.

و لأن المؤمن ينظر بنور اللّه فلا يصدّق قولة الزور المنافقة، لذلك يتشبث المنافقون بأيمانهم المغلظة علّهم يصدّقون فعن سبيل اللّه يصدون، نفاقا على نفاق و كذبا على كذب:

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏:

توحي الجنة أن نفاقهم كان يظهر أحيانا من صفحات الوجه و فلتات اللسان أو بما يظهر اللّه- نبيه و المؤمنين- عليه، فيضطرون إلى جنة: ترس- يدافعون بها عن أنفسهم، و كما تصرح بذلك آيات: «إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى‏ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً. فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً. أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً» (4: 63) «لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» (9: 42) «وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ» (9: 56) «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ» (9: 62) «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا ..» (9: 74) «ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (58: 14).

و هكذا نرى حياتهم الشريرة المنافقة حياة الكذب، و الحلف الكذب، ليتخذوه جنة، فيصدوا عن سبيل اللّه بجنة اللّه (الحلف) و لا يصدون إلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 359

أنفسهم، و جهّالا بلها لا يعرفون، و اللّه يعرّفهم كيانهم ليفضحوا على رؤوس الأشهاد، و لكي يستوي المؤمنون النابهون و البله في التعرف إلى كذب هؤلاء المناكيد، و لذلك نراهم حذرين عن الآيات و السور التي تفضحهم: «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ» (9: 64).

و قد أخرج اللّه ما كانوا يحذرون بهذه السورة، حاملة الثورة الماحقة كيانهم الساحقة معنوياتهم، الفاضحة مكائدهم: «وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ‏ ..

إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ»:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ‏:

«ذلك» الكذب البعيد البعيد في شهادتهم، و ذلك السوء البعيد في عملهم «بأنهم آمنوا» إذ أظهروه، أن عقد به قلوب البعض منهم، و أن طبّقه عمليا كذلك البعض منهم، «ثم كفروا» ارتجعوا عما تقدموا فيه من الإيمان، أيا كان، و هذا الكفر العامد المعاند بعد الإيمان طبع على قلوبهم المقلوبة، طبع اللّه عليها بكفرهم، «فهم لا يفقهون» بعد الطبع، و قد كانوا يفقهون قبله، و إنما زال عنهم فقه الحق و إدراكه فالتعلق به، بما اختاروه من الكفر بعد الإيمان، فجازاهم اللّه بذلك الطبع المظلم في قلوبهم، امتناع للفقه بالاختيار، دون تسيير و إجبار: أجل: «فَطُبِعَ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ» «.. فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (9: 93) «.. فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ» (7: 100) فكما القلب إمام لسائر المدارك و الحواس و الأعضاء، كذلك طبعه طبع عليها جمعاء «لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ.

ان الكفر بعد الإسلام هو الخروج عن الشهادة باللسان بإنكاره كذلك باللسان‏ «وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ» (9: 77) و هو بعد الإيمان خروج عنه، إما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 360

إلى الكفر المطلق، أم إلى الكفر النفاق، و هو المعني هنا، فمن المنافقين من يسلم منذ البداية نفاقا، أو هو غير مؤمن بقلبه: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14) و المسلم الخاوي قلبه عن الإيمان قد يتدرج إلى الإيمان، فهو مسلم غير منافق و لا مؤمن، و قد يثبت على الكفر على علمه بالإيمان، فهو منافق، و قد يؤمن ثم ينافق، و هو أخطر النفاق، فإن ايمانهم الأول يطمئن المؤمنين انهم منهم، ثم خروجهم خفية إلى النفاق يرجع لهم بأخطر الأضرار و هم لا يعلمون، ثم خروجهم إلى الكفر المطلق يوهن ضعفاء الإيمان عن ايمانهم. و إنهم إضافة إلى مظاهرهم الخلابة الجلابة، و مقالاتهم الحلوة البراقة، التي تغر من لا يعلم السرائر:

وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ‏:

إن حياتهم الظاهرة، بأجسامهم: أعمالهم الجسدانية و أقوالهم و أموالهم و أولادهم، إنها حياة الإعجاب و الإغراء: «فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ» (9: 55) «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى‏ ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ» (2: 204).

فأجسامهم هي التي تعجب، دون أرواحهم و ضمائرهم الخاوية من كافة معاني الحياة و الإنسانية، أجسام و قوالب نضرة، كأنها على قلوب رائعة عطرة، و لكنها خشب مسندة خاوية، و حتى كأنها عن الأرواح النباتية أيضا، و لا يعنى من عجاب أجسامهم سمنها و جمالها فقط، فكثير من المؤمنين لهم أجسام حسنة، و إنما يعنى أن المعجب فيهم- إذا كان- ليس إلا أجسامهم و أعمالهم الجسدانية.

ثم و أقوالهم التي تنبئ عن الضمائر و الحقائق، هي أيضا معجبة لحدّ تسمع- أنت الرسول- لقولهم، لفصاحتهم و ذلاقة ألسنتهم و حلاوة كلامهم، إضافة إلى أيمانهم الجنة التي تصد عن سبيل الجنة، فكلامهم يوحي الصم الصلاب،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 361

و فعلهم يطمع فيكم زملائهم الأعداء، و لكنما الظاهرتان هاتان ليس ورائهما إلا كل خواء و بلاء، كالخشب المسندة: فهم أشباح بلا أرواح، و تجار بلا أرباح، و نساك بلا صلاح، قوالبهم قوالب الآدميين، و قلوبهم قلوب الشياطين.

فكما الخشب المسنّدة- و هي الخشب النخرة المتآكلة البالية الجوفاء، كثيرة السناد «1» إلى غيرها لتقوم كالأخشاب السليمة أو كالأشجار- كما انها يحسبها الجاهل أشجارا كأنها مثمرة، رغم موتها و جمودها عن الروح النباتية، و حتى عن الفوائد الجمادية أيضا، فالخشب السليم ينتفع به في سقف أو جدار، و لكن الخشب المسنّد لا نفع فيه أللهم إلا حرقه، أو يسند إلى أسناد ليخيّل إلى الجهال أنه خشب أو شجر، كذلك هؤلاء المعجب بأجسامهم، المسموعة أقوالهم، يحسبون أوتادا و أوتارا للحركة الحيوية الإنسانية، و إذا بقلوبهم نتنة ميتة، لا تحكم فيها أرواح الحياة و حتى النباتية، فإنها تنمو لصالح الحياة، و هم ليسوا إلا عراقيل دون الوصول إلى الحياة! فهم أجسام تعجب، لا أناسي تتجاوب، هم خشب مسنّدة ملطوعة بسواها من جدار و سواه، لا حراك لها، و إنما حياتهم التجسس عن كل حركة، و التوجّس من كل صوت عال‏ «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» لما ترقبهم من فضيحة بأعمالهم، و ما يفضحهم اللّه به، كالقصبة المرتجفة في مهب الريح، التي تجعل كل ريح عابرة صوتا في قلبها، كذلك هؤلاء الخشب المسندة الجوفاء، يحسبون كل صيحة ضدهم.

و إذا أردت أن تعرف العداء كل العداء «هُمُ الْعَدُوُّ»: العدو الأكثر خطورة، الكامن داخل المعسكر الإسلامي، و مجتمعه السامي، و هو أخطر من العدو الصريح الخارج، فكأنما العداء محصور فيهم‏ «2»، ثم هم على كثرتهم كأنهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كثرة السناد مستفادة من «مسندة» فإن التسنيد تكثير الاسناد بكثرة المحال.

(2) الحصر مستفاد من تقديم «هم» على «العدو» و لمكان «ال» الاستغراق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 362

عدو واحد «العدو»، لتحالفهم على عداء الحق دون تخالف، عداوة موحدة تصدر عنهم في كافة مواردهم و مصادرهم، حلّهم و ترحالهم، حالهم و مقالهم «فاحذرهم» بكل ما يستطاع من وسائل و أسباب «قاتلهم اللّه» قتالا نفسيا بسحق معنوياتهم، و تكذيب مدعياتهم، و فضحهم على رؤوس الأشهاد، و كما يستحقون دعاءك و المؤمنين: أن يقاتلهم اللّه على طول الخط هكذا.

ف «قاتلهم اللّه» كأمثالها، ليست دعاء من اللّه، و إنما إخبار انه يكفيهم قتالا، و إن كانت تتحمل بضمن الإخبار دعاء: ان اللّه ينقل حال المؤمنين و جاه هؤلاء المنافقين أن يقولوا: «قاتلهم اللّه».

«أنى يؤفكون» هذه المقاتلة الواقعية، و المستدعاة أيضا، هي دائبة «أنى يؤفكون»: أي زمان و في أي مكان يعيشون الإفك و الزور و الغرور، و قد تكون «أنى» استفهاما توبيخيا: أنى يصرفون في الإفك؟ فمن يكرس حياته في سبيل الإفك و الصرف عن الحق، فاللّه هو مقاتله، و جملة الإفك تتحمل كليهما.

ثم انهم- بعد فضحهم- يطالبون بالاستغفار، و أنى لهم الغفر؟ و هم مستهزءون مستكبرون:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ‏:

ان الاستغفار يتطلب حالة خاذلة بجنب اللّه، راجعة عما فرّط في جنب اللّه، و إذا كان أمر الذنب متفاقما فليشفع باستغفار رسول اللّه: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً» (4: 64).

و لكنهم على تفاقم كفرهم بنفاقهم العارم، و أنهم طولبوا بالاستغفار و أن يستغفر لهم الرسول، يلوون رؤوسهم مستهزئين، إشارة الصدّ و الاستكبار، صدّا و إعراضا عن الاستغفار، و استكبارا على اللّه، و على إتيان رسول اللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 363

رغم اتخاذهم أيمانهم جنة عما يعرف عنهم من الكفر و الإدبار، و كان لزام تلكم الايمان تقبل الاستغفار و ان في نفاق، و لكي يستحكموا وثائق مكرهم و أوتاد نفاقهم، و لكنهم قوم لا يفقهون، و بما ان قبول الاستغفار هداية إلهية، و اللّه لا يهدي الفاسقين المصرين على فسقهم، لذلك:

سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ‏:

سواء عليهم استغفار الرسول و عدمه فلن يغفر اللّه لهم، و إن استغفر لهم ما يشاء: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» (9: 80) فسواء هذا و ذاك عليهم، أللهم إلا المنافق التائب، كغيره من الكافرين، أو الفاسقين التائبين، فإن اللّه يتوب عليهم ان شاء: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ‏ أو يتوب عليهم ان شاء» (33: 73) و لكن منافقي هذه السورة ليسوا منهم، فإنهم الثابتون على نفاقهم و يزدادون عتوا و نفورا، «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»،: فهل إنه سواء على الرسول أو له، أيضا؟ فهل يسمح له بالاستغفار لقوم منافقين مستكبرين، و هم أخطر و أشر من المشركين بعد ما تبين له أنهم أصحاب الجحيم؟ كلا! ف: «ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى‏ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ» (9: 113) و لم يكن المطالب منهم، أن يستغفر لهم رسول اللّه هو الرسول نفسه، حتى يكون طلبا للمحظور، و إنما هم‏

«عشائر المنافقين إذ قالوا لهم:

لقد افتضحتم ويلكم فاتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستغفر لكم فلووا رؤوسهم و زهدوا في الاستغفار»

«1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 364

و عموم التعليل في عدم قبول توبة «الفاسقين» يعمه لكل من ثبت على فسقه و ان أتى بلفظة الاستغفار، من كافر أو منافق أو فاسق غيرهما، دون اختصاص الحرمان بالمنافقين، فكل خارج عن طور العبودية، منفلت عن طاعة اللّه، انه لا يهديه اللّه بغفر ذنوبه، ما دام ثابتا على فسقه لا يغيّر، فالخروج عما يستغفر عنه، هو من اصول قبول التوبة، و هي التوبة النصوح.

ثم و من مكائدهم ضد الرسول محاولة انفضاض المؤمنين عنه بالضغط المالي:

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى‏ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ‏:

هذه الخطة المنافقة في المدينة سبقتها خطة كافرة في مكة، و هي تقاطع بني هاشم في شعب أبي طالب ليظلوا جياعا حرجين في لزامات الحياة، حتى ينفضوا عن رسول اللّه، و لكنها كانت خطة خاسرة، ما استطاعت أن تزلزل من إيمان المؤمنين قيد شعرة و هم تحت وطأة الضيق و الجوع و ألوان النكال العضال.

فليس المؤمنون بالرسالة حقا ممن ينفضون عن الرسول فرارا عن الجوع، و طلبا للشبع، طالما قدموا أنفسهم و أموالهم و هاجروا معه في سبيل اللّه، أللهم إلا منافقون أسلموا مغبة المال، كهؤلاء الأوغاد.

ثم هذه المقالة الخسيسة اللئيمة من المنافقين لمن تتجه؟ أمثالهم؟ و هم لم يكونوا من المنفقين على من عند رسول اللّه! أم للمؤمنين الأثرياء؟ فأقويائهم في الإيمان لا يتأثرون بمقالات المنافقين! أم الضعفاء منهم؟ علّهم! و لكن عدم إنفاقهم لا يؤثر إلا في ضعفاء كأمثالهم، ثم اللّه الذي له خزائن السماوات و الأرض:

من مواضع أرزاق العباد، و مدارّ السحاب، و مخارج الأعشاب و ما يجري مجراها من الأرفاق: ما خزن فيهما و بطن، و اللّه مخرجه بقدر معلوم، و ينزله بقدر معلوم، إنه لا يعجز عن جبر كسرهم و فقرهم، و عن تأييدهم في صبرهم، و هو الرازق لمن آمن و كفر، فهل يحصر رزقه للمؤمنين بالأثرياء الضعفاء في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 365

الإيمان؟ و من خزائن اللّه يرتزق هؤلاء و هؤلاء، فليسوا هم رازقي أنفسهم، و هم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين! «وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ» فالذي يعطي أعدائه لا ينسى أوليائه، فليست هذه الخطة اللئيمة إلا لأنهم لا يفقهون: ان خزائن الأرزاق بيد اللّه، و ان اللّه ناصر المؤمنين، و انه خاذل المنافقين، و انه موهن كيد الكافرين، و لأنهم لا يفقهون بما طبع على قلوبهم، فهم لا يزالون يحاولون في إطفاء نور اللّه، و اللّه متم نوره و لو كره الفاسقون.

فالفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، و لم يتوصل المنافقون بشاهدهم على غائب معرفة اللّه، و ان له ما في السماوات و ما في الأرض.

ثم هم من غيّهم و استكبارهم، و أن حسبوا أنفسهم أعزة غالبين، و المؤمنين أذلة مغلوبين:

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ‏:

هناك «لا يفقهون» لفقدهم العلم الغائب، و هنا «لا يعلمون» لفقدهم العلم الحاضر أيضا إذ لا يشعرون، و كأنهم لا يحسون أنهم الأذلة و هؤلاء الأعزة، و العلم أعم من الفقه و هم يفقدونهما بما طبع على قلوبهم.

أ هؤلاء الخشب المسندة، و الحمر المستنفرة أعزة، ثم أولئك الأولياء المكرمون أذلة؟! كلا! و لكن المنافقين لا يعلمون، جهلا عن تقصير.

توحي الآية بأن جماعة من المنافقين كانوا وقتئذ خارج المدينة، فأخذوا عدتهم- في زعمهم- لإخراج المؤمنين عنها لئن رجعوا هم إليها، معتبرين أنفسهم الأعز، و المؤمنين الأذلّ، و العزة هي الغلبة بحق بالمنعة التي تمنع أن يمسه ذلّ، فليست إلا للحق و أهله، دون ناكريه و المكذبين به، و أية عزة لمن ينافق و يماكر كالثعلب لضعفه و خوفه؟ و أية ذلة للمؤمن الصامد الصريح الذي لا يخاف إلا اللّه، فيخافه و يهابه من لا يعبد اللّه، «أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 366

لِلَّهِ جَمِيعاً» (4: 139) و لقد أراهم اللّه تعالى عكس ما ادعوا، فلم يدخلوا المدينة هؤلاء الأذلة المنافقون، إلا بإذن الأعزة المؤمنين و قد سلّ مؤمن عزيز سيفه على منافق بباب المدينة- و هو أبوه: رأس المنافقين- قائلا: و اللّه لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول: رسول اللّه الأعز و أنا الأذل‏ «1»! و ما أعز المؤمن إذ يثني بعزة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما أعز الرسول و المؤمنين إذ يقرئها اللّه بعزته، و لأن عزتهم مستمدة من عزته، فلا تهن و لا تهون، و لا تزايل صاحبه في أحرج العقبات‏ «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ».

(و إن اللّه تعالى فوّض الى المؤمن أموره كلها و لم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه، فالمؤمن يكون عزيزا و لا يكون ذليلا، المؤمن أصلب من الجبل، إن الجبل يستفلّ منه بالمعاول، و المؤمن لا يستفلّ من دينه شي‏ء) «2»

، (و من إذلاله نفسه أن يتعرض لما لا يطيق)

«3»،

(و يدخل فيما يعتذر منه)

«4»، و ليس من الذلّ أن يؤخذ ماله، أو يضيق على معيشته، أو يقتل في سبيل اللّه، و إنما ذلّه خروجه عن طاعة اللّه.

و لتستحكم عرى الإيمان في المؤمنين و جاه عراقيل الأموال و الأولاد التي تلهي عن ذكر اللّه، يوصيهم اللّه ألا تلهيهم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ان رأس المنافقين هؤلاء هو عبد اللّه ابن أبي بن سلول إذ أراد أن يشعل نيران الحرب بين المهاجرين و الأنصار و هم خارج المدينة في غزوة بني المصطلق بقيادة الرسول (ص) فأخذ ابنه سيفه بمدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ليعكس مقاله: ليخرجن الأعز منها الأذل، فيوقفه خارج المدينة حتى يأذن الرسول (ص) بدخوله.

(2) الكافي بإسناده الى الحسن الأحمسي عن أبي عبد اللّه (ع) في تفسير آية العزة.

(3) الكافي بإسناده الى داود الرقي قال قال: سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: ...

(4) الكافي بإسناده الى مفضل بن عمر قال قال أبو عبد اللّه (ع): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 367

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ‏:

فمن الملهيات عن ذكر اللّه ما تلهي على أية حال كالغناء و الرقص و موسيقاه، فهي لا تستعمل بحال، و منها ما تلهي بطبيعة الحال، و للإنسان أن يحوّلها إلى أحسن حال، كالأولاد و الأهلين و الأموال التي تعتبر جسرا يعبر عليه في سبيل اللّه، و هكذا يكون دور المؤمن مع المغريات و الملهيات أنه يحوّلها إلى مذكرات باللّه، و يخطو بها خطوات في سبيل اللّه، فليست الأموال و الأولاد ملهاة لمستيقظي القلوب النابهين، الذين ينظرون الى الدنيا نظرة عبرة و عابرة، يبصرون بها الحياة الآخرة، و إنما هي ملهاة و مزلات لمن يبصرون إليها نظرة قاصرة لا يعدوها الى مغزاها و منتهاها.

«وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ» التصرف البعيد البعيد في أمواله و أولاده‏ «فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ»: يخسرون سمتهم الإنسانية، فيخسرون كل ما للإنسان في دنيا الحياة و عقباها، مهما ربحوا حيوانيا لفترة قصيرة زهيدة!.

و من آثار الأموال و الأولاد غير الملهية عن ذكر اللّه، إنفاقها في سبيل اللّه، دونما ابتغاء جزاء أو شكور ممن سوى اللّه، بإزالة كافة التعلقات بالأموال و الأولاد، إلا ما يحصل بها مرضاة اللّه:

وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى‏ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ‏:

و طالما الإنسان بنفسه و نفيسه، بما له و أولاده، و بكافة معطياته، انه هو من رزق اللّه، فليكن كله كذلك إنفاقا في سبيل اللّه، فلا يملك هو لنفسه شيئا، و إنما هو مستخلف فيما رزقه اللّه، فإذا أنفق فإنما ينفق من مال اللّه: «وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» (57: 7).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 368

و ليكن الإنفاق قبل أن يأتي الموت، فإن الإنفاق عنك بعد الموت، و إن كان بوصية منك، هذا لا يزيل تحسّرك بعدم الإنفاق، إلا قليلا لا يغني، و إن كان الوصي و المنفق عنك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمئات الأضعاف مما لو كنت تنفقه.

فإذا أتى أحدكم الموت و لم ينفق واجبه، طلب متحسرا تمديد أجله، بقدر ما يتصدق فيكون من الصالحين، «رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى‏ أَجَلٍ قَرِيبٍ» لكي أصلح ما أفسدت، و بقدر ما أنفق واجبي، فلتتصدق أنت بنفسك قبل الموت تكن من الصالحين دون تحسّر بعده و لا تأثّر.

أنت تموت و لم تنفق ما عليك؟ و تترك كل شي‏ء و راءك؟ فتنظر بعد الموت أن ليس معك شي‏ء مما ادّخرت؟ و هذا من أحمق الحمق و أخسر الخسران! و أنت تطلب تمديد أجلك:

وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ‏:

فالأجل المحتوم المسمّى لن يؤخر لأيّ كان، صالحا أم طالحا، و الأجل المعلق لن يؤخر للطالحين الذين‏ «إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ» فيجاب‏ «كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها» (23: 155) «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37) فالعادلون لهم نصير، ينصرهم اللّه إن شاء في تأجيل آجالهم المعلقة ليزدادوا خيرا، فعدم الإجابة في تأجيل الأجل المعلق ليس إلا لعدم أهلية المستأجل و أنه كاذب فيما يقول‏ «وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» أن عملكم لا يصلح ما عمّرتم و أجّلتم ما شئتم.

و بما أن المخاطبين هنا المؤمنون، فهنا إيحاء أن المقصرين منهم في الإنفاق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 369

سوف يطلبون الرجعة و لن يرجعوا، و كما يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1»، و إن كان بين هؤلاء و بين الكفار بون بعيد.

و كما أن هنا إيحاء أن المؤمن الصالح، غير المقصر، قد يستجاب له في تمديد الأجل المعلق، لا ليعمل صالحا فيما ترك، بل ليحقق الأمل في تكميل الإيمان، و كما أن الراجعين بالاستدعاء، في دولة المهدي عليه السّلام يجابون في إحيائهم بعد موتهم، و ليستكملوا بمناصرة المهدي عليه السّلام.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 226- عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص): (من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 370

(سورة التغابن- مدنية- و آياتها ثماني عشرة)

[سورة التغابن (64): الآيات 1 الى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (4)

أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (5) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (6) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى‏ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (7) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (8) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (10)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 371

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ:

«يسبح» دائما لزام الذات تسبيح الحال و المقال، الإشارة و العبارة، «للّه» لا سواه‏ «ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ»: كل الكائنات العلوية و السفلية سواء فهي كلها كخلق للّه تسبيحات للّه طوعا أو كرها، «له الملك» عليها دون ضد و لا ند و لا وكيل و لا شريك، فلا ملك لغيره إلا ما هباه، ملكا ضئيلا زائلا، «و له الحمد» إليه يرجع الحمد كله، فإنه الثناء على الوصف الجميل و الفعل الجزيل، و لا جميل و لا جمال و لا جزيل إلا من الرب الجليل و إليه، أينما كان، فلا ثناء إلا له، رغم ما ينكره الناكرون، و يمكره الماكرون، و كما التسبيح للّه يعمّ الإختيار و اللااختيار، التكوين و سواه، كذلك الحمد، فسواء بلسان التكوين الحال بمحامد الصنع في الخلق، أم بلسان المقال ممن آمنوا باللّه، فالكائنات كلها تحت ملك اللّه، و كلها تسبيح و حمد للّه، إذ لا قصور في ملكه و لا تقصير، «وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» دون حد و لا تقدير، و إن كان خلاف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 372

العدل و الفضل و الحكمة، و لكنه لا يفعله رغم قدرته، و هو اللطيف الخبير «1».

فمن عرف هذا الملك الحميد القدير، خشي من سطوته، و أمل لطائف نعمته من كرمه و منّته، و في حين يركن المؤمن إلى اللّه، فإنما يركن إلى الملك المسبّح المحمود، القادر على كل شي‏ء، فيطمئن في الحياة كل الحياة، و بعد الممات.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ:

«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» فلا خالق إلا هو «فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» و الفاء هنا لا تعني تفريع الكفر و الإيمان على الخلق، أنهما من خلق اللّه كما سائر الخلق، و إنما تعني تأخرهما عن الخلق: الكفر و الإيمان الاختياري منذ التكليف.

و مهما كان الإيمان الفطري مخلوقا مع المكلفين أجمع: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» (30: 30) فلا يعقل أن الاختياري منهما، أو الكفر المجبول، مخلوق مع الإنسان، إذ لا تكليف قبل حدّه حتى يكون كفر أو إيمان قبل حدّه، و لو كان معقولا فهو ظلم و تسيير «و ما الله بظلام للعبيد».

فالخلق كلهم خلقوا على فطرة الإيمان، و كما

في الحديث القدسي‏: (خلقت عبادي كلهم حنفاء)

«2».

و مهما كان الإيمان مبدئيا أقدم على الكفر، و لأن الإنسان مفطور عليه منذ يخلق، و لكنما الكفر أقرب اليه واقعيا، تقدم واقع اللاإيمان في الأكثرية الساحقة من الناس النسناس، على مبدء الإيمان الفطري، و لذلك قدم الكافر هنا على المؤمن، لأن الآية بصدد استعراض صنفي الخلق بعد الخلق، فيما هم صائرون اليه من الكفر و الإيمان، ثم نرى الآيات المستعرضة لما يتوجب اختياره منهما، تقدّم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الجزء 29 من هذا التفسير ص 5- 10 كلام في القدرة.

(2) مجمع البيان عن الامام الصادق (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 373

الإيمان، و لأنه قضية الفطرة و أمان من العذاب: «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» (18: 29) تقديما لمشيئة الإيمان.

«وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»: تصريحة بعد تلويحة أن الكفر و الإيمان، هما من أعمالنا، لا من خلق اللّه، و لكن اللّه لا يخفى عليه شي‏ء منهما، و العمل هنا يعمّ عمل القلب و القالب، فهو بصير بهما، و أنتم فيهما أمام بشير نذير.

هذا- فما يروى أن الإيمان و الكفر من خلق اللّه، إنه مخالف لكتاب اللّه و دليل العقل و الواقع و أحاديث الفطرة، فيضرب عرض الحائط أو يؤوّل‏ «1».

و كما اللّه خلقكم، كذلك أحسن صوركم في الخلق، و منها صورة الفطرة، فلتؤمنوا استجابة لنداء الذات الحسنة:

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ:

إن خلقهما حق و للحق و بالحق، لا باطل فيهما من حيث الخلق: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» (38: 27) ذلك لأنهم ليست لهم ألباب، فمقالة أولي الألباب: «رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ» (3: 191) فلا باطل في الخلق من لهو أو لعب أم ماذا: «لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ» (21: 17) «وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ. ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (44: 39).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 227- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص): (العبد يولد مؤمنا و يعيش مؤمنا و يموت مؤمنا، و العبد يولد كافرا و يعيش كافرا و يموت كافرا، و إن العبد يعمل برهة من الزمان بالشقاوة ثم يدركه الموت بما كتب له فيموت شقيا، و إن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاوة ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا).

أقول: حاشا الرسول من هكذا قولة تخالف كتاب اللّه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 374

و من حق الخلق تصويركم بالصورة الإنسانية قلبا و قالبا خلقيا و شعوريا «فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» في أحسن تقويم، قوام الروح و الجسم، فلا صورة في الخلق أحسن من صورة الإنسان، مهما تماثلها صور لا نعرفها، و قد توحي بها آيتان متجاوبتان: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا» (17: 70) فمن هذا القليل الذي لم يفضّل عليه الإنسان، فتقويمه كالإنسان أحسن تقويم؟ لا ندري!.

و من ثمّ فهذا الخلق الحق، و هذه الصورة الحسنة، مصيرهما الى اللّه، فهو المبدء «وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» و لو لا الرجوع إلى اللّه في حياة الحساب لكان خلق الكون لغوا و لهوا و باطلا، أ فهذا الخلق العريض الطويل لا يهدف إلا هذه الحياة الزهيدة الهزيلة؟ فهذا هو اللهو و الباطل، سبحان الرب الجليل!.

يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ:

إن المرجع و من إليه المصير، هو عليم خبير بما تكنّ صدوركم و ما تعلنون، لا يعزب عنه ما نخفي و ما نعلن، و لا يغرب عنه ما علم‏ «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ»: صاحب الصدور، و إذ هو عليم بذوات أصحاب الصدور فأحرى أن يكون عليما بالصدور، فهل يخفى عليه- إذا- ما تكنّ الصدور؟ كلا! «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» (20: 7): السرّ الخفي الكامن، و الأخفى غير الكائن، الذي يستقبل ذوات الصدور و هم عنه غافلون، فما ذا يصنع هذه الحشرة الصغيرة، الهزيلة الذليلة، في مصيرها إلى اللّه، الملك القدّوس العليم، العليّ القدير، الخبير البصير، الذي إليه المصير.

إن للإنسان مذكرات لو تنبّه عن غفوته، منها حاضره كالمسبقة من مذكرات خلق اللّه و علمه و قدرته، و منها غابرة حلّت في التأريخ و قد أتتنا في كتابات الوحي:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 375

أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏:

إن نبأهم هذا كسائر الأنباء: خبر ذو فائدة، تفيدكم عن جهلكم إذ تفيقكم عن غفلكم، و إنه ينبئكم بما ذاقوا و لاقوا من عذاب‏ «وَبالَ أَمْرِهِمْ»: تبعة السيئة:

كالوابل: المطر الثقيل القطار، مقابل الطلّ و هو خفيفه، فذوق الوبال هو نيل الطلّ، فعذاب الاستئصال هو طل من العذاب، ثم يليه وابله منذ الموت، فهم ذاقوا في الدنيا وبالهم بعذاب الاستئصال، فإنه- حقا- دون ما يستحقونه، فذوق العذاب غير نيله- كما أن ذوق الموت غير الموت- ثم لاقوا في البرزخ عذابا برزخيا، و سوف يلاقون عذاب النار يوم القرار و لات حين فرار، فالعذاب الأليم يعني الأخيرين، كما أن ذوق الوبال يخصّ الأوّل.

ألم يأتهم هذا النبأ؟ بلى! فلما ذا استغفلوا عنه؟ لأنهم رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها! و قد كانوا يتناقلون أنباء بعض الهلكى كعاد و ثمود و أصحاب الرسّ و قرونا بين ذلك كثيرا، و لكن لا حياة لمن تنادي! و لماذا هلكوا هنا و يتألمون بالعذاب هناك؟:

ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ:

فالأصل هو تكذيب الرسل برسالاتهم، رغم البيّنات القاطعة الظاهرة الزاهرة لمن يعرف لغة الإنسان، و يسمع و يبصر كإنسان، فكانوا يعتذرون بعذر غير عاذر، و بكفر غادر: «أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا»؟ «أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ» (54: 24).

و ليست هداية الرسل إلا هداية اللّه، بما يحملون من رسالات اللّه، فهل ينظرون أن تأتيهم ملائكة: «لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ» (6: 9) أو ينظرون أن يأتيهم اللّه بنفسه؟ أم‏ «يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى‏ صُحُفاً مُنَشَّرَةً»؟ كلا .. و إنما هي الحجة القاطعة الإلهية يجب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 376

أن تتّبع، و إن حملتها أشجار أم أحجار، فكيف و قد حملها أبرار مصطفون أخيار!.

فعجب من هؤلاء الأوغاد أنكروا أن يكون الرسول بشرا، و لم ينكروا أن يكون معبودهم حجرا! و في هكذا معبود مهانتهم، و بهؤلاء الرسل كرامتهم، و لكنهم دوما يعترضون‏ «أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا» كأنما الهداية الإلهية لا تتمثل في البشر، لأنه لا يؤهل لهذه الكرامة! و قد يرفضها الجاهل النكد، فيعبد الحجر و يترك الرسول البشر، جهلا أو تجاهلا بحقيقة الرسالة و كرامة الإنسان: «وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى‏ إِلَّا أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا» (17: 94). رغم أن الرسالة منهج إلهي لا بد أن تتمثل للبشر في ذوي نوعه، ليصوغهم على مثاله قدر المستطاع، و لكي لا تكون للناس حجة على اللّه بعد الرسل.

«فكفروا» باللّه «و تولوا» عن اللّه «و استغنى اللّه»: عنهم و عن إيمانهم:

أن أظهر غناه و فقرهم، و قوته و ضعفهم، بما دمّرهم تدميرا حيث أذاقهم و بال أمرهم، فلو كان بحاجة الى إيمانهم لألجأهم إليه، أم لو كان فقيرا إليهم على كفرهم لأبقاهم، و لكن: «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى‏ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ» (39: 7).

«وَ اللَّهُ غَنِيٌّ» عن إيمانكم‏ «حَمِيدٌ» في كفركم، فليس حمده بإيمانكم، لأنه حميد بذاته، مجيد بأفعاله و صفاته، فلا يرجع عائد الإيمان الى اللّه، و لا مضرّة الكفر إليه، و إنما الى أهله و عليهم.

و الكفر باللّه و رسالاته يعني دائما التحلل عن أسر شريعة اللّه، و مما يريحهم و يحوّلهم الى إباحية مطلقة هو نكران البعث و الحساب زعما على زعم:

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى‏ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 377

إن الزعم دائما كنية الكذب و زاملته، سواء أ كان خلاف الإعتقاد أو خلاف الواقع أو خلافهما، و الظن- إذا- لزامه، إذ لا يركن الى أيّ دليل، فهم يزعمون إحالة بعثهم «لن يبعثوا» و ليس سنادهم في زعمهم إلا استبعادات، فلا جواب إذن إلا تأكيد البعث قسما بربّ محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قُلْ بَلى‏ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ» فالتربية الإلهية الظاهرة في محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الزاهرة بأخلاقه و تصرفاته و تفكيراته، إنها دليل لا مردّ له أن ربه قادر على بعث هؤلاء «ثُمَّ» بعد بعثهم‏ «لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ»: حسيّا و علميا و جزاء وفاقا «وَ ذلِكَ» البعث و الإنباء «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» إذ فعل ما هو أقوى منه و أولى كأن صنع محمدا و ربّاه، الذي يوازي صنع العالم كله و أعلى!.

«بَلى‏ وَ رَبِّي» ليس قسما خاويا عن الدليل، مقابلة اللادليل باللادليل! و إنما تعليل لطيف و استدلال بأقربية الغائب (البعث) من الحاضر (واقع التربية المحمدية) بواقع رسالته الإلهية المبرهنة، فليصدّق قوله عن اللّه، فبعثهم أيسر على اللّه من صنع محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو بشخصه الكريم هو العالمون أجمع و زيادات لا يعلمها إلا اللّه هذا- و كذلك ربوبيته العالمية تقتضي البعث للحساب، فلولاه لكان تسوية بين المطيع و العاصي، بل تفضيلا للظالم على المظلوم، إذ لا نرى هنا انتقاما كما يجب، فالظالم يظلم و يتبختر، و المظلوم يظلم و يكسر، فهل إن رب العالمين جاهل بما يحصل؟ أم عاجز عن الانتقام هنا؟ أم سوف يفصل بين عباده يوم الفصل؟ و هو الحق! و هذا مقتضى ربوبيته! «قُلْ بَلى‏ وَ رَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ..»

و هو قدير بما تقتضي ربوبيته.

نرى دائما أن نكران وجود اللّه و توحيده، و نكران الرسالة و البعث، لا يستند الى أي دليل، ثم نرى الآيات البينات كيف تعالج ما يخالج في صدورهم من ظن و زعم، بمختلف البراهين القاطعة: فطرية، فكرية، عقلية، حسية واقعية، و لكنهم ما كانوا «لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ» (7: 101) و «عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ» (10: 74).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 378

و من لطيف التعبير عن قولتهم الكافرة، هو الابتداء بتكذيبهم: «زَعَمَ» و الانتهاء الى تزييفهم بالبعض من براهين البعث.

و من ثم، بعد هذه التنبيهات، و التذكيرات بما فعل الذين كفروا و ما فعل بهم، يأمرهم أن يؤمنوا:

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ:

هنا إيمان باللّه كأصل الإيمان و موضوعه، و هناك إيمان برسول اللّه هامشيا لرسالته الإلهية، و هنالك إيمان بالنور المنزل مع الرسول لينير الدرب على متحرّي الحقيقة، و ليتثبت إيمانه الكامل فيثبت عليه، و ليسترشد الى مغزى الإيمان الأصل بالوحي الذي يحمله الفرع.

فالنور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره ماديا، و أحرى منه معنويا، «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (24: 35) ظاهر بآياته للقلوب غير المقلوبة، و البصائر غير الكليلة، و مظهر لسواه، من العدم الى الوجود، و من الظلمات الى النور.

فرسول اللّه نور من اللّه، إذ يحمل نورا و يصدر عن نور و كله نور: «قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ» (5: 15)، فإنه حجة بأفعاله و تصوراته، و معجزة في ذاته، كما في كتابه المبين.

و هناك استمرارية نور الرسول نجدها في عترته الطاهرة، الذين هم إشعاع من تلكم الشمس‏ «1» و (كلهم نور واحد)، و كما

عن صادق آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (أولنا محمد، آخرنا محمد، أوسطنا محمد، كلنا محمد).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد وردت أحاديث أن الأئمة من آل محمد هم النور، و هذا من التأويل و الجري، لأنهم يحملون النور: القرآن، و نور الرسالة المحمدية بالخلافة الحقة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 379

و كتاب اللّه نور: «يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» (4: 174)، فبرهان الرب هو الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و النور هو القرآن الذي يزداده برهانا و نورا، فانه يهتدى به في ظلم الكفر و الضلال، كما يهتدى بالنور الساطع، و الشهاب اللامع، و ضياء القرآن أشرف من ضياء سائر الأنوار، لأنه يعشو إليه القلب، و هي يعشو إليها الطرف، و القرآن النور ظاهر بنفسه أنه إلهي، و مظهر لغيره و لرسالة من أوحي إليه: نور على نور من نور «وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ» (24: 40).

ترى من يترك النور الى الظلمات هل له بصر؟ أو هل يبصر و هو ينكر؟:

«فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46) «أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى‏» (13: 19) «أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ» (43: 40) «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ» (27: 66).

«وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ» بالجوانح كفرا و إيمانا، و بالجوارح طاعة و عصيانا «بَصِيرٌ» لا تخفى عليه خافية، و لا تعزب عنه عازبة، فأنتم مكشوفون له يوم الدنيا، و مكشوفون له يوم يكشف عن ساق، يوم التغابن، و أين كشف من كشف؟:

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ففي الكافي‏ سئل الباقر (ع) عن‏ «النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا» فقال: النور- و اللّه- الأئمة، لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار، و هم الذين ينورون قلوب المؤمنين و يحجب اللّه نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم و يغشاهم بها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 380

«يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ»: و قد تكرر هذا الجمع في القرآن، و إنه لفصل القضاء: «وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ» (42: 7): يجمع اللّه فيه المكلفين بمختلف درجاته، بكل الدواب، سواء من هذا النسل الأخير، إنسانيا و سواه، أم سواه من الأنسال المنقرضة قبله.

و هنا يومان و جمعان كما في النص، يوم جمع أول هو جمعهم في الإحياء:

قيامة الإحياء: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ»، و يوم جمع ثان هو الهدف الأصيل للأول، جمع الأحياء للحساب و الجزاء الوفاق، فالقيامة أيام ثلاثة: قيامة الإماتة، و قيامة الإحياء، و قيامة الحساب الجزاء، و في كلّ منها جمع.

«ذلِكَ» اليوم العظيم المحتد، البعيد المدى، الذي لا حاكم فيه إلا اللّه‏ «ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ» و الغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينكما بضرب من الإخفاء، فالتغابن هو التباخس خفيا، فمن هم المتغابنون يوم الجمع، و كيف يتغابنون؟

هل إنهم رؤوس الضلالة و أتباعهم، أن يحاول كل أن يبخس صاحبه فيتبرء؟: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ. وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ» (2: 167) «وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ» (40: 48).

فهذا يوم التغابن بينهم في النار يوم القرار، كما تغابنوا يوم الدنيا، إذ أضل المضلون أتباعهم غبنا و حيلة، و أضلهم أتباعهم باتّباعهم فازدادوهم استكبارا و غيلة، فكانت حياتهم بينهم حياة التغابن، و لكنه يظهر يوم الدين دون خفاء، مهما كان خفيا يوم الدنيا.

أو أنه التغابن بين اللّه و الكافرين به؟ فهم كانوا مبتهجين يوم الدنيا بتخلفاتهم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 381

حاسبين أنفسهم أنهم السابقون؟ «فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» (59: 2) «وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» (39: 47)، فهم أرادوا أن يبخسوا الحق و أهله، فبخسوا و خسر هنالك المبطلون.

أو انه التغابن بين الأخيار و الأشرار، إذ يحاول الشرّير غبن الخيّر، و يخفي عليه خيره و شرّ نفسه، فيحسب أنه يحسن صنعا، ثم يوم القيامة يظهر الخافي من أمرهما؟: «وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى‏ رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ. أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ. إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» (38: 64)، و كأنما الفريقان كانا متعاقدين و متبايعين، المؤمنون ابتاعوا دار الثواب، و الكافرون اعتاضوا منها دار العقاب، فتفاوتوا في الصفقة، و تغابنوا في البيعة، فكان الربح مع المؤمنين، و الخسران مع الكافرين.

أقول: كل محتمل، و الجمع أجمل، مهما كان الغبن من اللّه و المؤمنين حقا، و من الكافرين باطلا، و لكن الكل مباخسة على خفاء، خفاء المبطل حيلة و غيلة، و خفاء المحق نتيجة كفر المبطل، أو جزاء كفره: غبنا بغبن، جزاء وفاقا.

و قد تلمح الآية نفسها بالتغابن الأخير في تقسيمها الثنائي‏ «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ‏ ...

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...» فحياة الإيمان و الكفر مغابنة، فان حالة الكافر المريحة المرحة تغبن ضعفاء الإيمان، و حياة المؤمن الملتوية الصعبة تغبن حمقاء الكفر و الطغيان، ثم تظهر حقيقة الأمر في الحياتين يوم التغابن.

و قد يزعم الكفار أن المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا، سوف يدخلون النار كما هم يدخلون، فهم يغتنمون مزيد الكفر و الطغيان، و يسخرون من هؤلاء المؤمنين الضعفاء: ماذا يفيدكم هذا الإيمان، و أنتم كأمثالنا من أهل النار؟

فالجواب: «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 382

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً» و «صالحا» تعني فعل كبائر الصالحات و ترك كبائر الطالحات: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» و هذا الصالح العظيم سلبا و إيجابا، يكفر السيئات: الأعمال السيئة غير الكبيرة، و ترك الحسنات الصغيرة، و هذا غبن من المؤمنين على الكافرين الظانين بهم ظنّ السوء الظالم: أنهم و إياهم سواء.

كما و أن الكافرين ليسوا على سواء، فمنهم من يخلّد في النار أبدا، و منهم من لا يؤبّد، و بما أن‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» تعمّ الفريقين، لم يذكر أبد النار لهم، رغم ذكره للمؤمنين فإنهم في الجنة آبدين.

فهذه الفوارق بين المؤمنين الخاطئين، و بين الكافرين المختلفين في الكفر، إنها تغابن بينهم، لمن يجهلون موقف الحساب و ميزانه، تغابن في الدنيا بجهالة الشاردين، و في الآخرة بظهور حقيقة الغبن و باطله و أهلهما، لأنها يوم الدين.

[سورة التغابن (64): الآيات 11 الى 18]

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (11) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (12) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (13) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 383

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ‏:

إن المصيبات كلها لا تصيب أهليها إلا بإذن اللّه، و إن كانت بما كسبت أيدي الناس، المصابين و سواهم: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» (42: 30) «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ» (57: 23) مما كسبت أيديكم، أم ما تستحقونه دون كسب كمصيبة الموت في أجله المحتوم: «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ» (5: 106) أو ما كسبت أيدي غيركم فتصيبكم ظلما، لا جزاء، و إنما ابتلاء سيئا ليزدادوا أجرا و غفرا.

فإذن اللّه هنا و هناك هو السماح تكوينا بالإصابة، فلو لاه لاستحالت، سواء أ كانت بحق، من موت محتوم، و من سيئة بما كسبت أيديهم أنفسهم و منه بعض الآجال المعلقة، أم بظلم، كالحوادث الظالمة التي لا نصيب للمظلوم في أصلها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 384

و هي الصادرة عن الظالمين، فما لم يأذن اللّه لا يصاب المظلوم، و إذ يصاب فليس ظلما من اللّه أو جزاء، و إنما تحقيقا للتخيير، و رفضا للتسيير في الخير و في الشر سواء.

فليس الإذن- كما يزعم- هو السماح التشريعي فحسب، او لفظة القول التكويني فحسب، و إنما هو التنفيذ عن علم، الشامل للقول المؤذن بالسماح، او الآمر به، و الفعل المنفّذ له: تكوينا «وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ» (84: 2) او تشريعا «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ» (9: 43).

فالألوهية المطلقة الشاملة لكل مألوه، لزامها أن لا يصدر شي‏ء من الأمر إلا بإذن اللّه، دون استقلال لسواه، ثم الإذن تكوينا فيما نهى اللّه عنه، يعني أنه لا يحول بينه و بين فاعله، و يريد حصوله منه بعد ما اختاره، دون إجبار، فهو أولى بسيئاته من اللّه، و اللّه أولى بحسناته منه، إذ يأمر بها و يريدها و يوفق لها و يزيد، و لكنه ينهى عن السيئات و لا يوفق لها و لا يزيد.

و الصبر المأمور به في المصائب لا يشمل تلك التي تصيب ظلما من الظالمين، فالواجب مكافحتها قدر المستطاع، و إنما يختص بالتي أذن اللّه بها جزاء وفاقا، أم حتم اللّه كالأجل المحتوم، و هذا هو مقتضى الإيمان الصحيح‏ «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ» هكذا «يَهْدِ قَلْبَهُ» للشكر عند الرخاء، و الصبر عند البلاء، و يشرح صدره، و يفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة، و يصله بأصل الأشياء و الأحداث، فيرى مناشئها و غاياتها، و أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، و ما أخطأه لم يكن ليصيبه، و من ثم يطمئن فيزداد إيمانا «وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» فيزوّد المؤمن من علمه، و يطمئنه من فضله.

و هداية القلب هنا هي زيادة الإيمان جزاء من اللّه على الإيمان الاختياري، و ما أحلاه جزاء في الدنيا، و ليستعد لجزائه الأوفى في الآخرة!.

و في عموم إذن اللّه للإصابات كلها إيذان للكافرين القائلين: لو كان ما عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 385

المسلمون حقا لصانهم ربهم عن المصائب، إيذان بأن الإصابات كلها بإذن اللّه و حكمته، لا يعرفها إلا من هدى قلبه، و إيذان للمؤمنين أيضا أن لا حول لهم و لا قوة إلا باللّه، و ليؤمنوا بقضاء اللّه في إصاباتهم، بحكمها المجهولة او المعلومة لديهم بما يعرفون بنور الإيمان.

و بما أن أغلب إصابات المؤمنين مادية في قوالبهم- و هي محسوسة- و الأغلب في غيرهم معنوية في قلوبهم- و هي غير محسوسة- ففي نوعي الإصابة تغابن بين الفريقين يوم الدنيا، يظهر حقه يوم الدين، و أين إصابة من إصابة؟ بلاء لا يلمس فيغتر صاحبه كأنه غير مبتلى على كفره، و بلاء ملموس يدفع صاحبه للعلاج، او يصبر على قضاء اللّه فيزداد أجرا، او يعرف انه جزاء و تنبيه على سيئاته، و لكي ينجو عن بلاء الآخرة، و يقدم على التوبة في الدنيا!.

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ‏:

هنا طاعة اللّه، و هناك طاعة رسول اللّه، تجتمعان أنهما طاعة اللّه‏ «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ» (4: 80) و تفترقان أن الأولى هي الأصل و المبدء، و الثانية فرع، فلا يطاع محمد إلا كرسول يصدر من اللّه، ثم الاولى تتمثل في تطبيق كتاب اللّه، و الثانية في سنة رسول اللّه، الثابتة غير المفرقة، و في أوامره و نواهيه الولائية و السياسية كقائد للدولة الإسلامية، فإنه الحاكم بين الناس بما أراه اللّه، فمن اختص الطاعة بكتاب اللّه و رفض سنة رسول اللّه فقد غوى، و من أطاع الرسول تاركا لكتاب اللّه فقد هوى، فهما متلازمتان لا تفترقان و لا تتفارقان، الكتاب الأصل، و السنة المفسرة الموافقة له.

«فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عن الطاعتين او إحداهما «فَإِنَّما عَلى‏ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 386

- و علينا الحساب- فإذا بان بلاغه أنه من اللّه، فمن يعصيه إذا فإنما يعصي اللّه، «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» (6: 33).

فهذا تهديد شديد للذين يتولون، و تسكين لخاطر الرسول الأقدس، كيلا يحزن، بلاغا من:

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ‏:

يتوكلون عليه في كل قليل و جليل، ما يستطيعونه و ما لا يقدرون عليه، فالفاء في أمر التوكل تفرّعه على الألوهية الموحّدة، و لا بد لهذا الإنسان الضعيف الهزيل أن يتوكل في الحياة الفوضى، فمن هو أحرى وكالة من اللّه؟

ثم من هنا تختص الخطابات في السورة بالمؤمنين، خطابات تحذرهم عما يفتنهم و يلهيهم و يضلّهم:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏:

الأزواج هنا يعمّ الزوج و الزوجة، كما أن الذين آمنوا يعمّ الذكر و الأنثى، فقد يكون الزوج عدوا لزوجته في سبيل الإيمان، كما قد تكون الزوجة عدوة لزوجها في هذه السبيل.

فعلى المؤمن ان يعيش الإيمان بكل دوافعه و وقائعه، مواصلة من يعينه في قضيته، و مفاصلة من يفصله عنها و إن كانوا من أزواجه و أولاده، فالأزواج و الأولاد الذين يعادونك في سبيل الإيمان، لا سبيل لهم إلا مفاصلتهم و الحذر عنهم كجزاء عما يقترفون، بعدا عنهم في العشرة و الصحبة، او- إذا لا يخاف ضرّهم، او يرجو خيرهم- أن يعفو عنهم و يصفح و يغفر، حتى يغفره اللّه و يرحمه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 387

إن دور العلاج المثلث (العفو و الصفح و الغفر) ليس إلا ظرف رجاء الإصلاح، او- على أقل تقدير- عدم خوف الإفساد: أن يمشّوه معهم في صرفه عن الإيمان.

فالعفو هو قصد إزالة الذنب صارفا عن المذنب، و أفضل منه الصفح و هو ترك التثريب و التعييب، و لذلك يأتي بعد العفو، فقد يعفو الإنسان دون صفح، ثم يأتي دور الغفر و هو إلباس ما يصونه عن الدنس.

إن هذه الآية و نظائرها تعالج مشاكل و عقبات و عرقلات في سبيل الإيمان، تدفعها عواطف القرابة، و عواصف النسبة، فقد يتخلص الإنسان عن الأغلال المتصلة به في سبيل الإيمان، ثم تبقى أغلال منفصلة عنه صعبة الفكاك، كالأزواج و الأولاد الأعداء في سبيل الحق، إذ يدفعون ذويهم للتقصير في واجبات الإيمان، يقفون له في الطريق فيمنعونه عن النهوض بواجبه‏ «1»، عداء للإيمان، او اتقاء لما يصيبهم من جرّائه، فهذه الحالة المعقدة المتشابكة تقتضي إثارة اليقظة في قلوب المؤمنين، و الحذر من تسلسل عواطف القرابة، المانعة من مواصلة التضحية في سبيل اللّه، فاحذروهم، او عالجوهم.

إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ‏:

و الفتنة- و هي الامتحان- أعم من فتنة الخير و فتنة الشر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في الآية: و ذلك ان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه و امرأته و قالوا: ننشدك اللّه ان تذهب عنا فنضيع بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذرهم اللّه أبناءهم و نساءهم و نهاهم عن طاعتهم، و منهم من يمضي و يذرهم و يقول: أما و اللّه لئن لم تهاجروا معي ثم جمع اللّه بيني و بينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشي‏ء أبدا، فلما جمع اللّه بينه و بينهم أمر اللّه ان يسوق بحسن وصله فقال: «وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 388

«وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً» (21: 35) و من فتنة الخير الولد الخيّرون، كما يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحق الحسنين (ع) «1».

فليبتغ المؤمن النابه من اللّه الأجر العظيم، فيجعل أمواله و أولاده و حياته كلها ذريعة للوصول الى مرضاة اللّه، فيعيش تقوى اللّه كما يستطيع:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ‏:

و التقوى المستطاعة هي حق التقوى بحساب العبد، دون حساب اللّه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (3: 102) ترى ان اللّه يأمرنا نحن الضعفاء فوق المستطاع، المستحيل الحصول: حق تقوى اللّه بحساب اللّه؟ و «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها» و «... إِلَّا ما آتاها»، و الرسول الأقدس و هو أول العابدين يقول: (ما عبدناك حق عبادتك)! فما اسطورة التناسخ بين الآيتين إلا اكذوبة و قصور فهم ممن لا يفهمون مرادات اللّه، فهل يعقل التناسخ بين الممكن و المحال؟.

فالآيتان تتجاوبان في حقيقة واحدة: تقوى اللّه المستطاعة حقها، فالتقوى الحقة- دون الباطلة- المستطاعة، دون ما لا يستطاع- هي التي يؤمر بها المؤمن: أن يكرس طاقاته كلها في التقوى و مكافحة الطغوى، و أن يسلك سبيل الحق فيها دون ملل و لا فشل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 228- أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و الحاكم و ابن مردويه عن بريدة قال‏: كان النبي (ص) يخطب فأقبل الحسن و الحسين رضي اللّه عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران، فنزل رسول اللّه (ص) من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشق و واحدا من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال: صدق اللّه إذ قال: «إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ»، إني لما نظرت الى هذين الغلامين يمشيان و يعثران لم أصبر أن قطعت كلامي و نزلت إليهما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 389

و كما أن التقوى الواجبة هي المستطاعة الحقة، كذلك مخلفاتها من سماع الحق و طاعته و إنفاق الخير في سبيله دون شح و بخل:

«وَ اسْمَعُوا» من اللّه و رسوله‏ «وَ أَطِيعُوا» اللّه و رسوله‏ «وَ أَنْفِقُوا خَيْراً» في سبيل اللّه، فلا يرجع إلا «لِأَنْفُسِكُمْ» «وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ» «... يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ» (2: 272) «فَمَنِ اهْتَدى‏ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ»- و اللّه غني عن عباده- فسبيل اللّه هنا و هناك ليست إلا سبيل مصلحة الإنسان، الحقيقية، على ضوء وحي اللّه، فهي سبيل اللّه لأنها بأمر اللّه و دلالته، و هي سبيل الإنسان لأنها بفعله و مصلحته، و إن كانت بتوفيق اللّه، فإنفاق الخير و إن كان إفناء للمال حسب الظاهر، و لكنه نفقة مباشرة لذواتهم و فيها مزيد هو وعد الرحمة الإلهية لمن أنفق خيرا لنفسه.

و النفس الإنسانية و أضرابها، هي دائما شحيحة في الإنفاق، فمفلجة صاحبها عن سلوك سبيل اللّه، إذا فلا فلاح إلا بوقاية شح النفس: «وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ... «يوق» لا «يقي» لأن الواقي ليس الإنسان فحسب، كما ليس هو اللّه دون سعي من الإنسان، فمبدء الوقاية في توقّي النفس و سعيها أن تقي شحها، و هي لا تكفي! ثم اللّه يتمم له الوقاية: «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17) فلنسأل اللّه تعالى كما سأله الطاهرون‏

(اللهم قني شح نفسي)

«1».

إلى هنا أمر المؤمنون بالإنفاق خيرا لأنفسهم، و منعوا عن شح النفس، ثم نرى تزويدهم رغبة في الإنفاق برحمة و عناية تتخطى التصور، إذ يسمى إنفاقهم لأنفسهم قرضا حسنا للّه فيعدهم المضاعفة!:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي عن الفضل بن أبي مرة قال‏: رأيت أبا عبد اللّه (ع) يطوف من أول الليل الى الصباح و هو يقول: اللهم قني شح نفسي، فقلت: جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء! فقال: و أي شي‏ء أشد من شح النفس؟ إن اللّه يقول: «وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 390

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ. عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏:

فتبارك اللّه ما أكرمه و أرحمه، ينشئنا، ثم يرزقنا، ثم يسألنا فضل ما أعطاه، خيرا لأنفسنا، ثم يسميه قرضا لنفسه رحمة بنا و تشجيعا لنا، ثم يشكرنا! سبحان اللّه العظيم! فحق لهذا العبد الهزيل الذليل أن تزهق نفسه شوقا للقاء هذا الرب الجليل، فضلا عن ماله القليل القليل، سبحان الرب الجليل!.

و كما الإنفاق هو الإفناء، أن يؤتي ماله دون ابتغاء شي‏ء ممن سوى اللّه، فيرى كل شي‏ء عند اللّه، كذلك الإقراض هو الإقطاع، أن تقص و تقطع و تختص من مالك و مالك: اللّه، قرضا حسنا: بنية حسنة، من مالك الحسن دون الردي‏ء: «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» (3: 92) «وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ» (2: 267).

و القطع الحسن: دون رئاء و لا منّ و لا أذى: «لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى‏ كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ» (2: 264) «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ» (2: 245).

إن تنفقوا هكذا و تقرضوا «يُضاعِفْهُ لَكُمْ» في الدنيا و الآخرة «وَ يَغْفِرْ لَكُمْ» من سيئاتكم‏ «وَ اللَّهُ شَكُورٌ» لما أنفقتم‏ «حَلِيمٌ» عما أسأتم‏ «عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ» فالكل له شهادة «الْعَزِيزُ» الغالب على كل شي‏ء، فلا يغلبه شي‏ء، و لا يحتاج الى شي‏ء من إنفاق و قرض‏ «الْحَكِيمُ» و من حكمته و رحمته يسمي إنفاقكم خيرا لأنفسكم، قرضا لنفسه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 391

(سورة الطلاق- مدنية- و آياتها اثنتا عشرة)

[سورة الطلاق (65): الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (1) فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (2) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً (3) وَ اللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (4)

ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (5) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى‏ (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (7)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 392

هنا يختص النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالخطاب في البداية، رغم أن الحكم عام للمسلمين، لأنه أمر هام، بالغ الأهمية و الخطورة، لحدّ كأنه بحاجة الى رعايته باهتمام جماهيري من المسلمين، يرأسهم صاحب الرسالة، ففيه من الترغيب و التأكيد ما ليس في سواه، و فيه من توعيد المتلكئين المضارّين ما ليس في سواه، مما يدلّ على أن الطلاق أبغض الحلال عند اللّه، و المحرمات فيه أبغض الحرمات عند اللّه.

إنها سورة كاملة في القرآن، كلها موقوفة على تنظيم حالة الطلاق و قبله و متخلفاتها، حالة تهدّم و انتهاء، كأنها أضخم من هدم دولة، و لأن دولة الإسلام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 393

متشكلة من التجمعات الجزئية، فالانفصام و الفراق فيها يتخطى إلى تهدّم الدولة، و لذلك ترى ان فراق الطلاق إسلاميا نظّم بحيث كأنه وفاق آخر بعد الطلاق يخلفه، وفاق هو من مخلفات العدل في الفراق، لحدّ يحبب بعضهم إلى بعض رغم الطلاق: «و ائتمروا بينكم بمعروف».

و بما أن الإسلام يعني من التقاء جسدين في الزواج خلق الخلية الاولى من جسد الامة أي: التقاء قلبين، لا قالبين فحسب، إنما التقاء إنسانين كأنهما إنسان واحد، لذلك يراعي في باب الطلاق أن يبقى الالتقاء الإنساني بوحدة القلبين باقيا، رغم فراق القالبين، كأنهما شريكان مسلمان متسالمان في تجارة، عرفا بعد التجربة ردحا من الزمن أن ليس بينهما انسجام فيها، لعلل خارجة عن طوقهما، ففضلا الفراق فيها، لكيلا تتخطاهما إلى الفراق عن الاخوة الإسلامية، أو التخلف عن شرعة اللّه، فإنهما الأصلان الجذريان في كافة القوانين و الأنظمة الإسلامية.

لذلك ترى الآيات في باب الطلاق هنا و في البقرة و سواهما، تتشدد على من يستغل الطلاق للمضارة: «وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ» «لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» (2: 233) و إنما «إمساك‏ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ» (2: 229) ثم بعد الطلاق لهن زيادة حق في المعروف ليزيل عنهن بغض و وصمة الفراق: «وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» (2: 241) «وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ» (2: 229)- كما في طلاق الخلع و المباراة- «وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ» (2: 236) «وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ» (2: 237).

مضارة ممنوعة على أشراف الطلاق، و متاع بالمعروف حينه، ثم يستمر المعروف بعده متجليا في تحريرهن في الزواج: «وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 394

فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ» (2: 232) زواجا بمن طلقهن، فأحرى! أو زواجا بغيرهم فلا جناح، و لماذا العضل؟! هذه جولة مختصرة في شروطات الطلاق و مخلفاته، تجعله فراقا قالبيا، مع الحفاظ على الوفاق قلبيا قدر المستطاع، و هذا هو الطلاق في الإسلام، لا الذي يهدم البيوت، و يهدر النفوس و النفائس و الأعراض، ممن لا يتقيدون بحدود اللّه‏ «وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ».

تنزل سورة الطلاق‏ «1» هنا و آيات الطلاق هناك، لا لثورة نسائية عربية أو عالمية، و لا لأن المرأة دخلت الندوات أو الشوراءات، و لا لأنها سيطرت زمنيا على الزمن و رجاله و رجّاله، و إنما كانت هي شريعة الإسلام و عدالته و إرادته بحق المرأة المظلومة المنكوبة التي كانت حيوانة و أردئ منه ردحا بعيدا من الزمن، فأصبحت على ضوء الشرعة الإسلامية: وليدة لا توأد و لا تهان، و مخطوبة لا تنكح إلا بإذنها، و زوجة لها حقوقها و كراماتها، و أمّا لها ضماناتها الكريمة، فارتفعت حياة هذه الهزيلة الذليلة، من تلك الهوة و الوهدة، إلى حياة عزيزة أمينة رفيعة.

ترى ان هذا الدين المتين الأمين يعرض عنه أو ينكره إلا مطموس منكوس موكوس، و فيه ضمانات الحياة كلها! و كراماتها كلها! يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً:

تجعل الآية من النبي و أمته وحدة متماسكة، كأن النبي هو هو و من معه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و تسمى أيضا سورة النساء القصرى، قال ابن مسعود في حديث العدة: من شاء باهلته ان سورة النساء القصرى نزلت بعد قوله: و الذين يتوفون منكم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 395

و لأنه لا يستقل عنهم، فكيانه هو الرسالة، و السفارة الإلهية لهم: لا يأخذها إلا ليعطي.

و طلاق النساء هو فراقهن عن نكاح دائم، دون المنقطع و ملك اليمين، فإنه الهبة فيهما دون طلاق، و «طلقتم» و إن كانت تدل بمفردها على مضي الطلاق، و هو ينافي إمضائه بعده: «فطلقوهن» و لكن «إذا»: الشرطية الزمنية يسلخها عن المضي إلى المشارفة: عند تصميم الطلاق فطلقوا هكذا .. إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن لعدتهن، ليس إلا، فالطلاق لغير العدة لا يجزي و لا يجوز للائي لهن العدة- إذا- فلا تشمل «النساء» هنا غيرهن، لمكان ذكر العدة، فما هي العدة؟ و ما هو الطلاق للعدة؟

العدة هي هيئة خاصة من العدد، و بينهما عموم مطلق، فكل عدة عدد و لا عكس، فمن الأعداد ما هي مجهولة غير محصيّة، و لكن العدة هي المعلومة من العدد، سواء أ كان المعدود زمانا، أو مكانا أو أشخاصا أم ماذا؟

و من عدة النساء أشهر تربصهن بأنفسهن نظرة زواج جديد، أو التحلل عن الأول، كذلك و تريث أزواجهن رجاء الرجوع إليهن قبل انقضائها، إلا في عدة الطلاق البائن فإنه تربص بهن للزواج و رعاية لحرمة الزوجية، أللهم إلا في المختلعة و المباراة إذ تصبح رجعية باسترجاع حقها. و منها عدد الطلاق المسنون في الإسلام، و هو من الواحد إلى التسعة، دون زيادة و لا نقيصة «1»، و «لعدتهن» تتحمل العدتين: أن يطلّقن العدد المعلوم، و لزمن معلوم: عدة الدفعة و عدة الزمن، و عدة الزمن هي مجموعة زمن التربص بداية و نهاية، ف «لعدتهن» دون:

من عدتهن، أو إلى عدتهن، أو في عدتهن، إنها تشملها بدء و ختما.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي عن جعفر بن محمد (ع) قيل له: أخبرني عن رجل قال لامرأته أنت طالق عدد نجوم السماء؟ فقال: ويحك؟ أما تقرء سورة الطلاق؟ قلت بلى- قال: فاقرء، فقرأت:

فطلقوهن لعدتهن و احصوا العدة، قال: أ ترى هاهنا نجوم السماء؟ قلت: لا ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 396

فليس الطلاق بذلك الفوضى في العدد، و لا في تطبيق العدد، و لا في العدة الزمنية بداية و نهاية، و كما نعرف عدة المرات و كيفية تطبيقها من السنة: أنها واحدة إلى تسعة، لا تتحقق إلا واحدة لوقت واحد، كذلك نعرف العدة الزمنية أن بدايتها في المدخول بها، غير الحامل و لا الصغيرة أو اليائسة، هو طهر غير المواقعة، فالطلاق لا يجوز و لا يجزي في طهر المواقعة، و في حيض غير الغائب و لا الجاهل، لأنه خلاف عدتهن المفسرة في السنة الثابتة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1» و من الحكمة في هذا التوقيت، إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التي ثارت فيها النفس للفراق، فقد تسكن إن كانت طارئة و تعود إلى الوئام، فليتربص حتى تطهر، ثم إن ملك نفسه و أراد الطلاق قبل الوقاع، فهذا دليل تمكن الإرادة، و قليل هؤلاء، و كثير أولاء الذين تتوق أنفسهم إلى الوقاع بعد ما صبرت أيام الحيض، فتؤجل الطلاق لطهر آخر إذا كان تصميما غير تام، و من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 229- أخرج مالك و الشافعي و عبد الرزاق في المصنف و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و ابن جرير و ابن المنذر و أبو يعلي و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن ابن عمر انه طلق امرأته و هي حائض فذكر ذلك لرسول اللّه (ص) فتغيظ فيه رسول اللّه (ص) ثم قال (ص) ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر اللّه أن يطلق لها النساء و قرأ النبي (ص) «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ».

و في وسائل الشيعة ج 15 ص 272 ح 1 باسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر (ع) يقول‏: و اللّه لو ملكت من أمر الناس شيئا لأقمتم بالسيف و السوط حتى يطلقوا للعدة كما أمر اللّه عز و جل‏

و في ج 3 عنه (ع) لو وليت الناس لعلمتهم كيف ينبغي لهم أن يطلقوا ثم لم أوت برجل قد خالف إلا أوجعت ظهره و من طلق على غير السنة رد إلى كتاب اللّه و ان رغم أنفه‏

و في ج 1 ص 273 عن عمرو بن رياح عنه (ع) قال‏ قلت له: بلغني انك تقول من طلق لغير السنة انك لا ترى طلاقه شيئا فقال (ع) ما أقوله بل اللّه يقوله ...

و في ص 274 الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏: الطلاق لغير السنة باطل.

أقول: فما ورد من صحة الطلاق لغير العدة زخرف يضرب عرض الحائط لمخالفته كتاب اللّه و سنة رسول اللّه (ص) المتواترة الثابتة عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 397

ثم‏ «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً» و هذه أولى المحاولات لدفع المعول عن ذلك البناء الرصين: الزوجية، ثم تتلوها محاولات أخرى.

«وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ»: طلاقا، و عدة للطلاق، و إنما يؤمر الأزواج بإحصائها، مع أنه لصالح الزوجات أيضا، نظرة الزواج الثاني، لأن مصلحتهم هنا اكثر من مصلحتهن‏ «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً» فأراد الرجوع، فإذ لم يحص العدة لم يضبط معه الرجوع، و كذلك النفقة الواجبة عليه زمن العدة، فهنا مصلحة المنفق تقتضي ضبط العدة، لكيلا تزيد عن الواجب عليه، و من مصالحها في الإحصاء ألا يطول عليها الأمد فيطول الانتظار للزواج الثاني، فإنه يضم النفقة أيضا، و ألا ينقص الأمد فتقل النفقة و يكون النكاح الثاني نكاحا بالمعتدة و هي من المحرمات الأبدية.

«وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ» في طلاقهن لعدتهن، فلا يكن لغيرها، و في إحصاء العدة، فلا تزيدوا فيها نظرة الرجوع، أو المضارة، و لا تنقصوا عنها تنقيصا للنفقة، «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» كذلك في اخراجهن أو خروجهن عن بيوتهن:

«لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ»: «بيوتهن» لكي تعم البيوت التي سكنّها كبيوت الزوجية، لا «بيوتكم» فليست النساء كلهن في بيوت أزواجهن، فبيت الزوجية المقرر لها بنفقة الزوج، هو حق لها إلى نهاية العدة الرجعية، فإن كان هذا البيت عارية أو مستأجرا و انتهت مدته، كان عليه تبديله بغيره، كل ذلك رجاء الرجوع، فإخراجهن عنه محرّم مهما كلف الأمر، و كذلك خروجهن، و ليس لهما المصالحة على خروجها لأن بقاءها ليس حقا لهما فحسب، إنه حكم اللّه، لا يقبل المصالحة، و حق المجتمع، و حق الزوجين، فإن أردن الخروج كان عليهم المنع نهيا عن المنكر، فأحرى للزوج هذا النهي لأنه لصالحه، و إن أراد إخراجه كان لها النهي و التمنع، و إلا فعلى الحاكم الشرعي منعهما عن ذلك، كما على كل مسلم، و لها أن تتزين و تتجمّل لزوجها و تحاول في جلب نظره كما وردت به‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 398

أحاديث سنادا إلى الآية «1».

فلا يجوز إخراجهن و لا خروجهن لأي أمر اللهم إلا الواجب المضيق شرعا كالحج، أو لضرورة أخرى يتطلب خروجها و تفوت بمضي العدة، فتخرج قدر الضرورة.

و هل الإخراج و الخروج الممنوعان هما إخلاء بيت الزوجية عنهن للنهاية؟ أم و خلوه اكثر من العادة الجارية قبل الطلاق؟ أم مطلق الإخراج و الخروج و لو ساعة؟ أقول: إن الإخراج قرينة على المعني من الخروج أنه لا يشمل القليل، فالأول هو القدر المتيقن، و يلحقه الثاني استيحاء من حكمة البقاء، و الثالث غير محتمل، إذ لا يصدق عليه الإخراج، و لا يضر برجاء الرجوع، فلا إخراج و لا خروج هكذا إلا لضرورة قدرها، و إلا:

«أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ»: مبينة أنها فاحشة: تجاوزت الحد، و مبينة للبينة، أو للزوج، و مبينة أنها لا تصلح للعودة:

مثلث التبيين: من زنا و مساحقة، أو نشور لا يتحمل، أو إيذاء، الأمور التي تبين ألا رجاء للرجوع، و أما الفاحشة غير المبينة، من الثلاث أم سواها، أو غير الفاحشة من المعاصي و التخلفات، و بصيغة جامعة، التي لها علاج عاجل أو آجل، فهي لا تسمح للإخراج أو الخروج، بخلاف المبينة التي تصارح ألا علاج إلا الفراق، فالحكمة في إبقاء المطلقة في بيت الزوجية هي إتاحة الفرصة للرجوع، و استثارة عواطف المودة، و ذكريات الحياة المشتركة، و قد زالت كلها بفاحشة مبينة، إذ ارتكست في حمأة الزنا و هي بعد في بيت الزوجية، أو بغيرها من فاحشة: معصية متجاوزة حدها، مبينة أنها تتعمدها لكي تتحلل، و هل يبقى بعد هذا البيان الصريح مجال لرجاء الرجوع؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

وسائل الشيعة ج 15 ص 437 عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏: المطلقة تكتحل و تختضب و تطيب و تلبس ما شاءت من الثياب لأن اللّه عز و جل يقول: «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 399

«وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» المحددة للطلاق و العدة «وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» أيا كان التعدي، كمن يطلق حالة الحيض، أو في طهر المواقعة، أو يخرجها عن بيت الزوجية دون مبرّر «فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» إذ قطع عنها رجاء الرجوع في الفترة المسموحة له، و ظلم زوجه التي هي كنفسه، ظلما مزدوجا هنا، و سوف يراه في الاخرى.

«لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً» و إن كنت دريت من نفسك عدم ميل الرجوع، و لكن مقلب القلوب قد يحدث في هذه الفترات أمرا مرغوبا، فتتغير الأحوال البئيسة إلى هناءة و رضى، فالنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة، و تغلق عليها منافذ المستقبل، فتزعم اللحظة سرمدا، رغم أن المستقبل قد يحمل ما لم يكن بحسبانه، يحمل أمر اللّه المقلب للقلوب و الظروف و الملابسات، فيجعل اللّه بعد عسر يسرا، فربّ محتوم عندك بما تراه، متغير عند اللّه بما يراه، فغيّر حتمك في نظرك القاطر، إلى ما يراه اللّه القادر، و لا تمض فيما حكمت إلا متربصا متريثا راجيا رحمة اللّه، فطلاقك حالة الحيض، و هي حالة كريهة، و في حالة طهر المواقعة، و قد قضيت حاجتك منها، و إخراجك زوجك عن بيت الزوجية، زمن العدة، كل ذلك استعجال لما رأيت، و صدّ عن استئناف الرأي و رجاء الرجوع، و عن أن يحدث اللّه بعد ذلك التصميم العاجل الجاهل- أمرا، هو لصالحك و زوجك! هذه الحكم و العلل في تأجيل الفراق تأتي برهانا بينا على بطلاق الطلقات الثلاث في مجلس واحد، و كذلك كل لعبة تزيل رجاء الرجوع، فانها استهزاء بآيات اللّه: «وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً» (2: 231).

و هذه هي المحاولة الثانية لدفع معول الطلاق- بعد وقوعه- عن اجتثاث البناء، فان المطلقة رجعية زوجة ما دامت في العدة.

ثم و في نهاية العدة و مشارف الفراق يؤمر بالتلطف معها إمساكا أو فراقا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 400

فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ‏:

الأجل البالغ لغير الحامل و غير المسترابة، ثلاثة قروء: «وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ» (2: 228) كضابطة عامة للمعتدات إلا من استثني.

و الإمساك بمعروف هو الرجوع إلى بلوغ الأجل، فإذا بلغ و خرج فلا رجوع، و الفراق بمعروف يحصل بعدم الرجوع حتى يخرج الأجل: «وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً» (2: 231) «الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ» (2: 229).

«فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ» و هو الرجوع إلى عصمة الزوجية، و يتحقق الإمساك الرجوع بالقول و الفعل و الإشارة، الدالة عليه، و معروفه ألا يكون ضرارا و اعتداء، تضييقا عليهن نقمة، أو رجاء الأخذ مما آتوهن شيئا و «لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ» بأن يصبر إلى قبيل النهاية فيراجعها لا لغرض العود إلى عصمة الزوجية، و إنما ليطول تربصها، و تذوق و بال الرجوع في سجن هكذا رجوع، ثم يطلقها ثانية و يضارها كالأول، فهذا الإمساك الضرار لا يجوز و قد لا يجزي، و هو من اتخاذ آيات اللّه هزوا، فآيات الإمساك و الرجوع تعني الإصلاح، و أنت تعني الإضرار! و إنما الإمساك المعروف هو المسموح الذي يعرفه الضمير الإنساني الطاهر، و الفطرة السليمة الإسلامية، و هو العود إلى حياة سليمة أمينة متينة، و إلا فلا مجال إلا الفراق و التسريح بإحسان، فراق جسدي لا فراق ودّي، فراق لا يفارق الإحسان: خلقيا و ماليا، أن تودي ما فرض اللّه لهن و زيادة: «وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ» (2: 237) «وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» (2: 241).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 401

فصلة الزوجية- إسلاميا- تقوم بمعروف و تنتهي بمعروف، استبقاء لمودّات القلوب مهما افترقت القوالب، فقد تعود بعد الفراق إلى عشرة حسنة و أحسن مما مضى، فلا تنطوي على ذكرى رديئة، أو شائبة تعكّر صفاءها عند ما تعود.

«وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ» و هل إن اشهاد ذوي عدل يختص بالطلاق؟

إذا فلما ذا لم يأت بعده دون فصل به أن يقول: فطلقوهن لعدتهن و أشهدوا ..!

أو أنه يعمه و الإمساك و الفراق، شهادة مثلثة: للطلاق و الرجوع أو الفراق؟

و ليس الفراق عند بلوغ الأجل إلا استمرار الطلاق فلا يحسب له حساب مستقل عن الطلاق، إلا أن نقول: الطلاق يتطلب شهادتين مرتين! أو أنه للطلاق و الرجوع؟ و هذا هو الظاهر من هذه الشهادة المتأخرة ذكرا عن الإمساك، فكما الطلاق بحاجة إلى شهادة حفاظا على المواريث و الأنساب، و انسراحا للمطلقة في زواج آخر، كذلك الرجوع، و لكي تثبت حقوق الزوجة من جديد، فقد يعلم الناس بالطلاق، و لا علم لهم بالرجعة، فتثور شكوك و تقال أقاويل، إلا أنّه قد يكتفي بشهادة الرجعة بعدها، إذ لا تتيسر غالبا عندها، و يحصل المقصود، فإنها لفظة قول أو عمل لا تعلم إلا من قبلهما، و لكن الطلاق بحاجة إلى شهادة حينه، لكيلا يلتبس الأمر، و يكون عن بينة «1».

و لا تكفي ذوات العدل عن العدلين مهما كثرن و طمئن، و لا حجة في القياس و لا في غيره و إن كان حجة، لمخالفة الآية، فإثبات ذوي عدل للشهادة هنا ينفي ما عداهما، و لو كفت النساء فلما ذا تختصها الآية برجلين، و لا تذكرهن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مما يدل على الاشهاد للرجعة ما

رواه في الكافي عن بريد الكناسي قال: سألت أبا جعفر (ع) عن طلاق الحبلى (إلى أن قال) قلت: فإن طلقها ثانية و أشهد ثم راجعها و اشهد على وعد رجعتها و مسها .. إذ يدل على أن الاشهاد للرجعة مركوز في أذهان المتشرعة كالإشهاد في الطلاق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 402

بدلا كما ذكرن في الدّين: «وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ» (2: 282)، فعدم ذكر البدل في شهادة الطلاق يجعل الآية صريحة في اختصاصها بعدلين.

«وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ»: أقيموا أيها المستشهدون، و الشهداء، و من يعلم الشهادة، أقيموها في محاكم الشرع عند الحاجة «للّه» لا لصالح الزوج أو الزوجة أو الحاكم أم ماذا، إنما «للّه» فلا تأخذكم في اللّه لومة لائم، و لا توعيد واعد، و لا رغبة في جاه أو مال، فالقضية هي قضية اللّه، و الشهادة فيها إنما هي للّه، هو الآمر بها، و الرقيب عليها، و المجازي بها، فأقم الشهادة للّه و لو على نفسك أو الوالدين و الأقربين.

«ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ»: ذلكم الحدود كلها، إنها قضية الإيمان بالمبدء و المعاد، فمن يتعداها فقد تعدى الإيمان:

«وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً»:

«وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ» هنا و في غيرها من حدود اللّه و محارمه‏ «يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»:

«من الفتن و نورا من الظلم»

«1» و مخرجا من مضايق التقوى و عقباتها و عرقلاتها،

«من اتقى اللّه يتقى، و من أطاع اللّه يطاع»

«2» و من لم يتق اللّه اتقى من غير اللّه،

«من خاف اللّه أخاف اللّه منه كلّ شي‏ء و من لم يخف اللّه أخافه اللّه من كلّ شي‏ء»

«3» و من مخرجه أن يعلم من قبل أو حينه أمر اللّه، و أن اللّه هو الذي يعطيه و هو يمنعه و هو يبتليه و هو يعافيه و هو يدفع عنه، و

قد قال الرسول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي (ع).

(2) اصول الكافي عن أبي الحسن (ع).

(3) في الخصال عنه (ع) أيضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 403

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: «من انقطع إلى اللّه كفاه اللّه كل مؤنة و رزقه من حيث لا يحتسب و من انقطع إلى الدنيا و كله اللّه إليها».

و من مخرجه في الطلاق أنه يخرجه عن عقباته و يرزقه من حيث لا يحتسب من الطيبات.

و من المضايق في سبيل التقوى مضايق الجهل بالواجب، و إضلال الضالين، و إغراء المبطلين، فهي بحاجة إلى فرقان‏ «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» (8: 29): تفرقون به بين الحق و الباطل، فتقوى اللّه تعالى يخلفها مخرج و فرقان من اللّه، نور يمشى به في الظلمات.

و كلا المخرج و الرزق من حيث لا يحتسب، يعمان الدنيا و الآخرة، كما

يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ أنه قرء الآية و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من شبهات الدنيا و من غمرات الموت و شدائد يوم القيامة»

«1».

و قد يظن المؤمن أن لو اتقى عاش ضنكا، فيضنّ بالتقوى أحيانا و يمارسها أخرى، زعما منه أن أسباب الرزق محصورة فيما يحتسبها، و لكن اللّه:

«يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ»: رزقا عقليا و علميّا و عمليّا، و رزقا نفسيّا و ضميريا و رزقا ماديا و ما إليها من صنوف الأرزاق، غير المحتسبة، الداخلة في حساب اللّه لمن اتقاه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) أنه قال لعلي بن عبد العزيز ما فعل عمر بن مسلم؟

قال: جعلت فداك أقبل على العبادة و ترك التجارة، فقال: ويحه! اما علم ان تارك الطلب لا يستجاب له، إن قوما من أصحاب رسول اللّه (ص) لما نزلت‏ «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ..» أغلقوا الأبواب و اقبلوا على العبادة و قالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبي (ص) فأرسل إليهم قال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول اللّه (ص)! تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة، قال: إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب. و في عوالي اللئالي فعلم النبي (ص) بذلك فعاب ما فعلوه و قال: إني لأبغض الرجل فاغرا فاه إلى ربه: اللهم ارزقني و يترك الطلب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 404

هذا، و لكنه ليس يكتفى بتقوى اللّه من الرزق المحتسب الواجب تحصيله بالسعي، لكي يكتفي بها عن طلب الرزق‏ «1»، و إنما اللّه يطمئن المتقين أنهم لا ينقصهم ما قدّر لهم بالتقوى، التي تحول بينهم و بين شي‏ء من الرزق المحتسب، فان اللّه يبدلهم بغير المحتسب، و فيما إذا اقتضت التقوى ترك الطلب، فحشرت الأوقات كلها في سبيل التقوى الواجبة، كالجهاد، و طلب العلم، و الدعوة إلى اللّه، فهنا لك يكون الرزق كله من حيث لا يحتسب‏ «2» و

قد قال الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏: «لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم»

و

«اتخذوا تقوى اللّه تجارة يأتكم الرزق بلا بضاعة و لا تجارة» ثم قرء الآية

«3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 232- أخرج ابو يعلى و ابو نعيم و الديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس عنه (ص).

(2)

القمي- عن أبي عبد اللّه (ع) في الآية: قال: هؤلاء قوم من شيعتنا ضعفاء ليس عندهم ما يتحملون به إلينا فيسمعون حديثنا، و يقتبسون من علمنا، فيرحل قوم فوقهم و ينفقون أموالهم و يتعبون أبدانهم حتى يدخلوا علينا فيسمعوا حديثنا فينقلوه إليهم فيعيه هؤلاء و يضيعه هؤلاء فأولئك يجعل اللّه عز و جل ذكره لهم مخرجا و يرزقهم من حيث لا يحتسبون‏ (نور الثقلين 5: 355).

أقول: هذا من أبرز مصاديق الآية دون اختصاص لها به.

و فيه باسناده عن أبي جعفر الخثعمي قال‏: لما سير عثمان أبا ذر إلى الربذة شيعه أمير المؤمنين (ع) و عقيل و الحسن و الحسين (ع) و عمار بن ياسر (رض) فلما كان عند الوداع قال أمير المؤمنين (ع): يا أبا ذرّ! إنما غضبت للّه عز و جل فارج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم و خفتهم على دينك فأدخلوك على الفلا و امتحنوك بالقلاء، و اللّه لو كانت السماوات و الأرض على عبد رتقا ثم اتقى اللّه جعل له منها مخرجا، لا يؤنسنك إلا الحق و لا يوحشنك إلا الباطل.

(3) الدر المنثور 6: 233- أخرجه الطبراني و ابن مردويه عن معاذ بن جبل عنه (ص).

و قد ورد في سبب نزول الآية أحاديث عدة نذكر منها التالي:

الدر المنثور 6: 232- أخرج الخطيب في تاريخه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في الآية- قال‏: نزلت هذه الآية في ابن لعوف بن مالك الاشجعي و كان المشركون أسروه و أوثقوه و أجاعوه فكتب إلى أبيه أن ائت رسول اللّه (ص) فاعلمه ما أنا فيه من الضيق و الشدة، فلما أخبر رسول اللّه (ص) قال (ص) له: أكتب إليه و أخبره و مره بالتقوى و التوكل على اللّه و أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 405

«وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» «1» بعد ما اتقاه بالمستطاع دون بتل و لا فشل‏ «فَهُوَ حَسْبُهُ» عما سواه من الأسباب، فإنه مسبّبها و مالك أمرها «إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ»- و (غالِبٌ عَلى‏ أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)- و لا أمر: من الأشياء أو الأمور، أو الأوامر، إلا صادرا عنه و فاعلا باذنه، فهو بالغ أمره تشريعا و تكوينا، بلا قصور و لا تقصير و لا فتور و لا تقتير، فليس بحاجة في إنفاد أمره إلى أسباب، و إنما الأسباب بحاجة إليه في كيانها و آثارها، فهو البالغ للأمور كلها لا سواه، و هو الغالب عليها لا سواه، فعليه التكلان و به المستعان لا سواه، و لكن‏ «قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً»: بمقداره، و بزمانه و بمكانه و بملابساته و نتائجه و أسبابه، دون صدفة و لا فوضى: «إِنَّا كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ» (54: 49) «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يقول عند صباحه و مسائه‏ «لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» فلما ورد عليه الكتاب قرأه فأطلق اللّه وثاقه فمر بواديهم التي ترعى فيه إبلهم و غنمهم فاستاقها فجاء بها إلى النبي (ص) فقال يا رسول اللّه (ص) إني اغتلتهم بعد ما اطلق اللّه وثاقي فحلال هي أم حرام؟ قال (ص): بل حلال، إذا شئنا خمسنا، فأنزل اللّه‏ «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً».

(1).

معاني الأخبار للصدوق (ره) باسناده عن أحمد بن أبي عبد اللّه قال‏: جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال له النبي ص: يا جبرئيل! ما التوكل؟ فقال: العلم بأن المخلوق لا يضر و لا ينفع و لا يعطي و لا يمنع و استعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى اللّه و لم يرج و لم يخف سوى اللّه و لم يطمع في أحد سوى اللّه، فهذا التوكل.

و في الدر المنثور 6: 234 عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه (ص): لو أنكم تتوكلون على اللّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا و تروح بطانا.

و فيه عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول اللّه (ص) قال‏: من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على اللّه و من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد اللّه أوثق منه بما في يده و من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 406

(15: 21) «وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ» (42: 27) «وَ كُلُّ شَيْ‏ءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ» (13: 8)، فلا فوضى في أمره، و لا بلوغه أمره، و إنما كل حسب الحكمة العالية.

فإذ يأمر اللّه بأمر فهو إلى رشد و صلاح مهما كانت العقبات و العرقلات، و عامله إلى نجاح، و اللّه هو حسبه في الإنجاح، فإنه بالغ أمره، دون أن يحجزه حاجز، أو يعجزه معجز! «وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً»:

هذه و المسبقة عليها تختص بعدد الطلاق دون الوفاة، و بالمدخول بها غير اليائسة دون غيرها، فالمطلقة المدخول بها إذا كانت في سن من تحيض و هي تحيض فعدتها ثلاثة قروء، و إذا لا تحيض فثلاثة أشهر، و كذلك اليائسة المسترابة و لا عدة لغيرها.

و اليأس من المحيض، منه مريب كما يرتاب فيه أنه لبلوغها إلى سن اليأس أم لمرض، سواء أ كان للشك في كونها هاشمية أم سواها، أو الشك في قدر عمرها أم ماذا، و منه غير مريب كالواصلة إلى سن اليأس فلا عدة لها، أو التي هي في سن من تحيض و لا تحيض، فعدة الاولى و الأخيرة هي ثلاثة أشهر.

«وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ»: مهما كانت الضابطة في العدة للمدخول بهن غير اليائسات، الأقراء او الأشهر، فأولات الأحمال و المتوفى عنهن أزواجهن خارجات عن هذه الضابطة، فالحاملات يتربصن حتى يضعن حملهن، و المتعزيات يتربصن أربعة أشهر و عشرا: «وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (2: 234) إذا فما هو أجل الحاملات المتعزيات؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 407

أقول: إن بين الآيتين بالنسبة لهن تجاوب الجمع بين الأجلين، فبينهما عموم من وجه، تتصادقان و تجتمعان في الحاملات المتوفى عنهن أزواجهن، فآية الحاملات تشملهن و المطلقات، و آية الوفاة تشمل الحاملات و غير الحاملات، فالآيتان- إذا- تحملان لمورد الجمع أجلين، أحدهما للحمل و الآخر للوفاة، فهما إذا يتداخلان و الغاية أبعد الأجلين، من وضع الحمل و الأربعة و عشرا، فليس هنا لأجل الوضع مجال التعجيل، إلا التأجيل إلى أجل الوفاة لوجود السببين.

ثم لا أجل للحاملات المطلقات إلا وضع الحمل، و لا للمتوفى عنهن أزواجهن غير الحاملات إلا أجلهن الخاص‏ «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً»، كما توحي بهما الآيتان، إذ ليس في كلّ إلا أجل واحد، إلا إذا اجتمعا فتداخل الأجلان.

فمهما أوحت آية الحاملات باختصاص الأجل بوضعه، و آية الوفاة باختصاصه بالأربعة و عشرا، فإنما الإختصاص هنا و هناك إذا لم يوجد إلا سببه الخاص، ففيما اجتمع السببان فالآيتان تتجاوبان في جمع الأجلين المسببين.

ثم إن أولات الأحمال تعمّ كل حمل، في أيّ من أشهر الحمل، و أيا كان الحمل و إن كان مضغة «1» او نطفة مستقرة، كما يعمّ الوضع المعتاد و سواه من إجهاض، جنينا كاملا او سواه و إلى نطفة تنطف، عامدة في الوضع أم سواها.

فلا رجعة الى أولات الأحمال المطلقات بعد الوضع و إن كان بعد هنيئة من الطلاق، إذ لا أجل لهن إلا الوضع، كما لا يجوز الزواج للحاملات المتوفى عنهن أزواجهن إلا بعد الأربعة و عشرا، فانها الأجل الثابت بشأن الوفاة، إلا أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي بإسناده الى عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن (ع) قال‏: سألته عن الحبلى إذا طلقها فوضعت سقطا تم او لم يتم او وضعته مضغة؟ قال: كل شي‏ء وضعته يستبين أنه حمل تم او لم يتم فقد انقضت عدتها و إن كان مضغة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 408

يضعن بعدها فبعده‏ «1».

«وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً»: مهما كان عسرا في ظاهر الحال و البداية- «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»-: يسرا في ضميره، و يسرا في فلاحه و نجاحه، و يسرا في عاجله و آجله.

«ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً»:

فتقوى اللّه في كبائر الحسنات و السيئات، تكفير لصغائرهما، و إعظام للأجر: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31).

فهذا مربع الوعد الإلهي الحنون لمن اتقى: عاش حياته التقوى- أن:

يجعل له مخرجا، و يرزقه من حيث لا يحتسب، و يجعل له من أمره يسرا، و يعظم له أجرا، أركان اربعة تنتجها التقوى في بناية الحياة، فيا لتقوى اللّه موقعا عظيما، و في باب الطلاق، إذ يدق عليها دقا متواصلا هنا، ثم لا نجد في سواه هكذا ... فيض يغري، و عرض يثير، تيسيرا للعسير، و تكفيرا للسيئات مع أجر كبير، سبحان الرؤوف الرحيم، الخبير البصير.

ثم و من التقوى المأمور بها الإسكان من حيث سكنى الوجد و الإنفاق:

«أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ...»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

القمي بإسناده الى حماد عن الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) عن المرأة الحبلى يموت زوجها فتضع و تزوج قبل ان يمضي لها اربعة أشهر و عشر، فقال: إن كان دخل بها فرق بينهما ثم لم تحل له أبدا و اعتدت ما بقي عليها من الأول و استقبلت عدة اخرى من الأخير ثلاثة قروء، و إن لم يكن دخل بها فرق بينهما و اعتدت بما بقي عليها من الأول و هو خاطب من الخطاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 409

«هن» هنا الرجعيات كما في مسبقة الآيات، فالإسكان هنا كصيغة اخرى عن الإبقاء في بيوت الزوجية هناك كما كن قبل الطلاق، رجاء الرجوع، «مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ» تصريحة بوجوب إسكانهن في بيت الزوجية، فلا يشمل- إذا- المعتدات البائنات، فلا يجب بل لا يجوز إسكانهن فيه لانقطاع علقة الزوجية، فهل يجوز إسكان الغريبة في سكناك؟!.

إذا فلا إسكان، و لا نفقة كذلك، للبائنات المعتدات كغير المعتدات سواء، و كما اتفقت بذلك الروايات عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمة أهل بيته الكرام (ع) و المخالفة منها تردّ الى قائلها، او تؤوّل، او تضرب عرض الحائط، و أحرى بالضرب الأقاويل التي تقرر أن للبائنة غير الحاملة حق السكنى‏ «1».

و الإسكان لمن كانت في بيت الزوجية هو استمرارها فيه، و لمن أخرج عنها هو إرجاعها إليه، و لمن لم يكن لها سكنى الزوجية، كالتي كانت في بيت أهلها، أنه لها تهيئة السكنى، و لمن كانت في بيت بحساب الزوج، و هو في بيت آخر، إن ينقلها الى بيته، فصيغة الإسكان- إذا- أشمل من‏ «لا تُخْرِجُوهُنَ‏ .. وَ لا يَخْرُجْنَ» و أخص منها كذلك، إذ تدل على وجوب كونها معه قدر الإمكان حالة العدة الرجعية، مهما كان الوجوب قبلها مطلق السكنى.

ثم الإسكان- أيا كان- واجبة الوجد «مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ»:

مكانا تسكنون فيه، حسب المكنة و المكانة، على الموسر قدره و على المعسر قدره‏ «وَ لا تُضآرُّوهُنَّ» في الإسكان من حيث الفسحة و المستوى، و من حيث النفقة و العشرة، «لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ» فيلجأن للخروج، مضارة مقصودة لغاية التضييق، و أما غير المقصودة، لقصوره او قتور المال، فلا جناح فيها، «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في آيات الأحكام للجصاص: اتفق الجميع من فقهاء الأمصار و أهل العراق و مالك و الشافعي على وجوب السكنى للمبتوتة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 410

«وَ إِنْ كُنَّ» النساء: رجعيات و بائنات‏ «أُولاتِ حَمْلٍ» أيا كان الحمل و في أيّ من أشهر الحمل، حملا منكم، فالحاملة من زنا قبل الطلاق او بعده، ليس وضعها أجلها، فلا تستحق الإنفاق لأجل الحمل حتى الوضع، و إنما لحدّ ختام الأقراء او الأشهر «فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ» إنفاقا للحمل في البائنات، و له و للعدة في الرجعيات.

فهناك الإسكان من حيث سكنى الأزواج خصهن بالرجعيات، و هنا الإنفاق لأجل الحمل عمّهن و البائنات، و عدم ذكر الإسكان هنا مع الإنفاق رغم ذكره هناك، كذلك يشهد للعموم، فالحاملات الرجعيات لهن سكنى الزوجية، و الإنفاق، إذ تشملهن آية الإسكان و الإنفاق، و الحاملات البائنات لهن الإنفاق الشامل لسكنى غير الزوجية، فلهن السكنى و النفقة حتى يضعن حملهن.

فذكر الإنفاق هنا لا يدل على عدم وجوبه للرجعيات غير الحاملات، إذ دلّت عليه‏ «مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ» و «لا تُخْرِجُوهُنَّ ..» و إنما يدل على وجوبه للحاملات البائنات، و لم يدل عليه دليل من ذي قبل، و إنه الإنفاق، لا الإسكان لهن من حيث سكنى الأزواج، و إن ضمّ مطلق السكنى، و إنه إنفاق قد يزيد على إنفاق الرجعية غير الحاملة، كما إذا وضعت بعد الأقراء، او ينقص إن وضعت قبلها، مهما اتفق الوضع في ختام الأقراء أحيانا، ففيه زيادة البيان التشريعي أن حقها يختلف عن غير الحامل.

فليس ذكر الإنفاق هنا لمجرد التأكيد، رغم ما قيل، و إنما لأنه يشمل السابق من جهة، و يخص اللاحق من أخرى، فلا الإنفاق يدل على الإسكان من حيث سكنى الأزواج، و لا أن هكذا سكنى يدل على الإنفاق للحاملة البائنة.

فحاصل المقصود من الآيات، أن البائنات غير الحاملات ليس لهن شي‏ء من النفقة و السكنى‏ «1» إلا مهورهن في غير المفتديات بها، و للحاملات منهن الإنفاق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). روى الشعبي قال: دخلت على فاطمة بنت قيس بالمدينة فسألتها عن قضاء رسول اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 411

الشامل للسكنى المنفصلة حتى يضعن حملهن‏ «1»، و للمعتدات الرجعيات الإسكان من حيث سكنى الأزواج، و بأحرى الإنفاق، و كما تؤيد ذلك كلّه الروايات.

و من ثم إذا وضعن حملهن جنينا كاملا حيّا، يأتي دور الإرضاع، و هي أحق به و لها حق الأجر، و هما مأموران بالحفاظ على صالح الرضيع:

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى‏:

فلهن حق الإرضاع و أجرة الرضاعة مع حق النفقة- لأنهما من نفقة الولد التي هي على والده- و ليس له استئجار غيرها إلا إذا رضيت، او غلّت الاجرة عن مثلها «فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى‏»، و أما إذا رضيت بالمثل او دونه فليس له أن يحول رضيعها عنها، إلا لضرورة موجبة او مرجحة، و إن وجد من تأخذ أقل من المثل او ما دونه، و هذا من الائتمار بمعروف، فمن المنكر التعاسر و التناكر و المضارة بحق الرضيع و أمه: «وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(ص) فقالت: طلقني زوجي البتة فخاصمته الى رسول اللّه (ص) في السكنى و النفقة فلم يجعل لي سكنى و لا نفقة و أمرني ان اعتد في بيت ابن ام مكتوم.

و روى الزهري عن عبد اللّه‏ أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أبي عمر و ابن حفص بن المغيرة المخزومي، و أنه خرج مع علي بن أبي طالب (ع) الى اليمن حين أمره رسول اللّه (ص) على اليمن، فأرسل الى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها، فأمر عياش بن أبي ربيعة و الحرث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: و اللّه ما لك من نفقة، فأتت النبي (ص) فذكرت له (ص) قولهما، فلم يجعل لها نفقة إلا أن تكون حاملا، فاستأذنته في الانتقال فأذن لها فقالت: أين انتقل يا رسول اللّه؟ فقال (ص): عند ابن ام مكتوم- و كان أعمى- تضع ثيابها عنده و لا يراها، فلم تزل هناك حتى مضت عدتها، فأنكحها النبي (ص) اسامة بن زيد.

و في وسائل الشيعة 15: 231 باب وجوب نفقة المطلقة رجعيا و سكناها و عدم وجوب ذلك للمطلقة بائنا إذا لم تكن حاملا، فيه عشرة أحاديث.

(1). المصدر ص 230 باب وجوب نفقة المطلقة الحبلى حتى تضع، فيه خمسة أحاديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 412

أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (2: 133).

فالآيتان تتحدثان عن حقوق الحامل و الرضيع، و تتجاوبان في المطلقة:

رجعية و بائنة، و إن عمّت الثانية غيرهما أيضا، فعلى المولود له رزقهن و كسوتهن، و من الرزق السكنى، و عليه حق الإرضاع طلبن أم لا، إلا إذا وهبنه، و للرضيع حق الرضاعة من أمه إلا إذا عجزت او تعاسر الوالد: «وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ» فانه أمر بصيغة الإخبار و هي آكد: حقوق ثلاثة للوالدين و الرضيع، لكلّ نصيبه حسب العدل و الحكمة، و لا يجوز أن يستغل الولد للمضارّة «لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ» مضارة بينهما او بينهم بسبب الولد.

فلا فصال للرضيع عن أمه إلا بتراض و تشاور، دون مضارة و معاسرة:

«فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما» و أما ان يستبد أحدهما بالفصال فلا، و لا ان يتراضيا دون تشاور، و لا تشاور دون تراض، و إنما وصال في الرضاعة او فصال عنها على ضوء تشاور عن تراض و ائتمار بمعروف، و هو ان يتكلف كل منهما بالأمر و قبوله بمعروف لصالح هذا الرضيع.

هذا منتهى الرعاية للمرضعة و الرضيع في شريعتنا الغراء، و أن يأتمر الوالدان و يتشاورا في شأنه بالمعروف، و رائدهما مصلحته، فانه أمانة اللّه عندهما، فلا يكن الفشل في حياتهما نكبة على هذا الصغير البري‏ء، فعلى ضوء المياسرة بحقه تكفل حياته، و أما إذا تعاسرا فالطفل مكفول الحقوق بصورة أخرى:

«فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى‏»، و التعاسر يكون من الوالدين، تعسير الوالد في الاجرة، و تعسير الوالدة في الرضاعة، او تكثير الاجرة عليها، او تعنتها في الاجرة، إذا فإلى مرضعة اخرى، كيلا يضيع الطفل في جو التعاسر و التقاصر، فإن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 413

لم يقبل ثدي مرضعة اخرى تجبر الام بإرضاعه بأجرة المثل، و يجبر الأب بهكذا استرضاع، فإن لم يقدر فكما يستطيع، و أما الام فلا مفرّ لها و لا خلاص- عند الضرورة- عن الإرضاع، فان مصلحة الحفاظ على حياة الرضيع و سلامته فوق المصالح البسيطة المتخيلة بين الوالدين، كل ذلك فيما إذا لم يغن لبن غير المرضعة، و إلا فلا إكراه على الام، إلا حقا واجبا لها، و عليها، شرط أن يصلها حق الرضاعة.

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً:

إن واجب الإنفاق للحامل و المرضعة، و للرضاعة، ليس إلا على قدر المكنة من الرزق الواسع و المقدور عليه، فلا تكليف فوق الوسع و الطاعة، و إنما قدر ما آتى اللّه، فلو كان معسرا سيجعل اللّه له يسرا إن اتقى في الإنفاق الواجب عليه: يسرا محتوما في الآخرة و مرجوّا في الدنيا.

فليس للزوج أن يقتر و له سعة، و لا للزوجة التعنّت و زوجها فقير قتير، و إنما ائتمار بمعروف: وصالا في الرضاع، او فصالا عن تراض و تشاور فيه لترضع له أخرى، دون أي استبداد و تأمّر عليه او تساخط و تباغض فيه، فكما كان فصالهما كوصالهما بمعروف، فليكن كذلك وصال الرضيع و فصاله، لأنه منهما و أحرى بالرعاية.

ثم الإنفاق المستطاع لا يخص البيئة العائلية، فانه واجب في كل البيئات إنفاقا في سبيل اللّه: و هي سبيل مصلحة الإنسان جماعات و فرادى، و كما يفسره الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الشمول‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 237- أخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال‏: جاء رجل الى النبي (ص) كان له مائة اوقية بعشر أواق، و جاء رجل كان له مائة دينار بعشرة دنانير، و جاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 414

هنا، و في ختام الأوامر و النواهي حول الطلاق و مخلفاته، لا نجد أنقاضا من البيت المتهدم، و لا غبارا يملأ النفوس فيخنقها، و لا قلاقل تثير الاضطراب، فما حصل هنا ليس إلا تفريق الجسدين و البيتين ليس إلا، لو روعيت أحكام الطلاق، فكافة الوساوس و الهواجس الدافعة الى الظلم و الضيم أزيلت بهذه الحكم الرصينة، و العلاجات المتينة، إذ مسح على ذلك كله بيد الرفق، و التجمّل، و نسم عليها من رحمة الرحمان الرحيم.

إن حواجز القانون الجاف الجارف الزمني ليست بالتي تحجز الإنسان الشره الطموع الطموع عن طيشه، و إنما الحواجز التي تتعامل مع القلوب و الضمائر هي القادرة على تحقيق هذا العدل الحنون، إذ تستجيش حاسة التقوى و الخوف من اللّه المطلع على السرائر.

إن الزوجين يتفارقان جسديا في ظل هذه الأحكام و في قلوبهما بذور للودّ لم تمت، و جذور لإنماء العلاقات قد تنبت‏ «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً».

و من ثم يكرر الوعيد على المتخلفين، و الوعد للمتقين، بما يجعلنا نعرف أن باب الطلاق من أهم الأبواب في حقوق الإنسان رعاية و حائطة.

[سورة الطلاق (65): الآيات 8 الى 12]

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (8) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً (12)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رجل له عشرة دنانير بدينار، فقال النبي (ص): أنتم في الأجر سواء، كل واحد منكم جاء بعشر ماله، ثم قرأ رسول اللّه (ص): «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 415

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً. فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً:

القرية هي المجتمع، و هي المجتمعون فيه: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها» (10: 98) «وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ» (12: 82) فالمؤمن و المسئول هما المجتمعون، أنفسهم، دون حاجة الى تجوز بتقدير «أهل» و إن كانت تستعمل في محل الاجتماع أيضا: «وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً» (2:) 58) «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى‏ قَرْيَةٍ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى‏ عُرُوشِها» (2: 259).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 416

و العتو هو النشوز و الترفع و الاستكبار عن الطاعة، كأن لا دواء له و لا رجوع و لا علاج إلا ارتتاج: «فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ» (51: 44).

فالعاتون كلهم يحاسبون حسابا شديدا لا يبقي و لا يذر، و يعذبون عذابا نكرا: دهاء صعبا لا يعرف، و هذا العذاب النكر ليس إلا ذوق العذاب المتوقع لهم‏ «فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها» رغم أنه مستأصلهم، فكيف يكون- إذا- أصل العذاب؟:

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً:

عذابا معدّا لهم في الاخرى، بعد ما ذاقوا و بال أمرهم بذوق العذاب النكر في الاولى، فأين حساب من حساب؟ و أين عذاب من عذاب! فأولوا الألباب:

الذين لهم ألباب العقول المتحللة عن القشور، المؤمنون باللّه و ما أنزله و من أرسله، عليهم أن يتقوا العذاب النكر الشديد، باتقاء حرمات اللّه، و «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً»: عظيما يذكركم عن غفلتكم، و ينبهكم عن غفوتكم:

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً:

قد أنزل اللّه إليكم ذكرا مجسدا في شخص الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنه يحمل الذكر: القرآن، و هو- بأقواله و تصرفاته و أعماله و أخلاقه و أحواله- إنه ذكر: يذكرنا اللّه، و أخلاق اللّه، و أحكام اللّه، فتقوى اللّه بحياته المجيدة كلها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 417

و مهما كان الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذكرا، ترى أنه نازل من السماء؟ «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ» الجواب أن اللّه ليس في السماء حتى يكون النازل منه نازلا من السماء، مهما كان البعض من رحماته المادية نازلة منها، و إنما الرسالة الإلهية بما أنها من اللّه لا سواه، و أن اللّه ينزلها عن مكانتها العليا لحدّ يفهمها المكلفون- أيا كانوا- لذلك تعتبر نازلة من اللّه، و كما القرآن ذكر نازل منه‏ «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»:

فالقرآن لدى اللّه في العلم الام عند اللّه، علي عن نيل الأفهام، حكيم عن هذه التفاصيل و الإيضاحات، فهو هناك ليس قرآنا يقرء «إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» فاللّه أنزله عن علوّه و حكمته و جعله مقروا معقولا.

كذلك الرسالة المحمدية ليست إلا القرآن، فما كلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أحدا قط بكنه عقله، و ما عاشر و واجه أحدا بعلوّه، و إنما كسائر البشر، موضحا لهم رسالات ربه هاديا و مبشرا و نذيرا، و داعيا إليه بإذنه و سراجا منيرا.

فالرسول مهما كان بقالبه أرضيا، فهو بقلبه سماوي إلهي يصدر عن وحي، و هو الذكر النازل، لا جبريل و إن كان هو أيضا ذكرا، و لكنه ليس نازلا إلينا، و لا يتلو آيات اللّه، علينا، و إنما الى الرسول و عليه، و النص‏ «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ‏:

ذكر نزل عن غموضه و رموزه، لحدّ يسمعه و يقرأه و يراه و يفهمه إنسان الأرض، و كما يعرفه ملائكة السماء، معروف في السماوات و الأرض.

«ذِكْراً رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ» لا خافيات و لا مخفيات، إنما مبينات لما يتطلب البيان، لكيلا يكون للّه على الناس حجة بعد الرسل‏ «لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ» فهناك ظلمات راسبة فيهم رغم إيمانهم، فالرسول يخرجهم بتلاوة الآيات- و هي اتبّاعها و إتباعها- يخرجهم من ظلمات العقائد و الأوهام، و ظلمات الشكوك و الأفهام، و ظلمات الأقوال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 418

و الأعمال، إلى النور، و هو صراط اللّه المستقيم‏ «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً» يناسب مبدء الإيمان، و هو فعل كبائر الصالحات و ترك كبائر المحرمات‏ «يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً»: مصيره الى الجنة «قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً» فهل يوجد رزق أحسن و أوفر من الجنة؟.

هنا نقف أمام هذه التحذيرات و الترغيبات بعد آيات الطلاق، ما هي الصلة بين أخذ القرى العاتية و بينها؟ فنجد أنها توحي بكون الطلاق ليس أمر الفرد فقط، إنما هو أمر الامة المسلمة، عليهم رعاية حكم اللّه فيه، و كما ابتدأت السورة بخطاب الرسول مع المؤمنين، فالعتوّ عن أمر اللّه في الطلاق، لا يسأل عنه المطلق العاتي فحسب، فقد تواخذ بها قرية: مجتمع، يقع فيه العتو، فيؤخذ به، لماذا سكتوا عما يتوجب عليهم من التوجيه و النهي؟! «وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها ...».

و أخيرا يذكرنا بطرف عظيم شاسع من ربوبيته تعالى لكي نعرف جانبا من سطوته و عظمته:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً:

آية عديمة النظير في الإيحاء إلى عدد الأرضين و حالتها المادية و المعنوية، عبر المماثلة بين‏ «سَبْعَ سَماواتٍ» و بين جنس الأرض: «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» فما هذه المماثلة بينهما؟ و ما هو الأمر المتنزل بينهن؟

الممثل هنا «سَبْعَ سَماواتٍ» و هي طباق بعضها فوق بعض، و أوسع من بعض قضية التداخل الدائري بينها، و هي شداد و طرائق، أدناها سماء الأنجم التي فيها أرضنا، و أعلاها دون سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، و هي كلها مرفوعة بعمد لا ترونها، و هي في توسع دائم، كما عرفت من آياتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 419

و من أظهر المماثلات بين الأرض و السماوات العدد السبع، أنها سبع منفصلات كما السماوات، أرضنا هذه و ست أخرى أمثالها «1»، و أخرى في طباقها، فلتكن الأرضون السبع بعضها فوق بعض طباقا، و هي تشمل حدود الفواصل بينها: ان كلا من هذه السبع في سماء غير الاخرى‏ «2»، و كما توحي بها و تفصلها الآيات من «فصلت»: «فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ، فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ» فالأرض هنا جنسها و مادتها التي قسمت سبعا، و كما السماء هنا غازها و دخانها «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ» «فَقَضاهُنَّ»: المادة الأرضية و الدخان السماوي‏ (سَبْعَ سَماواتٍ) فلتكن كلّ من الأرضين السبع في كلّ من السماوات السبع، و مماثلة ثالثة في سعتها، فكما ان كل سماء فوقانية أوسع مما تحتها قضية التداخل الدائري، فلتكن كل أرض فوقانية أوسع مما تحتها و إن لم يكن ذلك التداخل و لم يمكن، و رابعة أنها في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2) و تدل عليها أحاديث مستفيضة من أشملها ما

رواه القمي عن أبي الحسن الرضا (ع) في حديث .. هذه أرض الدنيا و السماء الدنيا فوقها قبة و الأرض الثانية فوق السماء الدنيا و السماء الثانية فوقها قبة و الأرض الثالثة فوق السماء الثانية و السماء الثالثة فوقها قبة و الأرض الرابعة فوق السماء الثالثة و السماء الرابعة فوقها قبة

- و إلى الأرض و السماء السابقة-.

و هذه الفوقية للأرضين بعضها على بعض لا تنافي التعبير بكون الأرض الثانية- مثلا- تحت أرضنا هذه كما

رواه في التوحيد عن أبي عبد اللّه (ع): ان هذه الأرض بمن فيها و من عليها عند التي تحتها كحلقة في فلاة قي و هاتان و من فيهما و من عليهما عند التي تحتها كحلقة في فلاة قي- حتى انتهى إلى السابقة و تلي الآية ..

أقول: فمن الصحيح القول: ان الأرض الثانية تحتنا و انها فوقنا، لأن أرضنا في مركز العالم و حولها السماء الدنيا بما فيها من الأرض الثانية و سواها، فمن بعض الجهات هذه الأرضون تحتنا و من بعضها فوقنا قضية كروية الأرض، فالأرض الثانية مثلا كائنة في جهة من جهات السماء المحيطة بأرضنا، و لأن أرضنا تتحرك وضعية و انتقالية فقد تقع الأرض الثانية تحتنا و قد تقع فوقنا، و فيما إذا لم تكن الحركة هكذا تقتضي ذلك فإن الأرض الثانية تحت البعض من سكنة أرضنا و فوق البعض منهم لأنها كروية، إذا فلا منافاة بين أحاديث الفوق و التحت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 420

توسع دائم كما (السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ) و كما الأحاديث أيضا تؤيد هذه المماثلات المستوحاة من الآيات.

و قد يقال إن الأرض لا تعني إلا الكوكب و النجم أيا كان، كما السماء لا تعني إلا الجو المحيط بالكرات، فليس لعدد السبع هنا و هناك مفهوم محدد، و إنما يشير إلى الكثرة، فمن الهراء و الهذيان: أن الكواكب سبعة، و الأجواء المحيطة بها سبعة، رغم أنها بليارات!.

و لكنه تفسير خاطئ للأرضين و السماوات، فإن الآيات التسع في تعداد السماوات تحصرها في سبع، و هي بصدد استعراض أعدادها، و آية المماثلة تحصر جنس أرضنا هذه- أيضا- بسبع، فمن أهذى و أهرء ممن ينسب إلى كلام اللّه هكذا تعبير جاهل غالط: أنه يعبر عن البليارات بالسبع، محددا لها به؟! كلا: فلا السماوات حسب القرآن هي مطلق الأجواء المحيطة بالكرات لكي تتعدد بعدادها، و لا الأرضون المماثلة لها، فالسماء الاولى و الأدني من سبع القرآن هي سماء الأنجم، كل الأنجم المرئية بالعيون المسلحة و سواها: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ) (37: 10) (وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ) (67: 5) و كرتنا الأرضية من كواكبها و مصابيحها الصغار، و من ثم فكل السماوات و الأرضين، على حد تفسير هؤلاء المتقولين، كلها في السماء الاولى من سبع القرآن!.

ثم الأرضون السبع هي سبع كرات متماثلة مع بعض تماثلا تاما لا يوجد في غيرها من الكرات مهما كانت بليارات، و أكبر منها بمليارات المرات، توحيها (و من الأرض): فالأرض هي أرضنا المعروفة، المشار إليها بلام العهد، و (من) تعرفنا: أن بينها و بين الست الباقية مجانسة و مماثلة ليست في سواها من الكرات، مهما كانت أرضنا زبدة منها زبدة كما يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 6: 23 ج 10 عنه (ص) و هذا من أوضح الأدلة على المجانسة بينها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 421

فآية المماثلة ترمي إلى مماثلتين اثنتين: مماثلة الأرضين السبع مع بعض (من الأرض) و مماثلتها مع السماوات السبع (مثلهن) عرفنا الثانية منهما شيئا ما فما هي الاولى؟.

.. إنها متماثلة في المادة المخلوقة منها و سواها كما السماوات: «قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ، وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى‏ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (41: 12).

فالمادة الأرضية هنا تخلق في يومين من التفجرة الاولى في المادة الأمّ (الماء) و تتكامل في أربعة أيام، ثم هي مع مادة الام السماوية (الدخان) تقتسم إلى سبع، كل منها في كل من السبع السماوات، فالأخوة بين هذه الأرضين السبع عريقة منذ البدء، كما الأخوة بين السماوات السبع بأنجمها، مهما كانت الأم الاولى قبل تفجرها واحدة هي (الماء) «1».

فللست الباقية مياه و جبال و أشجار و حيوان و إنسان كما لأرضنا هذه نستوحيها من بركاتها و أقواتها، إذ تقتضي من يستفيد منها من دابة، و كما تصرح بها (وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ) (42: 29): أن في السماوات دواب كما في الأرض، و منها ذووا العقول بدليل (هم) في (جمعهم) فإنها لذوي العقول، و كما توحي به هنا «يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ»: أمر اللّه تكوينا و تشريعا، فلا بدّ لذوي العقول من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نبحث عن المادة الام «الماء» في سورة هود الآية 7: و هو الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام و كان عرشه على الماء راجع «ستاركان» من الصفحة 13- أيضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 422

تشريع، و علّه شريعة أرضنا هذه، تحكم على الست الباقية أيضا «1» «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً».

أجل: إن الشرائع الإلهية الخمس تحكم على كافة العقلاء المكلفين أيا كانوا في هذه الأرض أم سواها، مهما اختلفت حالاتهم و متطلباتهم، فإنما تحكم شريعة اللّه على كل كما يحتاج و يتطلب منه، وفقا لبيئته الروحية و المادية.

أجل: إنه ليست السماء خلوا من الشرائع و المتشرعين، و من المدن و المتمدنين كما

يروى عن الرسول الأمين قوله عن ليلة المعراج: (يا علي! إن اللّه أشهدك معي سبع مواطن- إلى أن قال- في المواطن الثاني أتاني جبرئيل فأسرى بي إلى السماء ... فكشط لي عن السماوات السبع و الأرضين السبع حتى رأيت سكانها و عمارها و موضع كل ملك منها، فلم أر شيئا من ذلك إلا و قد رأيته كما رأيته)

«2».

و يروى عن علي أمير المؤمنين عليه السّلام: (لهذه النجوم التي في السماء مدائن مثل التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود مربوط من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتان و خمسون سنة)

«3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 238- أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و البيهقي في الشعب و في الأسماء و الصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله‏ «وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم و آدم كآدم و نوح كنوح و ابراهيم كإبراهيم و عيسى كعيسى.

أقول: لا يعني من المماثلة التعدد، و إنما مماثلة الشريعة و الأنبياء هم أنبياء أرضنا تحكم شرائعهم على سائر المكلفين أيا كانوا، و يدل عليه الرضوي (ع):

تفسير القمي باسناده عن أبي الحسن الرضا (ع) في حديث في الآية: فأما صاحب الأمر فهو رسول اللّه (ص) و الوحي بعد رسول اللّه قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات و الأرضين.

(2) بحار الأنوار 6: 517 عن السراير باسناده عن بريده الأسلمي عنه (ص).

(3) تفسير البرهان 3: 15 القمي عن الصادق (ع) عنه (ع) .. و هنا أحاديث كثيرة عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 423

و لسنا ممن يحصر هذه المدن و هؤلاء العقلاء بالأرضين السبع، و إنما نقول منها الأرضون السبع، المتماثلة فيما لها ماديا و معنويا، يعبدون اللّه كما نعبده و يسجدون له كما نسجد: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» (16: 50).

فالأرضون السبع هي من جملة مساكن الدواب و العقلاء المتمدنين و المتشرعين يتنزل أمر اللّه تكوينا و تشريعا بينهن و بين سماواتها: «يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ» دون اختصاص للأمرين بكرتنا الأرضية، مهما كانت هي المحور الرئيسي للرسالات الإلهية كما تدل عليه الآيات التي تجعل الرسول محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم محور الرسالات كلها، و هنا أحاديث حول الأرضين الست الباقية، في قياسها بالنسبة إلى بعض سعة و ضيقا، لا نصدق منها إلا أصل الاختلاف بينها طباقا كما في السماوات، و في فواصلها، و لا نقبل منها ما يخالف الحس و حجة الكتاب، التي تجعل السماء الاولى سماء الأنجم، فأين خمسمائة عام و مليارات الأعوام التي تفصل بين البعض من مجراتها، فضلا عما فوقها من سماوات، و إلى غير ذلك مما لا يصدق إلا ما يصرح به أو يوحيه القرآن، و قد نحتمل صدق البعض مما لا ينافي القرآن.

و البشرية حتى الآن على جهدها الكبير و تحملها العسير الكثير الكثير، ما وصلت لحد العلم ان وراء أرضنا هذه حياة كحياتنا، أو حياة حيوانية أو نباتية فضلا عن الإنسانية، و القرآن النازل قبل أربعة عشر قرنا يخبرنا بكل هذه الحقائق و كما تكفلت آية واحدة في «الشورى» لإثبات وجود حياة نباتية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الرسول و الأئمة من آل الرسول (ص) تدلنا على وجود العقلاء المكلفين المتمدنين في السماوات كما استوحيناه من الآيات.

مثل ما رواه في البحار 6: 507 عن الصادق (ع) يقول‏: إن جبرئيل احتمل رسول اللّه (ص)- إلى أن قال- ثم صعد بي إلي السماء السادسة فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض و فيها الكروبيون ثم صعد بي إلى السماء السابعة فأبصرت فيها خلقا و ملائكة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 424

و حيوانية و إنسانية متمدنة في السماوات كما في الأرض، و أن اللّه سوف يجمع بين البعض من دواب الأرض و السماء: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (42: 29). هذه التي لم تعدو محطة الخيال و الآمال حتى الآن! سبحان الحنان المنان: «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عِلْماً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 425

(سورة التحريم- مدنية- و آياتها اثنتا عشرة)

[سورة التحريم (66): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى‏ بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ (4)

عَسى‏ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً (5)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 426

صفحة من الحياة البيتية للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تفتحها هذه السورة في مفتتحها، أنه كيف كان يحافظ على كرامة النبوّة، لحدّ تحريم بعض ما أحلّ اللّه له لكيلا يقع في مآزق المظاهرات المهرجة المحتالة النسائية فيخفّ من كيانه الرسالي، و أن اللّه تعالى يرجعه الى حلّ ما حرّمه على نفسه و يكفيه شر المظاهرات من نسائه.

إنه لم يكن التحريم هنا تشريعا منه عاما ينافي ما أحلّه اللّه، و هو رسول اللّه لا يصدر إلا عن اللّه! و إنما تحريم عملي بالحلف على ترك شي‏ء من الحلال الخاص له، مغبة مرضات أزواجه، فرارا عن مظاهرتهن عليه، لكيلا يكدّرن جوّ بيت النبوة السامية، فقد عمل واجبه حسب حالته الحاضرة، حتى آمنه اللّه بالوحي و كفاه ما يهابه و رجعه الى الحلّ و أن يكفّر عن يمينه و قد فعل.

أجل تحريم عملي بطريقة الشرع و بدافع شرعي‏ «1»، «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ» دون «الرسول» يوحي أنه لم يكن تحريما رساليا، إنما كنبي رفيع المنزلة، يحرم حفاظا على نبوته و رفعته، و إيحاء ثان يؤيده‏ «أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ»، فالتحريم أيضا كان على نفسه دون الآخرين، و ثالث‏ «تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ» إذ يحصر التحريم اندفاعا عن الأزواج، و دفاعا عن كيانه إذ هددنه بالمظاهرة عليه و ندد بهن اللّه بالعذاب و الطلاق‏ «إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ ...» «عَسى‏ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ...» فقد حرم على نفسه لذة نسائية محللة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في بعض الآيات و منها: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ» (4: 87) «وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ» (28: 12) فان الرضاعة لموسى من غير أمها ما كانت محرمة في شريعة اللّه، و لا على موسى إذ كان رضيعا لم يبلغ بعد .. و إنما التحريم واقعيا بمعنى الحرمان العملي، فقد قدر اللّه تعالى لموسى أن يتمنع عن سائر المرضعات، و ألقى في قلب فرعون ان يختار امه دون معرفته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 427

له خاصة «1» «أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» بما حلف على تركها «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ ...».

و كما ورد في مستفيض الأخبار انه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تزوج بامرأة و وطئها سرا عن بعض نسائه، فلما عرفن هددنه بالمظاهرة عليه فحلف على ترك وطئها .. ترى أليس واجبه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ ذاك أن يحلف باللّه على ترك ما أحله اللّه و أباحه عليه، فرارا عما حرّمه اللّه من انهتاك حرمته، و انفتاك كرامته! قبل أن يأتيه الأمان بالوحي- كما أتى- بالضمان عن بأسهن، و أن يحلّ يمينه و يرجع الى الحلّ.

فخلاف ما يزعمه غير المتأنقين، هذه الآيات ليست تنديدا بالنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و إنما هي تهديد بنسائه المظاهرات، إكراما له زائدا على غيره، و لكي يحل من أسر التحريم الشرعي بالحلف عند المحظور، بإزالة موضوعه و هو الخوف عن مواصلة الحلال، و الحكم بحرمة الإخافة على نسائه المظاهرات، معالجة لطيفة طيبة لمشكلة بيتية للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ندرس فيها بوجه عام أيضا، أن خلق المشاكل في ممارسة الحلال محرّم في شريعة اللّه، و إن كان الحلال مما يبغضه الطرف المقابل، كأن تتزوج بزوجة على زوجتك، فمهما كان صعبا عليها، فحرام عليها خلق المشاكل لإلجاء الزوج على ترك الحلال، عمليا او بالحلف او الطلاق، اللهم إلا ألا يعدل‏ «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً» فتنهاه فيمن تنهاه عن منكر الظلم و إن كان انتهاؤه بالطلاق، او أية وسيلة محللة اخرى.

و كما ترى أن اللّه يلقي حبل هذه المشكلة على عواتق النساء، فيكفيه شرّهن و يهددهن بالطلاق، خلاف ما رغبناه تماما أن يطلق او يفارق الجديدة دونهن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إذ أحل اللّه له أكثر من أربع نسوة، و قد كانت عنده حينئذ أكثر من أربع فتزوج غيرهن عليهن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 428

و فيما إذا سئلنا: لماذا هذه الكثرة من النساء، يتزوج بهن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى يقع في أمثال هذه المشاكل فيحتاج الى حل إلهي؟! فالجواب: أن زواجات النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت- على الأكثر- سياسية تقتضيها بيئته الرسالية، و أنا لا أحاول نفي عنصر الجاذبية و الجمال عن حياة النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فانها ليست موضع اتهام عليه حتى ندفعه عنه، لأنه إنسان له شهوة الإنسان، و له جاذبية الجنس كسائر الإنسان، إلا أنه يوحى إليه، قالب بشري يديره قلب و روح الوحي كما يدير سائر الأرواح.

و إنما أقول: إن النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتخطى أمثال هذه الجاذبيات النفسانية و الشهوانية المحللة الى الجاذبية الإلهية، فكان يعيش كبشر، و كل تصرفاته بمرضات اللّه، حتى زواجاته التي كانت كلها بأمر من اللّه، و كما في تزويجه بامرأة زيد دعيّه، لكي ينقض حكما جاهليا يحرم حلائل الأدعياء «فَلَمَّا قَضى‏ زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» (33: 38).

صحيح أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تزوج بقرابة ثلاثة عشر نسوة، و لكن تعال معي لنرى ظروفه التي كانت تتطلب هذه الزواجات، و من هن هؤلاء الأزواج؟.

نرى أن أول أزواجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خديجة بنت خويلد (رض) عرفت رجلين قبله و هي فوق الأربعين و هو ابن خمسة و عشرين، و هذا بخمس عشرة سنة قبل رسالته، أ ترى لجمالها و صغرها؟ كلا! إنما لإيمانها و كفاءتها و زمالتها للرسالة المستقبلة التي آمنت بها قبل غيرها! و كانت منها- فيمن ولدت- فاطمة (ع) قرينة خليفته الأول، و أم الأئمة النقباء (ع) ... فماتت خديجة قبل الهجرة بثلاث.

فلما ماتت تزوج صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سودة بنت زمعة، و لم تكن شابة و لا جميلة، و إنما أرملة للسكران ابن عمرو، و كان من السابقين الى الإسلام من مهاجري الحبشة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 429

فلما تو في تزوجها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكي لا يؤثر فيها ترمّلها، و أنها فقدت زوجها و ليس لها من كفيل، كلا! إن كفيلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم!.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر و هي بكر، و لم يتزوج بكرا سواها، و كانت معه- الى أن توفي- تسع سنوات و خمسة أشهر، تزوجها لعلل سياسية.

ثم تزوج حفصة بنت عمر، و هي ثيب، بعد ما عرضها أبوها على أبي بكر و على عثمان فلم يستجيبا، تزوجها بنفس العلل، و أن يصلح مرفوضة، فيصلح أباها أيضا.

ثم تزوج زينب بنت خزيمة، و كان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، و قد قتل يوم بدر، او عبد اللّه بن جحش المستشهد يوم أحد، تزوج بها ليشجع المقاتلين للحرب فلا يعتبروا أهلهم هدرا إن قتلوا، فالنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشخصه الكريم كفيلهن كرامة و كرما.

و كذلك تزوج أم سلمة، و قد قتل زوجها ابو سلمة في أحد، فتزوجها النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ضمّ إليه عيالها من أبي سلمة، و لأنها كانت مؤمنة طاهرة.

و تزوج زينب بنت جحش- كما أسلفنا- لمهمة تحليل حلائل الأدعياء، و لو كان القصد من زواجها شهوة الجنس و الجمال فحسب، فلما ذا زوّجها زيدا، و كانت منذ البدء و راغبة فيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هي بنت عمته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كانت رافضة لزيد و هي غريبة عنه؟.

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، إذ قسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سبايا بني المصطلق فوقعت هي في أسهم الثابت ابن قيس فكاتبته على نفسها فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: جئتك أستعينك على كتابتي، فقضى عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تزوجها برضاها و رغبتها، محررا في هذا الزواج إياها عمن لا ترغب إليه و هي راغبة إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، و كانت مهاجرة مسلمة في الحبشة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 430

فارتد زوجها عبد اللّه بن جحش الى النصرانية و تركها، فخطبها النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ترغيبا و تثبيتا لها في إيمانها.

ثم تزوج بصفية بنت حي بن اخطب زعيم بني النضير. ثم بميمونة بنت الحارث بن حزن، و كانت قبله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند أبي رهم ابن عبد العزى.

و هكذا نرى ان لكلّ من زواجاته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سببا، و هن- فيمن عدا زينب و جويرية و عائشة- لم يكنّ شابات و لا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال او مال، و لهذه الثلاث أيضا- على جمالهن- أسباب تتخطى جاذبية الجنس و الجمال، الى جاذبية الحق و الكمال، و تطبيق شرعة اللّه حنونا عطوفا و رحمة للعالمين.

ثم هنا- في آيات التحريم- نجده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتزوج بمارية القبطية «1»، مما يدفع عائشة و حفصة الى المظاهرة عليه و المشاغبة معه، و علّه كان عليه التزويج بها لكيلا يزعم أن زواج الجواري على الدائمات من المحرمات، ثم حرمها على نفسه عند المظاهرة، ثم أحلّها اللّه عليه بإزالة السبب.

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏:

خطاب في صيغة العتاب و ليس به، و إنما يتساءله: لماذا يحرم نفسه عما أحل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في مستفيض الأحاديث عن أئمة اهل البيت (ع) منها ما

رواه القمي في تفسيره عن ابن سنان عن أبي عبد اللّه (ع) في الآية قال‏: اطلعت عائشة و حفصة على النبي (ص) و هو مع مارية، فقال (ص): و اللّه ما أقربها، فأمره اللّه ان يكفر عن يمينه.

و في حديث‏: كان يوم حفصة فاستأذنت رسول اللّه (ص) أن لي الى أبي حاجة فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول اللّه (ص) الى جاريته مارية القبطية، و كان قد أهداها له المقوقس، فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فأتت حفصة فقالت: إنما أذنت لي من اجل هذا! أدخلت أمتك في بيتي ثم وقعت عليها في يومي و في فراشي! فقال (ص): أليس هي جاريتي، قد أحل اللّه ذلك لي، اسكتي ... ثم حرمه على نفسه بالحلف اتقاء شرها ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 431

اللّه له؟ ثم يذكر سببين لهذا التحريم: «تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ»، و الثاني هو الخوف عن مظاهرتهن كما يتبين من بقية الآيات، و لكي نعرف أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما فعل محظورا في الشريعة يبادر بالغفران‏ «وَ اللَّهُ غَفُورٌ» و بالرحمة البالغة «رَحِيمٌ»، فلو كان إثما لم يغفر إلا بالتوبة و ليست هنا، و علّ الغفر هنا هو الستر على ما كان يخشاه منهن، و الغفر على الحرمة الحاصلة باليمين إذ فرض له تحلّته:

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ‏:

و التحلة المفروضة ليست هي التحلل عن مطلق الأيمان بالكفارة، فانه حرام لكونه حنثا لما فرض، و إنما هي التحلل عما حرّم باليمين دون مبرر واقعي، و إن كان له مبرر حسب ما يراه الحالف، و تحلة يمين النبي كانت بأداء الكفارة، فالتحلل عما حرم على نفسه.

فمخالفة اليمين كيفما كان تقتضي الكفارة، سواء أ كان الحنث واجبا كما هنا، أم حراما كما في الأيمان الموافقة لواقع المرجوحية، كما يحلف على ترك الحرام أو المكروه أو المباح المرجوح لضرر أو مثله، و وجوب الحنث أو جوازه هناك دليل عدم انعقاد اليمين في الواقع، و إنما الكفارة للحفاظ على كرامة اليمين.

و لقد حلف النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ترك مارية لمرضاة أزواجه و خوف مظاهرتهن، فيما رآه النبي قبل تأمين اللّه و تضمينه الحفاظ عليه، فلما زال سبب الخوف، و أن مرضاة الأزواج لا تبرر تحريم الحلال، و لا ينعقد الحلف عليه، حينذاك فرضت عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحلة يمينه هذا و قد أحلّ.

و هذا فرض للحالف و ليس عليه‏ «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ» و هذا ما تقتضيه ولاية اللّه علينا: أنه يحبنا و يتولى أمورنا، فلذلك يفك أسرنا عن أمثال هذه الأيمان، و يبدل عسرنا باليسر «وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

من هنا نعرف أن تحريم ما أحله اللّه لا يبرره شي‏ء، إلا أن يحرم بعنوان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 432

طارى‏ء يدخله فيما حرّمه اللّه، إذا فليس منا شي‏ء من تحليل و لا تحريم، و حتى فيما إذا نحلف على ترك شي‏ء أو فعله فلزامه رجحان الفعل أو الترك واقعا، و إلا تحلّل بكفارة كما في تحريم النبي مارية القبطية.

وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى‏ بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

الإسرار هنا كان منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى حفصة، و الإنباء كان منها إلى عائشة، و هما- بالإجماع- «1» صاحبتا هذه المعركة الضارية ضد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لماذا نكح مارية القبطية؟

لقد أسر النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بعد قصة مارية- إلى حفصة حديثا: ألا تنبئي به أحدا، و لكنها نبأت به عائشة، زميلتها في المظاهرة، و أظهر اللّه نبيه على إنباءها، عندئذ عرّف النبي و أطلع حفصة بعض الحديث إشارة إلى جانب منه، و أعرض عن بعضه ترفعا عن السرد الطويل و تجملا عن الإطالة في التفصيل، علّه و لأن البعض الآخر كان جديرا بالإعراض، فلما نبأها بالبعض الأول قالت حائرة «مَنْ أَنْبَأَكَ هذا»؟ «قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ».

ترى ما هذا الحديث السرّي، الذي تأذى النبي بإفشائه؟ هل إنه وقوعه على مارية؟ و ليس حديثا متبعضا لكي يعرّف بعضه و يعرض عن بعض! و لم يكن حديثا مستجدا لحفصة حتى يسر به إليها، و «حديثا»- بعد قصة النكاح و التحريم و التحليل- يوحي بأنه حديث جديد!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و ممن يروى عنه ذلك عمر ابن الخطاب- أخرجه عبد الرزاق و ابن سعد و احمد و العدني و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن حيان و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس عن عمر .. (الدر المنثور 6: 243).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 433

أو أنه تحريمه مارية على نفسه؟ فكذلك الأمر! إضافة إلى كونه بشارة لأزواجه تتطلب الإعلان، لا الإسرار! أو انه تبشيره إياها بخلافة أبيها و أبي بكر؟ فكذلك الأمر! فإنها بشارة لها، فإن كانت حقا فلما ذا الإسرار، و إن كانت باطلا فحاشا النبي عن الباطل، إضافة إلى أن «حديثا» لزامه هنا العلاقة بقصة مارية، و أن إفشائه يخلق مظاهرة الامرأتين‏ «.. وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ» تهديدا بعد الإفشاء! و القول الفصل هنا أن «حديثا» هذا، حديث متبعض «عرف بعضه» يستحق الإسرار حفاظا عن كرامة النبي، التي تمس منها بمظاهرتهما، و له علاقة عريقة بالقضايا النسائية تحرضهن على المظاهرة، فما هو إذا؟

علّه أو منه قصة مارية، و أنه حرمها على نفسه، أسرّ المجموع إلى حفصة، إبقاء للسر في البعض الأول، و إسرارا لما حلف في الثاني، و كان الثاني ضمانا لعدم إفشاء القصة في أولاها، فلما نبأت عائشة بهما- مما أبدى فيها الغيرة النسائية فأخذتا في التظاهر عليه- «وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ» لكي يسد باب الشرّ منذ البدء لكيلا يبلغ إلى الشره‏ «عَرَّفَ بَعْضَهُ» و علّه قصة الحلف‏ «وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ» أصل القصة، حياء منه، و اتقاء من تدهور الوضع لو كرر التصريح به‏ «قالَتْ» متحيرة «مَنْ أَنْبَأَكَ هذا»؟ إذ كان الحديث بعد بينهما، و لا يعقل أن تنبئه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم زميلتها في المظاهرة، أ تفشيلا للمخطط الذي تتقصّدان؟! «قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ» و لكي تعلما أن اللّه معه، و يخبره بالمؤامرات و المكايدات المحبوكة وراء الأستار، فتكسرا من ثورتهما، و تقلّا من فورتهما ضده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ:

«إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ» تثبت أنهما عملتا أمرا يسخط اللّه في إيذاء رسول اللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 434

أما حفصة فقد أطالت لسانها عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جاسرت بما لا يجوز، و أذاعت سره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أما عائشة فقد زاملتها في المعركة النسائية الطائشة عليه، و علّ منها إذاعة هذا السر لبقية النساء و أمورا مثلها، و أصبحتا تنويان المظاهرة عليه، أن ترأسا مسيرة ضارية مفصحة من كتلة النساء على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هذه مما تمس من كرامة النبوة أن ينبع فوار الثورة عليه من عقر داره، و لهذا و ذاك كان حلفه على ترك مارية كيلا تعقبه و تلاحقه هذه العقبات.

«فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما»: مالت قلوبكما عن الحق و الاستقامة حيث آذيتما النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القلب الصاغي المقلوب بحاجة إلى توبة، و هذا بالنسبة لقلب الروح المستكن في قلب الجسم، فطالما القلب يصغو او ينجرف روحيا فهو لا يخرج عن نياطه و لا يزول عن مناطه قالبيا.

و هنا «قلوبكما» لامرأتين اثنتين، دون «قلبا كما» لأن كل شيئين من شيئين تجوز العبارة عنهما بلفظ الجمع، كما و انهما جمع لغويا: «وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما» و المقصود قطع يمينهما .. هذا و إن كان يجوز العبارة عنهما بالتثنية أيضا، و علّ هنا نكتة زائدة هي ضم قلوب سائر نسائه الصاغيات معهما إليهما، و لأنهما أساس المظاهرة و رأس المشكلة، ضمت قلوب الهامشات الى هاتين المتنين، كما و ان توبتهما الى اللّه توبة لهن جمعاء إذ يسمعن لهما.

فأنتما بين حالتين لا ثالث لهما: التوبة الى اللّه لإصلاح القلوب الصاغية المائلة عن اللّه، و هذا طريق الجنة، او المظاهرة على اللّه فإلى النار:

وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ:

حملة عنيفة هائلة بعد ما مضى، ندرك منها عمق الحادث و مدى أثره في قلب الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ضرره عليه، و شرره على كرامته، لحدّ يعلن اللّه تعالى فيها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 435

موالاته له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في هذه المعركة الضارية، و معه و بأمره جبريل و صالح المؤمنين و الملائكة، ما لا نجد مثلها في أية معركة أبدا.

أ مظاهرة على الرسول الأقدس الطاهر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ناشئة من بيته عن زوجتيه؟

لأنه قارب حليلة من حلائله، دون أن يقارف خطيئة! فهذا إيذاء للنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لحدّ الكفر «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (9: 61) «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً» (33: 57) كيف لا! و إيذاء المؤمنين إثم مبين فضلا عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» (33: 58) «1».

و فيما إذا سئلنا: كيف كان بإمكان الامرأتين المظاهرة على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم تكن لهما مسكة إلا قصة مارية المحللة له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

فالجواب: أنهما تشاورتا فاختلفتا من ورائها فاتكة الإفك المشهورة: «إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ. لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ. لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ. وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 243- أخرج عبد بن حميد و مسلم و ابن مردويه عن ابن عباس قال:

حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل رسول اللّه (ص) نساءه ... دخلت على عائشة فقلت: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول اللّه (ص)؟ قالت: ما لي و لك يا ابن الخطاب! فدخلت على حفصة فقلت لها: يا حفصة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول اللّه (ص)! ... الى أن قال: و اللّه لئن أمرني رسول اللّه (ص) بضرب عنقها لأضربن عنقها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 436

وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. ... إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ‏ ... يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ ...» (24: 21).

فقد

روي عن أئمة أهل البيت (ع) أن ممن جاء بالإفك عائشة و حفصة مع عصبتهما، أفكتا على مارية أم إبراهيم أنها جاءت به من ابن جريح، ففضحتا بعد ما تثبّت علي عليه السّلام بأمر الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فوجده خنثى لا ذكر و لا أنثى‏

«1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

رواه القمي في تفسيره عن زرارة عن أبي جعفر (ع)، و عن عبد اللّه بن بكير عن أبي عبد اللّه (ع)، و روي ابن بابويه بإسناده عن علي (ع)، و من أجمع و أشمل ما روي ما يسنده الحسين بن حمدان الخصيبي الى الامام الرضا (ع) انه قال لمن بحضرته من شيعته: هل علمتم ما فريت به مارية القبطية و ما دعى عليها في ولادتها ابراهيم ابن رسول اللّه (ص)؟ فقالوا يا سيدنا أنت أعلم فخبرنا، فقال: إن مارية أهداها المقوقس الى جدي رسول اللّه (ص) فتحطى بها من دون أصحابه، و كان معها خادم ممسوح يقال له جريح و حسن إسلامهما و إيمانهما، ثم ملكت مارية رسول اللّه (ص) فحسدها بعض أزواجه فأقبلت عائشة و حفصة تشكيان الى أبويهما ميل رسول اللّه (ص) الى مارية و إيثاره إياها عليهما حتى سولت لهما و لأبويهما أنفسهم بأن يقذفوا مارية بأنها حملت بإبراهيم من جريح و هم لا يظنون أن جريحا خادم، فاقبل أبواهما الى رسول اللّه (ص) و هو جالس في مسجده فجلسا بين يديه ثم قالا: يا رسول اللّه، إن جريحا لا يحل لنا و لا يسعنا أن نكتمك من أمره و ما يظهر من خيانته شيئا و واقعه بك، فقال: ماذا تقولان؟ قالا: يا رسول اللّه، ياتي من مارية الفاحشة العظمى و ان حملها من جريح و ليس هو خادم، فاربد وجه رسول اللّه (ص) و تلون ثم قال: و يحكما ما تقولان؟ قالا يا رسول اللّه إنا خلفنا جريحا و مارية في مشربتها- يعنيان حجرتها- و هو يفاكهها و يلاعبها و يروم منها ما يروم الرجل من النساء، فابعث الى جريح فإنك تجده على هذه الحال، فانفذ فيه حكم اللّه، فانثنى النبي (ص) الى علي (ع) ثم قال: يا أبا الحسن، قم يا أخي و معك ذو الفقار حتى تمضي الى مشربة مارية، فإن صادفتها و جريحا كما يصفان فأخمدهما بسيفك ضربا، فقام علي (ع) و اتشح بسيفه و أخذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 437

و يروى أيضا غير ذلك‏ «1» و علّهما معا معنيان في آية الإفك، مهما اختصت آية المظاهرة بما افتعلت الامرأتان على ام إبراهيم.

هنا لك اللّه يهددهما عن مظاهرتهما كتلك الفادحة الفاضحة القادحة «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ» كولاية أصيلة «وَ جِبْرِيلُ» كحامل للوحي، و منه إنباؤه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكشف السر «وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» كعلي عليه السّلام إذ تثبّت في أمر ابن جريح فأثبت براءته، كما اللّه كشف عنه حتى ابرز كونه ممسوحا فتبرء من الإفك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

تحت ثيابه، فلما ولى من بين يدي رسول اللّه (ص) انثنى اليه فقال: يا رسول اللّه، أكون فيما أمرتني كالسكة المحمية في العهن؟ و الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال له النبي (ص):

فديتك يا علي، بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاقبل علي (ع) و سيفه في يده حتى تسور من فوق مشربة مارية و هي في جوف المشربة جالسة و جريح معها يؤدبها بآداب الملوك و يقول لها:

عظمي رسول اللّه (ص) و لبيه و كرميه ... و نحو هذا الكلام، حتى التفت جريح الى أمير المؤمنين (ع) و سيفه مشهور في يده، ففزع جريح الى نخلة في المشربة فصعد الى رأسها، فنزل أمير المؤمنين (ع) الى المشربة و كشفت الريح عن أثواب جريح فإذا هو خادم ممسوح، فقال له:

انزل يا جريح! فقال: يا أمير المؤمنين، آمنا على نفسي؟ فقال: آمنا على نفسك، فنزل جريح فأخذ بيده و جاء به الى رسول اللّه (ص) فأوقفه بين يديه، فقال له: يا رسول اللّه، إن جريحا خادم ممسوح، فولى رسول اللّه (ص) فقال: جل لهما نفسك لعنهما اللّه يا جريح حتى يتبين كذبهما و خزيهما و جرأتهما على اللّه و على رسوله، فكشف أثوابه فإذا هو خادم ممسوح، فأسقطا بين يدي رسول اللّه (ص) و قالا: يا رسول اللّه التوبة ...

و عن أبي عبد اللّه (ع) أنه سئل: كان رسول اللّه (ص) أمر بقتل القبطي (يعني جريح) و قد علم أن عائشة كذبت عليه او لم يعلم، و إنما دفع اللّه عن القبطي القتل بتثبيت علي (ع)؟

فقال (ص): بل كان و اللّه علم، و لو كانت عزيمة من رسول اللّه (ص) ما انصرف علي (ع) حتى يقتله، و لكن إنما فعل النبي (ص) لترجع (عائشة) عن ذنبها، فما رجعت و لا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها.

(1). كما في الدر المنثور أنها نزلت في عائشة و ما رميت به في غزاة بني المصطلق من خزاعة، و لا منافاة بين النقلين كما قلنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 438

«وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ» كله «ظهير» له، بطاقة موحدة تجعلهم كأنهم واحد «ظهير».

و في تقديم صالح المؤمنين على الملائكة الذين هم «بعد ذلك» إيحاء الى أفضليته، فليكن هو نبيا او مثيله، دون المؤمنين الذين هم دون الملائكة قطعا لعصمتهم دونهم، فليكن عليا عليه السّلام و كما تضافرت به الأحاديث أيضا «1».

إن تلكم المؤامرة و المظاهرة النسائية برئاسة عائشة و حفصة بلغت لحدّ حملت الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على طلاقهن، و لم يطلق بما عالجه اللّه تعالى من المشكلة:

عَسى‏ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً:

و هذه هي الحملة الأخيرة هنا، تهددهن بالطلاق، و توحي كأنهن لسن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات، مهما كنّ أبكارا أو ثيبات، فان المظاهرة على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هكذا لا تناسب أيا من هذه الصفات، اللهم إلا أن يتبن الى اللّه.

و كما نعلم، إنما ترجع اصول هذه الحملات و التنديدات و الشكاوات الى زعيمتي المظاهرة: عائشة و حفصة، أن لو شاء اللّه خلصه عنكن، و بدله أزواجا خيرا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تضافرت أحاديث الفريقين أن عليا (ع) هو صالح المؤمنين، و لأنه المصداق الأوحدي من صلاح الايمان، و له دور في صد هذه المظاهرة عن رسول اللّه (ص) كما سبق،

ففي الدر المنثور 6: 244- أخرج ابن أبي حاتم عن علي (ع) قال قال رسول اللّه (ص): «و صالح المؤمنين»

هو علي بن أبي طالب.

و أخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عيسى سمعت رسول اللّه (ص) يقول: «وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» هو علي بن أبي طالب. و أخرج مثله البخاري في صحيحه‏.

أقول: هذا من باب التطبيق على أفضل المصاديق و طالما كان له (ع) دور في الذنب عن حرمة الرسول (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 439

منكن مسلمات ... و لا يقول: خيرا منكن في الإسلام و ... و إنما «مسلمات مؤمنات ...» مما يوحي ان الخير في المبدلات بهن هو أصل هذه الصفات.

فزوجية المرأة للنبي ليست كرامة إلا مع التقوى فلها ضعف ما لغيرها:

«فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً»، و أما مع الطغوى فعليها ضعف العذاب‏ «مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» (33: 29- 31).

و هذه الصفات هي خير ما تتواجد في النساء، فلو كانت هناك خير منها لذكرت، و لا سيما للرسول المصطفى الذي يحق أن تصطفى له خير النساء.

فالإسلام هو التسليم للحق أيا كان و لو على نفسك، و منه التسليم لحكم اللّه في حلية تعدّد النساء .. و الإيمان هو الاطمئنان باللّه و الأمان الى اللّه .. و القنوت هو الطاعة و الخضوع، و التوبة هي الرجوع عما يقارف من خطيئة، و السياحة هي التأمل و التدبر في مبدعات الخلقة بصرا و بصيرة، و هن مع هذه الصفات بين أبكار و ثيبات كما هن.

إذا فطلاقكن ليس إلا طلاق نساء عاديات من أبكار و ثيبات، فتبديلكن بطيبات راقيات لهن ما لهن من الجواذب النسائية و زيادات خلقية و معنوية، فلم هذه المظاهرات النكراء ضد الرسول الطاهر الأمين؟!.

و لكي يرغم الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنوف المظاهرات اعتزل عنهن تسعة و عشرين يوما، ظل فيها عند مارية القبطية، تأديبا لهن، و تطهيرا لها عما نسب إليها، فظن أنه طلقهن و لمّا، حتى طمأنه اللّه بما مضى و خلص دور التأديب و التأنيب فرجع إليهن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 440

[سورة التحريم (66): الآيات 6 الى 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (6) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (8) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (9) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10)

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (12)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 441

و كما لا يجدي نساء النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كونهن نساءه إلا أن يكنّ قانتات عابدات صابرات مجاهدات، كذلك المؤمن لا يكفيه إيمانه ما لم يقه و أهليه نارا:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ‏:

إن وقاية الإيمان لا تكفي كعقيدة، إلا بانضمام وقاية عمل الإيمان، لا للمؤمن نفسه فحسب، و إن وجب كمبدء «قوا أنفسكم» فللأهلين أيضا «و أهليكم» لأنه مكفل بهم كما بنفسه، و إن كان الأهلون أيضا يؤمرون بوقاية أنفسهم، فإنهم مكلفون، إلا أن نقصهم و قصورهم في تكفلهم أنفسهم هنا يجبر بوقاية و قيادة حكيمة ممن يأهلهم و يرعاهم ف (كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته).

و الوقاية هنا تشمل المعرفية العقائدية و العملية «1» للأنفس و الأهلين، أن‏

(تأمروهم بما يحبه اللّه و تنهوهم عما يكره اللّه)

«2»، فأبواب الجهاد و الدفاع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 244- عن علي (ع) في الآية، قال‏: علموا أنفسكم و أهليكم الخير و أدبوهم.

(2)

أخرجه في الدر المنثور 6: 244- عن زيد بن أسلم قال‏: تلا رسول اللّه (ص) هذه الآية فقالوا: كيف نقي أهلنا نارا؟ قال: ... و في الكافي مثله عن الامام الصادق (ع) مع زيادة: لما نزلت هذه الآية جلس رجل من المؤمنين يبكي و يقول: أنا عجزت عن نفسي و كلفت أهلي! فقال (ص): حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك و تنهاهم عما تنهى عنه نفسك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 442

و الموعظة و الإرشاد و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، هي كلها تعني الوقاية الجماعية، و كما الأمة مأمورة بالوقايات الفردية، سواء.

ثم الأهلون لا تختص بالزوجة و الأولاد للزوج و الوالدين، إنه يشمل كل مقود لقائده، و كل مسوس لسائسه، من الجو العائلي، الى الأقربين، الى العائلة أجمع، و إلى الزعامة الدينية و الزمنية سواء.

«قُوا ... ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ» فالوقود هو الزناد و الصلاء، و الناس الوقود لهذه النار الزناد هم اصول الكفر من النسناس‏ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...

أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (3: 10) «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (2: 24) كما و يوحي بذلك قرن الحجارة بالنار، و هي الأحجار التي يعبدونها: «إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98) حجارة معبودة و أخرى غيرها يعرّفها الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ «1».

و أما الناس المؤمنون المقصرون عقيدة او عملا، فهم إنما تمسّهم نار هؤلاء الكفار على قدر تخلفهم، ثم تشملهم رحمة الغفار و يخرجون أخيرا من النار.

«عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ» غلاظ على الكفار، شداد في تعذيبهم بالنار، لا يخففون عنهم و لا يرحمون، لأنهم هكذا يؤمرون، عذابا فوق عذاب:

«لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ» فهم غلاظ شداد في تنفيذ أوامر اللّه هناك بحق المجرمين، دون مسايرة و لا مهادنة.

فيا لها من نار متسعّرة بغضب اللّه، الناس فيها كالحجارة سواء، وقودا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 6: 244 عنه (ص) ان الحجر منها لو وضع على جبال الدنيا لذابت منه، و ان مع كل إنسان منهم حجرا أو شيطانا

، و اللّه أعلم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 443

و اتقادا، و طالما قد تمسّ المؤمنين غير الواقين أنفسهم و أهليهم نارا ثم يرحمون، لكنها للكافرين الوقود عذاب الخلود:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏:

إنهم لا ينفعهم الاعتذار، بل: «وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» (77: 36) فممّ يعتذرون؟ هل من أعمالهم النحسة التي أصبحت لزام ذواتهم؟ و ليس جزاؤهم إلا أعمالهم! «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»: في صور الأعمال و أصوات الأقوال، و الانحرافات النفسية التي تتجلى لهم فيفضحون، و في حقائقها التي تبرز لهم فهم بها يعذبون: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22).

هذا- و لكنما المؤمن له اعتذار يوم الدنيا بتوبة نصوح، و يوم الدين بما يكفّر له، فان كبائر الحسنات و السيئات فعلا و تركا تعذره عن صغائرها:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ...:

إن التوبة النصوح هي البالغة في النصح، أن يناصح فيها التائب نفسه، و يبذل مجهوده في إخلاص الندم، إزالة لآثار العصيان الغابر، و العزم على تركه في المستقبل و الحاضر، فان التوبة و هي الرجوع الى اللّه عن حجاب الذنب، إنه درجات، كما ان المعاصي دركات، فأفضل درجات التوبة هي النصوح:

الناصحة للقلب المخلّصة له من رواسب المعاصي و عكارها، الحاضّة للعمل الصالح بعدها، العائشة القلب مذكرة مكررة النصح بعدم العود:

(أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر الى اللّه ثم لا يعود اليه كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 444

لا يعود اللبن الى الضرع)

«1»

(و أن يكون باطن الرجل كظاهره و أفضل)

«2»، و ترى‏

(أينا لم يعد ..؟) و لكن (.. اللّه يحب من عباده المفتن التوّاب)

«3»، فأدنى النصوح في التوبة هكذا تصميم، و أعلاه التطبيق.

و في هذه التوبة الحاسمة تكفير للسيئات كلها «عَسى‏ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ»: ما تقدم منها و ما تأخر، ما عشتم التوبة النصوح، إضافة الى تكفير الكبائر التي تبتم عنها توبة نصوحا، و إلى منعها حصول السيئات من بعد.

و ترى كيف تكفر السيئات، و قد كتبها كتبة الأعمال و يكتبونها، و قد سجلت في مختلف السجلات الإلهية من أعضائك و فضائك و أرضك و مكانك و زمانك؟: إنه تعالى‏

(ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، و يوحي الى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه، و يوحي الى بقاع الأرض: اكتمي ما كان يعمل من الذنوب، فيلقى اللّه حين يلقاه و ليس عليه شي‏ء يشهد عليه بشي‏ء من الذنوب)

«4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 245- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال قال معاذ بن جبل: يا رسول اللّه، ما التوبة النصوح؟ قال: ...

و

أخرج مثله ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي في شعب الايمان عن أبي بن كعب عنه (ص): هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر اللّه بندامتك عند الحاضر ثم لا تعود اليه أبدا.

و في معناه ما في نور الثقلين 5: 374 عن الكافي عن أبي الصباح الكناني قال‏: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن الآية، قال: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه.

(2) نور الثقلين عن معاني الأخبار عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ...

(3) فيه عن القمي عنه (ع) في الآية بعد التفسير المسبق قلت: و أينا لم يعد؟ فقال: ...

(4)

فيه عن الكافي بإسناده عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه اللّه فستر عليه في الدنيا و الآخرة، فقلت: و كيف يستر عليه؟

قال: ينسي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 445

و هذه التوبة من أنجح الوقايات عن النار بعد وقاية التقوى، تكفر السيئات و تدخل الجنات‏ «وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» إضافة الى سائر المكفّرات المكررات طيّات آياتها.

«... يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ:

هذه المكرمة الإلهية للمؤمنين الواقين أنفسهم و أهليهم نارا، التائبين توبة نصوحا، إنها تكون‏ «يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...»: أن يسوّي بينهم و سواهم، و يا له من تكريم عظيم أن يضمهم الى نبيه فيجعلهما في صف واحد في المكرمة يوم الخزي، لأنهم «آمنوا معه»: إيمانهم من إيمانه، فالمعية الإيمانية توحي بدرجات عالية من إيمان، مهما كان المؤمنون معه درجات، فإن اللّه يضمّ التائبين إليه إذ كانوا من حزبه معه، مهما قصروا أو قصّروا، ما كان حياتهم- كمبدء- إيمانية تائبة آئبة.

«نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ» .. «نورهم» الخاص بهم بسعيهم «يسعى» لا- نور- فنورهم ليس ظاهريا منفصلا عنهم حتى يمكن الاقتباس منه، و إلا لم يختص بما بين الأيدي و الأيمان: نورا ضنينا لا يشمل! «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ...» (57: 13) فهو النور الذي حصله المؤمن من ورائه: حياته الدنيا، و هو لزام لأهله لا يعدوه‏ «وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ» (24: 40).

إنه برهان و نور إلهي: «.. قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» (4: 174) و هو الإيمان الناتج عن نور البرهان‏ «أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى‏ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» (39: 22) و هو العمل الصالح الذي ينتجه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 446

الإيمان، و من ثم هو نور الفرقان و تأييد الرحمان الناتج عن مثلث النور «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً» (8: 29).

و مربع النور- هذا- يتوحّد فيصبح نورا واحدا يسعى بين الأيدي و الأيمان، فقسم العمل الصالح و الإيمان و الفرقان سوف يكون على الأيمان، فإن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه، و قسم الهداية يكون بين الأيدي، و منه الهداة الى اللّه من النبيين و الأئمة، او أنهما يكونان فيهما كما توحي له وحدة النور «1»، فالنور المربع بالأيمان يعده للحساب الحاضر، و هو بين الأيدي يبشره بالثواب المستقبل، فهناك للمؤمن حساب ثم ثواب، كما للكافر حساب و من ثم عذاب، فإنه يؤتى كتابه بشماله او وراء ظهره، إذ كان يسعى في شماله (شهواته) و وراء ظهره (دنياه)، طالما سعي المؤمن في يمينه (إيمانه) و بين يديه (آخرته) فإنها إشارات لمختلف المساعي و الغايات، دون الجهات الظاهرية.

و أما الشمال و وراء الظهر فهما لغير المؤمنين إذ يؤتون كتابهم فيهما، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار.

و هذا النور الساعي بين الأيدي و الأيمان ينير لهم سبيلهم الى الجنة، و هم يستزيدون غير التام من أقسامه، فالهداية الإلهية تامة لا تحتاج الى الإتمام، و إنما مثلث النور غير التام يتطلب التمام:

«يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» و هذه هي الشفاعة الأخيرة التي قد تشفع بشفاعة الشافعين المأذونين، بعد شفاعة الوقاية و التوبة النصوح، و بعد ترك كبائر السيئات و الإتيان بكبائر الحسنات، فيصبح المؤمن نورا خالصا فينضم الى نور الأنوار: محمد و آله الطاهرين الأبرار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن القمي بإسناده الى صالح بن سهل عن أبي عبد اللّه (ع) في الآية، قال‏: يسعى أئمة المؤمنين يوم القيامة بين أيديهم و بأيمانهم حتى ينزلوا منازلهم في الجنة

(5: 375).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 447

فهنالك يلهم المؤمن ذلك الدعاء، حين يلجم غيره عن كل دعوة و دعاء، و ذلك الإلهام علامة الاستجابة، و إلا فلما ذا السماح به؟ و أنه من إكرامه، كما أن في رده خزيه، فالغفر عن نقصان الإيمان و ما يتطلبه الإيمان، إنه تتميم لمثلث النور بين يديه و عن يمينه، مهما كان نور الهداية تاما لا يحتاج إلى الإتمام.

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ:

فإن المنافق و الكافر نار حيثما دار، و إخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، و لكي تبقى الحياة سليمة أمينة.

إن جهاد المنافقين و الكفار- و هو بذل الجهد في إصلاح الأمر- هو من مخلفات الوقاية للأنفس و الأهلين، فالواجب على المؤمنين حماية المحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار، فلا تترك العناصر المفسدة تهاجم المسلمين من خارج كما الكفار، و لا من داخل كما المنافقون، مهما اختلف الجهاد الحربي بينهما، دفاعا في المنافقين، و حربا في الكفار، فالكافر يحمل إما على الإسلام الإقرار، أو الجزية أو الحرب، فإلى دار البوار، و المنافق يحمل على الإيمان أو دفع الشر، فان حارب حورب، دون جزية و لا حرب بدائية بغية الإقرار، و فيما إذا طلب أمر الإصلاح للجماعة المسلمة الغلظ عليهما «وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ» بما يدفع شرهم و يخمد نارهم. و قد يكون الغلظ على المنافق أشد منه على الكافر، لأنه عدوّ من داخل، فخطورته أكثر، و كما أن عذابه أحيانا أشد و أوفر: «إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»- «وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ».

و أخيرا مثال واقعي للمؤمنين يطمئنهم في الإيمان، و للكافرين يخيّب آمالهم:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 448

مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ‏:

ختام فيه تأنيب رعيب على زوجتي النبي المتظاهرتين عليه‏ «1»، و على كل من له صلة النسب أو السبب، أم أية صلة من الصلات بأولياء اللّه، أنها لا تنفعهم ما لم يكونوا متقين.

فامرأة نوح و امرأة لوط مثل للكفار، و «كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ» يعنى بها التحتية في المنزلة، لقيامه عليها، و غلبته على أمرها الرجال قوامون على النساء بما فضل اللّه بعضهم على بعض و كما يقال: فلان الجندي تحت يدي فلان الأمير، إذا كان من شحنة عمله، أو متصرفا على أمره، ثم المرأة- إضافة إلى ذلك- تحت الرجل بحكم اللّه في كل ما تتطلبه الزوجية، و منها عمل الجنس و اتباع أوامر الزوج لصالحها و صالح العائلة و صالح الأمة، و هذه التحتية التكوينية و التشريعية تقتضي تلون المرأة يلوّن صلاح الزوج كما في نوح و لوط، و لكنهما خانتاهما، رغم كونهما عبدين صالحين، و في ذكر الوصفين بدل الاكتفاء باشارة الضمير تعظيم لمقام العبودية الصالحة، و أن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة، ما لم تصلح هي نفسها.

«فَخانَتاهُما» ترى ما هي الخيانة التي ارتكبتاها فارتكبتا فيها هنا و في الآخرة؟ إن الخيانة خلاف الأمانة، و القدر المفهوم هنا منها الخيانة في أمانات الزوجية، و قد أوحت إلى مثلث منها «تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ» و هي وجوب كونهما تحت زوجيهما في متطلبات الزوجية دون نشوز عنها، حافظتين لأماناتها و أسرارها و مصالحها، و أن تتصبغا بصلاح العبودية، ائتمارا بأمر الوقاية للأهلين‏ «.. وَ أَهْلِيكُمْ ناراً».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان- شرف الدين النجفي قال روي عن أبي عبد اللّه (ع) في الآية: مثل ضربه اللّه سبحانه لعائشة و حفصة ان تظاهرة على رسول اللّه (ص) و أفشتا سره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 449

ثم إنها خيانة تدخل صاحبها النار، فليست إذا نشوزا في الأمور البيتية العادية فحسب، و إنما التي تحقق جزاء النار من الكفر و مخلفاته، و منها ثالث ثلاثة: «وَ أَهْلِيكُمْ ناراً» فلم ترضيا إلا التخلف عن الوقاية، و منها كشف السرّ، و كما يروى في امرأة لوط

(أنها كانت تخرج فتصفّر، فإذا سمعوا الصفير جاءوا)

«1» يعني قومه، كما و ان امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين، و تقول إنه لمجنون مع القائلين.

و من الاولى نستطيع أن نحمّلهما كل شي‏ء إلا فاحشة الزنا، و كما

يروى عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم‏ (ما بغت امرأة نبي قط)

«2»، فبهذا الثالوث المنحوس، و لا سيما أقنوم الكفر، استحقتا دخول النار رغم أن زوجيهما نبيّان:

«فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ»: فلا تعني من اللّه إلا تقوى اللّه، دون أواصر القربى مع أولياء اللّه، فقد دخلتا النار (في البرزخ) و ستدخلانها يوم القيامة، مع الداخلين، دون ميزة و لا كرامة، إنما مهانتين كسائر المهانين إليها، و القائل مجهول «و قيل» إشارة إلى أن القيل لهما كسائر القيل لسائر الداخلين، بل إن مهانتهما أكثر ممن سواهما لأنهما هتكتا ساحة النبوة و لوّثتا جوّها بإطالة ألسنة الناس على العبدين الصالحين‏ «يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً» (33: 30).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 5: 376 في علل الشرائع عن أبي عبد اللّه (ع) قيل له: كيف كان يعلم قوم لوط انه قد جاء لوطا رجال؟ قال: كانت امرأته ...

(2) الدر المنثور- أخرجه ابن عساكر عن اشرس الخراساني يرفعه إلى النبي (ص) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 450

و هكذا يكون دوما دور الكفر و الخيانة الكافرة، ان لا يبررها و لا يغني عنها من اللّه شي‏ء، مهما كانت القرابات و الأنساب و الاتصالات لهم بالصالحين، كضابطة عامة لا تشذ، فالنجسة الأخلاق و النحسة، لا يطهرها بيت النبوّة، إلا قدر ما تأخذ من طهارتها، كما و أن الطاهرة الزكية لا يدنسها بيت الكفر و الفرعنة، بل و بالإمكان أن تمثل أهل بيت النبوة:

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏:

هنا تتقدم امرأة فرعون على مريم أم المسيح، لا لسبق زمني فحسب، بل و لكي يدلنا أن أموته المسيح و اخوة هارون و بنوة عمران لا تغني عنها شيئا، و إنما هي تقوى اللّه تغني، فامرأة فرعون متحللة نسبيا و سببيا عن كل ذلك، و لكنها بتقواها في جوّ الطغوى تستحلّ مكانة عليا، لحدّ تقدّمها في الذكر على مريم (ع).

أظنها الامرأة الوحيدة، في مملكة عريضة، عند أعظم ملوك الأرض و أقواهم و أطغاهم، في قصر عديم النظير، تجد فيه المرأة كل ما تشتهيه، فهي في هذه الأوساط الكافرة، تحت ضغط الملك و الحاشية و البلاط، و ضغط المجتمع السامّ، في خضمّ هذه الظلمات الطاغية ... إنها وحدها ترفضها كلها و تعتبرها سجنا و شرّا و نحسا تستعيذ باللّه منها.

تطلب من اللّه تعالى أن يبني لها بيد الألوهية بيتا في الجنة يعوضها به عن قصرها، و أن ينجيها من شرّ الطاغية (فرعون) و هي ألصق الناس به! و من عمله، و هي تعيش تحت رحمته! و من آله و أتباعه: «وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 451

و إنها لنموذج عال في الاستعلاء على عرض الحياة و زهرتها في أجمل صورة و أزهرها، و التجرّد للّه من كافة الجواذب المتخلفة، و الهواتف المضللة، و المعوقات القوية، و لتسمح لنفسها أن تطلبه هذا الطلب العظيم:

«رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ»: ف «ربّ» توحي باختصاصها بتربية خاصة إلهية تنجيها عن هذه الورطة المهلكة، و «ابن لي» رفض لكل عامر ملائكي و سواه الى معمار الكون أن يبني لها بيتا بمشيئته دون وسائط، و «عندك» لا تعني عندية مكانية فانه تعالى ليس له مكان، إنما عندية المكانة أن يبني بيتها في أرفع مكان و أعلى مكانة في الجنة حيث مسكن الأنبياء! ثم تطلب النجاة المثلث من: «فرعون» الجاهل «و عمله» الباطل و «من القوم الظالمين» الباطلين الجاهلين.

و متى تطلب؟ هل بعد أن تأخذها الورطة الفرعونية الى حزبه؟ فكيف طلبت أولا أقرب الأقربين! كلا! إنما تطلب نجاتها بالنزوح عن هذا الجو الطائش الى جوار رحمة اللّه، أن يقبضها اللّه إليه، و قد كانت في اللحظات الأخيرة من حياتها تحت مختلف ألوان العذاب الفرعوني، و منها انه (و تد لامرأته أربعة أوتاد في يديها و رجليها و أضجعها على صدرها و جعل على صدرها رحى و استقبل بها عين الشمس، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلّتها الملائكة، فرفعت رأسها الى السماء فقالت: «رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ- الى- الظَّالِمِينَ» فكشف لها عن بيتها في الجنة فرأته‏ «1».

وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ‏:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 246- أخرجه من عدة طرق عن عدة من الأصحاب و التابعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 452

رغم أن القرآن لا يذكر امرأة باسمها، يردد ذكر مريم (ع) أربع و ثلاثين مرة، تكريما لها، و ذودا عن كرامتها التي مسّت بتهم اليهود، و تدليلا على أن المسيح عليه السّلام ولد دون أب «عيسى بن مريم» مما لم تجتمع في غيرها من النساء مهما كانت البعض منهن أفضل منها كفاطمة (ع)، فان الأخيرين دافعان مستقلان لذكرها، و ليسا من الفضائل الهامة للمرأة، و إنما إبراز معجزة إلهية و دفع تهمة التصقت بها عبر هذه المعجزة: (حملها دون زوج يعرف).

هذا، و لكن ترى كيف يذكر حفظ الفرج هنا و في آية اخرى في عداد فضائلها، و يفرّع عليه نفخ الروح فيه، كما هنا، و فيها كما في الاخرى: «وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا» (21: 91) مع أن حفظه لا يختص بها، و أنه من اوّليات واجبات الإيمان؟ ثم ترى، ما هو المنفوخ فيها و في فرجها؟ و ماذا حملت في هذا النفخ؟ أروح المسيح، أم هي مع جسمه، أم نطفة الرجولية مع الروح، أم ماذا؟ ..

فهل إن ذكر إحصان الفرج لدفع تهمة اليهود الفاجرة «وَ قَوْلِهِمْ عَلى‏ مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً» (4: 156) «يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا» (19: 28)؟ و لدفع اختلاق النصارى لها عشيقا خطيبا هو يوسف النجار، لتخفيف وطأة التهمة؟ فهذا و ذاك و إن كانا من الدوافع لذكره، و لكن لا يتفرع على إحصان الفرج- هذا- أن ينفخ فيه من روح اللّه!.

أو و لأنها كانت معرّضة للحملة الجنسية، لجمالها، و أنها نذرت لخدمة البيت فكانت فيه ليل نهار، و لكنها غلبت على مختلف النوازع و العراقيل قانتة مجاهدة رافضة للجنس حرامه و حلاله، و لأنه ينافي و حريتها في خدمة البيت،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 453

و قد نذرت أمها ما في بطنها محررا: «فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى‏ ...

وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً ..» (3: 37): تقبّلها ربها مريم كما سميت و هي: الغالبة، و تقبّل إعاذتها و ذرّيتها من الشيطان الرجيم، فهي إذا غالبة معوّذة من الشيطان عند اللّه، و نابتة نباتا حسنا عند اللّه، و من غلبتها التغلب على النوازع الجنسية و جواذبها و هي في عنفوانها، و هي بمعرض مختلف الرجال في بيت اللّه ليل نهار، فهذا الإحصان مما يتطلب إحسانا عاليا لها من اللّه المنّان و من أحسنه أن نفخ في محل الإحصان روحا منه، فقد جمع الى الدافعين الأولين لذكر الإحصان هذا الثالث فاكتمل لها مثلث الإحصان فاختصت بكامل الإحسان أن أصبحت أم السيد المسيح (ع)، ثم و على حدّ المروي عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سوف تكون من أزواجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في الجنة «1».

ثم و ماذا حملت؟ فطالما الآية الاخرى‏ «.. فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا» أجملت عن مدخل الحمل، فآيتنا «فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا» تصريحة ان مدخله الفرج لمكان ذكورة الضمير «ه» فالمرجع إذا «فرجها» لا هي نفسها، و لا جيبها، رغم ما حاوله جمع، فانه كلام فارغ، لأنها أحصنت فرجها، لا جيبها، و الروح نفخت في فرجها، لا فرج جيبها! فمن كون الآلة التناسلية النسائية هي المنفخ المدخل هنا لروح من اللّه نتعرف الى كيان هذه الروح و هذا اللقاح، أن ناب لقاح الرجل دون رجل، فلم يكن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 6: 249- أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول اللّه (ص): إن اللّه زوجني في الجنة مريم بنت عمران و امرأة فرعون و أخت موسى.

أقول: و هذا لا ينافي بقاء بعض أزواجه مثل خديجة في زواجه (ص) إذ لا تحتاج الى زواج جديد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 454

حملها المسيح بمقاربة كالعادة، بل بالنفخ و الإلقاء الإلهيين في فرجها، فان المسيح هو الروح و الكلمة الملقاة الى مريم‏ «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» (4: 17) فالروح نفخت من المجرى التناسلي، مما يدلّ على كونها جسما مّا، و علّها كانت مع النطفة الرجولية المعبر عنها بالكلمة الملقاة، فبالإلقاء هذا تمكنت النطفة إلى عمق الرحم فتزاوجت مع النطفة الانوثية، فأصبحتا جنينا، ثم انضمت إليها الروح فها هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السّلام.

ثم الروح هذه كسائر الأرواح الإنسانية في الجوهر و أنها مخلوقة، و إضافتها الى اللّه «روحنا» تشريفية تشرفها و تفضلها على كثير من الأرواح، و ليست جنسية تعني أنها جزء من اللّه او من روحه، و كما الروح المنفوخة في آدم تملك هذه النسبة «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (15: 29) مما يفضل روح آدم على غيره، و كذلك المنفوخة في بني آدم كلهم: «ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ» (32: 9).

فأرواح بني آدم تمتاز عن غيرهم من ذوي الأرواح كما هنا، و أرواح المؤمنين منهم تمتاز على سواهم (58: 22) و أرواح النبيين على سواهم (40: 15) و المسيح على غيره (4: 171) ثم روح خاتم النبيين تمتاز على الأرواح كلها (42: 52)، فالإضافة الى اللّه فيها كلها تشريفية لا تعني أنها بعض من ذات اللّه! و سبحان اللّه!.

و قد نوافيكم بتفصيل هذا الحمل المبارك في طيّات آياتها المفصلة كالسورة المسماة باسم مريم (ع).

ثم الآية تبيّن بعد فضيلة الإحصان، تصديقها بكلمات ربها و كتبه، و أنها كانت من القانتين: المطيعين، و تذكير الضمير في «القانتين» دون «القانتات»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏28، ص: 455

تذكير لنا أن القنوت في الرجل يتغلب على ما في النساء عدة و عدة، فكان من الأفضل أن تعد في قنوتها من عداد الرجال، رجولة في قنوطها و بطولة في تصديقها.

تمّ الجزء الثامن و العشرون بحمد اللّه و منّه، و نسأله التوفيق لمواصلة بقية الأجزاء، و ما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت و إليه أنيب.

مكة المكرمة- 1397 ه- 1977 م محمد الصادقي‏